

النقلانية والمعرفة الأسمى: (1)

المعرفة الأسمى أو

نقلانية موت الموت



د. محمد خروبوات

النقلانية والمعرفة الأسمى

①

المعرفة الأسمى أو

نقلانية موت الموت

محمد خروبات

طبعة ثانية



المعرفة السهي
أو

نقلانية موت الموت

تأليف: محمد خرويات

الإيداع القانوني: 2021MO5513

ردمك: 3-817-32-9920-978-ISBN

الطبعة الأولى: مطبعة الإيباج، الدار البيضاء، دجنبر 2020م

الطبعة الثانية: مطبعة شمس برانت، سلا، أكتوبر 2021م

توجيه

اقرأ بعناية ما في هذه الورقات لتمتلك معرفةً عابدةً عن
الموت قبل أن يتملكك على الدوام، وإلى الأبد.....



الإهداء



إلى الأضياء الذين يرغبون في الحياة مرتين
﴿وَأِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾

سورة العنكبوت الآية 64

مقدمة الطبعة الثانية

-1-

وتستمر الحياة...

ونحن في كل يوم نحصي موتانا، وندفن أصدقاءنا وأحبابنا الواحد تلو الآخر، نترحم عليهم مرتجفين في انتظار من سيأتي عليه الدور عند زيارة الموت القادمة، صراخٌ وعويلٌ وحزنٌ... لكنّ الحياة لا تحزن بحُزنا، ولا تقف بتوقّف حياة فردٍ أو حتّى جماعة منّا. ماتمّ هنا وعشرات الولايم هناك، ميّت يدفن هنا والعشرات من المواليد تُسجّل هناك، الحياة في كلّ مكان تزيها الحضارة، والموت في كل مكان أيضا تزرعه ذات الحضارة...

تُشكّل تلك الأحداث مجتمعة درسا لنا لنذوق الموت الكلّي، الأبدي والمُطلق، الموت المخيم على الكون بأسره. نذوق الموت الجزئي ونحن في دروب الحياة... الحياة المرتبطة بالأرض ارتباط صلبة. هذه الأرض التي هي نعمة من النعم الكبرى التي وهبها الخالق للإنسان.

غادر آدم نعمة الحياة الأبدية الموجودة في الجنّة إلى نعمة الحياة الزائلة الموجودة على الأرض... ولعلّ حياة الجنّة هي التي منحت الحياة للأرض، وحين تنقضي هاته تبدأ تلك، ﴿وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾¹، تلك هي "الرجعي" الحقيقية التي تكلمنا عليها في موطئها من هذا الكتاب. وخلال الفترة الممتدة بين النزول من الجنّة والرجوع إلى الله هناك هدى وبيّنات نزلت مع آدم وصاحبت بني آدم في أطوار الأنبياء والمرسلين، أولئك الذين يحيون الإنسان الحياة الطيبة في الأرض، ليحيا الحياة الحقيقية في الجنّة، تلك أطروحة متكاملة الأدوار،

¹ - سورة العنكبوت الآية 64

متناسقة التركيب لا اعوجاج فيها ولا خلل، ودليل ذلك أنّ الموت الكليّ هو المخيمّ على الكون حالياً، ومسابر الفضاء التي تسبح في الكون ومنها ما دخل في المجهول لاكتشاف الحياة خارج المجموعة الشمسية، لم تُثبت -لحد الآن- أنّ الحياة توجد في كوكب آخر غير الأرض، لا يستطيع الإنسان أن يعيش خارج الأرض دون أن يحمل معه الأكسجين الذي سينفذ -لا محالة- مع الوقت. وعدم وجود الحياة خارج الأرض يدلّ على أنّ الموت هو المخيمّ هناك، ويربط العلماء وجود الحياة بالماء: كان الماء هنا... ولربّما يكون في تلك المجرة التي تبعد عنا ملايين السنوات الضوئية. حالياً توجد آلات على سطح المريخ للمسح الجغرافي والجيولوجي للسطح، لكنّ لا حياة هناك. وهل يلزم من وجود الماء وجود الحياة؟ كلا. قد يوجد ماء ولا توجد حياة وإلاّ فما معنى "البحر الميت"؟! وهو على هذه الأرض، وعلى فرض وجود حياة على كوكب بعيد يستطيع الإنسان أن يصل إليه بالآلات، فهذا لا يتجاوز إشباع الفضول المعرفي، فسيعرف الإنسان أنّ الحياة موجودة على ذلك الكوكب دون أن يستطيع أن يحيها، "فالآلة المصنوعة" - وحدها- إن قُدر لها أن تصل هي التي تحيها، أما الإنسان فيبينه وبين الحياة في ذلك الكوكب "الموت"، لأنه إن غامر فسيصل "ميتاً".

فلينعّم الإنسان بـ "الحياة" على الأرض، وليحافظ على مقومات الحياة عليها، وليُسعد بعلمه بني جنسه ليعيشوا بكرامة عليها، وليعلم بأن الأرض "نعمةٌ" مسخرة لم يخلقها الإنسان بـ "العلم" بل لوثها به، وعاث فيها فساداً. وهنا يطرح السؤال: ما الفائدة من علم يدمرّ به الإنسان الحياة على الأرض ليبحث عن الحياة خارجها؟

-2-

لم نختر الحياة كما أنّنا لم نختر الموت، كلاهما بالإجبار، لا أمر الموت والحياة بأيدينا، ولا تدبيرهما من تدبيرنا، ولا شؤونهما بتقديرنا، نحن مجبرون على الحياة لأنّ واهب الحياة وهبنا إياها، ومجبرون على الموت لأنّ خالقه كتبه علينا. لم يأمرنا بخلقه ولا بتأجيله ولكنّه أمرنا أن نكون سبباً في الأولى: ﴿من

أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً²، ونهانا أن نكون سببا في الثاني: ﴿من قتل نفسا بغير نفس أو فسادا في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً﴾³، وأمرنا بين الحياة والموت أن نعبده إلى لحظة الموت ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾⁴.

علينا أن نستعير من علم الاقتصاد طرق التدقيق والمحاسبة والمراقبة المالية لننظر فيما نقص من العمر وما زاد في الإيمان إسوة بما نقص من المال وما زاد فيه، فالتجارة الرابحة ليست بالضرورة تجارة المال.

-3-

من الآفات والمصائب والجائحات التي خلفتها محنة كوفيد19،

هذا الفيروس الذي تعدد في نُسْخه، وتلَوَّن في طُرُق فتكه وبطشه، ومن المعايشات المؤلمة لأخبار حوادث القتل والترويع والتّهجير، وما زاد على هذا من حوادث الحرائق والطوفان والزلازل والأعاصير وارتفاع درجة الحرارة التي لم يعرفها كوكب الأرض على مرّ أزمان عديدة ممّا كان له انعكاس سلبي على مسيرة حياة الإنسان على الأرض، ومن منطلق المتابعة لموضوع " الموت " عبر أشهر الثقافات والحضارات والأديان والمعتقدات، ومن معيار الأجوبة الكبرى التي تقدمها " ثقافة النقل " عن الأسئلة المُحرّجة عن الموت وملتقاته خرج هذا الإصدار في طبعته الثّانية، وذلك بعد نفاذ الطبعة التجريبية الأولى التي تولّت إخراجها مطبعة الإيباج مشكورة في نسخ محدودة جدّا، وهي الطبعة التي اشتغلنا عليها في الملتقى العلمي الذي خصّصناه للكتاب بكلية الآداب بمراكش في 25 رمضان/8 ماي 2021م .

²- سورة المائدة الآية 34

³- سورة المائدة الآية 34

⁴- سورة الحجر الآية 99

وإذا كانت الطبعة الأولى للكتاب قد رأت أنوار الحياة في ظل الحجر الصحي الأول فإن هذه الطبعة صادفت الحجر الصحي الثاني، لقد تمت مراجعته وتصويب بعض فقراته وتصحيح ما يجب تصحيحه مع تعديل بسيط في العنوان ليخرج في الحلة التي هو عليها الآن .

حررنا هذا الإصدار بلغة نضمد بها جراح المصابين، وأعطاب المكلومين في الأصدقاء والأقرباء والمحبين، فهو درس وثقافة وبيان مبثوث عبر وجبات محددة في فصول، وجرات متناثرة في فقرات ذات مطلع ومقطع يسهل تناولها معرفياً عبر الأيام والليالي ولا سيما في هذا الظرف العصيب، ما أوجنا إلى المعرفة، إذ كلما زادت المعرفة اتسعت الرؤية، واتساع الرؤية عون لنا على التبذل في الله .

عمل يزرع الإيمان في القلب إن فقد، ويزيد فيه إن وجد، كما أنه يغذي القلب، ويصقل الروح، ويطرد وساوس الدجل وخواطر الجحود التي تدب إلى النفس ديبب التمل، ولنرح أولئك الذين ينشدون الحياة ويزيدون علينا بها فالعنوان الفرعي " ثقافة موت الموت " المثبت في العنوان كفيل بإجابتهم، الموت ليس فاعلا في الحياة بذاته بل فاعلا فيها بخالقه . اليوم يأخذ الموت الأخيار، أما الأشرار فهم في تكاثر يواصلون النهوض بمهمة الفساد في الأرض، وعندما تساءلت عن السبب وجدته في الحديث الصحيح: (لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس)⁵، فعلمت أن في الأمر حكمة. فاللهم لا تجعلنا من الذين طال عمرهم وساء عملهم، فخذوا عنا بعضنا منا، فإننا نعادى من أجل هذا، والحمد لله أولا وأخيرا .

وكتبه أ.د. محمد خروبات بمراكش الحمراء

في: 6 محرم 1443 هـ الموافق ل 15 غشت 2021 م.

⁵- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب قرب الساعة، 4/2268 رقم الحديث 2949.

مقدمة الطبعة الأولى

بسم الله الرَّحْمَن الرَّحِيم، والصَّلَاة والسَّلَام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن وآلاه، وبعد:

فلكلّ تأليف سبب، وسبب تألّيفي لهذا الكتاب متعدّد، لا أتذكّر بالضّبط الشّرارة الأولى التي أوقدت شعلة الموضوع في خاطري، هل هي موعظة سمعتها أم مقالة قرأتها أم محاضرة ألقيتها أم مشهد من مشاهد الموت عشته أم مرض من أمراض الموت حلّ بي، كل هذه الأسباب ليست سببا رئيسا في الموضوع، موضوع الموت ليس في حاجة إلى سبب رئيس، بل هو موعظة كل لحظة، ودرس لا ينقطع عن زمن الوجود، إنّه المهّدّد لزمن كلّ واحدٍ منّا بل هو مهّدّد للزّمن بإطلاقه، لأنّ الزّمن لا يرتفع إلا بالموت، ولم لا، فقد يكون حضوره المؤلم بالنّسبة إلينا سببا رئيسا لجعله محاضرة من محاضراتنا الجامعية في مادة الفلسفة الإسلامية والفكر الإسلامي وتاريخ الأديان، وهي المواد التي تولّينا تدريسها لقسمي الدّراسات الإسلامية والفلسفة بجامعة القاضي عياض في سنوات مضت، بدأ الاهتمام به يتزايد في نفسي فكانت أساهم به في دروس الوعظ والإرشاد، وفي حُطْب الجمعة على المنابر، فهو موضوعٌ يختلط فيه الوعظي بالعلمي الأكاديمي، ثمّ إنّ الدافع إليه هو أنّ الموضوع ليس ثقافةً مجردةً، أو أفكارا معلقة عن الواقع بل إنّ حوادث الموت لا تكاد تفارق المُشاهدَة، تنقلُ إلينا وسائل الإعلام وعلى الهواء مباشرةً حوادث القتل في جهات عديدة من العالم وفي أماكن الفتن السّاخنة، تروح ضحيتها أرواح بريئة من النّساء والرّجال والأطفال، أرواح لا ذنب لها تروح ضحية شهوة القتل، هذه الشهوة التي تطوّرت ونمت بشكل مخيف، ناهيك عن حوادث السّير في البر والبحر والجو والتي تذهب بالمئات، أمّا ما تحدّثه الأوبئة والمجاعات والكوارث الطبيعية بالإنسان فحدّث ولا حرج، واليوم يعيش الإنسان عبر العالم محنة حماية النّفس البشرية من الوباء القاتل الكورونا الذي يُطلق عليه اختصارا

"كوفيد 19 المستجد"، كل دولة تواجه هذا القدر الصّعب بمفردها، ومن الدول من ودّعت الألوّف بسبب الوباء وما زالت الحصيلة في تزايد مستمر، تأخّر العلاج وكانت الطريقة الناجحة في المقاومة والوقاية هي "الحجر الصّحي"، ولا أخفي سرّاً إذا قلتُ إنّ هذا الكتاب اكتملت صفحاته في ظلّ "الحجر الصّحي".

تزايد اهتمامي بالموضوع سنة بعد أخرى، وكنتُ كلّما حرّرت فيه بعض الشّدرات أضفّتها إلى أختها حتى تجمّع رصيد من المعارف والأفكار، وكلّما اشتقت إلى الموضوع شاركت أهلي فيه، ما كنت أقرؤه هو ما نضعه بين أيديكم، إنّها أشبه ما تكون بجرعة مهدّنة وساخنة عن هذا الموضوع المخيف والمحرّج، ولا أخفيكم أنّي كنتُ أجد في بعض فقراته عزاءً، إما في مصائب ألمّت بي والإنسان ليس بمنأى عنها، أو رغبة في التأمّل والتّفكير، وهما مطلوبان شرعا، وعبر مسيرة من السنين، كنتُ كلّما تذكّرت الموت تذكّرت هذا الكتاب، وكلما تذكّرت الكتاب تذكّرت الموت، أحدهما يجذب انتباهي للآخر.

موضوع الموت هو "المعرفة الأسمى" في عُرف النّقلائية، وهو محور من محاورها، بدأنا به لسموّه عن معارفها الأخرى، والتي ستظهر تباعا إن شاء الله ما لم يقطع الموت تحقيق هذه الرغبة، إنّ النصوص الحاضرة في الموضوع والتي تُشكّل المرجعية والمنطلق في المعاينة وفي البحث والتحليل تتطلّب التعامل معها تعاملًا علميًا، فموضوع الموت تتجاذبه عدّة رؤى وتصورات يستند كل منها إلى مرجعيته الخاصة، وتُعّين الموضوع من قناعةٍ معيّنة، كان من الضّروري أن يكون التّعامل مع الموضوع تعاملًا "نقلانيًا"، ينظر إليها من موقع النّصوص النّاطمة والمحدّدة للرؤية، والتي تفرض منهجها في التّحليل والتّعليل، نصوص نقلية تنطق بالحقائق الدّامغة، وتقدم إجابات شافية وكافية عن الأسئلة الكبرى والمحرّجة في موضوع الموت، لماذا هو؟ وكيف هو؟ وكيف يكون؟ وماذا بعده؟ وما معنى الحياة والروح والنّفخ؟ إلى غير ذلك من الأسئلة التي تاه فيها العقل البشري دون أن يتمكن من تقديم تفسير مقنع لها.

نقلانية الموت هي " العلم بالموت " في إطار " المعرفة الأسمى "، المعرفة التي تُقرّبك من حقيقة الموت، وللموت حقيقة، وهذه الحقيقة تختلف من دين لآخر، ومن حضارة لأخرى، ومن ثقافة لثقافة أخرى، إنّ تصور الإنسان عن الموت هو خلاصة ثقافته، وعصارة تجربته في الحياة، من عرف الحياة على حقيقتها عرف الموت على حقيقتها والعكس، ومن مهمة هذه المعرفة أنّها تنشر معلومات صحيحة وسليمة عن الموت، تتحرى الصّحة في الرّواية والسّلامة في النّقل، كيف وأنها " نقلانية "، ومن مواصفات هذه الأخيرة ضبط الخبر كيفما كان على أسس الصّحة والسّلامة والمصدقية، وروم التّوثيق لتتحصل الثقة بين ما يُبثُّ في هذه المعرفة وبين من يُقبل عليها، والغرض هو بسط مشكلات الموت على نطاق واسع والدخول به إلى المجال العلمي، تنقلك النقلانية بمعرفتها الأسمى هذه من الثّقافة إلى الإحساس، ومن الإحساس إلى الثّقافة ليعيش الإنسان جدلية حقيقية كالجذلية الموجودة بين الموت والحياة.

الموت مؤلم، لكنّ الجهل به أكثر ألماً، تقترح بعض التّظريات على معتنقها ألاّ يكثرثوا بالموت ولا يُشغلوا بالهم به، بل يفكروا في الحياة، وليغوصوا في اللذة، ويوغلوا في المتعة لأن تلك هي حياة الجسد، والموت يذهب هذا كله، والتّفكير فيه يجرّ إلى البؤس ويبعث على الألم ومن هنا يشقى الجسد، معناه أنّ الجسد يموت قبل الموت، وهي نظرية فلسفية ابيقورية سرعان ما انتشرت في واقعها وفي تاريخ الفكر كانتشار النّار في الهشيم.

عملنا هذا ليس تفكيراً مجرداً، أو تأملات فلسفية في طبيعة الموت والحياة، لقد أبدع الإنسان في علمي الإحياء والحياة، كما أبدع في الوقت نفسه في اختراع وابتكار وسائل لقتل الإنسان وتدميره، وبين هذا وذاك يبقى الموت لغزاً مُحيراً، فإذا وقفت التكنولوجيا عاجزة عن حلّ لغز الموت فإنّ الأفكار الأكثر تحضراً ما زالت عاجزةً هي الأخرى عن تقديم تفسير معقول عن حقيقته، لكن ثقافة النّقل تنبهي من جموع هذه الثّقافات لتقدم أطروحةً متكاملةً عن لغز الموت المحيّر والمبهر، لا تستطيع أن تتدوّق ما تقدّمه النقلانية في الموضوع ما لم تكن مؤمناً بها، فالإيمان

بها شرط أساس في (الفهم) وإلا استحال عدم الإيمان عائقا ابستمولوجيا في عملية التمثل والإدراك، ويمكن لغير المؤمن بها أن يُدير وجهه عن هذا العمل كُليةً، ولنعتذر له زيادةً لأن الكتاب لا يخاطبه.

سمعتُ بعضهم مرّة يقول: إنّ الثقافة الإسلامية هي ثقافة الموتى، واطلعتُ على حوارات في الموضوع يتكلم أصحابها بلغة اليقين في النفس مع التعالي جازمين بأنّ الثقافة الإسلامية هي ثقافة الأموات، والسبب أنها لا تسمح للأحياء بالكلام، فأجبتُ بالنفي، فقد يكون هذا في ثقافة الأديان الأخرى أما الثقافة الإسلامية فمحكوم على الموت فيها بالموت، وإن إمكانية الخلود مُتاحة للإنسان في ظل الاعتقاد النّقلاني، أما كونها ثقافة يتكلم فيها الموتى كثيرا فهذه خصوصية مجمل الثقافات التي ظهرت على وجه الأرض، فموتى الإغريق يتكلمون، وموتى الرّومان والهنود والصّينيين يتكلمون، كل حضارة لها تاريخ عريق إلاّ ولها أموات يتكلمون.

لقد قدّم العلم ما يكفي في موضوع الموت، لكنّه لم يستطع أن يتجاوز الحدود التي تضبطه كعلم، وفي إطار العلم ظهر " علم دراسة الموت " Thanatologie، ويتفرّع إلى عدة تخصصات، منه الجانب المتعلق بالسلوك المرتبط بالموت، وسبيله هو تمكين المحتضر من الموت بسلام وذلك بتدريبات ليموت من دون ألم، ويطلق على هذه التّدريبات " الموت بكرامة"، وقد انتشرت هذه التّدريبات في أمريكا الشماليّة، وتُستخدم فيها الوسائل الطّبيّة والتكنولوجيا من إبقاء بعض أجزاء المحتضر حيّةً وهو في حُكم الميّت إكلينيكيًا، ودخل علم النّفس على الخط، وتمّت دراسات في موضوع الموت طُبّقت فيها أحدث المقاييس العلميّة، كما ظهرت تدريبات وتكوينات عن الموت، وقد كشفنا عن ذلك وبيّناه في فقرات هذا الكتاب وفاءً للأمانة ورغبةً في خدمة الحقيقة العلميّة، ويمكن الجزم بأنّ العلم التجريبي الطّبيعي فعل ما عليه، لكن بعض النّظريات التي تدخلت باسم العلوم الإنسانيّة زجّت بالعلم في قضايا ليست من مهامه واختصاصه، فقوّلت ما لم يقل، ويبقى التفريق بين العلم المرتبط بالموت والنظريات المتكلمة عن الموت من

أوجب الواجبات في البحث العلمي، ولا غرابة أن تتدخل النّقلانية بأدواتها في هذا الموضوع لتجعل من معالجتها لموضوع الموت من " المعارف والنّظريات السّامية في حقل النّقافة الإسلامية " .

تُقدم النّقلانية أفكارا في المعرفة والأخلاق والنّقد أيضا، ويشكّل الكلُّ زادا للتعامل مع الموت على المستويين الفكري والعملّي، فكريّا لأنك تفكّر فيه، ومطلوب منك تذكّره وذكره، وعمليّا حين يحلّ في غيرك أو فيك.

تعطي بعض النّظريات الفلسفية قيمةً للجسد في كلّ شيء، فهي تحصر تصورها بالكامل في الجسد، فالإنسان حسب التّصور العقلاني ما هو إلا جسد، ولا يوجد شيء آخر غيره، ومن هنا كان الجسد مقياسا لكل شيء، فأنت به حيٌّ، وبه تتحرّك وتتفاعل، إذا غاب الجسدُ غاب الإنسان، وتذهب العقلانية إلى تطبيق ذلك على الجسد الميّت، حيث يصبح هذا الجسد مثل البضاعة تماما، يُحمل ويوضع، ويُشرّح ويُدفن، ويُحرق ويُعلق..

إذا كانت هذه النّظريات تُركز على الجسد فإن مصطلح الجسد يطلق على الجسد الحي والجسد الميّت، لكن هل من تمييز بينهما ؟ وهل من اعتبارٍ للجسد الميّت ؟ وهل الجسد الميّت كان جسداً آخر غير الأول؟، يجدر بنا أن نتوقّف عند هذا التغير، ونرصد التأثيرات التي طرأت على الجسد في الوضعيتين، فالفرق هو أنّ الجسد كان حيّا بالحياة وهو الآن ميّت بالموت، لا نتكلم هنا عن جسدين بل عن جسد واحد طرأت عليه تغيّرات.

اعلم أنّ المحاولة التي قدمناها إليك أيها القارئ المفضل متحت من القرآن الكريم وصحيح الأخبار، سارت مع الآيات آيةً آيةً لاستخلاص ما يجب استخلاصه في الموضوع، لا تستطيع أن تجد في أيّ مصدر من المصادر الأسرار الحقيقية التي يقدّمها القرآن عن الموت، ففيه من البيانات والتّفاصيل القادرة على تقديم أجوبةٍ دامغةٍ عن كلّ سؤال يتعلّق بالموت، كما توخّينا الاطلاع قدر الإمكان على النّظريات الفلسفية

حول الموت، والتصورات والآراء المذهبية، والمعتقدات الدينية، ناهيك عما استجد في العلوم الحديثة في الموضوع الذي أصبح تخصصا يُدرّس ويُدرّس، وتُقام عليه الدّراسات العلمية الميدانية والأشغال التطبيقية والتّداريب العملية، والكتاب الذي نقدّمه زادٌ معرفيٌّ في سفر الدّنيا العريض، على كلّ واحد أن يعلم لماذا الموت؟ وما حقيقته؟ وإلى أين هو ذاهب؟ مثل المسافر، لا يوجد مسافرا لا يدري متى سيسافر وإلى أين سيتوجّه، وما هو زاده الذي يعولّ عليه، ومؤونته التي تكفيه، ومعلوم أنّ محدّدات السّفر ستّة: تحديد موعد مكان الانطلاق، وموعد ومكان الوصول، والزّاد المادّي والمعنوي والصّحي، والجهة التي سيسافر إليها، والمدة التي سيقضيها في سفره، والغرض الأساس من السّفر، هكذا حال الموت، الإنسان في الدّنيا مسافر، وهو سفر طويل ومؤلم بألم الفراق، لا رجعة منه، لذلك لا بدّ من استحضر الزّاد.

الحياة طريقٌ طويلٌ له نهاية، لا ندري كم قطعنا لدرجة أنّ الإنسان يحتفل بعيد ميلاده كلّ عام، فيُحضر الشّموع، ويشعل الأضواء، وتتوزّع الحلوى على نشيد عيد الميلاد، لا يبدو الموت حاضرا هنا، لكنّ الحاضر هو تعب الإنسان في محاولة يائسة للانتصار عليه، الانتصار عليه بحفل أنشودة الحياة التي لا تعني في الأخير سوى حساب فعلي لقياس ما مضى من شريط العمر، لكن لا أحد يتنبأ كم بقي من شريط السّير، ولم يفكر أحد مرّة في الاحتفال بلحظة موته قبل حلول الموت فيه، علامات الموت تبدو على الوجه والجلد واليدين والرجلين والشعر، وإنّ للموت لعلامات، وإنّ للموت لأمارات، لا أحد فكّر مرّة أن يوقد تلك الشّموع على القبور البالية ليذكر مصيره، يتذكّر في خشوع وتذلّل إلى ما هو صائر إليه (كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروا، ولا تقولوا هجرا فإنها تذكّر بالآخرة)⁶.

لا توجد آية أعظم من آية الموت، لذلك جعلتها التقلاية موعظة بمفردها، و(كفى بالموت واعظا)، فالذّي لا تعظه الموت لن يتعظ، وقد نقشه عمر بن

⁶ - التّمهيد لابن عبد البر 239/20.

الخطاب ﷺ على خاتمه⁷، وكان يقول: (حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وتزَيَّنوا للعرض الأكبر، وإنما يخفّ الحساب يوم القيامة على من حاسب نفسه في الدنيا)⁸.
صدر الإمام الغزالي الكتاب العاشر من الإحياء، وهو الكتاب الذي أفرده لذكر الموت بمقدمة نفيسة فقال:

(الحمد لله الذي قصم بالموت رقاب الجبابرة، وكسر به ظهور الأكاسرة، وقصر به آمال القياصرة الذين لم تزل قلوبهم عن ذكر الموت نافرة، حتى جاءهم الوعد الحق فأرداهم في الحافرة، فنقلوا من القصور إلى القبور، ومن ضياء المهود إلى ظلمة اللّحود، ومن ملاعبة الجوّاري والغلمان إلى مقاساة الهوام والديدان، ومن التّنعّم بالطّعام والشّراب إلى التمرغ في التّراب، ومن أنس العشرة إلى وحشة الوحدة، ومن المضجع الوثير إلى المصرع الوبيل، فانظر هل وجدوا من الموت حصنا وعزّا، واتخذوا من دونه حجابا وحرزا، وانظر هل تحسّ منهم من احد أو تسمع لهم ركزا"⁹، فسبحان من انفرد بالقهر والاستيلاء، واستأثر باستحقاق البقاء، وأذلّ أصناف الخلق بما كتب عليهم من الفناء، ثمّ جعل الموت مخلصا للأتقياء وموعدا في حقهم للقاء، وجعل القبر سجنا للأشقياء، وحبسا ضيقا عليهم إلى يوم الفصل والقضاء، فله الإنعام بالنّعم المتظاهرة، وله الانتقام بالنّقم القاهرة)¹⁰.

اسمحو لي أن أستعير من صديقي الزّاحل الأستاذ محمد رزقي¹¹ عنوان ديوانه الذي كتبه قبل وفاته بسنتين تقريبا والذي صنّفه بعنوان "بحر الرّوح"، أعني جيدا أنّ ما كتبه الأستاذ كان استشعارا لنعيه فأخرج ما فاض به خاطره تجاه قضايا

⁷ - البداية والنهاية لابن كثير 144/7

⁸ - أخرجه الترمذي في السنن، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، باب 90، 247/4 رقم الحديث 3459

⁹ - سورة مريم الآية 99.

¹⁰ - إحياء علوم الدين 531/4.

¹¹ - أستاذ بشعبة اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة القاضي عياض، مراكش، كانت وفاته رحمه الله في فاتح يوليوز من سنة 2006م.

كثيرة بثها أشجانَ رحيلٍ في ديوانه، لكنني أعي أيضا أنّ من الكلمات ما يُكتب بمداد العقل ومنها ما يُكتب بحبر الرّوح، وكلماتي في ديواني النثري هذا يصدق عليها ما نعته صديقي الرّاحل في الشقّ الأول منها لكنني أضيف إليها الشقّ الثاني المفترض مّي فعله وهو "مداد العقل"، فالكلمات المنثورة أمامكم هي بهذين المستلزمين، والعمل هو امتداد منهجي ومعرفي لما كنّا قد وعدنا به في مقدمة كتابنا (خُلاصة في نقد الفكر الطبيعي) في الصفحة التاسعة منه، وقد شغلتنا صروف الدّهر عن التّسريع بذلك، و"العقلانية" التي يجري الكلام عليها هنا بالنّقص والتّعريض هي ما له صلة ب"الفكر الطبيعي" الذي حدّدنا تياراته ومعانيه في بعض أعمالنا العلمية.

"الموت النّقلائي" يرجع من دون شكّ إلى ما تحمله النّصوص في الموضوع عن الموت والحياة، وذلك في الفصول الخمسة عشر المؤطرة للكتاب: في المعرفة الأسمى، وفي حقيقة الموت المتمثّلة في المحدّدات المفهومية والوجودية ومحدّد الأنواع والمراحل، في الموت والإيمان، في قوّة الموت وسلطته، في الموت والعلوم، في النّقلائية وموت الموت، في جدلية الرّوح والنّفس والنّفخ والجسد، في الموت وثقافة الاستعداد، في نقلانية تصور الحياة والموت، في الموت وما بعد الموت، في جثّة الميّت بعد الانعتاق وطرق التّصرف فيها حسب المعتقدات، في النّقلائية والتصورات المضادة، في نتائج الموت ومخلفاته وعوائده وأعرافه وفنونه، في أطاريح وفلسفات حول الموت تحت مجهر النّقْد النّقلي، في المرثي والتّعازي والأشجان والأحزان.

بدأنا الكتاب بمقدّمة موسّعة وأنهيناه بخاتمة مختصرة مع فهرسين:الأوّل للمصادر والمراجع، والثّاني لموضوعات الكتاب، تلك هي الفصول التي اعتبرتها محورية في الكلام عن "الموت النّقلائي أو نقلانية الموت" وذلك من النواحي العلميّة والمنهجية.

وحرّره بمزّاكش الحمراء أ.د. محمد خروبوات

في: 20 دجنبر 2020م، الموافق ل5 جمادى الأولى 1442هـ

فصل في النقلانية وأسس " المعرفة الأسمى "



1- النقلانية ومعرفة المعرفة:

خلق الله الإنسان لا يعلم شيئاً من أمور الحياة العامة لكنّه زُودَ بالحواس ليقرأ بها العالم والمحيط والكون، يقرأ كلّ شيء، فما كان صالحاً بني عليه، وما كان ضاراً غير نافع ابتعد عنه واجتنبه وحدّر غيره منه، هكذا حال الإنسان في مجال المعرفة الفطرية، يعيش بين التّعطيل والتّفعيل، بين تعطيل الجوارح وبين تفعيلها فيما لأجله وُجدت ﴿والله أخرجكم من بھون أمماتكم لا تعلمون شيئاً، وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون﴾¹².

لما أنزل الله سبحانه وتعالى الهدى والبيّنات، أنزلها على جارحة القلب أولاً حتى إذا استيقنما القلب تمرّرت إلى العقل وإلى سائر الجوارح الأخرى ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين، نزل به الروح الامير، على قلبك لتكون من المنكرين﴾¹³، لم تشر الآية إلى جارحة اللسان أو العينين أو الأذنين أو الجلد أو غير ذلك، لكنّها قصدت القلب، لأن القلب مظنة الفهم والوعي والإيمان، إنّه مظنة "المعرفة النقلانية" التي هي معرفة إيمانية تصديقية غيبية، تنطلق من الغيب والنص صوب عالم الشهادة والواقع بوعي وتدبّر وانسجام، وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها، فإنها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾¹⁴. الآية واضحة في ربط المعارف

¹² - سورة النحل الآية 78.

¹³ - سورة الشعراء الآيات (192-194).

¹⁴ - سورة الحج الآية 46.

والعلم ب "القلب" لا بالجوارح الأخرى، فالجوارح الأخرى تابعة للقلب، لكن إذا فسد القلب فسد كل شيء، وفساد القلب يبدأ بما يلي:

- أولاً بالمرض: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾¹⁵، والمرض المقصود هنا ليس المرض العضوي بل المرض المعنوي، مرض الفهم المعوجّة، والمعرفة الشاذة المنحرفة، مرض التصورات الشائنة والفاصلة.

- ثانياً بالختم أو الطبع عليه ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ، وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَالَةٌ﴾¹⁶، ﴿أَوْلَيْدًا الذِّكْرَيْنِ بِصَبغِ اللَّهِ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ، وَأَوْلَيْدًا هُمْ الْغَافِلُونَ﴾¹⁷.

- تعطيل وظيفة القلب، وهو من أخطر ما يعاني منه الإنسان المعاصر اليوم، له عقل كبير وقلب صغير لا يعي به شيئاً، ولا يفقه به معنى، وهذا من الغفلة المذمومة ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾¹⁸، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ نَعَمَّ كَرِّ بآيَاتِنَا رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ، إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾¹⁹.

- قساوة القلب، بحيث يصبح القلب قاسياً صلباً: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبَهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً﴾²⁰، فماذا تنتظر من إنسان قلبه على هذا الوصف؟ ثم أية معرفة ستصدر عنه؟ وكيف هي؟ من دون شك ستكون الجوارح التابعة لهذا القلب قاسية، صلبة، وستكون المعرفة المتولدة عن هذا القلب

¹⁵ - سورة البقرة الآية 9.

¹⁶ - سورة البقرة الآية 6.

¹⁷ - سورة النحل الآية 108.

¹⁸ - سورة الأعراف الآية 179.

¹⁹ - سورة الكهف الآية 56.

²⁰ - سورة البقرة الآية 73.

وجوارحه معرفة قاسية، متحجرة، ﴿أفرايت من اتخذ إلهه هواه، وأضله الله علمه، وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة﴾²¹.

ثم إن هذه المعرفة طالبت بتفعيل الحواس الأخرى تفعيلاً يمكن صاحبها من فهم ما يُقدّم إليه، لقد أمرت بالسّير في الأرض والنّظر في عاقبة المجرمين، كما في قوله تعالى: ﴿وقال الذين كفروا إنا كنا تراباً وءابؤنا أننا لمخرجون، لقد وعدنا هذا فمّن وءابؤنا من قبل، إن هذا إلّا أساليب الأولين، قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة العاصين﴾²²، ومعلوم أنّ النّظر كلمة لها دلالتها المعرفية في هذا السّياق، "النّظر" ليس هو الرؤية أو المشاهدة بالعين فقط، بل هو عام تُشغل فيه كلّ الحواس، وقد تكرّر هذا المصطلح في آيات كثيرة من مثل قوله: ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت﴾²³، وقوله: ﴿فانظروا كيف كان عاقبة المفسكين﴾²⁴، وغيرها كثير، وكلها تحثّ على النّظر بالمعنى المعرفي للكلمة.

ويبقى الحديث الصحيح المرفوع: (ألا وإنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلّهُ، وإذا فسدت فسد الجسد كلّهُ ألا وهي القلب)²⁵، قاعدة مهمّة من قواعد معرفة النّقل التي نتكلّم عنها، يُجلي هذا المعنى الحافظ ابن حجر فيقول في الشّرح: (وحُصّ القلب بذلك لأنّه أمير البدن، وبصلاح الأمير تصلح الرعيّة، وبفساده تفسد، وفيه تنبيه على تعظيم قدر القلب والحثّ على صلاحه، والإشارة إلى أنّ لطيب الكسب أثراً فيه، والمراد المتعلق به "الفهم" الذي ركّبه الله فيه، ويستدلّ به على أنّ العقل في القلب، ومنه قوله تعالى ﴿فتكون لهم قلوب﴾

²¹ - سورة الجاثية الآية 22.

²² - سورة التّملّ الآيات (69-71).

²³ - سورة الغاشية الآية 17.

²⁴ - سورة التّملّ الآية 14.

²⁵ - حديث النّعمان بن بشير متّفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، أنظر الفتح 1/126 رقم الحديث 52، ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشّبهات، 3/1219-1220 رقم الحديث 1599.

يعقلون بهؤلاء، وقوله تعالى ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ قال المفسرون: أي: عقل، وعبر عنه بالقلب لأنه محل استقراره²⁶.

تدبّر هذا الكلام جيّداً، وضع حدوداً للمعرفة النّقلية، فلها خصوصيتها من بين المجالات المعرفية والنّظريات السّائدة في حقل الثّقافات الإنسانيّة قديماً وحديثاً، فلعلّ معرفة حدودها وضوابطها، وسنوسّع الكلام في موضوع " النّقلانية " في عمل مستقل.

2- الموت ومعرفة " المعرفة الأسمى "

مدار هذه الفقرة على " المعرفة "، المعرفة التي هي قوام الموضوع، بل هي جذوره الأساسيّة، النّقلانية معرفة، ومن المعرفة الجواب عن هذا السؤال: هل يعرف الإنسان مصيره بعد الموت؟

المعرفة هنا بينية، وموقعها بعد الموت وقبل الحساب، الجواب يقدّمه لنا هذا النص الصّحيح الذي يبين أنّ الإنسان يعرف مصيره بعد موته مباشرةً، في حديث عبد الله بن عمر عن النّبي صلّى الله عليه وسلّم قال: (إنّ أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنّة فمن أهل الجنّة، وإن كان من أهل النّار فمن أهل النّار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة)²⁷، فيه دليل صريح على معرفة المصير قبل يوم الحساب.

إنّها معرفة تزرع في قلبك الإيمان، وتزيد في إيمانك درجات، الإيمان الذي يطرد عنك اليأس والقنوط ويجعل منك إنساناً متفائلاً، تعيش في الدّنيا بضمانات أكيدة، وترقّب مستقبل عمرك البعيد، المستقبل الذي ينتظرك بالموت لتتنقل إلى

²⁶ - فتح الباري 1/128-129.

²⁷ - متفق عليه، أخرجه البخاري في جامعه الصّحيح، كتاب الجنائز، باب الميت يعرض عليه مقعده بالغداة والعشي، في الفتح 3/243 رقم الحديث 1379، ومسلم في صحيحه، حديث 65-66 من كتاب الجنّة.

العالم الآخر لتبدأ رحلتك إلى الخلود الأبدي، تحيا الوجودية الإيمانية وسط عالم فيه ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، هناك تلتقي بالموتى وتعاشرهم، وترى منازلهم إن في الجنة وإن في النار، وإذا كنت من أصحاب الجنة فتراهم على الحياة الحقيقية، ستعيش معهم حياة هادئة مطمئنة خالية من التشاؤم والقنوط.

إنّ الخروج عن الحقائق التي تقدّمها النّقلاية عن الموت هو الذي يوقع الإنسان في الاضطراب، أما الالتزام فيجعله خاضعا للمشيئة الإلهية، والمؤمنون الحقيقيون هم المستسلمون للقضاء والقدر، بينما يعمّه غيرهم في جهالة مطبقة. صورة ثقافة الموت في ثقافة النّقل واضحة جدا، متّزنة ومتسلسلة، كاملة وواضحة، ترسم لك الصورة بالتدرج من أول خلقك إلى مصيرك، وهي صورة غير مشوبة بكدر.

كل هذا لأجل أن نعيش الحياة ونحن نستأنس بالموت الموجود فينا، وإذا حلّ فمن الأفضل أن نموت على العلم لا على الجهل، موت العلماء ليس كموت غيرهم، النّاس الذين يموتون موتة جاهلة هم أولئك الذين ينسجون في أدمغتهم وابلا من الأساطير والخرافات عن الموت والفناء، مازالت بعض العقول تتغذى على الخرافات والأوهام، خرافات الأساطير المركّبة، وأوهام المعارف الفاسدة المكعّبة، فيتساوى هنا العقلانيون مع الجهلة، فالأمية في حق هؤلاء وأولئك لازمة.

لا يوجد كائن على الأرض يحسّ بالموت ويعرف بأنّ موته قادم سوى الإنسان، ولا يوجد كائن مخلوق يدرك سرّ نقصه وعدم خلوده مثل الإنسان، ولذلك فالإنسان يبقى تعيسا من هذه الجهة بخلاف الكائنات الأخرى ومنها الحيوانات، الحيوانات تتأقلم مع الحياة، وهي غير عاقلة لتدرك حقيقة الموت والمصير لكنّها بفطرتها تملك الشعور بالخطر، ولنا عن الموضوع دليلان: أحدهما نص نقلي ﴿قالت نملة يا أيّها النمل المخلوا مساكنكم لا يحصمّنكم سليمان

وجنونه وهم لا يشعرون²⁸، والثاني واقعي، وهو من المعايشات الحياتية وهي أنّها تجتنب كل ما يؤدي بها إلى الموت، مثل السير على الحافات، والقفز من الأعلى، وتجنب أكل ما يضر ويقتل من العشب، يكفيها أن تعيش لفترة من الفترات من دون أن يُشكّل لها الموت هاجسا أو تخوفاً، كذلك النباتات والجمادات، فهي تُبدي لك الجمال والجلال من دون أن تخفي الأسرار الحزينة التي يجلبها لها الموت، غير أنّ فئة من الناس تقلد الحيوانات والبهائم والكائنات الحيّة غير العاقلة في هذا التصرف، فإذا كان تصرف هذه الكائنات فطرياً فتصرف الإنسان غير فطري، هؤلاء يعيشون وكفى من دون أن يظهر عليهم أثر التفكير في الموت والاستعداد له، فهم لا يرون في الوجود سوى الحياة فينغمسون فيها انغماساً، وينخرطون في ملذّاتها انخراطاً، فلا يقرون بوجود شيء غير الحياة، لكن الموت يفاجئهم فيكدر عليهم حلاوة العيش أياما بموت قريب أو حبيب، لكن سرعان ما يعودون إلى حالتهم الأولى، ينسون الموت كما نسوا أمواتهم، هذه هي الحالة الغالبة على الإنسان تجاه الموت ﴿قتل الإنسان ما أكفره، من أي شيء خلقه، من نصفه خلقه فقداره ثم السبيل يسره، ثم أماته فأقبره، ثم إنما شاء انشره، كلاً لما يقض ما أمره﴾²⁹.

في الحديث (اذكروا هادم اللذات)³⁰، وهادم اللذات هو الموت، والذّكر ذكران: ذكر بالدعاء والخشية والخوف، وذكر بالتأمّل والتّفكر الذي يجمعه العلم والمعرفة والثّقافة، لا تختزل النقلانية ذكر الموت في الدعاء فحسب بل تتعداه إلى العلم والمعرفة، ولذلك كانت هذه المعرفة هي "المعرفة الأسمى"، المعرفة التي تستجيب لأمر ذكر الموت، وتجمع بين النوعين من الذّكر في تركيبة واحدة .

²⁸ - سورة التمل الآية 18.

²⁹ - سورة عبس الآيات (17-23)

³⁰ - أخرجه النسائي في السنن 4/4، كتاب الجنائز، باب كثرة ذكر الموت من حديث أبي هريرة .

معرفة الموت هي المعرفة الأسمى، أسمىها كذلك لعدم وجود معرفة في الوجود أسمى منها، فهي معرفة التّقرير والمصير، ومعرفة الصّلاح والفلاح وكشف المجهول والمخيف، لا تكون هذه المعرفة على وصف السّمو إلا إذا جاءت عن طريق النّقلائية، وهي نظام المعرفة النّقليّة، بقدر ما تتعمّق في "المعرفة الأسمى" وتزداد انخراطا وانخراطا فيها واتّصالا بها بقدر ما تكون قد سلكت الطريق السليم للوصول بسلام، وبقدر استيعابك لها وتملّكك إياها بقدر ما تكون قد تحرّرت من الأوهام المخيفة والأفكار الضالّة والخرافات المنسوجة عن عالم الموت والموتى، إنّها المعرفة التي تقرّبك من خالقك، ومن ذاتك، ومن الوجود.

من إيجابيات "المعرفة الأسمى" أنّها تحرّرك من نهم تملك الأشياء إلى تملك الرّوح والنّفس واللذات، عجباً لمن لا يستطيع أن يملك ذاته وإحساسه وقلبه ثم يلهث نحو امتلاك ما حوله، الامتلاك الحق هو الذي يكمن في امتلاك الدّاخل أولاً، امتلاك اللذات، وما دمنا بصدد الكلام عن الامتلاك فيجب أن نميّز فينا بين صنفين: صنف يمتلك ذاته، وصنف يمتلكه ذاته، الأول يدبّر الأمور بنفسه، والثاني يدبرها بهيميته وشهوة ذاته، الأول صعب التملّك، والثاني إذا خوطب في شهوته سهّل تملّكه، ومن هذا المنطلق يجب أن تعي أنّك إذا لم تملك ذاتك جيداً فإنها ستصبح مملوكة من غيرك، إما من الإنسان أو من الأشياء أو من إبليس، تملك هذه المعرفة لتستعين بها على ذاتك في موضوع جليل، فالموت سيتملكك في النهاية، واعلم أنّ هذه الدنيا وما ملكت منها ستسلمك في الأخير إلى هادم اللذات، ولم يثبت أنّ الدنيا ملكها أحد على الدوام أو تملكك أحداً على الدوام.

ميزة هذه المعرفة أنّها تمنحك القدرة على التّواصل مع الموت لتموت من دون تعاسة، ولتحيا من دون كآبة، تحيا لتعطي لحياتك حقّها، وتموت لتعطي للموت حقّه، وهذا كله لا يتأتّى إلا بحسن التّواصل مع الموت.

الحياة وحدها لا تمنحنا الطمأنينة، والدليل على ذلك أنّ كثيراً من الأجسام تحيا الحياة بغير اطمئنان، وتعيش من غير هدوء ولا سكينه، الطمأنينة تنبعث

من داخل الذات، والانبعاث سرّ يتوقف على "المعرفة"، المعرفة هي الضّابط المعول عليه في تحصيل الطمأنينة في الحياة.

إنّ أخطر أنواع الجهل الجهل بالموت، وعدم التّفكير فيه مطلقا مع الاعتقاد بوجوده، هذا الصّنف من الجهلة هم الذين يقولون: (دعه حتى يقع)، فهو يعيش ويحيا حياته إلى أن يموت، وصنف آخر يُراكم في عقله عن الموت نسيجا من الأساطير والخرافات تكبّل جناح العقل، وتشوّش على الموروث من النّقل، وتدفع عن مسار الحياة الحقيقية التي يجب على المرء أن يحيها، يعيش في التّعاسة والتّيه، ودواؤه في التّعلم، لأنّه إن تعلّم سيمنح لنفسه الأمان، وسيتذوّق حلاوة الإيمان.

الجهل بالموت مع الإيمان به أميّة لا تُغتفر، والكفر به وجحود الحساب هو خسران للإنسان أبد الدّهر.

3- الحواس بين التّفعيل والتّعطيل

تكلّمنا في فقرة سابقة عن دور الحواس في المعرفة النّقلية، وللتذكير فالمقصود بالمعرفة النّقلية استفادة حقيقة الحواس ودورها في تحصيل المعرفة المطلوبة شرعا ومنها القلب والعقل وما إلى ذلك من النّص النّقلي ذاته، وفي هذه الفقرة نتّمم الكلام في موضوع الحواس، فالمطلوب من الإنسان إعمال حواسه وهو حي، لأنّه إن عطّلها أصبح من فصيلة الأنعام، وهو المبين في قوله تعالى: ﴿ولقد آزرنا بعظمتهم كثيرا من البحر والإنس، لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئِكَ كَالَّذِينَ نَادَىٰ رَبَّهُمْ أُخْرَىٰ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾³¹، ويقول: ﴿ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا

³¹ - سورة الأعراف الآية 179.

يسمعون، إن شرّ الذّواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون، ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون»³².

وتذهب الآيات الكريمة إلى الموازنة بين من يُعمل حواسّه في النظر في الكونين المنظور والمسطور، فهتدي بها ويسترشد وبين من يُعطّلها، فتجعل الأول من الأحياء الذين يبصرون النور، والثاني من الموتى الغارقين في الظلمات، يقول تعالى: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير، ولا الضّلمات ولا النور، ولا الضّل ولا الضّلال، وما يستوي الأحياء ولا الأموات، إن الله يسمع من يشاء، وما أنت بمسمع من في القبور، إن أنت إلا نكير﴾³³، وقوله تعالى: ﴿وتركهم في ضلّلت لا يبصرون، صمّ بكم عمي فهم لا يرجعون﴾³⁴، لا تتكلم الآية على الصّمم والعمى الحقيقي بل حين تكون جارحة اللسان موجودة لكتّها لا تنطق بالحق، وتكون جارحة العين موجودة لكتّها لا تبصر الحقيقة، وتكون جارحة الأذن موجودة لكتّها لا تسمع الحقيقة، وإذا سمعتها فكأن فيها صمم، ﴿قل إنما أنذركم بالوحي، ولا يسمع الصمّ الذّعاء إذا ما ينكرون﴾³⁵، ﴿ومنهم من يستمعون إليّ، أفأنت تُسمع الصمّ ولو كانوا لا يعقلون، ومنهم من ينصّر إليّ، أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون، إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكنّ الناس أنفسهم يظلمون﴾³⁶، وقد ضرب الله بذلك الأمثال للناس لتقريب الفهم وتوضيح المراد، فما الأمثال في القرآن إلاّ للبيان والتّفسير، وفي هذا الموضوع المعرفي ذي الجلل يقول تعالى: ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلّا دعاء ونداء، صمّ بكم عمي فهم لا يعقلون﴾³⁷، وفي هود آية جامعة يقول الله تعالى فيها: ﴿الذين يصّدون عن سبيل الله

³² - سورة الأنفال الآيات (21-23).

³³ - سورة فاطر الآيات (19-23).

³⁴ - سورة البقرة الآية 16-17.

³⁵ - سورة الفرقان الآية 45.

³⁶ - سورة يونس الآيات (42-44).

³⁷ - سورة البقرة الآية 170.

ويعفونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون، أولئذ لم يكونوا معجزين في الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء، يضاعف لهم العقاب، ما كانوا يستكفون السمع وما كانوا يبصرون، أولئذ الذين خسروا أنفسهم وذل عنهم ما كانوا يفترون، لا جرم أنهم في الآخرة هم الآخسرون، إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم أولئذ أصحاب الجنة، هم فيها خالدون، مثل الفرقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع، هل يستويان مثلا، أفلا تذكرون³⁸ ﴿

أما إذا كانت بالإنسان عاهة خلقية مثل فقدان بعض أعضاء الجسد، فتعطلت بذلك بعض الحواس، وهو مؤمن بقلبه، مبصر ببصيرته، سليم في فطرته فهذا لا حرج عليه، لأنه لا يلزم من فقدان الحواس فقدان الإيمان، لقوله تعالى: ﴿ليس على الأعمى حرج، ولا على الأعرج حرج، ولا على المريض حرج﴾³⁹، فالحرج مرفوع عن أهل الأعذار في تطبيق الأحكام والعمل بالأوامر بخلاف أهل الأقدار الذين عطّلوا حواسهم عن سماع الأحكام والعمل بها والامتثال إليها، الذين فعّلوا حواسهم في الدنيا هم المقصودون بقوله تعالى: ﴿والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يفتروا عليها صما وعميانا﴾⁴⁰، أما في الآخرة فإن الإنسان لا يتحكّم في جوارحه كما كان يتحكّم بها في الدنيا، فجوارحه منه وليست منه لأنها تشهد عليه أمام ربه، فلنتأمل هذه الآية الناطقة بمشهد يحتاج منا إلى تفكير وتدبر، يقول تعالى: ﴿ويوم نحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون، حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون﴾⁴¹، ويدور حوار بين الإنسان وحواسه فيسألها لم شهدت عليه في يوم يحتاج إلى من يشهد له؟ فتجيب بأن الذي خلقها أنطقها، وهذا في قمة التحدي حين يكون الإنسان عاجزا عن التحكم في حواسه، حين تشهد عليه حواسه التي هي أقرب إليه من

³⁸ - سورة هود الآيات (19-24).

³⁹ - سورة التور الآية 61.

⁴⁰ - سورة الفرقان الآية 73.

⁴¹ - سورة فصلت الآية 18-19.

زوجه وولده والناس أجمعين، والحواس شهود عدل وصدق، لا يمكنها أن تقول إلا حقا، ولا تنطق إلا صدقا: ﴿وقالوا لجلودكم لم شهدتم علينا، قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء، وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون، وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم، ولكن نحن نؤمن أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون، ولذلك نحن نؤمن الذي نحن نؤمن بربكم، أرايكم فأصبحتم من الخاسرين﴾⁴².

الجوارح تشهد على أصحابها وهي معرضة للسؤال أيضا: ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا﴾⁴³، لذلك فتعطيل الحواس في الدنيا يترتب عليه تعطيلها في الآخرة: ﴿ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا﴾⁴⁴، وقوله: ﴿ومن اعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونعشره يوم القيامة أعمى، قال رب لم حسرتني أعمى وقد كنت بصيرا، قال كذلك أتينا آياتنا فنسيتها، وكذلك اليوم تنسى﴾⁴⁵.

وحيث تشهد عليهم حواسهم يشهدون على أنفسهم بأنهم كانوا معطلين لها، يسمعون ولا يسمعون، ويبصرون ولا يبصرون، ويعقلون ولا يعقلون: ﴿وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير، فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير﴾⁴⁶.

4- المعرفة الأسمى: الحقيقة والمزاي

هي معرفة أسمى لأنها المنقذ من ضلال الجهل، وأول جهل هو الجهل بحقيقة الموت، الجهل الذي كان وراء الخوف من الموت، وتسبب في دفع الإنسان

⁴² - سورة فصلت الآيات (20-22).

⁴³ - سورة الإسراء الآية 36.

⁴⁴ - سورة الإسراء الآية 72.

⁴⁵ - سورة طه الآيات (122-124).

⁴⁶ - سورة الملك الآية 11-12.

نحو الاعتقاد، فراح يعتقد في الغيب وفي الماورائيات، وقد دفعه اعتقاده هذا إلى صناعة الآلهة وعبادتها، ومنها إله الموت، وهذا السلوك أخاف الفيلسوف اليوناني ابيقور Epicure فقدّم نظريته عن الموت، وكان لهذه النظرية أثر كبير في المعرفة بالموت تعدّى تأثيرها فلاسفة اليونان إلى فلاسفة الإسلام، وتأثرت ببعض شذراتها عقول نقلية كبيرة.

سبب الخوف من الموت مرضاً نفسياً وسلوكياً أصاب الإنسان على مرّ العصور، ومثلما تصدّى له أبيقور تصدّى له الفيلسوف النقلاني الرّازي ابن مسكويه، فقدّم علاجاً لمرض الخوف من الموت، وقبل الشروع في تقديم العلاج شخّص الأسباب، كان مدارها كلّها على "المعرفة"، فسبب الخوف من الموت الرئيس هو الجهل ودواؤه التّعلم، هنا تبدّى لنا أهمية المعرفة، يقول موضّحاً: (وأما من يخاف الموت لأنّه لا يعلم إلى أين تصير نفسه، أو لأنّه يظن أنّ بدنه إذا إنحلّ وبطل تركيبه فقد انحلت ذاته، وبطلت نفسه، وجهل بقاء النّفس وكيفية المعاد، وليس يخاف الموت على الحقيقة وإنما يجهل ما ينبغي أن يعلمه، الجهل إذاً هو المخوف، إذ هو سبب الخوف، وهذا الجهل هو الذي حمل الحكماء على طلب العلم والتّعب به، وتركوا لأجله اللذات الجسمانية، وراحات البدن، واختاروا عليه النّصب والسّهر، ورأوا أنّ الرّاحة التي تكون من الجهل هي الرّاحة الحقيقية، وأنّ التّعب الحقيقي هو تعب الجهل، لأنّه مرض مزمن للنّفس، والبراء منه: خلاص لها، وراحة سرمدية، ولذّة أبدية)⁴⁷.

ويواصل ابن مسكويه كلامه عن أهمية العلم بالموت، وبثّ المعرفة بها، وإدراك العلماء لأهميتها وقيمتها، وأنها ليست كسائر المعارف، فيقول: (ولما تيقّن الحكماء ذلك، واستبصروا فيه، وهجموا على حقيقته، ووصلوا إلى الرّوح والرّاحة منه، هانت عليهم أمور الدّنيا كلّها، واستحقروا جميع ما يستعظمه الجمهور من

⁴⁷ - تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق ص 219.

المال والثروة واللذات الحسّية والمطالب التي تؤدّي إليها، إذ كانت قليلة الثّبات والبقاء، سريعة الزوال والفاء، كثيرة الهموم إذا وُجدت، عظيمة الغموم إذا فُقدت، واقتصروا منها على المقدار الضّروري في الحياة، وتسَلّوا عن فضول العيش الذي فيه ما ذكرت من العيوب وما لم أذكره، ولأتمّها مع ذلك بلا نهاية، ذلك أنّ الإنسان إذا بلغ منها الغاية تآقت نفسه إلى غاية أخرى من غير وقوف على حدّ ولا انتهاء إلى أمد. هذا هو الموت، لا ما يخاف منه، والحرص عليه هو الحرص على الزائل، والشّغل به هو الشّغل بالباطل⁴⁸.

نحن الآن أمام أطروحتين متناقضتين: أطروحة عقلانية يونانية طبيعية تنشر المعرفة لتعالج ظاهرة الخوف من الموت، غايتها طرد الخوف من الموت بالكلّية، وعدم الاعتقاد فيه بالمطلق، فلا وجود للموت حسب هذه الأطروحة وإذا وُجد فلا وجود للجسم الذي يحسّ به، والأطروحة الثانية أطروحة نقلانية فطرية تعالج الظاهرة في صيغتها العامة، فهي:

أ- تتصدّى للأطروحة اليونانية الطّبيعية ببيان زيفها وتوهّمها مع الكشف عن تأثيرها في بعض عقول النّقل.

ب- وكذلك تقف بعين الفحص والنّقد لمجمل التيارات والفرق والمذاهب والسلوكيات التي تأثرت بشكل أو بآخر بالأطروحة الطّبيعية للموت في داخل الثّقافة الإسلامية وفي خارجها.

ج- تتصدّى للمعارف المضلّلة بالأساطير والخرافات والأوهام التي سُحنت بها بعض الكتب والمؤلّفات التي تتكلّم عن الموت.

د- تُقدم دراسات علمية نفسية استخدمت مقاييس علمية على عيّنات مختلفة الأجناس والأعمار، هذه الدّراسات جعلت من نظرية ابن مسكويه في

⁴⁸ - المصدر السّابق.

معالجة الخوف من الموت مجالاً لدراسة تطبيقية نفسية أطلقت عليها " قلق الموت "، وهي الدراسة التي ستمّ الإشارة إليها في فقرة " قلق الموت " ضمن فصل " قوة الموت وسلطته"، يقول صاحب الدراسة السيكولوجية معلّقاً على نظرية ابن مسكويه السابقة: (معظم أسباب الخوف من الموت كما أوردها - يعني ابن مسكويه- تتفق مع ما أسفرت عنه بعض الدراسات العلمية، وهذا ما سنفعله في الفقرتين التاليتين)، ويعني الفقرة الأولى بعنوان: (أسباب قلق الموت من وجهة نظر السيكولوجية)، والفقرة الثانية: (أسباب قلق الموت: دراسات عربية)⁴⁹.

صحيح أنّ الدراسات تتفق مع ما جاء به ابن مسكويه لكنّ الدراسة الموجودة أمامنا كشفت عن أنواع عديدة من أنواع الخوف من الموت، قد تكون متفرّعة من كليّات ما جاء به ابن مسكويه، وقد تكون قضايا عامّة هي من باب تحصيل الحاصل في مجال الخوف من الموت، وعلى كلّ الأحوال فإنّ الدراسات العملية تكشف تقريبا عن كلّ شيء حتى الجزئيات، ومن أقوى ما جاءت به هذه الدراسات " علاج الخوف من الموت"، فالخوف يُسبّب القلق، ولمعالجة القلق من الناحية النفسية طرق فنيّة محدّدة، ومنها " العلاج السلوكي " الذي يعتبر أفضل علاج، وهو أكثر فاعلية من البرامج التعليمية، بل هو أفضل من العقاقير المهدّئة أو العلاج الكهربائيّ التشجّي أو أخرى مضادّة للاكتئاب، ويُضاف إلى هذه الأنواع نوع آخر يُطلق عليه " علاج الحُزن"، ويوجّه في الغالب لمن فقد فرداً عزيزاً مثل الزوج أو الزوجة أو الإبن إلخ⁵⁰.

يأتي كلّ هذا مصحوباً بالبيان الشرعيّ الفطريّ المستمد من الأصول والمرجعيات الثقيلة الصّحيحة، تلك هي " المعرفة الأسمى " التي ننشدها ونسعى إلى تقديمها وفق الحلة المطلوبة والصّيغة المرغوبة.

⁴⁹ - أنظر كتاب قلق الموت للدكتور أحمد محمد عبد الخالق ص 214-215.

⁵⁰ - المصدر السابق ص 228-229.

ولعلّ السّالك معنا في دروب الخير يتساءل عن المزايا التي تتحصّل له بمعرفة هذه المعرفة، البعد عن هذه المعرفة يورث أفتين اثنتين: الأولى جحود الموت ونكرانه ويكون في الدّات والمعرفة، فأما في الدّات فحين ينكر المرء الموت أو يجحده وكفى، يعيش حياته كما لو أنّ الموت غير موجود، وهذه هي حالة عامّة الجاحدين، وأما في المعرفة فحين تُسخر ضدّ الموت، يسخر المرء معرفته وعلومه في الدّعاية ضدّ الموت، وهذه حالة العلماء والحكماء من الفلاسفة الطبيعيّين ومن جرى مجراهم، والثّانية الخوف منه، وهذا الخوف يورث أمراضا وهو اجس عديدة في حياة الإنسان، وقد حدّدها ابن مسكويه في ستّة وزدنا عليه فيها واحدة، وبناءً على ما تقدّم نجمل مزايا معرفة معرفة الأسى في تحقيق "اليقين" و"السّعادة" و"الإرجاع إلى أصل الوجود" والبداية بالنّفس، فلنتناولها واحدةً واحدةً:

1- اليقين: وسببه الثّقة، أن يتمّ الاعتقاد بما جاء في كتاب الله وبما جاء به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من أخبار وأحكام عن الموت وأهوالها، فإذا كان المرء شاكّا في صحّتها فعليه بعلوم الضّبط والزّواية التي قطع علماء النّقل فيها شأوا بعيدا، كان الغرض من مناهجهم وطرقهم في علومهم وصناعاتهم هو استفادة النّص وصيانتها وضبطه من الثّقة عن الثّقة عن مثله، وهو التّوثيق المتعارف عليه بين أهل الفن، وإذا حصل العلم بهذه الصّنع حصل الاطمئنان إليها، وما الحملات المسعورة ضدّ النّصوص الثّقيلة والتّشكيك فيها إلّا نتاج الجهل بعلومها وفنونها، والمعتقد بأيّ خبر ليس ملزما بالاعتقاد به أو العمل به أو اعتماده سواء أكان عن الموت والقبر أو غير ذلك إلّا إذا كان من نوع المقبول، و"النّقلائية النّقدية" تردّ الآثار الضّعيفة والموضوعة التي تكلم بها علماء كبار في موضوع الموت مثل الإمام الغزالي وابن أبي الدّنيا والسمرقندي وغيرهم، وهو منهج صارم في التّوثيق لا يجامل ولا يحابي، كان الهدف منه هو ضبط الخبر حتى يتحصّل به اليقين، واليقين في اللّغة هو العلم وإبعاد الشكّ، واصطلاحا هو ما استقرّ في القلب بالعلم، فلا يتغيّر ولا يتبدّل، وهو على ثلاثة: علم اليقين، وعين اليقين،

وحق اليقين، ذكرتها آيات بينات، أولها علم اليقين، فهو العلم الذي لا شك فيه، صادر عن ثقة، وعين اليقين هو الرؤية بالعين المجردة، أي: ما رآه غيرك بعينه، وعين الشخص لا تكذب، وحق اليقين ما رأته بنفسك وعشته ولست في حاجة إلى السؤال عنه أو استفادته من غيرك، وهو أعلى المراتب، وقد اجتمعت هذه الأنواع الثلاثة في النبي صلى الله عليه وسلم، فقد استفاد ما استفاد من أخبار الغيب عن الموت وأهوالها والقيامة وأحوالها عن جبريل عليه السلام فيما أنزل عليه من وحي، ثم إنّه عُرِجَ به إلى السّمَاوَاتِ العُلَا فرأى من آيات ربّه الكبرى ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾⁵¹ ثمّ روى ذلك لمن سمعه منه من الصّحابة الكرام، ثم رواه التّابعون على الجادة فتحصّل اليقين من جهة ضبط الورد وضبط التّحمل والأداء، فطريق الثّقة العلم، وطريق العلم اليقين، كما في قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾⁵²، وفُسر اليقين هنا بالموت.

2- السّعادة: تحاول العقلانية أن تجعل من السّعادة مسألة نسبية، فهي حالة من الشّعور والاطمئنان النّفسي يشعر بها الإنسان حين يحقّق مراده، وهي متغيّرة بتغيّر الأفراد والحالات، ومتعدّدة بتعدّد الرّغبات والطّموحات، لكن النّقلاية تعطي للسّعادة معنى غير متضارب، وتجعلها ثابتة، فالسّعادة من منظور النّقل هي شعور باطني ينبعث من القلب يتحقّق به التوازن بين الرّوح والبدن، ولا يتحقّق هذا التوازن إلا بميزان الإيمان، هذا الميزان هو الذي يكسب صاحبه القناعة والمحبة والرضا بالقضاء والقدر، فينتظم سلوكه الظّاهري مدفوعا بصفاء الباطن وطهارة المخبر ليكون على الاستقامة المطلوبة.

السّعادة من المنظور العقلاني هي سعادة ماديّة وحياتية وطبيعية، تحقّق للذّات نزواتها وشهواتها ومجمل غرائزها، ولا شيء غير ذلك، أما النّقلاية فتُضيف سعادة أخرى هي أولى وأحقّ من الأولى وهي السّعادة الأخروية، وبذلك

⁵¹ - سورة النّجم الآية 11.

⁵² - سورة الحجر الآية 99.

نقول إنَّ المعتقد بتعاليم النَّقل هو الذي تتحقَّق له السَّعادة بالمعنيين: الدنيوي والأخروي، وهما المقصودتان في قوله تعالى: ﴿لَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلِذَا رَأَوْا الآخِرَةَ خَيْرٌ، وَلَنَعْمَ لِمَا رَمَتِ الْبُحْرَىٰ﴾⁵³، وضدَّها الشَّقَاءُ الدَّنيوي متبوعاً بالشَّقَاءُ الأخروي، وهما المبيَّتان في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ مَا كُرِيَ لِيَن لَّهِ مَعِيشَةٌ ضَنُكًا، وَنُحْشِرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى، قَالَ رَجُلٌ لَّمْ يَحْشُرْ نَبِيًّا أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا، قَالَ كَذَلِكِ أَتَتْهُ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا، كَذَلِكِ الْيَوْمِ يُنْسَىٰ﴾⁵⁴.

إذا كان الموت يفقد الإنسان السَّعادة بسبب الجهل بحقيقته فإنَّ المعرفة الأسمى تُكسب الإنسان الشعور بالسَّعادة والاطمئنان ليعيش حياته في انسجام تام مع الموت، سواء حلَّ فيه أو حلَّ في غيره، فالمعرفة الأسمى تُحقِّق السَّعادة للإنسان لأنَّها تطرد الجهل بالموت والخوف منه، الجهل به يُردي صاحبه في أمراض معنوية عديدة، يقول ابن مسكويه: (علاج الجهل: العلم، ومن علم فقد وثق، ومن وثق فقد عرف سبيل السَّعادة فهو يسلكها لا محالة، ومن سلك طريقاً مستقيماً إلى غرض صحيح أفضى إليه بلا شكٍّ ولا مرية، وهذه الثَّقة التي تكون بالعلم هي اليقين، وهي حال المستبصر في دينه، المستمسك بحكمته)⁵⁵.

3- الإرجاع إلى أصل الوجود: النَّقلانية هي ثقافة الإرجاع إلى الأصل، فهي تنطلق من قصَّة المعرفة في حياة الإنسان، فالله سبحانه وتعالى لما خلق الإنسان علَّمه، والتَّعليم من العلم، والعلم يُبنى على المعرفة، والمعرفة ملازمة للوجود البشري، في حياته الأولى في الجنَّة، وفي حياته الثَّانية على الأرض، فهو مخلوق عاقل، مفكِّر وناطق، ولذلك فـ "المعرفة الأسمى" التي تكلمنا عنها لا تبتعد عن هذه الخصوصية، إمَّا تربط الإنسان بأصله، وبحقيقته، وبمصيره بعد الموت، ولذلك فهي أسمى من كلِّ المعارف، وأكبر من كلِّ العلوم، فالإنسان موجود في

⁵³ - سورة النَّحل الآية 30.

⁵⁴ - سورة طه الآيات (122-124).

⁵⁵ - تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق ص 222.

حياته بحياته، وهو موجود بعد مماته، والحياة نوعان: حياة الدنّيا وحياة الأخرى، وقد ثبت أنّ وجود الأرواح هي حقيقة ثابتة في ذهن الإنسان قبل إقرارها بالخبر المنقول، كل إنسان يعتقد بوجودها، ويدفعه هذا الاعتقاد للتفاعل معها حتّى عند غير المعتقدين، فالإنسان يعلم بنفسه ويعي بذاته، يكون هنا حاضرا بذاته وهذا هو علم الفطرة، وقد يعلم بعوامل خارجية عنه، وفي هذه الحالة يكون عالما بالإدراك، إنّها الفطرة البشرية التي تتحرّك بين نوازع الطّبيعة لتثبت وجودها في كينونة الإنسان، ف "كلّ مولود يولد على الفطرة" ⁵⁶، ولم تبعد النّقلانية عن هذه الحقيقة بل جاءت لتؤكدّها وتبيّن حقيقتها، وتكشف عن مزاياها بالنسبة للإنسان، فهي ثقافة الأصل وثقافة الرّجوع إليه، "ثقافة الأصل" لأنّ وجوده مبنيّ عليها، وثقافة "الرّجوع إلى الأصل" لأنّ عوامل الإدراك المساعدة ومنها هذه الثّقافة تدفع به نحو ذلك كما تصدّ عنه المؤثّرات المدمّرة والمفسدة لفطرته.

4- البداية بالنّفس: هذه المعرفة هي معرفة البداية بالنّفس، وقد بدأنا فيها بأنفسنا أوّلا، فتجاوزُ النّفس وعدم مخاطبة الذات هو بداية الإفلاس في هذه المعرفة، والنّجاح فيها يبدأ بالنّفس، معيار ذلك قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ ⁵⁷، وقوله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ، لَا يَضُرُّكُمْ مِنْ ضَلِّ إِيمَانِ اهْتَكَيْتُمْ﴾ ⁵⁸، فلا ينبغي أن نكون من الذين يضربون الأمثال بغيرهم وينسون أنفسهم، لكن ما المانع من أن يكتب الإنسان لنفسه ولغيره ؟، الهمّ واحد، والإحساس مشترك، والبداء بالنّفس هو المقدمة السّليمة الموصلة إلى النّتائج الصّحيحة، إنطلق من ذاتك تجد ما تريد قولاً وفعلاً، وإنّ موضوعاً كموضوع الموت لهو إحساس ذاتي صرف، وقناعة نفسية بحثة، وتجربة روحية فريدة من

⁵⁶ - أخرجه البخاري في جامعه الصّحيح، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين 3-245-246 رقم

الحديث 1385

⁵⁷ - سورة البقرة الآية 43

⁵⁸ - سورة المائدة الآية 107.

نوعها، تلك التجربة هي التي تُعطي الكلام المقبول، الكلام الذي يمنح بين الرّوحي والقلبي والعقلي في تركيبه نقلانية فريدة، وفي هذا الإطار يأتي التّوجيه الرّباني بقوله تعالى: ﴿وَضْرِبْ لَنَا مِثْلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ، قَالَ مَنْ نَسِيَ الْعِضْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ، قُلْ يَجِيئُهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾⁵⁹.

إنه توجيه نقلاني نافع في نظرية المعرفة.

5. الموت والسعادة:

هل الإنسان يسعد بالموت ؟

لا أحد يقول بأنه يسعد بالموت، الموت لا تحقق السعادة للأحياء بل تُشقيهم في فقيدهم بألم الفراق، لكنها تُسعد الموتى والأحياء في حالة واحدة، الأحياء إذا أخذت عدوهم، أما بالنسبة للموتى فالسعادة التي وُعدوا بها لا تتحقق إلا بالموت، لم يتكلم القرآن الكريم عن السعادة إلا في موطنين، قال في الأولى: ﴿يَوْمَ يَأْتُ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَمِنْهُمْ شَقِيحٌ وَسَعِيدٌ﴾⁶⁰، وقال في الثانية: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فَهُمْ فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾⁶¹.

دلت الآية الأولى على "زمن السعادة"، وهو اليوم الآخر، وعيّنت الثانية "مكان السعادة" وهي الجنة، فليُعتبر بذلك .

أساس الشقاء هو أننا نقارن حياتنا المادية بما عند الأغنياء ولا نقارن حياتنا الإيمانية بحالة الأتقياء، والرزق الحقيقي هو رزق الإيمان والثقة في الله، (اعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله

⁵⁹ - سورة يس الآية 77-78.

⁶⁰ - سورة هود الآية 105.

⁶¹ - سورة هود الآية 108.

لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفت الصحف⁶².

أقرب إنسان إليك ليس هو ذلك المشهور بل ذلك الذي يميل إليه قلبك بلا سبب، وتهواه روحك، لأن (الأرواح جنود مجنّدة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف)⁶³. فمن الموتى من إذا تذكرته تذكرت السعادة وانشرحت أساريرك ومن الأحياء من إذا تذكرته تذكرت الشقاء وانقبضت نفسك، من الموتى من يزورك في المنام، ومن الأحياء من هو قاطع للصلة معك، إذا حزنت ترنّم وإذا سعدت تألم، وتأتي لحظات من لحظات الامتحان فتكتشف بأنهم لا يستحقون تلك التضحيات.

⁶² - حديث مرفوع، أخرجه الترمذي في جامعه الصحيح، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، 667/4 رقم 2516 وقال: حسن صحيح.

⁶³ - حديث صحيح، أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، 2031/4 رقم الحديث 2638.

فصل في حقيقة الموت: المحددات المفهومية والوجودية والأنواع والمراحل



أولاً: المحددات المفهومية للموت

1- مفهوم الموت

يقول ابن فارس في المقاييس: (الميم والواو والتاء أصل صحيح، يدلّ على ذهاب القوّة من الشّيء، منه الموت خلاف الحياة)، وعللّ ابن فارس ذلك بقوله: (وإنما قلنا أصله ذهاب القوّة لما رُوي عن النبيّ صلّى الله عليه وسلم "من أكل من هاتين الشجرتين فلا يقربنّ مسجدنا، فإن كنتم لا بد تأكلوهما فأميتوهما طبخاً"⁶⁴).

ويقول البستاني في المحيط: (الموت هو عدم الحياة عمّا من شأنه أنّ يكون حيّاً، أو عدم الحياة عمّن اتّصف بها، وعلى كل فالتقابل بين الموت والحياة تقابل العدم والملكة.⁶⁶)

قول ابن فارس في تعريف الموت معقول ومنقول، معقول من جهة أنّ العقل يستحسنه، لأنه بتعريف الضدّ يكون الموت خلاف الحياة، وهو ما ذهب إليه البستاني في تعريفه، ومنقول لأنّه مؤصل من معنى الحديث، فقد استلهم من النصّ النّقلي أنّ إماتة الثّوم أو البصل طبخه، لأنّ طبخه وسيلة إماتته، لأنه يُذهب قوّته التي هي روحه، فكذلك الموت في الجسد، إمّا تُذهب قوّة الجسد، وإذا

⁶⁴- أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط 157/6 برقم 6074.

⁶⁵- مقاييس اللغة لابن فارس ص 934، (مادة موت).

⁶⁶- محيط المحيط، 161-160/8.

ذهبت القوّة أصبح الجسد ساكنا، وسكون الجسد يعني موته، وهو التعريف الذي ذهب إليه الفلاسفة.

ومن التعاريف المشهورة للموت (ترك النفس استعمال الجسد)⁶⁷، أو (ترك النفس استعمال آلتها)⁶⁸، وآلتها (هي الأعضاء التي يسمى مجموعها بدنا، كما يترك الصانع استعمال آتته)⁶⁹، وهو التعريف المشهور عند الفلاسفة واللغويين، وهو غير دقيق، لأنّ النفس غير فاعلة بذاتها في التخلّي عن الجسد، فانتعاق الرّوح ليس بإرادتها ولا من فعلها بل من فعل الموكل بقبض الأرواح، ثم إنّ النفس هي الرّوح والجسد في تركيبهما وتزواجهما، فلا يمكن للنفس التي هي منهما أن تتخلّى عن واحد منهما، لأنّ وجودها قائم عليهما فإذا نقص واحد زال وجودها، ثم إنّ الزّعم بأنّ مفارقة الرّوح لآلتها وهي البدن يلحق الفساد بالآلة هو قول ليس على إطلاقه في بعض الأجساد، ومنهم من ردّه بإطلاق بالقول بأنّ هذه المفارقة ليست فسادا للنفس وإنما هي فساد للتركيب فقط.

2- الموت ومصطلحات ذات الصلة

اجتهد بعض الباحثين في تحديد الفرق بين "أموات" و"موتى" و"ميتون"، و"ميت"، و"ميتت"، ومنهم من اجتهد في جمع الآيات التي تتضمن هذه الكلمات مقيمين الفرق بينها، لن نُكرّر ذلك لكن نشير إلى الخلاصات والنتائج المتداولة، وهي نتائج تقريبية لكونها لم تُبن على دراسة مصطلحية تكشف حقيقة المفاهيم المراد الوقوف عندها.

"-مات" تصلح في كلّ ذي روح من الإنسان والحيوان والنبات.⁷⁰

⁶⁷ - كشاف اصطلاحات الفنون للفنّان ص 1668.

⁶⁸ - تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق لابن مسكويه ص 218.

⁶⁹ - المصدر السابق، وانظر إحياء علوم الدّين لأبي حامد الغزالي 582/4

⁷⁰ - محيط المحيط للبيستاني 160/8-161 باب الميم.

"-الموتى" تُطلق على كلّ من فارق الحياة كلياً، وخرجت روحه من جسده، وهي جمع من يعقل، أمّا كلمة "الأموات" فهي تُطلق على بني البشر وحدهم، وهي في حقّ من فقد حواسّه المعنوية، فمات قلبه، وتمادى في الغيّ والضلال.

"-الميتون" جمع مختص بذكور العقلاء والميتات بالتشديد لإنانهم وبالتخفيف للحيوانات، كلُّ جُمع على لفظ مفردة⁷¹، هم الذين لم يموتوا بعد، وسيلحقهم الموت أو وُعدوا به لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَيِّتٌ وَإِن لَّمْ يَمُوتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ فَتَتَصَمُونَ﴾⁷²، فهي على صيغة الاستقبال.

"-الميت" بتسكين الياء تعني الموت المعنوي، ويرى البستاني أنّها في الذي مات، و"الميتة" بالتشديد تعني زوال الحياة، ومنه الميتة وهي في عرف الشرع ما مات حتف أنفه، أو قُتل على هيئة غير مشروعة، ويرى البستاني أنّ الميتة بالتشديد في الذي لم يمّت بعد بل سيموت، فمعناها بمثل "ميتون" السابقة الذكر، واستند في ذلك إلى قول الشاعر:

ليس من مات فاستراح بميت **** إنما الميت ميت الأحياء⁷³

ورأي أنّ موتى وأموات هما بمعنى واحد، يجوز إطلاق هذا وإطلاق ذاك، وكذلك في ميت وميتة. والله أعلم وأحكم.

3- الموت والقتل والوفاة

القتلُ من فعل قَتَلَ إذا ألحق الموت بالحي، أي: أماته بضربٍ أو حجرٍ أو سمٍّ أو مرضٍ أو غير ذلك، وشرط القتل صدور ما يُلحق الموت بالإنسان بعمد أو بغير عمد، والقتل من صفات الإنسان وليست من صفات الله تعالى، وقد سمّى الله

14 - المصدر السابق 160/8-161. باب الميم.

⁷² - سورة الزمراة الآية 29-30.

⁷³ - محيط المحيط 160/8-161.

القتل بالخطأ قتلا، كما سعى القتل بالعمد قتلا، فقال: ﴿وما كان لمومن أن يقتل مومنا، إلا خصا﴾⁷⁴، وقوله: ﴿ومن يقتل مومنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها﴾⁷⁵، أما الإمامة فهي من فعل الله تعالى، ومن صفاته أنه ﴿يعبر ويميت﴾، من ذلك قوله تعالى: ﴿وأنه هو أمات وأحيا﴾⁷⁶، ﴿فأماته الله مائة علم ثم بعثه﴾⁷⁷.

والوفاة تعني الموت، والجمع وفيات، ومنها كتاب ابن خلكان المشهور في التراجم بعنوان (وفيات الأعيان)، وتوفاه الله قبض روحه، وتوفي فلان قبضت روحه، فالوفاة تعني القبض والأخذ والإمساك: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها﴾⁷⁸ أي يقبضها، وقولهم: قبض المريض إذا توفي وإذا أشرف على الموت⁷⁹، والقباض هو الله تعالى وهي من أسمائه الحسنى، ومن معانيها الذي يمسك الرزق ويقبض الأرواح، وهي المهمة التي يقوم بها الملائكة بأمر من الله: ﴿إنّ الكافرين توفاهم الملائكة ضالما أنفسهم﴾⁸⁰، وهي تعني أن المتوفي أخذ حقه من الدنيا كاملا، يقال: "توفي حقه توفيا: أخذه وافيا"⁸¹، وهو الذي يدلّ عليه القرآن والحديث، فمن القرآن قوله تعالى: ﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله، كتابا موجلا﴾⁸²، وفي الحديث المرفوع: (لن تموت نفس حتى تستكمل أجله).⁸³

⁷⁴ - سورة النساء الآية 91.

⁷⁵ - سورة النساء الآية 92.

⁷⁶ - سورة النجم الآية 43.

⁷⁷ - سورة البقرة الآية 258.

⁷⁸ - سورة الزمر الآية 39.

⁷⁹ - لسان العرب 13/11.

⁸⁰ - سورة النساء الآية 96.

⁸¹ - محيط المحيط قاموس مطول للغة العربية للبستاني ص 676.

⁸² - سورة آل عمران الآية 145.

⁸³ - حديث أبي أمامة الباهلي، أخرجه أبو نعيم الأصبهاني في الحلية 27/10، وهو صحيح.

الله المتوفى، والعبد هو المتوفى، ويخطئ من يقول " توفى فلان بصيغة المعلوم"، والصواب " توفى فلان"، حكي البستاني أن أحدهم (مرّ بجنّازة فسأل من المتوفى يريد الميت؟، ف قيل له: الله تعالى، يريد به القابض الروح).⁸⁴

والله سبحانه وتعالى خلق الموت ولم يسن القتل، وأول من سنّ القتل هو ابن آدم الأول، وقبل القتل جرى حوار بين ابني آدم حول القتل، ﴿قال لأقتلنك، قال إنما يتقبل الله من المتقين، لئن بسكنت إلي يديك لتقتلني ما أنا بباسك يدي إليك لأقتلنك، إني أخاف الله رب العالمين، إني أريد أن نبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار، وذلك جزاء الظالمين﴾ وانتهى الحوار بأول جريمة قتل في التاريخ البشري ﴿فصوت له نفسه قتل أخيه فقتله، فأصبح من الخاسرين﴾، وبعد القتل احتار في الجثة، ماذا يفعل بها وهي بلا روح، بدت عليه علامة الحسرة والألم والتدم، ﴿فبعث الله غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه، قال: يلويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي فأصبح من النادمين﴾⁸⁵، لذلك جاء البيان في الحديث: (لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنه أول من سنّ القتل).⁸⁶

إذن، فالقتل سنّه الإنسان، والموت خلقه الله، ولذلك حرّم الله القتل بكل أشكاله وألوانه وأنواعه، فالقتل يتمكّن منه الإنسان لأنه سهل وميسر، رصاصة واحدة تقتل الإنسان، قنبلة واحدة تودي بحياة العشرات ولا أتكلّم عن أسلحة الدمار الشامل التي تسابق الإنسان إلى صناعتها وامتلاكها والغرض منها ظاهر، وهو تدمير الإنسان بالكلية، القتل سهل جدّا، لكن إرجاع الأرواح إلى أصحابها بنية التوبة والرجوع والإنابة هو أمر مستحيل، ولذلك ذهب بعض العلماء ومنهم

⁸⁴ - محيط المحيط قاموس مطول للغة العربية للبستاني ص 676

⁸⁵ - سورة المائدة الآية 33.

⁸⁶ - أخرجه البخاري في جامعه الصحيح، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم وذريته، أنظر الفتحة

364/6 رقم الحديث 3335.

عبد الله بن عباس إلى أن القاتل لا توبة له⁸⁷، فإذا كنّا نؤمن بأن للتوبة شروطاً ومن شروطها إصلاح المفسد، وإرجاع المظالم إلى أهلها فإنّ أول ما يجب في حقّ القاتل الراغب للتوبة هو إرجاع الرّوح إلى صاحبها، وهو من حقوق العباد لأنّ المقتول ظلماً لا يرضى إلا بهذا الشرط، لذلك جاء الحكم في قوله تعالى: ﴿من أجلّ عدلاً، كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساداً في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً﴾⁸⁸.

أما الرّوح في الجسد فهي نفس حيّة، والرّوح لا تخرج من الجسد إلا إذا تغيّر ولم يعد صالحاً لاحتضان الرّوح، وحين دخلت الجسد في المرة الأولى إنّما دخلته بعد التّسوية الكاملة، فالله سبحانه وتعالى لما سوّى الجسد نفخ فيه الرّوح ﴿فإنّما سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾⁸⁹، لكن إذا ألحق الفساد بالتّسوية بتحطيم الذات أو خروج الدم أو قطع الرأس أو دخول السمّ فإنّ الرّوح تخرج، وهذا يبين أنّ رجوعها إليه مرّة ثانية لا يكون إلا بعد تسوية الجسد بإصلاحه من الفساد الذي لحق به، وإذا أردنا التّقريب أكثر قلنا إنّ فيروس كورونا يلحق الفساد بالأجسام، وفي جهة واحدة وهي الرئة، وإذا توقّفت الرئة توقفت سائر الأعضاء الأخرى، وهذا حال الأجساد على العموم فإنّها تحيا بالمقاومة وهو ما يطلق عليه الطب " المناعة الذاتية"، يُقاوم الجسد الأمراض والفيروسات ليحافظ على توازنه، والجسد هو البيئة الطّبيعية للرّوح، فمتى ما كانت هذه البيئة صالحة لاحتضانها فهي فيه وإلا فهي ترحل بالخروج، وكلمة " خروج الرّوح " تأتي في مقابل " دخول الرّوح"، ﴿فلمّا خلى في عباده﴾⁹⁰، فهي كائن دخيل على

⁸⁷ - حديث عبد الله بن عباس، أخرجه الترمذي في سننه، أبواب التفسير، 122/5 رقم الحديث 3029

وقال: (هذا حديث حسن).

⁸⁸ - سورة المائدة الآية 34.

⁸⁹ - سورة الحجر الآية 29.

⁹⁰ - سورة الفجر الآية 32.

الجسد، تخرج مثلما تدخل، وأسباب الدّخول هي سلامة الجسد وصحّته، وخروجها هو فساد الجسد واضمحلاله.

القتل هو إلحاق الفساد بالجسد بأية طريقة تجعله فاسدا، ألا ترى أنّ الإنسان إذا مرض أو أشرف على الهلاك فإنه يروح إلى الطّبيب ليعالج الجسد حتى يعود إلى حالة السّواء، فالعملية التي يقوم بها الإنسان في التّداوي هي معالجة بقاء الرّوح في الجسد بمعالجة الجسد.

4- حقيقة الموت والموت المتعدّد

حقيقة الموت هي واقع وتعبير، الواقع إذا حلّت الموت في الإنسان، فحلولها في الجسد هو حقيقتها، وهو ما عبّر عنه الحديث (كفى بالموت واعظا)، أي كفى بها دليلا وقوّة وجود، ويعني كفى بها حقيقة واقعية، وحقيقة تعبيرها أنّ حقيقتها ثبتت بالتعبير والتّفكير، وكلّ واحد عبّر عن حقيقة الموت بحسب تصوّره لها، فهي عند البعض⁹¹:

-خبرة شديدة الألم.

-وراحة من حياة مؤلمة.

-وبداية لحياة مستقبلية.

يتعدّد الموت في الحقيقة كما يتعدّد في المعنى، من حيث الحقيقة هو على نوعين: موت العدم، أي: قبل الوجود، وموت بعد الوجود، وهو موت الحياة ﴿وَبِنَا أُمَّتِنَا أِثْتَيْنِ﴾، ويتعدّد من حيث المعنى بحسب تعدّد الرّؤى والتّصورات والأحاسيس، ومع كل ذلك يبقى الموت المعروف واحدا، دليل ذلك أنّ الكلام في أنواعه بالتعدّد من حيث المعنى إنّما تقاس من معنى الموت الحقيقي الواحد، وهو

⁹¹ - قلق الموت ص 108.

الموت الذي قدّره الله سبحانه وتعالى على العباد، حين دخل أبو بكر على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو ميّت كشف عن وجهه وقبله وقال: (بأبي وأمي أنت يا نبي الله، لا يجمع الله عليك موتتين: أما الموتة التي كتبت عليك فقد مُتَّها) ⁹²، فماذا يقصد الصّديق بالموتة الثانية؟

قدّم الحافظ ابن حجر في الجواب عن هذا السؤال عدّة أجوبة كعادته في الدّقة والإحاطة ⁹³، والذي نراه صواباً هو أنّ الصّديق كان تحت هول صدمة موت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكذلك كان عمر ﷺ حتى إنّهُ قال مقالته المشهورة: (ما مات رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يموت حتى يقتل الله المنافقين) ⁹⁴، لكنّ أبا بكر خطب في الناس، وهدّاهم، وأقرّ بموت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والمقصود من كلام الصّديق هو أنّ الموتة الأولى هي الموتة الحقيقية المقصودة في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَيِّتٌ وَإِنَّهُ مَيِّتُونَ﴾ ⁹⁵، فهذه الموت هي التي ذاقها رسول الله كما ذاقها غيره من الأنبياء والرسل، وهي المقصودة بقوله: (إنّ للموت لسكرات)، أو هي جواب على قول عمر الذي زعم من هول الصّدمة أنّ النبي ﷺ سيعود ليقطع أيدي رجال لأنّه لو صحّ للزم أن يموت مرّة أخرى، والله أكرمه بالموت وموتة واحدة، ويذوق كرب موتة واحدة وهو المستفاد من قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابنته الزّهراء: (لا كرب على أبيك بعد اليوم)، أي لن أذق كرب موت أخرى بعد هذا الكرب، كما فيه إشارة إلى أنّ كرب العذاب الذي يجعل الإنسان بين الموت والحياة لن يصب النبي ﷺ، وقد يكون أنّ الصّديق ﷺ قصد الموت المعنوي بعد الموت الحقيقي، أي موت دينه وشريعته وسيرته وكل ما جاء به، وهو المستفاد من قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إذا مات ابن آدم انقطع عنه عمله من الدّنيا إلّا من ثلاث:...) الحديث، وكلّ المعاني

⁹² - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب الدخول على الميت بعد الموت، أنظر الفتح 113/3

رقم الحديث 1241-1242

⁹³ - فتح الباري 114-115.

⁹⁴ - فتح الباري 146/8

⁹⁵ - سورة الزمر الآية 31.

صحيحة، وكلام الصديق صدق، فالموتة الثانية غير محققة في رسول الله بأي معنى من معانيها، وما هو حي بعد موته، ودينه وشريعته في كل الأقطار ولا تزيد الأيتام إلا شهتارا واتساعا، وتلك هي الحياة الحقيقية. ومن تلك المعاني النابعة من الإحساس ما نجده عند الخنساء (تماضر بنت عمرو بن الشريد) شاعرة مخضومة، نظرت إلى الموت بنظرتين متعاكستين، النظرة الأولى في الجاهلية، لما مات أخوها صخر، فرثته بالقصيدة المشهورة، وهي كلها ألم وحسرة حتى إنَّها تمنَّت قتل نفسها، والنظرة الثانية بعد الإسلام، وهي أنَّها لما مات أبنائها الأربعة في القادسية قالت: (الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجوا من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته)⁹⁶، اختلفت النظرتان لواقعة الموت في شخصين والقائل واحد، فما الذي تغيَّر؟ وما الذي غيَّر؟ ﴿رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلا﴾⁹⁷.

ثانيا: المحددات الوجودية للموت

1- الموت والخلق

نبحث هنا سرَّ علاقة الخلق بالموت، الذي خلق هو الذي يميت، وكلمة "خلق" تعني الحياة، لأنَّ الخلق هو الحياة الأولى التي أخرجت من الموت الأولى وهي العدم، الله الخالق هو الذي كتب الموت على كل ما خلق، وفي لحظة الخلق كتب القلم الأجل بالفناء، كتبه على الكل كما في قوله ﴿كل من عليها فان﴾⁹⁸، وكتبه على كل واحد حين يأتي الملك فينفخ الرّوح، ويؤمر بكتب أربع كلمات ومنها أجله، تماما كما يفعل الصّانع في الشركة حين يكتب على البضاعة تاريخ نهاية

⁹⁶ - أنظر الإصابة في تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر 112/8 ترجمة رقم 11112

⁹⁷ - سورة الأحزاب الآية 23.

⁹⁸ - سورة الرحمن الآية 24.

الصّلاحية، وعليه فإذا كنت لست أنت الخالق فإنّك لست أنت المميت، الذي يميت هو الذي يحيي، لذلك كان القتل جُرمًا فضيعة كما قدمنا.

2- الموت والخلود

يستبدل الملحدون كلمة الحياة بكلمة الخلود، والخلود المقصود خلود الجنس، لأنّ موت الفرد هو خلود لحياة الآخرين، والمعنى الثّاني أنّ الخلود هو العمل، لأنّ العمل يقتضي الحركة، ولا يوجد الموت إلا في الجمود، هنا توضع الحركة في مقابل الحياة كما يوضع الجمود في مقابل الموت، وإذا كانت الحركة خالدة كانت المشاركة فيها أوكد للبقاء في خلود، تلك هي حركة الخلود العقلاني، أما النّقلانية فتري أنّ سبب الخروج من الجنّة كان بسبب طلب الخلود، طلب آدم الخلود فوق في ضده، وقد قام إبليس بدور كبير في إخراج آدم وزوجه من الجنّة، لكنّ العدالة الإلهية اقتضت أن يخرج معهم لتبدأ معركة المصير، لكن الرجوع إلى الجنّة هو وعد من الله لآدم إن امتثل وعمل بالهدى والبيّنات - وهذا بعد التّوبة طبعاً- بخلاف إبليس فقد لُعن وطُرد من رحمة الله، وإبليس من أبلَس، وتعني: الطّرد من رحمة الله.

يعتقد النّقلاني بأنّ الخلود في الجنّة، ويجزم العقلاني بأنّ الخلود في الحركة، وتبقى الجنّة معرضة للنّقد، يقول ميشال فيريه: (وليس ثمّة حقيقة من دون تناقضات، فمن يريد الجنّة الحقيقية عليه أن يبحث عنها في الحياة، وأن يدفع ثمنها من التّناقض والموت، أي أنّ الفردوس الفعلي هو الأرض، ونحن لم نخرج بعد من الفردوس الأرضي علما بأنّه غير كامل، هذا صحيح، والحقّ يقال إنّه لا يشبه الفردوس أبداً، ولذلك علينا دائماً أن نصنعه، وأن نعيد صناعته، لأنّ هذا الفردوس لا يقتصر على التملّك وإنما على العمل، وليس على اللّاتناقض وإنما يقوم على الانتصار على التّناقض، إنّ راحة الإنسان الحقيقية تقتصر - كما قال لينين - على " الثّقة والنّشاط اللّذين يخلق بواسطتهما وبشكل مستمر

التناقض بينه وبين العالم، ويتجاوزه الدائم لهذا التناقض " إن ما سيكون لك من فردوس ستعطيه أنت لنفسك في حياتك".⁹⁹

وأقوى نقد سلبي يوجّه للجنة هو أنّها ميتة، يعني الحكم على الجنة بالموت، وهو من غريب ما يُتصور، فهي (مثل الفكرة التي تدفع ثمن هويتها من لا واقعيتها، خالدة ولكنها ميتة)¹⁰⁰.

ويتساءلون: (هل سنعيش في هذه الجنة لدرجة الموت ضجرا؟ وتوماس مان تنبّه لذلك¹⁰¹، إذا كان الخلود الذي يعدنا به الدّين هو إلغاء الزّمن أي: التّجسيد الوحيد الذي نملكه في الحياة، فإنّ هذا سيكون السّأم، أي: تلك اللّحظة التي تطول بلا نهاية، وتلك الفترة التي لا تواتر حقيقي فيها، لكنّ الجنة لو وُجدت فإنّها ستعني شيئا آخر غير السّأم اللّامتناهي؟ ستعني سأم التملّك بدون جهد ولا نضال، وضجر التأمّل بدون فعل، وملل التمتعّ بدون حاجة، أي سأم الملاك، والميتافيزيقي، والخامل، مجتمعين).¹⁰²

تعمّدتُ إيراد هذه النصوص وتركت غيرها الذي يبدو أشدّ فداحة في الموضوع لنقف على حجم التّوغل في الإلحاد في مواضيع هي من الغيب أصلا، ففي الوقت الذي وضع النّقلاي الجنة تحت أقدام الأمهات في واقعية مثالية وأخلاقية رفيعة وضع العقلاني عقله تحت قدميه، وراح يُناقش الموضوع بخرافية غير قابلة للمتابعة، فالعقلانية لا تقدّم الموت سوى كونه وسيلة للقطع مع الحياة ومع الجنة، ولما كانت الحياة هي كلّ شيء كانت الموت هي لا شيء، ولذلك توصي

⁹⁹ - الماركسيون والدّين ص 133.

¹⁰⁰ - المرجع السابق ص 132.

¹⁰¹ - **Thomas Mann** أحد الرّوائيين الألمان. ولد سنة 1875م، وتوفي في زيورخ، حصل على جائزة نوبل في الأدب لسنة 1929م، من رواياته الشّهيرة " موت في البندقية "، تحوّلت فيما بعد إلى فيلم يحمل نفس العنوان.

¹⁰² - الماركسيون والدّين ص 132.

العقلانية بأن يعيش الحي حياته بكلّ عناصرها، وبكلّ الأساليب والوسائل ولو كانت بالتطهير العرقي أو بالإبادة الجماعية، ولقد أنشئت في ذلك نظريات وفلسفات غدّت الممارسات الشنيعة التي تعيشها البشرية على هذه الأرض، إنّها حياة الجسد ولا شيء غيره، عقل العقلاني متمركز على الجسد كتمركز بائعة الهوى على جسدها، فهي لا تملك غير الجسد، وإذا ذهب الجسد ضاع كلّ شيء كانت تُراهن عليه، كذلك العقلاني إذا راح الجسد فلا معنى لأي شيء بعده.

الموت رحمة بالنّاس، كتبه الله عليهم ليطوي عجزهم، وآفات أرذل العمر، لأنّ لأرذل العمر آفات لا يشعر بها إلا من وصلها، كثير من النّاس حين يصلون إلى أرذل العمر يتمتّون الرّحيل قبل الوقت، لو لم يكن الموت مقدّراً لكان الخلود في الدّنيا مصيبة للإنسان، سيكون مللاً من الحياة، حيث تصبح الحياة به لا تطاق، لو افترضنا جدلاً أنّ الخلود تحقّق لشخص واحد على الأرض فما يفعل في دنيا رحل عنها كلّ أصحابه وأحبّابه وأصدقائه، وعمّرها ناس لا يعرفونه ولا يعرفهم، ليسوا من جيله، هذا على سبيل الافتراض وإلا فإنّ الخلود في الدّنيا محال لأنّ الإنسان خُلِق هلوعاً، فهو غير مهياً لذلك، تماماً كما يفكر اليوم للعيش على أرض القمر أو المريخ¹⁰³، في عملية الخلق الأولى حين طمع آدم في الخلود وهو في دار الخلود فعوقب بالحرمان منه، وحصل التّزول، ولم يعط الله الخلود إلا لأهون خلقه عليه وهو إبليس: ﴿فَإِذَا مِنَ الْمُنْضَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾¹⁰⁴، فأنّظره إلى يوم الدّين، وكان إبليس قد طلب من ربّه ذلك فقبل طلبه، لأنّه ما طلب إلا شيئاً مذموماً، ولو علم إبليس وبال الخلود عليه ما طلبه، فكتب الله عليه الشّقاء، أما العبد الصّالح حين دعا ربه فقال: ﴿وَهَبْ لِي مَلِكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾¹⁰⁵ فوهبه الله ذلك إلا الخلود، ولم يثبت أنّ أحداً من الأنبياء والرسل

¹⁰³ - أستثني من ذلك الرّحلات إلى الفضاء لأجل البحث والاستكشاف .

¹⁰⁴ - سورة الحجر الآية 37-38.

¹⁰⁵ - سورة ص الآية 34.

طلبه، كلهم كانوا يتمنون الموت على الإسلام، وآخرهم محمد صلى الله عليه وسلم الذي حُير بين البقاء والرحيل فقال: (اللهم، الرفيق الأعلى)¹⁰⁶.

في تاريخ ثقافة النّقل وقائع محفوظة من سير الظّالمين والمفسدين الذين عاثوا في الأرض فسادا، يفسدون في الأرض ولا يصلحون، وحين أدركهم الموت نطقوا بالحكمة، الحجّاج بن يوسف الثّقفي، المبير والمببطش، حين أدركه الأجل، وأحسّ بإحساس لا يخيب بأنّه سيخرج من الجاه والسّلطة والقصور، وسيلقى تلك الأرواح البرينة التي أزهقها ظلما وعدوانا، نظر إلى الدّنيا نظرة مودّع، وإلى الجاه والسّلطان نظرة متحسّر ومتألّم، إنّها الكلمة الأخيرة التي جاءت في آخر الوقت، كان آخر ما قال حين صعد المنبر: (كأنّي والله بكلّ حيّ منكم ميتا، وبكلّ رطب يابس، ثم نقل في أثياب أكفانه ثلاثة أذرع طولا، في ذراع عرضا، فأكلت الأرض لحمه، ومصّت صديده، وانصرف الخبيث من ولده يقسم الخبيث من ماله، إنّ الذين يعقلون يعقلون ما أقول)، ثم نزل¹⁰⁷.

عُرف عن الحجّاج الدّهاء والمكر مع الرّعية، فسفك دماء كثير منهم، ويكفي أنّه قتل سعيد بن جبير، وابتلي بقتله، وقصّة قتله مؤثّرة جدّا، فمنذ أن قطع رقبته لم يحلم بنوم هادئ ومريح قط، حتى إنّّه إذا نام رأى سعيد بن جبير أخذًا بمجامع ترقوته يقول له: يا عدوّ الله، فيم قتلتي؟ فيستيقظ مذعورا وهو يقول: مالي ولسعيد بن جبير؟¹⁰⁸.

قلت: عُرف عن الحجّاج بن يوسف الذّكاء والدّهاء، وها هو يستخدم ذكاءه مع الموت، فقد قال حين حضرته الوفاة: (اللهم اغفر لي فإنّ النّاس يزعمون بأنك لا تفعل)، وذكروا أنّه أنشدها شعرا فقال:

¹⁰⁶ - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصّحابة، باب في فضل عائشة، 1894/4 رقم الحديث

¹⁰⁷ - البداية والتهاية لابن كثير 158/9.

¹⁰⁸ - وفيات الأعيان 374/2.

ياربّ قد حلف الأعداء واجتهدوا ***** بأنني رجل من ساكني النار

أحلفون على عمياء ويحهم ***** ما علمهم بعظيم العفو، غفّار¹⁰⁹

مات الحجاج بن يوسف في ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان
بواسطة، وعفي قبره، وأجري عليه الماء لكيلا ينبش ويحرق.

وهذا عمر بن عبد العزيز الذي أحيا به الله السنن والعدل فإنه لما تمكّن
السّم في جسده وأوشك على فراق الدنيا أمرهم أن يجلسوه فجلس وقال: (لا إله
إلا الله، ثم أحدّ النظر، فلما سألوه عن ذلك قال: إنّي لأرى حُضرة، ما هم بإنس
ولا جن)، ثم استرخى وقُبض.¹¹⁰

وهذا عبد الله بن المبارك المروزي (ت 181هـ) يوجّه الوصيّة للحسن بن
الربيع لحظة وفاته فيقول له: (إذا سمعتني قلت كلمة الشّهادة فلا تردّها عليّ حتى
تسمعني أخذتُ في كلام آخر)، وفتح عينيه عند الوفاة وضحك وقال: " لمثل هذا
فليعمل العاملون "¹¹¹، ثم قبضت روحه¹¹².

أما هارون الرشيد، وهو أمير المسلمين في وقته (ت 193هـ) فإنه لما اشتدّت
به العلة انتقى أكفانه بيده، وجعل ينظر إليها ويقول: ﴿ما أغنى عني ماليه، هللا
عني سلصانيه﴾¹¹³، ودخل المزني على الإمام محمّد بن إدريس الشافعي (ت 204هـ)
في مرضه الذي مات فيه فقال له: كيف أصبحت ؟ فأجابه بقوله: (أصبحت من

¹⁰⁹ - البداية والنهاية لابن كثير 9/158..

¹¹⁰ - إحياء علوم الدين 4/567.

¹¹¹ - سورة الصافات الآية 61.

¹¹² - إحياء علوم الدين 4/568.

¹¹³ - المصدر السابق 4/567، والآية 28-29 من سورة الحاقة.

الدنيا راحلا، وللإخوان مفارقا، ولسوء عملي ملاقيا، ولكأس المنية شاربا، وعلى الله واردا، ولا أدري أروحي تصير إلى الجنة فأهنئها، أم إلى النار فأعزبها) ¹¹⁴.

الله الذي خلق الموت صوره في صورة كبش أملح، والكبش للفداء كما في قصة إبراهيم مع إسماعيل، افتداه الله بكبش عظيم، والفداء هنا هو للإنسان لأجل الخلود، لا خلود مع وجود الموت، ولم يتحقق الخلود للإنسان بعد الموت إلا بموت الموت، في حديث ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (يدخل الله أهل الجنة الجنة، ويدخل أهل النار النار ثم يقوم مؤذن بينهم فيقول: يا أهل الجنة لا موت، ويا أهل النار لا موت، كل خالد بما هو فيه) ¹¹⁵، وفي حديث آخر لابن عمر مرفوعا: (أُتي بالموت حتى يُجعل بين الجنة والنار ثم يُذبح، ثم يناد مناد: يا أهل الجنة لا موت، ويا أهل النار لا موت، فيزداد أهل الجنة فرحا إلى فرحهم، ويزداد أهل النار حزنا إلى حزنهم) ¹¹⁶.

الموت كائن مُخيف، لكنّ الله تعالى خلقه وأحسن صورته بأن صوره في صورة كبش، والكبش قابل للذبح، وهو فدية للإنسان من الموت، ولم تكتمل فرحة أهل الجنة إلا وهم يشاهدون "موت الموت"، وهو ما فتح لهم باب الخلود، أما أهل النار فزادوا حزنا إلى حزنهم، فهم في عذاب جهنم، ويرجون الخروج منه، أو القضاء عليهم ليموتوا حتى يرتاحوا من العذاب، وهو مطلبهم ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْتِيَ كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوتِ كتابيه، ولم أحر ما حسابه، ياليتها كانت القاضية﴾ ¹¹⁷.

¹¹⁴ - إحياء علوم الدين 4/ 571.

¹¹⁵ - صحيح مسلم، 4/ 2189 رقم الحديث 2850.

¹¹⁶ - المصدر السابق

¹¹⁷ - سورة الحاقة الآيات (24-27).

3- سؤال الموت

سؤال الموت هو في الزمان والمكان، هو في كل شيء، والشئ المقصود هنا هو الشئ المذكور في النص ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾¹¹⁸، ابتداء من البذرة والزهرة والشجرة وانتهاء بالكون والمجرة، للموت سؤال ظاهر على ملامح الطبيعة، وحتى الطبيعة فإنها تحزن للموت وتفرح للحياة، ﴿فَإِنَّمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ، وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾¹¹⁹.

سؤال الموت يُطرح علينا باستمرار، والجواب الطبيعي جاهز أيضا (إن معنى موتي لا يوجد في أي مكان آخر، ونهايتي التي هي فضيحة غير معقولة على مستوى الفرد تأخذ معناها على مستوى الجنس الإنساني، " إن موت الأهل هو حياة للأبناء" كما قال هيكلم، وهو بمعنى ما اشترط تقدّم الأجيال، وبدونه فإن الأرض ستمتلئ بالمستين، إن شرط الشباب اللامتناهي للإنسانية هو موت الأفراد).¹²⁰

نعيش الحياة بكل ما فيها إلى درجة من التّخمة، ودليل تخمة الإنسان هو البحث عن حياة أخرى خارج الكرة الأرضية، لم يكن الإنسان اليوم مدفوعا بضيق الأرض والعيش أو استحالة الحياة على هذا الكوكب بقدر ما هو بدافع الفضول والاستزادة من الحياة، إنّه نهم الحياة لا العلم، وللأسف يُركب على العلم ليحقّق نوعا من التفاهات بالنسبة للبشر، يقيم الإنسان حفلات ماجنة في التزاوج والتوالد والتناسل وقيام مواسم الأفراح بمناسبات صنعها تُصرف عليها الملايير من الدولارات، وحصل الاستسلام لهذه الظواهر حتى أصبحت مسألة روتينية، وأصبحت الحياة منمّطة بنوع من التّقليعات والموضات وأشكال الرّقص والغناء إلخ، ثم يأتي الموت فيقلب الحياة، ألم تحضر في وليمة إنقلبت إلى عزاء بين عشية

¹¹⁸ - سورة القصص الآية 88.

¹¹⁹ - سورة الحج الآية 5.

¹²⁰ - الماركسيون والدين ص 129.

وضحاها، من الغناء بالصوت العالي إلى البكاء والصراخ بالصوت العالي مع فارق أن الآلات تتدخل في الأفراح لكنّها لا تُستخدم في الأتراح، لم يتأكد أن أحداً استخدم مكبر الصوت في البكاء مثلما استخدمه في الغناء، الموت مفسد لكل شيء، لماذا هذه النجوم والمجرات في الكون وهي كثيرة ومتنوعة تمرّ هي بدورها من دورة النشأة والتكاثر إلى دورة الفناء التّهائي، وهذا المحيط الأخضر الحي القابع في الطّبيعة المائل أمامنا نتلذّذ به في كلّ اللحظات سرعان ما يذبل ويصير إلى الفناء.

(بقي الإنسان نقطة صغيرة في محيط الحياة أقل أهمية من ورقة في غابة كبيرة، فكما الورقة تسقط وتذبل وتموت دون ضجيج كذلك الإنسان سيعود إلى حيث منتهاه الأبدى، لا شيء يستطيع إيقاف حركة الزّمن أو إعادته إلى الوراء مما يجعلنا نسير نحو موتنا دون أن ندري، ولكننا في رحلة الحياة هذه لا نعرف الزّمان والمكان والطريقة التي يمكن أن يحدث بها الموت، ولا نعرف أيضا ماذا ينتظرنا في ظلمة القبر الأبدية لأنّ الموت انتقال من حالٍ إلى حالٍ، من واقع مادّي معلوم إلى مصير مجهول)¹²¹.

يتضمن هذا النصّ أفكارا كثيرة من اللاأدرية التي سنتكلم عليها في فقرات قادمة، ويجذب الانتباه إلى حيرة الإنسان أمام الموت والحياة والوجود.

حياة المرء تبدأ من أولّ يوم في العمر، لكنّها في الحقيقة مستمدّة من الحياة الحقيقية التي بدأت منذ ملايين السنين على الأرض، ولولا تلك الحياة القديمة في الوجود ما كانت حياتنا اليوم، وكذلك الموت، تحلّ بنا عند نهاية العمر لكنّ موتنا مستمدّ من الموت الأوّل، وهو الأصل الذي كان قبل الزّمن، ولولا العدم لما كان للموت معنى في الوجود، إنّها تعلقات يجب استحضارها، ﴿إنّه هو ببدى ويعيب﴾

122

¹²¹ - إشكالية الموت ص 11

¹²² - سورة البروج الآية 13.

4- الموت وتغيير الجسد

"التغيير" المقصود هنا ليس تغيير الجسد ونموه في الحياة، من عالم الأجنة إلى الطفولة إلى الشباب إلى الشيخوخة، وليس المقصود بـ "التغيير" انحلاله وتفككه بعد خروج الروح، التغيير المقصود هو الذي يطرأ على الجسد في عالم البعث، هناك تغييرات عديدة تطرأ، والذي يُجري هذه التعديلات هو الخالق سبحانه، وهذا التغيير يطرأ على الجسد إذا أُدخل النار أو أُدخل الجنة، ففي النار يشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون: ﴿وَقَالُوا لَجَلْوًا لَهُمْ لَمْ يَشْهَدُوا عَلَيْنَا، قَالُوا أَنْصَقْنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْصَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾¹²³، وكذلك تغيير الجلد ليذوقوا العذاب، وتذوق العذاب يمشي مع الإحساس به وهذه من وظائف الجلد، فمظنة الجلد الإحساس، ﴿كَلَّمَا نَضَجَتْ جِلْدُهُمْ لَمَّا جَاءَهُمْ جَلْوًا غَيْرَهَا لِيَكُونُوا الْعَذَابِ﴾¹²⁴، وذكرهم الخالق سبحانه بالخلق الأول فقال: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تَرْجِعُونَ﴾¹²⁵، وهذا الرجوع يقتضي تغيير في الخلقة، وكذلك وضعية الجسد في الجنة، فالزمن يقف عند سنّ الشباب، كما أنّ حاجة الإنسان تزال بمرّة، والقلوب يزال منها الغلّ والحقد والكراهية إلخ.

من التغيير الذي يجب رصده هو أنّك لما كنت حيّاً كنت (صالحاً)، صالحاً لكلّ أحد ولكلّ شيء، وهذا هو المطلوب ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْتَرِهُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاتًا مُبَارَكَةً﴾¹²⁶، صالحاً للزوجة وللأولاد، صالحاً للعمل الإداري والتجاري والعلمي، الناس من حولك يتقربون منك، ولربّما يتزاحمون عليك، إن كنت إنساناً مُمهماً لقيت من الحبور والحفاوة الشّيء الكثير، وإن لم تكن صالحاً للجميع فإنّك صالح لمن يحبّك ويدنّيك من أحبّابك وأصحابك وأقربائك، كل هذا

¹²³ - سورة فصلت الآية 20.

¹²⁴ - سورة النساء الآية 55.

¹²⁵ - سورة فصلت الآية 21.

¹²⁶ - سورة النحل الآية 97.

يتغيّر تماما حين تخرج الرّوح من الجسد، حين تخرج الرّوح تصبح مُخيفا ومُرعبا، حتّى أنّ أقرب النّاس إليك وهم أهلك لا يُطيقون المبيت بجانبك ولو لليلة واحدة، ما الذي تغيّر يا ترى: هل النّاس من حولك أم أنّك أنت الذي تغيّرت؟

يُجمعون على أنّك أنت الذي تغيّرت، والذي غيّرَكَ هو الموت، فيجعلك غير صالح ولا نافع، الموت هذا المُغيّر الرّهيب الذي نقلك من صورة إلى أخرى، صيّرَكَ مُرعبا، ولذلك يتسارعون بالجنّازة قبل أن تؤذي الإنسان وتلوّث الطّبيعة.

يمرّ الجسم من ثلاثة مراحل¹²⁷:

المرحلة الأولى: في حياتك، حين تكون حيّا، تتحرّك بإرادتك، لا أحد يتدخل فيك، تعيش سنوات معدودة لكنّها طويلة إذا ما قيست بالمرحلتين التاليتين.

المرحلة الثانية: حين تخرج روحك وتصبح جنازة، فلا تتعدّى الجنّازة وقتا محدّدا، وهو وقت الغُسل والكفن والصّلاة والدّفن، وقد تتأخّر استثناء، لكن الأمر يقتضي التّعجيل.

المرحلة الثالثة: حين يُوارى الجثمان التّراب، ويكون قد وُضع في مستودعه الأخير، لا أحد يفكّر بعد تلك اللّحظات أن يكشف عن وجهك، أو يحمل الجثمان مرة أخرى، ولا أنّ الجماعة التي شيّعتك ستعود في اليوم الموالي أو في الأيام المقبلة لزيارتك مجتمعة.

(المشكلة أنّنا لا نستطيع أن نعيش تجربة موتنا، ففي اللّحظة التي يموت فيها المرء، يتحوّل جسمه فجأة إلى شيء مختلف تماما، مختلف إلى حدّ يمكننا معه القول "إنّه لا يبدو الشخص ذاته" وإن بقيت عظامه كما هي، وبقيت كذلك، المادّة التي كان يتكوّن منها منذ لحظات خلت، قبل تلك اللّحظة الغريبة التي تنسل

¹²⁷ - تميّزا عن المراحل العامة التي تكلمنا عليها في فقرة " الموت والمراحل العامة " .

فبها الروح من الجسد، وتخلفه ميتا، مثلما يخلف الدار سكانها الذين يفارقونها إلى الأبد، وبخاصة أولئك الذين في ربوعها تألموا، وفي أرجائها أحبوا¹²⁸.

5- لغة الموت

"لغة الموت" مصطلح مركب له معنيان، الأول يخص الموت ذاته، والثاني يخص المتكلم عنه، فلنفرق بين المعنيين.

بخصوص المعنى الأول لا توجد للموت لغة واحدة بل لغات، فإذا كانت لولادتك لغة فإنّ لموتك لغة مخالفة، فليوم عقيقتك لغة، إنّها لغة الفرح والزّغاريد، أمّا لغة موتك فهي على النقيض تماما، إنّها لغة المؤبّنين، ولغة الباكين والصّارخين، وبين اللّغتين فرق كبير.

تستطيع أن تميز لغة الموت بأدنى إحساس، تماما كما تراه في الطّبيعة إذا حلّ الموت فيها، ففي الأشجار والأزهار وفي النّباتات والحيوانات يرسل لغة، وليس بالضرورة لغة الحروف والكلمات بل لغة الصّور والأشكال، وحين تفهم الطّبيعة تلك اللّغة يخيم عليها الحزن والأسى، تباشير الموت هي لغته التي يرسلها قبل حلوله، وهي لغة يفهمها العالم كلّه، فهمها الأقدمون فتواصلوا بها، وفهمها المحدثون لكنهم لم يحسنوا التواصل معها.

وبخصوص المعنى الثّاني فإنّ الكلام عن الموت يتمّ بطريقتين: كلام عن الموت من موقع الحياة، وكلام عن الموت من موقع الموت، ولكلّ نوع من النّوعين لغته، الكلام عن الموت من موقع الحياة هو الطّأغي، وهو الكلام الذي يجيده كلّ واحد، ولغة هذا الكلام يجيدها الجميع، أمّا الكلام عن الموت فليس لكلّ النّاس بل للخواص، فإذا كانت لغة النّوع الأول معلومة فإنّ لغة النّوع الثّاني مجهولة، الكلام عن الموت بلغته يحتاج إلى ثقافة ومعرفة، وقد علمتنا النّقلائية ماذا نقول

¹²⁸ - إشكالية الموت ص 42-43.

عند حلول المصيبة، وما هي آخر كلمة نقولها عند خروج الرّوح، وبماذا نجيب الملكين، وماذا نقول استعداداً للموت ونحن في الحياة، النّقلانية هي المجال الوحيد الذي يعلمك لغة التخاطب مع الموت، كما يمدّك بما يكفيك من علوم ومعارف عن الموت.

6- موت الحياة في الحياة

هل يمكن أن نتكلم عن موت الحياة في الحياة؟ الجواب: نعم، ممكن، لأنّ الحياة هي نفسها تموت شيئاً فشيئاً، الحياة تقاس بالعمر، والعمر يزوب بالدقائق والساعات والأيام والشهور والسنين، إنّ الأعوام التي قضيناها في سنين خلت ماتت على وجه الحقيقة لا على وجه المجاز، ونتكلم هنا عن موت الرّمن، فإذا أردت أن تعرف صحّة ذلك فاسأل نفسك هل تستطيع أن تأتي بأيام الصّبا وأيام الشّباب وأنت في الكهولة، بل اسأل نفسك هل تستطيع أن تأتي بالساعات الأولى التي قضيتها في ليلة زفافك أو في جلسة مع الأحباب في نزهة مؤرخة في الوجدان، الرّمان لا يعيد نفسه، والأحداث لا تتكرّر هي بالذات، وحتىّ الجسد فإنه مع توالي الأيام يودع بعض الحركات التي كان يقوم بها في وقت ولم يعد يستطيع القيام بها في وقت آخر، تستطيع إعادة ذلك الدّرس أو تلك المحاضرة التي ألقيتها في السنوات الأولى داخل مدرّجك لكنّها ليست هي بالذات، فدقات قلبك وأنت شاب ليست هي نفسها الآن.

لما كان الموت يهدّد الحياة كان كل ما يرتبط بالحياة مُهدّداً بالزوال، فاللغة والتقاليد والحضارة والثّقافة والعمران والتكنولوجيا والتجارة والمال والأعمال كلّها من مزيّنات الحياة، وكل ما يزِين الحياة ويجعلها ذات وجود ومعنى يزول بزوالها، وهذا لا يتمّ على مستوى زوال الحياة بمرة بل يتمّ في سيرورة الحياة نفسها، الحياة مستمرّة والموت فيها مستمر، تموت حضارات وتنشأ أخرى، وتنقرض دول وتظهر أخرى، وتزول تقاليد وأعراف وتنشأ أخرى، وقد أمرنا بتدبّر القصص القرآني، وما

حُكي لنا عن الأمم والحضارات والقُرى والأعيان إلخ، أو ليس الموت هنا موجودا في قلب الحياة؟ إنّه كذلك بل أكثر من ذلك، إنّ التدبّر المقصود من الزوال والفناء هو لنحيا الحياة الحقيقية ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾¹²⁹، وقوله: ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل﴾¹³⁰.

7- الموت ومفهوم الزّمن

لا يوجد الزّمن إلّا في الحياة، لكن الموت هو الذي يمنحه صلاحية الوجود، ولا نحبّ أن نقول إنّ الموت والحياة هما كلّ شيء، وإذا كنّا نُعائِن قضية الموت من الحياة فلأننا في الحياة نفكّر ونتأمّل، والحياة مظنة التكليف، فلا يوجد عندنا مبرر لإقصاء الموت من الاعتبار، صحيح أنّي حين أموت لا أفكر كما أفكر وأنا حي، لكنني أعلم من منطلقٍ نقلانيّ أنّي سأحصد ما زرعْتُ في حياتي بعد مماتي، وسأحيا حياة أخرى بناءً على ما قدّمت في الأولى، وسأجني ثمن حياتي كما يجني الصيف ثمرات الربيع، والزّمن فصول متعاقبة يجني بعضها ثمار بعض، وهو أطوار حضارية، كل طور يجني غلّة الطور السابق، نحن في ذاتنا هكذا، وإذا تأمّلت عقارب السّاعة وجدّتها هكذا، فإنّك إذا أكلت لحما نتنا في هذه السّاعة أحسست بالوجع في السّاعة الثانية، تماما كمن يضع يده في القدر المغلي: الدقائق الآتية تكون أكثر ألما، يقول بودلير- ذاك الشّاعر الرّجيم:- (الأطفال والأغبياء وحدهم هم الذين لا يفكّرون إلّا بالحاضر)¹³¹.

¹²⁹ - سورة غافر الآية 81.

¹³⁰ - سورة الرّوم الآية 41.

¹³¹ - إشكالية الموت ص 128، ذلك ما سَطَّر على كتاب بعنوان (الشّاعر الرّجيم بودلير)، صدر عن دار المعارف بمصر في سلسلة إقرأ 7، وهو فعلا "شاعر رجيم"، عاش على حبّ النّساء ومتعة أجسادهنّ وحياة قاسية، دخل إلى إحدى الكنائس الأثرية في "مقاطعة نامور" ببلجيكا مع بعض المشتغلين بالأدب والنّشر فخرّ صريعا في صحتها، أنظر ما كتبه عن الموت في ص 104 من المرجع المذكور.

إنّ زمن العمر شيء وزمن أعضاء الجسد شيء آخر، ولا يلزم تزامنهما، ولذلك عليك أن تنتبه بأنك كتلة من الزمن المعجون في ذاتك، كلّ خلية من خلايا الجسد لها زمنها الخاص بها، ولربّما لها حياتها الخاصة وموتها الخاص، مئات الخلايا تموت فيك وأنت حيّ، وآلاف أخرى تولد منك وأنت حيّ، والملايين تنمو شيئاً فشيئاً كما تنمو أنت بكُلِّك وتسير إلى حتفك، العمر هو الحياة كلّها من مولدك إلى وفاتك، وهو لا يقاس بالزمن، ونكرّر القول للتأكيد مرّة أخرى على أنّ جسدك هو مجموعة أعضاء تكوّنت في أوقات مختلفة، فالأسنان والأضراس جاءت مختلفة ونبتت في أوقات متفاوتة، ويمكنها أن تموت وتزول قبل زوالك، وكذلك الشعر النابت على جسدك، فاللحية مثلاً مع شعر الرأس والإبط والعانة نبتت مع الأيام ولم تنبت فيك دفعة واحدة، والشيب يتأخّر ظهوره، فلا يلزم أن يكون زمن العمر هو نفسه زمن كلّ أعضاء وخلايا الجسم، ويصعب عليك أن تؤرخ لزمن أعضاء وخلايا الجسد لأنك إن استطعت فعل ذلك لا تبقى لك من الحياة مُتعةً، تماماً كالمشغل على المجاهر الميكروسكوبية، فهو مع البكتيريا وأنواعها وعالمها، منجذب بين عالمين: العالم الماكروسكوبي، الظاهراتي، والعالم الميكروسكوبي المخبري، كما عليك أن تعلم أنّ خروج الرّوح لا يعني موت كل الخلايا، فإن بعض الخلايا تبقى فيها الحياة حتى بعد خروج الرّوح، لكن إلى أمد حيث يستسلم الجسد للانهايار الكلّي، وقد أثبت العلم التجريبي الطّبي شيئاً من ذلك.

إذن، الزمن في علاقته بجسدك غير متطابق، تتفكّك وحدته ليصبح أزمنة، والموت والحياة في جسمك يتعاقبان جدلية الوجود، الولادة تُبدئ الحياة والموت ينهئها، ذاتك وأنت حيّ هي صراع بين ما يولد فيحيا، وما يموت فيفنى، عالم صغير بحقائق عظيمة وكبيرة.

الموت يأتي، لكنك لا تدري في أي وقت بالضبط سيحل، حين يحل سينتهي زمن عمرك، لا يقترب الموت من الجسد الميّت، ولا يوجد ميّت يموت ثانية أبداً،

حمقى أولئك الذين يمثلون بالجثث، أو يطلقون النار على جثث هامدة، الموت لا يقترب إلا من الجسد الحي، يقترب منه منذ ولادته، وقد يأخذه بعدها مباشرة.

يتساءلون: هل يمكن للموت أن يحضر خارج الزمن؟، الجواب: يجب التفريق بين حضورين من حضوره: حضور معنوي وحضور مادي، حين لا يحلّ في الذات فهو حاضر بالقوّة، وحين يصبح في الذات فهو حاضر بالفعل، وإذا أردنا تقويم النوعين قلنا إنّ حضوره بالقوّة هو حضور خارج الزّمان والمكان، لكنّه في ذهن الإنسان، وحضوره بالفعل هو حضور في الزّمان والمكان وفي ذات الإنسان، والموجود بالقوّة والموجود بالفعل من أجمل تعابير أرسطو.

أُجريت دراسات علمية حول إدراك الزّمن وعلاقته بالخوف من الموت، وبرهنت هذه الدّراسات على وجود علاقة بين الزمن والخوف من الموت، فقد لاحظ عالم النفس الفرنسي "بول فريس" بأنّ النّاس كلّما تقدّم بهم العمر كلّما زادت ملاحظاتهم عن سرعة مرور الزّمن، فهم يقيسونه بالأيام والشّهور والسّنين، وافترض "ليملش" بأنّ هذا الإحساس هو خاصّ بكلّ شخص، لكون ذاته إطار مرجعي في الحكم على الزّمن، كما قام "جوبيرت" بتطبيق مقاييسه العلمية في دراسة أجراها على عدد من المفحوصين من الطّلبة خلّص إلى النتائج ذاتها¹³².

لكنّ الأمر على الخلاف عند بعض علماء النّقل الذين يرون الحياة في الزّمن، ونقصان زمن عمر الإنسان هو نقصان من الحياة واقتراب من الموت، لكنّ هؤلاء لم يكن همّهم الوقوف عند مفهوم الزّمن في حدّ ذاته في علاقته بالموت والأجل بل كان همّهم النظر في المصير، وشحذ همّة الإنسان ليعمل لما بعد الموت، ومن هؤلاء رابعة العدوية التي خاطبت سفيان بن مسروق الثوري فقالت: (إنّما أنت أيام معدودة، فإذا ذهب يوم ذهب بعضك، يوشك إذا ذهب البعض أن

¹³² - أنظر قلق الموت ص 141-142.

يذهب الكلّ وأنت تعلم، فاعمل)¹³³، ولم يكن بشر بن الحارث الحوفي العالم العرفاني الربّاني يكثرث للّحظات الآنية ولا التي مضت، فالوقوف عندهما مضيعة للزّمن وإهدار لوقت العمر، (فالأمس قد مات، واليوم في التّزع، وغد لم يولد فبادر بالأعمال الصّالحة)¹³⁴.

يجب التّفريق هنا بين ثلاثة أنواع من الزّمن بخصوص علاقة الموتى به، الزّمن الأوّل الذي عاشوه، وهذا انتهى بانتهاء أجلهم، لا زيادة عليه ولا نقصان منه، يتبدّى ذلك في الكلام على سيرهم خلال مراحل عمرهم، وينتهي الكلام بتحديد سنة الوفاة، والثّاني الزّمان الذي تركوه وراءهم، وهو الزّمن الذي تتعامل به كأحياء معهم، وهذا التّعامل لا يتجاوز تأريخ الوفاة، وعدّد السّنين التي مضت على وفاة الميّت، حين تقول مثلا: لقد مضت على وفاة فلان مائة سنة، والثّالث علاقة الميّت بالزّمن، من حيث شعوره وإحساسه به، وهو المقصود في كلامنا في هذه الفقرة، ففي الوقت الذي تقرّر فيه "العقلانية الجافّة" أنّ الزّمن لا وجود له في قاموس الموتى لأنّ الموتى لا وجود لهم على الحقيقة، وإذا كان الميّت لا وجود له في عالم الشّهادة وفي عالم الغيب فإنّ الكلام عن الزّمن بالنّسبة للموتى هو ضرب من الهراء، وكلام لا طائل من ورائه، لكنّ النّقلاية تفتح في الموضوع نافذة فتقرّر أنّ الزّمن عند الموتى متوقّف تماما، لأنّهم خرجوا من عالم الأشياء والزّمن إلى عالم آخر له زمانه الخاص، دليل ذلك صنّف من الموتى أماتهم الله ثم أحياهم، وآخرين تكلم الخالق بلسان حالهم، وبوصفه لوضعهم في عالم البرزخ، فإنّهم لما بُعثوا قارنوا بين زمن الدنيا والزّمن الذي هم فيه، فقدّروا زمن عمرهم في الدّنيا بيوم واحد أو بعض يوم، ﴿قال كم ليثتم في الأرض عكبا سنير، قالوا لبئنا يوما أو بعض يوم، فاسأل العالَمَير، قال إن لبئتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون﴾

¹³³ - صفة الصّفوة 29/4

¹³⁴ - بشر بن الحارث الحافي، للدكتور عبد الحليم محمود، ص 56.

¹³⁵ ، وقوله تعالى: ﴿ويوم نحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم﴾ ¹³⁶ ، هؤلاء قارنوا بين زمن الدنيا وزمن الآخرة فاتّضح الفرق كبيرا حين تبين لهم أنّ زمن الدنيا ضئيل جدًا أمام زمن العالم الآخر، وحتى الزمن هنا تمّ التمييز فيه بين زمن الحياة الدنيا وزمن المكث في القبور، وفي قصة أهل الكهف بعدد آخر في استشعار الزمن، ودليل آخر على الشعور به، ﴿وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم، قال قائل منهم كم لبثتم، قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم، قالوا ربكم أعلم بما لبثتم﴾ ¹³⁷ ، ثم يأتي التّحديد بقوله تعالى: ﴿ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا﴾ ¹³⁸.

لقد دلّ الدليل على أنّ الزمن موجود لكنّه ليس على حقيقته عند الموتى كما هو عند النائم والمغى عليه، يجري عليهما الزمن لكنهما لا يشعران به، لأنهما حين يستيقظان لا يعرفان كم استغرقت غيبوبتهما.

8- الموت ومفهوم الأجل

هل الأجل يعني الزمن؟ وهل الزمن هو سبب في حلول الموت؟

بمعنى إذا تقدّم الزمن بالإنسان إلى مائة سنة أو أكثر فهل هذا دليل على أنّه سيموت، الجواب بالنفي، ماذا نقول عن الذين ماتوا في سنّ الطفولة، وآخرين في ريعان الشباب، وآخرين لم يصلوا الأربعين أو الخمسين أو الستين، فالموتى من مختلف الأعمار، وهذا يدلّ على أنّ الزمن ليس سببا في الموت، لا علاقة لحلول الموت بالزمن، الزمن ليس له كينونة مستقلة إنّما هو تابع للجسد، والدليل على ذلك أنّ الله تعالى لم يحدّد وفاة إنسان بتحديد عمر معين، وكذلك العلم، لم

¹³⁵ - سورة المومنون الآية (113-115).

¹³⁶ - سورة يونس الآية 45.

¹³⁷ - سورة الكهف الآية 19

¹³⁸ - سورة الكهف الآية 25.

يعين تاريخ وفاة شخص بالتحديد، قد يكون بالتقريب بناءً على قياس الداء الملم بالجسد من سرطان ومن غيره أما التحديد فلم يثبت، الزمن تابع، حين ينتهي الجسد بالموت ينتهي زمن ذلك الجسد، يمرّ الجسد من مراحل موضوعية إلى أن ينتهي، أما ربط الموت بالزمن من مثل قوله تعالى ﴿ولكلّ أمة أجل، فلإنا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾¹³⁹، فيعني أنّ الموت يأتي في الزمن، لا أنّ الزمن يستدعي الموت، وهذا هو مفهوم "الأجل"، الأجل هو الوقت المحدد لقبض الروح، فإذا حلّ فلا زيادة في الزمن ولا نقصان منه، فالموت هو نهاية زمن الذات، وأما ما جاء في الحديث المرفوع: (أعمار أمّتي بين السّتين والسّبعين وأقلّهم من يجوز ذلك)¹⁴⁰، فهو محمول على الغالب، وهو ثابت بالاستقراء من شواهد الحال، فأعمار الموتى أغلبها بين السّتين والسّبعين، والذين يموتون بعد السّبعين قليلون، وبين السّتين والسّبعين كانت وفاة رسول الله ﷺ وأصحابه أبي بكر وعمر وعلي وغيرهم، وقالوا بأنّ النّبي صلّى الله عليه وسلم أشعر بذلك، فقد خطب في حجّة الوداع فقال: (فإنّي لا أدري لعليّ لا ألكم بعد عامي هذا)¹⁴¹، ثم إنهم قالوا بأنّ ذلك جاء إشعاراً منه للنّاس باستغلال العمر، فإن العمر إما عمّار أو دمار، فإذا وصل الإنسان إلى سنّ السّتين ولم يرجع إلى الله تعالى، ولم يتزوّد ليوم المعاد فهو في داهية، وقد أعذره الله لما بلغ به هذا السنّ، يبيّنه حديث أبي هريرة مرفوعاً: (أعذر الله إلى امرئ أخر أجله حتى بلغه ستين سنة)¹⁴²، وحديث:

¹³⁹ - سورة الأعراف الآية 32.

¹⁴⁰ - الحديث أخرجه الترمذي في السنن برقم 3550، وعلّق عليه الحافظ ابن حجر في الفتح بقوله: (وأصح من ذلك ما أخرجه الترمذي بسند حسن إلى أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة)، فتح الباري 240/11.

¹⁴¹ - من خطبته صلّى الله عليه وسلم في حجّة الوداع، أنظر السيرة النبوية لابن هشام 603/2.

¹⁴² - أخرجه البخاري في جامعه الصحيح، كتاب الرقاق، باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر، أنظر الفتح 239/11 رقم الحديث 6419.

(لا يزال قلب الكبير شاباً في اثنتين: في حبّ الدنيا، وطول الأمل)¹⁴³، وهو الموافق لقوله تعالى: ﴿أَو لَمْ نَعْمَرِكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مِنْ تَذَكَّرٍ﴾¹⁴⁴، فالعبرة هو التزوّد للمعاد، والإقبال على الآخرة بالكلية لاستحالة رجوعه إلى مراحل الأولى، وهي مراحل الفتوة والنشاط، ثم إنّ الإنسان حينما يولد لا يولد عالماً وعارفاً بكلّ ما ينتظره في حياته، ﴿والله أخرجكم من بھون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً﴾¹⁴⁵، لكنّه أردف قائلاً: ﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾، فالإنسان مزوّد بالأعضاء والجوارح ليستخدمها في قراءة الحياة والاستفادة من التجارب التي يمرّ منها كما تقدّم بيانه في الفصل الأول، كلّما زاد الإنسان في السن كلما تطوّرت معارفه ونضج إدراكه، فهو في مراحل نموّه يمرّ بفترات متدرّجة لإدراك الأمور فيما بعد، وهذا يتطلّب وقتاً وجهداً، لذلك فسنّ السنين هو اكتمال التجارب وتحصيل النضج.

الأجل المتكلم عليه هنا هو توقيت نهاية حياة الإنسان، وهو مرتبط بالبداية، بداية حياة الإنسان محدّدة في علم الله، وكذلك نهاية حياته، وهي حلول الموت فيه، فالموت له وقت يأتي فيه، قدره الله على العباد، فلا يتأخّر المرء عما كُتب له ولا يزيد عما حدّد له، وهي أمور محسومة بالقطع في العدالة الإلهية، وكلّ من مات مات بأجله، وقد تكلم المتكلمون في هذا الموضوع حتى خاطبهم الإمام أبو الحسن الأشعري بقوله: (فخبرونا عمّن قتله قاتل ظلماً، أتزعمون أنّه قُتل في أجله أو بأجله؟ فإن قالوا نعم وافقوا وقالوا بالحق وتركوا القدر)¹⁴⁶.

¹⁴³ - حديث أبي هريرة أخرجه البخاري في جامعه الصحيح، كتاب الرقاق، باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر، أنظر الفتح 239/11 رقم الحديث 6420.

¹⁴⁴ - سورة فاطر الآية 37.

¹⁴⁵ - سورة النحل الآية 78.

¹⁴⁶ - الإبانة عن أصول الديانة لأبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، ص 53

وهل يعجل الله الموت لمن أفسد في الأرض عقوبة له، الجواب إن الله تعالى لا يأخذه إلا بأجله، ولو كان آخذًا أحدًا لأخذ إبليس قبل قيام الساعة فكيف بالناس، يقول تعالى: ﴿ولو يواخؤا الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من جاتة، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى﴾¹⁴⁷، حدّث عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه فقال: (قالت أم حبيبة: اللهم متّعني بزوجي رسول الله ﷺ، وبأبي أبي سفيان، وبأخي معاوية، فقال لها رسول الله صلّى الله عليه وسلم: إنك سألت الله لأجل مضروبة، وأثار موطوءة، وأرزاق مقسومة، لا يعجل شيئًا منها قبل حله، لا يؤخر منها شيئًا بعد حله، ولو سألت الله أن يعافيك من عذاب في النار، وعذاب في القبر لكان خيرا لك).¹⁴⁸

ثالثا: محددات تقريبية للموت

1- مثل الحياة:

تميّز النقلانية بين الحياة الدّنيا والحياة الأخرى، وتضرب الأمثال لذلك، والمثل المقصود هنا هو للحياة الدّنيا، وهو مثلٌ يُضرب، والضرب هو الشّكل، وهو اعتبار الشّيء بغيره، ولذلك جاء قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿واضرب لهم مثل العميلة الذّنبيا كماء أنزلناه من السّماء فلاختلج به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح، وكان الله على كلّ شيء مقتدرا﴾¹⁴⁹.

ونفس المثل يضربه الله تعالى في سورة الحديد: ﴿اعلموا أنّما العميلة الذّنبيا لعب ولهو، وزينة وتفاخر بينكم، وتكاثر في الاموال والاولاد كما مثل نحيث اعجب

¹⁴⁷ - سورة النحل الآية 61.

¹⁴⁸ - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب بيان أنّ الأجل والأرزاق وغيرها لا تزيد ولا تنقص عمّا

سبق به القدر 2051/4 رقم الحديث 2663.

¹⁴⁹ - سورة الكهف الآية 44.

الكفار نباته، ثم يهيج فتراه مصفراً، ثم يكون حصاصاً، وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من اللهورضوان، وما العيلة الدنبا إلا متاع الغرور¹⁵⁰.

اضرب لهم مثلاً، أي: اذكر لهم، ومثل لهم حتى يستوعبوا حقيقة الحياة الدنيا، وقد ضرب الله المثل بالأرض التي هي أصلاً وعاء للحياة، تحيا بالماء المنزل من السماء في وقت الشتاء، فتنبث الأزهار والأشجار في فصل الربيع، ثم في الصيف يببس كل شيء، وفي الخريف تأتي الرياح فتذهب بكل شيء، فهل بعد هذا المثل من مثل !.

2- مَثَلُ الْمَوْتِ

تودّ النقلانية أن تكون صورة الموت واضحة في الأذهان، واضحة وضوح الشمس في عين النهار، ما من سؤال عن الموت إلا وجوابه موجود، ما هو الموت؟ ومن يصيب؟ ومتى يصيب؟ وكيف يكون الإحساس به؟ ومن يقوم به؟ وماذا نقول حينما يحل؟ وماذا نقول بعد حلوله وذهابه بالأحباب والأصحاب؟ أسئلة كثيرة جوابها موجود، ومن جملة ما يُقدم أنّ المثل أو التمثيل به موجود أيضاً، يريد الناس معرفة كيف يحيي الله الموتى، وكيف تُقرب هذه الحقيقة إلى العقل البشري القاصر عن التمثيل والإدراك، لقد تكرر البيان في القرآن عن هذا، في أكثر من آية، إنّ إحياء الله للموتى هو كإحياء الأرض بعد موتها، سأل أبو رزين العقيلي رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يحيي الله الموتى؟، فأجابه: أما مررت بواد ممحل، ثم مررت به خضراً، قال بلى، قال: كذلك يحيي الله الموتى¹⁵¹، وهو جواب تعلمه النبي صلى الله عليه وسلم مما علمه ربه في القرآن، ومما جاء به البيان ﴿وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها﴾¹⁵²، وقوله: ﴿والذي أنزل من

¹⁵⁰ - سورة الحديد الآية 19.

¹⁵¹ - أورده الحافظ ابن كثير في تفسيره، الآية 73 من سورة البقرة.

¹⁵² - سورة الجاثية الآية 4.

السَّماء ماء بقدر فأنزلنا به بلدة مبيتا، كذلك نُخرجون¹⁵³، وقوله: ﴿ومر آياته
أثلا ترى الأرض خاشعة فلما أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت، إن الذي أحياها نحيي
الموتى، إنه علم كل شيء قدير¹⁵⁴ .

ما المقصود من قوله تعالى: ﴿اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها، قد بينا
لكم الآيات لعلمكم تعقلون¹⁵⁵ ، هل المقصود هو الكلام عن الأرض كيف تكون
قاحلة شاحبة ثم تنبت وتزهر بنزول الماء من السماء، لو أراد الله تعالى الكلام عن
وضع الأرض بهذه الكيفية لكان الخطاب على نحو آخر، إنَّ خطابه سبحانه عن
الأرض بـ ﴿يحيي الأرض بعد موتها﴾ هو مثل للموت والحياة، فالمقصود هنا الكلام
عن الموت والحياة، لذلك ختمها بقوله: ﴿قد بينا لكم الآيات لعلمكم تعقلون﴾.

فهل بعد هذا البيان من بيان؟

وليس هذا فحسب، فقد طلبها إبراهيم من ربه، وأعطى البرهان والدليل
لموسى في قصة بقرة بني إسرائيل، ومكَّن عيسى من إحياء الموتى بأمره، وفي قصة
أهل الكهف دليل آخر، وغير ذلك.

ومن أعظم ما وقع للنبي محمد صلى الله عليه وسلم مع جاحد من قريش
وهو أبي بن خلف الجمحي، أن هذا الأخير أخذ عظما باليا وفتته أمام النبي صلى
الله عليه وسلم وقال متحديا: يا محمد، أتزعم أن الله يبعث هذا؟، إنه موقفٌ
صعبٌ، وتحذٌ خطير، لا يوجد ما هو أقبح منه في تحدي الموت، فكان جواب النبي
صلى الله عليه وسلم: (نعم، يميتك الله تعالى ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار)،
كان هذا جواب النبي صلى الله عليه وسلم، أمّا الخالق الذي يسمع ويرى، فكان

¹⁵³ - سورة الزخرف الآية 10.

¹⁵⁴ - سورة فصلت الآية 39.

¹⁵⁵ - سورة الحديد الآية 16.

جوابه: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ، قَالَ مَنْ يُبِيرِي الْعِضْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ، قُلْ لِيُبَيِّنْهَا
الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾¹⁵⁶.

لم يظفر هذا الشَّقِي بالجواب فقط بل ظفر بالجزاء أيضا، وحجز مقعده في النَّار قبل حلول الأجل، قُتِلَ بسيوف الصحابة في غزوة بدر، ولم يممه بلال بن رباح ليكون غنيمة في يد أبي سعيد الخدري، وكلمه النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو في القلب مع عصابته حين خاطبهم بقوله: (يا أهل القلب، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًا، لقد وجدتم ما وعدني ربِّي حقًا)¹⁵⁷، فلما سُئِلَ عن ذلك قال: (إنهم يسمعون لما أقول)، لا تستغرب، إنَّها تصرفات النَّبِوة.

3- مفهوم الحياة والمستقبل

يجب أن نُحدِّد معنى الحياة قبل البحث عنها، تتكوَّن الحياة بالتفاعل الممكن، فنحن نحيها بعد وجودها، وهي توجد دوننا، قد نصادفها في مكان آخر من هذا الكون الفسيح، حين يكتشفها الإنسان في يوم ما سيعيشها.

إنَّي أُصدِّق مقولة أنَّ الكون لم يُخلق من أجلنا¹⁵⁸، لأنه بعيد عنَّا، والحياة فيه مستحيلة، وأنَّ هذه المقولة كانت ذريعة لاستصدار أحكام ملحدة لكنَّ الذي أجزم به هو أنَّ الأرض خلقت لأجلنا وإنَّ وجدت قبلنا، والدليل على ذلك أنَّ الإنسان اليوم هو الكائن العاقل، وعقله لا يعقل سوى ما هو ثابت من قانون الأرض والطبيعة والكون لكنَّ إذا وقع التغيُّر حصل التأخر وتعدُّر الفهم، وهو الذي يُعمرها ويتطلع من خلالها إلى النَّظر فيما يحيط بها من عوالم، يقول كارل ساغان: (إنَّ كوكبنا الأزرق الجميل هو الوطن الوحيد الذي نعرفه، فالزَّهرة

¹⁵⁶ - سورة يس الآية 77-78. والواقعة أوردتها الحافظ ابن كثير في تفسير الآية، أنظر تفسير ابن كثير

¹⁵⁷ - تقدّم تخريج الأثر، وانظر سيرة ابن هشام 638-639/1 (طرح المشركين في القلب).

¹⁵⁸ - "كون غير مصنوع من أجلنا"، كارل ساغان، المصدر السَّابق ص 52.

ساخنة جدا، والمريخ بارد جدًا، ولكن الأرض هي المكان المناسب للبشر، وبعد كل شيء فنحن تطوّرنا هنا، ولكن مناخنا المتجانس يمكن أن يكون غير مستقر، ونحن نُسيء إلى كوكبنا المسكين بطرائق خطيرة ومتناقضة، فالسؤال هو: هل هناك خطر من تحويل بيئة الأرض إلى ما يشبه كوكب الزهرة الجهنمي أو إلى العصر الجليدي للمريخ؟ والجواب البسيط هو لا أحد لا يعرف، فدراسة المناخ العالمي ومقارنة كوكب الأرض بالعوالم الأخرى هما موضوعان لا يزالان في المراحل الأولى من تطوّرهما، ناهيك عن كونهما مجالين يمولان في شروط يغلب عليها الهزال والتدّمّر. وبسبب جهلنا فنحن مستمرّون في الدّفع والجذب، وفي تلويث الجو وزيادة درجة لمعان " حرارة" الأرض، متغافلين عن الحقيقة القائلة: إنّ النتائج البعيدة المدى مجهولة إلى حدّ كبير¹⁵⁹.

الحياة عند الكوسمولوجيين وعلماء الطّبيعة هي في وجود الماء، إذا وُجد الماء وُجد الأكسجين، وإذا وُجد الأكسجين وُجدت الحياة، والحياة عند المتديّنين هي العيش وفق التّوجهات الرّبّانية، لكي يعيش الإنسان الحياة الحقيقية عليه أن يكون في صلة دائمة مع الله، وإلاّ كان ميتًا وهو حي، والحياة عند السياسيين هي تحقيق الديمقراطية وحقوق الإنسان ليعيش الإنسان بكرامة في وطنه ومجتمعه، والحياة عند الشّعوب هي تحقيق ضروريات العيش ولها تحديد نسبي، فالحياة عند الجائع هي كسرة رغيف، وعند العطشان جرعة ماء، وعند المريض الحصول على الدّواء، وعند المُهجّر من بلده هي الرّجوع إلى محلّ سكناه، وعند المسجون هي الحرية، وهكذا.

أمّا المستقبل فهو ما سيعيشه الإنسان غدا أو بعد غدٍ أو ربّما لا يعيشه وسيعيشه غيره، غير أنّه لا يمثّل شيئًا ذا بال، وربما يكون الحاضر أحسن منه بكثير، المستقبل الحقيقي للإنسان هو في العالم الآخر.

¹⁵⁹ - الكون لكارل ساغان، ص 94، ترجمة نافع أيوب لبس، مراجعة محمد كامل عارف، سلسلة عالم المعرفة، العدد 178، السنة 1993م.

4- الموت والحياة: أيهما أسبق.

تفصل التقلانية في جدلية أيهما السَّابِق وأيُّهما اللاحق، هل الموت أسبق من الحياة أم العكس، ولمَّ عنصر السَّبق؟.

بما أن للوجود نهاية فإنَّ له بداية، وما بدأ في لحظة ما إلا لينتهي في أخرى، ولو لم تكن النهاية موجودة لما كان للموت معنىً.

الوجود هو الخروج من اللاوجود أي الموت، وهذا يبين أن الموت هي الأسبق ثم الحياة بعدها، ثم الموت مرة أخرى ثم الحياة الأخرى في الجنة أو الوجود في جهنم بصورة "لا موت ولا حياة" المستوحاة من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيِي﴾¹⁶⁰، إذن هناك موتان وحياتان ذكرا في القرآن بقوله تعالى: ﴿بِنَا أُمَّتِنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتِنَا اثْنَتَيْنِ﴾¹⁶¹، فالموت الأولى يساوي العدم أو اللاوجود، ثم الحياة الأولى وهي النشأة الأولى والمعبر عنها بـ "الحياة الدنيا"، وهو وصف قدحي، فالدنيا من الدنو، في مقابل الحياة الآخرة التي هي حياة السمو، وهي الحياة الحقيقية الموصوفة بـ "الحيوان" مبالغاً في الحياة، لا تُعطي التقلانية للموت الأولى ولا الحياة الأولى قيمة كبيرة، فالأولى لا تعني شيئاً للإنسان لكونه غير موجود يومئذ، وكذلك الحياة الأولى لكونها ﴿متاع الغرور﴾ و﴿عاجلة﴾، وهذا يفسح في المجال للحياة الأخرى التي يجب على الإنسان أن يراهن عليها لأنها ﴿حمار القرار﴾، و﴿حمار المصير﴾، ولا نتكلم عن الحياة في القبر، فهي ليست حياةً مستقرة بل هي مجرد إعادة لفائدة الامتحان الذي وردت به الأحاديث الصحيحة، فهي إعادة عارضة¹⁶²، وكأنَّ الموت الأولى والحياة الأولى والموت الثانية ماهي إلا مقدمات لدار البقاء الأبدية السرمدية، ولا تتكلم التقلانية عن هذه المقدمات بمنطق التجاوز والمبالاة بل هي أساس الحياة الآخرة، سعادة الإنسان

¹⁶⁰ - سورة الأعلى الآية 13.

¹⁶¹ - سورة غافر الآية 10.

¹⁶² - ينظر فتح الباري 3/240-241.

وشقاؤه، ورزقه وأجله كلها أمور تتحدد في هذه المقدمات، ﴿فمن يعمل مثقال غرّة خيرا يره، ومن يعمل مثقال غرّة شرا يره﴾.

يحاول البعض أن يجعل من الموت والحياة "مسألة دور"، يقول أحدهم: إننا نحيا لنموت، ويجيبه الآخر: إننا نموت لنحيا، ما يقال كلّه صحيح لأن كل واحد نظر إلى جزء من الأطروحة التقاليدية للوجود، والمراد هو النظر إلى الأطروحة في صيغتها المتكاملة: نحيا لنموت ونموت لنحيا ﴿وإنما توفون أجوركم يوم القيامة، فمن زحج عن النار وأدخل الجنة فقد فاز، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾¹⁶³.

رابعاً: المحددات النوعية والمرحلية

1- أنواع الموت

من التقسيمات العادية للموت والتي يراها العامة أنفسهم أنّ الموت الذي يصيب الإنسان على نوعين: نوع يكون مصحوباً بمرض، يكون ذلك المرض السبب الرئيس في الموت، ونوع لا يصاب فيه الإنسان بمرض، والعلاقة بين النوعين تكمن في الموت ذاته، فهو يأتي بسبب وبغير سبب، وقد يكون السبب غير واحد وليس بالضرورة اختزاله في المرض، فقد يُصاب الإنسان بحادثة سير مميتة، أو بسكتة قلبية أو دماغية مفاجئة، أو بصعقة كهربائية، أو بغرق أو بسقوط من أعلى، أو لدغ بالسّم إلخ، وقد يكون بلا سبب كأن لم يستيقظ من نومه، وهذا يبين أنّ الموت هو المقصود، وليس بسبب معين.

الموت واحد لكنه يتعدّد بحسب الإحساس وبحسب طريقة الموت وكيفيته، لا توجد أنواع في ماهية الموت، لكن يمكن التمييز بين أشكال وطرق حلوله، وهو ما فعله الفلاسفة وبعض اللغويين. وذكروا للموت نوعين من الأنواع¹⁶⁴، وهما:

¹⁶³ - سورة آل عمران الآية 185.

¹⁶⁴ - ينظر كشّاف اصطلاحات الفنون للعلامة محمد علي التّهانوي، ص 1868، ومحيط المحيط للبستاني

-أحدهما الموت الطبيعي، ويقال له الموت الافتراضي والأجل المسعى، وهو عند الفلاسفة إنقضاء الرطوبة الغريزية بالأسباب اللازمة الضرورية.

-وثانيمها الموت الاخترامي، أي: الاستبطالي وهو انطفاء الحرارة الغريزية لا بأسباب ضرورية بل بعارض كقتل أو خنق أو غير ذلك.

وجاء في لطائف اللغات أن للموت أربعة أنواع، ولكل واحد منها لون¹⁶⁵، وهي:

-الموت الأحمر: وهو القتل بشدة السيف والسكين كما لو غرق بالدم.

-الموت الأسود: وهو الاحتراق بالنار، لأن المحروق يصبح كومة محروقة سوداء اللون.

-الموت الأصفر: وهو من كثرة الأمراض التي تجعل جلد المصاب أصفرًا مثل الزعفران.

-الموت الأبيض: وهو الغرق بالماء، ويدخل فيه الموت الرحيم الذي ابتكره الطب، وهو التعجيل بوفاة المريض عن طريق حقنه بالسم.

وذكر ابن منظور للموت بعض الأنواع وهي بحسب أنواع الحياة¹⁶⁶، نجمها في الذكر كالاتي:

-إزالة القوة النامية الموجودة في الحيوان والنبات، منها قوله تعالى: ﴿يَمِيزُ
الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾¹⁶⁷.

-زوال القوة الحسية، من ذلك قوله تعالى: ﴿يَالَيْتَنِي مِتَّ قَبْلَ هَذَا﴾¹⁶⁸.

¹⁶⁵ - ينظر كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي ص 1869

¹⁶⁶ - لسان العرب 218/13. مادة "موت".

¹⁶⁷ - سورة الحديد الآية 16.

¹⁶⁸ - سورة مريم الآية 22.

- زوال القوّة العاقلة، وهي الجهالة، من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصَّمْرَ الدَّاعِيَ إِذَا وُلُّوا مُدْبِرِينَ﴾¹⁶⁹، ويدخل فيها الحزن والخوف المكدّر للحياة من ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَاتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾¹⁷⁰، والمنام كقوله تعالى: ﴿وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾¹⁷¹، وقد قيل: النَّوْمُ: الموت الخفيف، والموت: النَّوْمُ الثَّقِيلُ، وقد يُستعار الموت للأحوال الشاقّة مثل: الفقر والذل والسؤال والهزم والمعصية.

وذكر ابن مسكويه نوعين من الموت كما ذكر في مقابلهما نوعين من الحياة: موت إرادية وموت طبيعية، وحياة إرادية وحياة طبيعية.
- الموت الإرادية: إماتة الشّهوات وترك التّعرض لها.
- الموت الطّبيعي: مفارقة النّفس للبدن.

- الحياة الإرادية: ما يسعى إليه الإنسان لحياته الدّنيا من المأكّل والمشرب والشّهوات.

- الحياة الطّبيعية: بقاء النّفس السّرمدية بما تستفيده من العلوم الحقيقية، وتبرأ به من الجهل، ولذلك أوصى أفلاطون طالب الحكمة بأن قال له: "متّ بالإرادة تحيا بالطّبيعة"¹⁷².

هذه أشكال وأنواع، وهل فكّر الإنسان في أشكال أخرى من الموت: "الموت البطيء" الموصوف بالواعظ الصامت، و"الموت السريع" المنعوت ب ﴿وَمَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾، و(الموت الفردي) و(الموت الجماعي)، و(الموت الكلّي) و(الموت الجزئي)، هل تمّ التّفكير في موت الحضارات والأمم، وانقراض فصيل من الحيوانات مثل

¹⁶⁹ - سورة النمل الآية 82.

¹⁷⁰ - سورة إبراهيم الآية 20.

¹⁷¹ - سورة الزمر الآية 39.

¹⁷² - تهذيب الأخلاق ص 219-220.

الدينصورات والماموث وغيرها ؟ وهل فكر في كيفية الموت وصوره وأشكاله مما حكاه القرآن الكريم في قصصه عن الأمم الغابرة، عن جبروتها وقوتها ونوع معاصيها، وتلك آثار بعضها مازالت رابضةً على الأرض تتحدى الجهل والنسيان.

2- الموت وأدوار شريط العمر

بالقياس الطبيعي يدرك الإنسان العلاقة بين العمر والحياة، وبين تقدّم العمر واقتراب الموت، لكن بالقياس المعرفي يدرك أنّ الموت هو في كلّ لحظة وحين، ويمكن أن يُعجّل بحلول الموت فيه أو في غيره باعتماد " القتل"، وهو مذموم شرعا ومستهجن عقلا، يعاقب الربّ عليه، وكذلك القانون الطبيعي.

عُمر الإنسان شريطاً فيه أطوار، وقد ذُكر على الإجمال في قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا، وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَصْوَارًا﴾¹⁷³، ثم ذُكر على التفصيل والبيان كما في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ، وَمِنْكُمْ مَنْ يَرْجِعُ إِلَى الْأَرْضِ الْعَمَلُ لَكُمْ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾¹⁷⁴، وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قَوْلًا ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قَوْلٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً، يَنْلِقُ مَا يَشَاءُ، وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾¹⁷⁵.

وقد قسم العلماء فترات عمر الإنسان إلى أربع مراحل: الطفولة والشباب، الكهولة والشيخوخة، وهذا التقسيم بحسب الأسنان، والشيخوخة آخر الأسنان¹⁷⁶، بينما يقسمها فريق آخر إلى خمسة أدوار: دور الطفولة، ودور الصبّ، ودور المراهقة، ودور الشبّية، ودور الرجولة الكاملة، وتدخل الشيخوخة ضمن الدور الأخير، وأثبتت بعض الأبحاث العلمية أنّ سنّ الشيخوخة يبدأ من السّتين

¹⁷³ - سورة نوح الآيات 13-14.

¹⁷⁴ - سورة النحل الآية 70.

¹⁷⁵ - سورة الزّوم الآية 53.

¹⁷⁶ - فتح الباري للحافظ ابن حجر 240/11.

¹⁷⁷ ، ومنهم من يضيف أدواراً أخرى فيبدأ من الدّور الجنيني، حين يكون الإنسان في بطن أمّه، فيخرج إلى الدّنيا فيمكث فيها حياته ثم ينتقل إلى حياة البرزخ، ثم الجنّة أو النّار، فهذه أربع مراحل كل واحدة أكبر من الأخرى: الحياة الدنيا أكبر من حياة البطن، وحياة البرزخ - وهو الحاجز قبل دخول الجنّة أو النّار إلى أن يتمّ الحساب - أكبر من الحياة الدّنيا، ووجوده في الجنّة أو النّار هي أكبر المراحل، لأنّه بعد الحساب يظهر المقام الأزلي الأبدي ﴿فمن زحزح عن النّار وأمهّل الجنّة فقد﴾ ¹⁷⁸ فلن.

والأقسام التي اجتهد العلماء في تحديدها لا تتباين مع ما جاء به القرآن الكريم.

3- الموت والمراحل العامّة ¹⁷⁹

تقدّم التّقلاية الصّورة الكاملة عن الموت، فتحدّدها في ثلاثة مراحل:

المرحلة الأولى: مرحلة ما قبل الموت، وهذه المرحلة على صورتين: الأولى هي مرحلة العدم، والثّانية صورة الوجود، أي الخروج من العدم إلى الوجود بعملية الخلق.

المرحلة الثّانية: مرحلة الموت، أي حلول الموت في الجسد، وهي على صورتين: الأولى تكون الموت فيها جزئية ومرحلية، وتتمثّل في الفترات التي يقضيها الجسد في السّبات، أي التّوم العميق، والتّوم نوع من أنواع الموت كما بيّناه في موضعه، بحيث يغيب فيه الإنسان غيبوبة تامّة، فإذا قارنت بين نائم وميت فإنك لا تجد بينهما فرقا سوى علو النّفس واهتزاز الصدر عند النائم بخلاف الميت، وقد

¹⁷⁷ - عالم الفكر، مقال بعنوان (علم الشّيخوخة) لعاصم فكري، ص 113 و 136.

¹⁷⁸ - سورة آل عمران الآية 185.

¹⁷⁹ - تميّزا عن المراحل الخاصّة التي بسطنا الكلام عليها في "الموت وتغيّر الجسد".

عُدَّ النوم أختاً للموت لأنه يقتسم مع حياة الجسم نصف عمره، فالوقت الذي يقضيه الإنسان في اليقظة هو نفسه الذي يقضيه في النوم، وقد عُدَّ النوم بهذه الكيفية عوناً للإنسان على الحياة، وإلا حصل الموت التَّهائي.

أما الثانية فهي الجزئية، وصورتها حين يُصيب الموت أجزاء من أعضاء الجسد أو موت بعض الخلايا كما بسطناه في موضعه.

المرحلة الثالثة، وهي مرحلة ما بعد الموت، مرحلة من نوع خاص، لا يمكن أن نُكوِّن عنها صورة مادية معينة، ولها ثلاث حالات: الأولى من قبس الخيال الممزوج بالأسطورة كما فعل دانتى في الكوميديا الإلهية¹⁸⁰، وكما فعلت الملاحم اليونانية والرومانية القديمة مثل ما جاء في الإلياذة والرامايانا والكلكامش¹⁸¹ كلها من نسيج الخيال، كان الغرض منها التسلّي الأدبي وليس التوجيه الاعتقادي، والثانية هي الاستفادة من التأويلات الفلسفية التي ينكر بعضها البعث مطلقاً، فالموت تساوي العدم، لا حشر ولا نشر، ولا خير ولا شر، والروح عند بعضهم باقية على أصلها العلوي بعد مفارقة البدن، وأنّ الذي يتغيّر هو البدن، والروح قد ترجع للبدن وقد لا ترجع، وإذا رجعت فلبدن آخر غير البدن الأول لأنّ الأول منعدم بالموت، وأما الحالة الثالثة فهي حالة ما جاء به النّقل الصريح، والخبر المواتر الصّحيح، وهو ما جاء به القرآن وصحيح الأخبار من النّبي صلّى الله عليه وسلم، وهي دعابات قلّ من اهتدى بها وحاوّر مختلف التّوجهات من خلالها، والعدول عنها يوقع في المهالك، وهو ما نذهب إليه هنا، وهو أصل الاعتقاد عند أهل الاعتقاد، وقد يقول قائل: وما ثقافة النّقل؟ كل المعارف والفنون والتي جاءت من اليونان والرومان والهند ومن المصريين القدامى ومن

¹⁸⁰ - أنظر ما أثبتناه عن الكوميديا الإلهية في كتابنا "الاستشراق والعلوم الإسلامية بين نقلانية التأصيل وعقلانية التأويل" ص 100 وما بعدها، الطبعة الأولى 2017م، المطبعة والوراقة الوطنية بمرآكش، المغرب.

¹⁸¹ - ينظر مجلّة عالم المعرفة، عدد خاص عن "الملاحم"، مجلة وزارة الإعلام الكويتية، تصدر كل ثلاثة أشهر، المجلد السادس عشر، العدد الأول 1985، أبريل، ماي، يونيو 1985م.

الأوروبيين ومن غيرهم هي ثقافة، وهي محسوبة على ثقافة النقل لكونها أخبار تُروى وتُكتب، نقول: صحيح، إنها محسوبة على النقل، لكنها تُباين النقلانية من وجوه: الأول إنَّ النصوص النقلية هي نقلانية، تتحكّم فيها ضوابط منهج التّحقق من الخبر، وضبطه من جهة الورد، فلا تُسلم النقلانية إلا بما صحّ من تراثها وما عداه لا يلزمها، وهي به تخالف غيرها من الثقافات التي تهتمّ بالأخبار من دون تمحيص ولا تدقيق، والوجه الثّاني إنَّ ثقافة النقل في غير النقلانية المقصود بها الثقافة ذاتها، إن كانت فلسفة أو شعرا أو أدبا نثريا أو مسرحا أو غير ذلك، ثقافة التّقل في الثقافات الأخرى مقصودة لذاتها في حين أن ثقافة التّقل في إطار النقلانية وسيلة للدّين: من جهة الأحكام والأخلاق والعقائد، أما الوجه الثّالث فثقافة النقل في غير النقلانية هي عقلية بحثية، فالعقل يُسخر النّقل بمختلف أشكاله لنقل معقولاته، فحين تكون الثقافة النّقلية في خدمة العقل وحده وردّ ما سواه تكون المخالفة جذرية بين ثقافة نقلية تُسخر العقل لخدمة النّقل لا العكس، وجوهر الفرق بين الثقافتين أنّ أحدهما يبني على العقل وحده والآخر على الوحي في تعاون مع العقل، لأنّ العقل في النقلانية ليس مُسرّعا ولا خالقا، وموضوع الموت الذي نحن بصدد الكلام عليه هو موضوع غيبي بطبيعته، وإنّ المؤهل للكلام فيه من يمتلك زادا من أخبار الغيب، مسندة وصحيحة، ولست في حاجة إلى زيادة وجه رابع أكثر وضوحا في المباشرة، فحالة النقلانية حالة فطرية، وحالة العقلانية حالة طبيعية، قوام الأولى الفطرة، وقوام الثّانية الطّبيعة.

4- الموت وأوهام الشّيخوخة

كلما تقدّم عمر الإنسان كلّما زاد إحساسه بأنّ العالم من حوله بدأ يضيق شيئا فشيئا، ويصغر شيئا فشيئا، وكلّما تذكّر شبابه وزهرة اندفاعاته وقوّته كلّما أحسنّ بالرجوع إلى الورا، يتجلّى هذا في أحاسيسه ومشاعره التي يعبر عنها بالكلام عن الماضي دائما، الماضي بالنسبة إليه شيء جميل وإن كان ماضيه ماضي فقر وحرمان، وحاضره حاضر غني وترف، لكنّ الماضي الذي يحنّ إليه هو ماضي

الفتوة والقوة والشباب، ماضي الذكريات مع الآباء والأجداد والإخوة والأخوات، الماضي بالنسبة إليه شيء جميل وجميل.

إنّ التقدّم في العمر هو نتيجة شعور ينبع من الدّاخل، يحسّ الإنسان بمكر الواقع والمحيط الذي يريد أن يتخلص منه، فالذّين عاش معهم وسجّل ذكرياته معهم رحلوا الواحد تلو الآخر، رحل الآباء والأقران والأصحاب والجيران، أمّا الجدد الذّين خرجوا إلى الدّنيا من الأبناء والأحفاد فهم منطوون ومنعزلون، يميلون إلى عالمهم ليحيوا حياتهم كما عاشها الكبار، ومن تكدير الحياة أن تمرر ذكرياتك إلى جيل لم يعيشها، من العار أن تتسلّط على حياة الأبناء والأحفاد فتسجنهم في ماض لا يعرفون عنه شيئا، وقد تكلم غريغور يوهان مندل في "صراع الأجيال" عن هذا الموضوع جيّدا، ونبّه إليه عمر بن الخطاب حين حثّ على تربية الأولاد لزمانهم لأنهم خلّقوا لزمان غير زمانكم، ليس الأولاد هم الذين يتنكّرون لك بل الجسد نفسه يتنكّر لك كلّما حصل التقدّم في العمر، لم يعد جسمك يطاوعك في بعض القفزات التي كنت تقوم بها في مرحلة من مراحل العمر، كما أنّه لم يعد يطاوعك في حمل قارورة الغاز إلى سطح البيت، أو الجري لبعض الأمتار كما كنت تفعل، بل الأكثر من هذا أنّ الأعضاء التي هي ملك لك لم تعد تطاوعك في القيام بما يلزم، ينكمش الجلد، ويضعف البصر، وتراجع القوة، ولقد صدق من قال إنّ حقيقة العمر تنبع من داخل الإنسان، وهو كلام سليم، أحكامنا على الخارج قد لا تكون صحيحة في الغالب، نظن بأنّ العالم هرم وشاخ، والحياة أوشكت على الموت الكلّي، الإنسان يجعل من ذاته مقياسا لكل شيء، يبلى بالتدرّج إلى أن يفنى، وعليه أن يُحس بهذا ويقتنع به.

كبار السن يهابون الموت، لكنهم يخافون أن يتأخّر ليتركهم للحياة، وكثيرهم بين مهابة الموت وخوف تأخّره حتى يفاجئهم يوما.

فصل في الموت تاريخ وتاريخ



كل الأديان تعرّضت للكلام عن الموت، وكل ديانة لها تصور لها الخاص عنه، يرى المؤرخ المشهور أرنولد توينبي أنّ (العلاقة بين الدّين والموت ذات جذور تاريخية عميقة الغور، وتعتبر المعتقدات الدّينية لدى المصريين القدماء (الفرعونية) أقدم الأمثلة على ذلك، حيث احتلّ موضوع الموت موضع القلب منها، وليس من قبيل الصدفة أن تبقى مقابرهم على امتداد القرون، والتي اعتبروها مساكنهم الدائمة في حياتهم الأخرى، بينما لم تبق مساكنهم الزائلة التي كانوا يقطنونها في حياتهم الدّنيا، وما أهرام الجيزة في مصر والتي تعدّ إحدى عجائب الدّنيا السّبع إلّا مقابر لأموات لم يشيدوا بمثل ضخامتها وروعيتها مساكن الأحياء!)¹⁸².

1. الموت وآلهة الحضارات

هناك حقيقة جديرة بالتصوير هي أنّك لا تستطيع أن تفهم حقيقة التوحيد في القرآن ما لم تكن على بينة من ظاهرة تعدّد الآلهة في الحضارات القديمة، ما سنذكره في هذه الفقرة هو الجانب المسكوت عنه في الفلسفات والآداب الإغريقية والفارسية وغيرهما.

أوجد الإنسان في الحضارات القديمة -الحضارة المصرية الفرعونية واليونانية والهندية والجاهلية العربية وحتى المسيحية- للموت إلهة أو آلهة عبدها البشر، ساد الاعتقاد أنّها ماتت ثم عادت إلى الحياة من جديد إما بصورة متكرّرة أو مرة واحدة مثل تاموس Tammus، وأوزيريس وأدونيس وأتيس Attis، وبيرسوفون

¹⁸² أنظر قلق الموت ص 97-98.

Persophone، وبالدر Balder، والمسيح عيسى في المسيحية، وقصة هؤلاء هي أنهم ذاقوا الموت مختارين ثم أكدوا الخلود بالرجوع إلى الحياة مرة ثانية¹⁸³، وأهل اليونان مثل غيرهم كاذبون فيما يدعون في معتقد الألوهية فأهل "كريت" مشهورون بالكذب حين عرضوا على جبل لوكتاس Louktass قبرا نسبوه إلى الإله زيوس¹⁸⁴، وفي هذا الجبل توجد قبور الآلهة الإثني عشر التي عبدها اليونان، كما اختار الفراعنة إله أنوبيس، وهو إله الموت والتحنيط والمقابر والعالم السفلي، نحتوا له رأس كلب، وصبغوه باللون الأسود، نسبوا له أنه هو مرشد الأرواح في العالم الآخر، وله أخت شقيقة في الموت هي "وبواوت"، وقد عبد العرب في الجاهلية أصناما ألّوها، كان الصنم "مناة" إلها للأمنيات السعيدة وللموت أيضا، وهذه الآلهة تدخلت في الحياة العامة والخاصة للشعوب، لها حضور في السياسة والاقتصاد والدين والاجتماع والفلسفة والفنون والآداب إلخ، وكلها موكولة إلى الأساطير والخرافات التي لا يقرها عقل سليم، إنّه لمن المؤسف أن تجد مثل هذه الأساطير تغزو عقول كبار فلاسفة اليونان والرومان، حيث يختلط المنطق والفلسفة والآداب بالأسطورة، وكم عانى ابن رشد في فك ألغاز منطق أرسطو وتحريره من الخرافات وأساطير الآلهة.

2- الإله الواحد: المحيي والمميت

لا توجد في الإسلام آلهة متعدّدة بل إله واحد ليس كمثلته شيء، هو خالق الموت والحياة، ولا يجري عليه الفناء، ارتبطت به الحياة والموت فكان من صفاته " المحيي والمميت"، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مَلَأَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾¹⁸⁵، وقوله عن ذاته العلية: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾¹⁸⁶، لم يوكل

¹⁸³ - الإنسان وهموم الموت ص 111-112.

¹⁸⁴ - المصدر السابق ص 113.

¹⁸⁵ - سورة التوبة الآية 117.

¹⁸⁶ - سورة الأعراف الآية 158.

الخلق لغيره ولا الموت إلا ما أمر به عيسى وإبراهيم بإذنه، يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَكِيرُ﴾¹⁸⁷، والمحيي والمميت صفتان فعليتان لأنهما من فعل الله تعالى.

نقل القرطبي من قول الخطّابي في بيانه لمعنى المحيي: (هو الذي يحيي النّطفة الميّتة فتخرج منها النّسمة الحيّة، ويحيي الأجسام البالية بإعادة الأرواح إليها بعد المبعث، ويحيي القلوب بنور المعرفة، ويحيي الأرض بعد موتها بإنزال الغيث وإنبات الرزق، وقال في معنى المميت: هو الذي يميت الأحياء، ويوهن بالموت قوّة الأصحاء الأقوياء، يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير، تمدّح سبحانه بالإماتة كما تمدّح بالإحياء، ليعلم أنّ مصدر الخير والشرّ والتّفع والضّرّ من قبله، وأنه لا شريك له في الملك، استأثر بالبقاء وكتب على خلقه الفناء)¹⁸⁸، واستحضر القرطبي مناظرة نبي الله إبراهيم مع النمرود حين قال له: ﴿رَبِّيَ الْخَيْرُ يَحْيِي وَيُمِيتُ﴾، فقال مُعارضاً: ﴿أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ﴾¹⁸⁹، فعمد إلى رجل مسجون محكوم عليه بالموت فأطلق سراحه، وإلى حيّ فقتله، ثم قال: "ها أنا أحيي وأميت"، وهو قول باطل فإنه لم يخلق حيّاً ولا أحياء ميّتا، إنّما هو تحايل في الكلام، وتناول على الحقّ بالباطل، أعرض عن الدّليل ليلبس عن العامّة، فقد وصف إبراهيم ربه بوصف قصد فيه الحقيقة لكن النمرود مال إلى المجاز¹⁹⁰، وقد سلّم له إبراهيم تسليم الجدل، ثم بادره بقول لا مجاز فيه، فطالبه بأن يأتي بالشّمس من المغرب

¹⁸⁷ - سورة ق الآية 43.

¹⁸⁸ - الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي 384-383/1.

¹⁸⁹ - سورة البقرة الآية 257.

¹⁹⁰ - ومثل هذا فعله بعض المدّعين للتّبوة بعد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لإبطال عقيدة ختم النبوة، وهو موضوع بسطنا الكلام عليه في رسالتنا في "التنبؤ والمتنبئون في الإسلام"، رسالة دبلوم الدراسات العليا قُدمت بالرباط سنة 1990 م.

لأن الله يأتي بها من المشرق، فبُهِت وانقطعت الحجة، وكعادة العاجزين أمر بالبقاء إبراهيم في النار¹⁹¹.

الإله الواحد في الإسلام هو " المحيي والمميت"، وهما وصفان مرتبطان، في اقترانهما حكمة، ودلالة معنوية قوية، ولا يوصف بهما سوى واحد، هو الخالق، خالق الموت، وخالق الحياة، وهو الله سبحانه، وصف بهما ذاته العلية، جاء هذا الوصف في سورة الحديد الآية 02 بين وصفين، بين قوله: ﴿لله ملأ السموات والأرض﴾، وقوله: ﴿وهو على كل شيء قدير﴾، تأملهما، فتأملهما عبادة.

الله سبحانه وتعالى هو إله الأموات وإله الأحياء، الذين أماتهم إماماً ليحييهم الحياة الحقيقية، وإما هم في عذاب أليم لا يموتون ولا يحيون، وهو إلههم جميعاً، إلههم في الدنيا وهم أحياء وإلههم في الآخرة وهم أحياء أيضاً، ﴿وهو الذي في السماء إله، وفي الأرض إله، وهو العليم الحكيم، وتبارك الذي له ملأ السموات والأرض وما بينهما، وعنده علم الساعة، وإليه ترجعون﴾¹⁹²، وقد قضى بينهم وهم في حياة لا في موت، قضى بينهم قبل القضاء على الموت، لذلك فموت الموت دليل على أنّ الله عز وجل هو إله الأحياء إلى ما شاء الله، يلحق عيسى عليه السلام هذا الدرس لقومه فيقول لهم: (وأما قيامة الأموات أفما قرأتم ما قال الله لكم: أنا إله إبراهيم، وإله إسحق وإله يعقوب؟، وما كان الله إله أموات)¹⁹³.

3- ملك الموت:

ملك الموت هو رسول ملائكي من الله، والملك هي صفة جنسه لا صفة وظيفته، فملك تعود عليه كمخلوق نوراني، والملائكة كلّها مخلوقات نورانية، وهي من خدّمة العرش، لا تعصي الله ما أمرها وتفعل ما تؤمر، وعلى ذلك فالملك ليست بمعنى المالك،

¹⁹¹ - الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي 1/384-385.

¹⁹² - سورة الزخرف الآية 84-85.

¹⁹³ - إنجيل متى 29/22، الكتاب المقدس، العهد الجديد ص 39.

لأن المالك هو الله، مالك الملك لكل شيء، قبل الفناء وأثناءه وبعده، فهو خالق الموت، وخالق ملك الموت، وخالق من يموت، وهو المحيي والمميت، ومن خصائص هذا الرسول أنه موكل بقبض الأرواح، وأمور بذلك، ومن حكمة الله - ولله في خلقه شؤون- أن الله تعالى جعله ملكا رسولا، ولو جعله بشرا لقتلوه، كيف وهم ﴿يقتلون النبيين بغير حق، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس﴾¹⁹⁴، كيف وهم لم يوقروا ضيوف نبي الله لوط وهم ملائكة ﴿قالوا لقد علمت ما لنا في بناتنا من حق وإننا لتعلم ما نريد﴾¹⁹⁵، فهل هؤلاء يوقرون قابض أرواحهم؟!.

لقد ذكر ملك الموت في آيات كثيرة بهذه الصفة، منها قوله تعالى: ﴿فكيف إذا نوفقتهم الملائكة يضربون وجوههم وألبابهم﴾¹⁹⁶، وفي الحديث الصحيح تفصيل للمهمة ولكيفية القيام بها، وبيان صورتها، وقد استفاد النقل في ذلك ليعرف الناس مصيرهم، ومن يأتيهم، وكيف يأتيهم، وكيف تُقبض أرواحهم، وهذا لعمرى في منتهى البيان الذي لا بيان بعده، أخرج أبو عبد الله الحاكم في المستدرک وغيره بسنده المتصل إلى البراء بن عازب قال: (خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار فانتبهنا على القبر ولما يلحد بعد، قال: فقعدنا حول النبي صلى الله عليه وسلم فجعل ينظر إلى السماء وينظر إلى الأرض، وجعل يرفع بصره ويخفضه ثلاثا، ثم قال: "اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر"، ثم قال: "إن الرجل المسلم إذا كان في قبل من الآخرة وانقطع من الدنيا جاء ملك الموت فقعد عند رأسه، وينزل ملائكة من السماء كأن وجوههم الشمس، معهم أكفان من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، فيقعدون منه مد البصر"، قال: " فيقول ملك الموت: أيها النفس المطمئنة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان"، قال: " فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من السقا، فلا يتركونها في يده طرفة عين،

¹⁹⁴ - سورة آل عمران الآية 21.

¹⁹⁵ - سورة هود الآية 78.

¹⁹⁶ - سورة محمد الآية 28.

فيصعدون بها إلى السماء، فلا يمرّون بها على جند من ملائكة إلا قالوا: ما هذه الرّوح الطيّبة؟ فيقولون: فلان ابن فلان، بأحسن أسمائه، فإذا انتهى إلى السماء فُتحت له أبواب السماء ثم يشيعه من كلّ سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهي إلى السماء السابعة، ثم يقال: اكتبوا كتابه في عليين، ثمّ يقال: ارجعوا عبدي إلى الأرض، فإنّي وعدتهم أنّي منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى، فتردّ روحه على جسده، فتأتيه الملائكة فيقولون: من ربك؟ قال: فيقول: الله، فيقولون: ما دينك؟ فيقول: الإسلام، فيقولون: ما هذا الرّجل الذي خرج فيكم؟ قال: فيقول: رسول الله، قال: فيقولون: وما يدريك؟ قال: فيقول: قرأت كتاب الله فأمّنت به وصدّقت، قال: فينادي مناد من السماء أن صدق، فأفرشوه من الجنّة، وألبسوه من الجنّة، وأروه منزله من الجنّة، قال: فيمدّ له في قبره، ويأتيه روح الجنّة وريحها، قال: فيفعل ذلك به، ويمثل له رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الرّيح، فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعده، فيقول: من أنت فوجهك وجه يبشر بالخير، قال: فيقول: أنا عمّلك الصّالح، قال: فهو يقول: ربّ أقم الساعة كي أرجع إلى أهلي ومالي، ثم قرأ " يثبّت الله الذين ءامنوا بالقول الثابت في الحياة الدّنيا وفي الآخرة"¹⁹⁷. وأما الفاجر فإذا كان في قبل من الآخرة وانقطاع من الدّنيا أتاه ملك الموت فيقعده عند رأسه، وينزل الملائكة سود الوجوه، معهم المسوح، فيقعّدون منه مدّ البصر، فيقول ملك الموت: اخرجي أيتها النّفس الخبيثة إلى سخط الله وغضبه، قال: فتفرق في جسده، فينقطع معها العروق والعصب، كما يستخرج الصوف المبلول بالسّفود ذي الشعب، قال: فيقومون إليه، فلا يدعونها في يده طرفة عين، فيصعدون بها إلى السماء، فلا يمرّون على جند من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الرّوح الخبيثة؟، قال: فيقولون: فلان، بأقبح أسمائه، قال: فإذا انتهى به إلى السماء غلقت دونه أبواب السماوات، قال: ويقال: اكتبوا كتابه في سجّين، قال: ثمّ يقال: أعيدوا عبدي إلى

¹⁹⁷ - سورة إبراهيم الآية 29.

الأرض فإنّي وعدتهم أنّي منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى، قال: فيرمي بروحه حتى تقع في جسده، قال: ثم قرأ " ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق " ¹⁹⁸، قال: فتأتيه الملائكة فيقولون: من ربك؟ قال: فيقول: لا أدري، فينادي مناد من السماء: أن قد كذب، فأفرشوه في النار، وألبسوه من النار، وأروه منزله من النار، قال: فيضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلّاعه، قال: ويأتيه ريحها وحرّها، قال: فيفعل به ذلك، ويمثل له رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت توعده، قال: فيقول: من أنت؟ فوجهك وجه يبشر بالشر، قال: فيقول: أنا عمك الخبيث، قال: وهو يقول: ربّ لا تقم الساعة) ¹⁹⁹.

أيها الإنسان، إنّك غير رخيص عند ربّك، كنت غاليا يوم خلقك حتى إنّ ربّك أمر أحسن مخلوقاته بالسجود لك، تكريما وتشريفا، وحدّرك من إبليس تكريما وتشريفا لك، ولما ارتكب آدم المعصية تاب عليه وغفر له تكريما وتشريفا له، ولما حصل الهبوط أنزل الله الهدى والبيّنات، وأرسل الرّسل تترى تكريما وتشريفا لك، فهل تظن أنّ حياتك التي هي وجودك تذهب بالطريقة التي يتصوّرها العقلايون الطبيعيّون تطوى بخشونة الموت وآلامه، الأمر ليس كذلك، خاتمة فنائك هي مثل مقدّمة خلقك، مثلما تمّ الاحتفاء بمولدك وبخلقك فقد تمّ الاحتفاء بموتك، ولعلّك استوعبت الدّرس جيّدا من ذلك الحديث الطويل المتقدّم.

4- إبليس وضياع الخلود الأبدي

الإنسان ميال بطبعه إلى أمرين: البقاء والخلود، والتمتّع والتملّك، وهي خصائص فُطر عليها منذ أن وُجد، الله سبحانه وتعالى الذي خلق آدم يعلم ميوله

¹⁹⁸ - سورة الحج الآية 29.

¹⁹⁹ - أخرجه بطوله أبو عبد الله الحاكم في المستدرک على الصّحیحین 1/ (93-95)، كتاب الإيمان حديث رقم 107، ورجاله رجال الصّحیح.

وشهوته لهذه الخصائص، فبشره بها، وكفاه همها بأن حققها له، فقال مبيّنا: ﴿إِنَّ لَنَا أَلَّا قَبُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى، وَإِنَّا لَا تَضْمًا فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾²⁰⁰، فدكره بعنصرين هما الأكل والشرب كناية عن المتعة والتملك والبقاء والخلود، وهما عنصران تحققا لأدم ولزوجه في الجنة، ثم ذكره ربه وأرشده وبين له أن الذي عصى أوامر ربه وأبى السجود سينتقم لنفسه، وسيُخرج آدم وحواء من الجنة، وبخروجهما سيتحصّل الشقاء، لكن آدم نسي، والنسيان من الشيطان: ﴿فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجهما من الجنة فتشقى﴾²⁰¹، وقد بُني الشقاء هنا على الرزق والأجل، وهما أمران كتبهما الله على جبين بني آدم يوم ولادته، وبهما يتحصّل الشقاء أو تتحصّل السعادة في الدنيا، من أتبع الهدى والبيّنات النازلة من السماء فهو في سعادة، وهي ضمانة الرجوع إلى المقام الأول وهو الجنة، ومن أعرض عن الهدى والبيّنات ضلّ وزلّ، وسيكون شقيًا في نار جهنّم.

أراد ربّ العزة من آدم أن يكون خالدا ومالكا لمتاع الجنة، لكن الشيطان وسوس لهما في غرور فقال: ﴿مَا نَعَاكُمْ رَبُّكُمْ عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكِينَ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِكِينَ﴾²⁰².

لما نزل الإنسان إلى الأرض نزل ليكابد ويجاهد، وفعل المستحيل من أجل الخلود، فها هي أهرامات الفراعنة لا تدلّ إلا على غريزة حبّ البقاء، وعلى غريزة التملك، وإلا كيف نفسر دفن أغلى ما يملك الفرعون معه؟، وها هي الحروب اليوم سجالا من أجل فرض السيطرة لأجل الغلبة والتملك، ومن أجل البقاء يتسابق الإنسان إلى تطوير العلوم والتّقنيات، فطوّر الطبّ والبيولوجيا، وذهب بعيدا في التّقنيات الحديثة، وطوّر علوم الصيدلة للقضاء على الميكروبات

²⁰⁰- سورة طه الآية 115- 116.

²⁰¹- سورة طه الآية 114.

²⁰²- سورة الأعراف الآية 19.

والجراثيم القاتلة، وهو إلى اليوم يعيش في صراع معها، وأجرى تجارب عميقة على هذا المستوى، ثم جاءت فكرة زرع الأعضاء ونقلها من الأموات إلى الأحياء ليزيد في حياته أمداً، وابتكر الاستنساخ أو ما عبّر عنه أحدهم بـ "الاستنسال"، وهو سلوك لا يدلّ إلاّ على مواجهة الموت والخوف منه، والاستنساخ لا يعني التّناسخ، ولو دخل الإنسان عالم استنساخ البشر لذاق وبال أمره، ولاضطربت الحياة أشدّ الاضطراب إلى درجة أنّها ستفقد معناها، ولذلك منعت كلّ القوانين والديانات هذا النوع من التجارب الطبيّة.

ومع كلّ الحملات المسعورة لم يستطع الإنسان أن يحقّق الخلود بمعناه الحقيقي، بل حتّى الآن لم يتمكّن من أن يزيد في عمره على عمر من تقدّم من البشر، بل العكس، تثبت الدراسات أنّ عمر الإنسان اليوم هو أقصر من عمر الإنسان القديم، فالقديم كان يعمر طويلاً.

5- غريزة حبّ البقاء

يجب التّفريق بين الخلود وغريزة حبّ البقاء، الخلود مطلب مخالف للعقل والنقل، لا يقرّ العقل بخلود أيّ كان، ولم يثبت أنّ إنساناً عاش خالداً في الدّنيا يمكن أن نُراهن عليه كمثال، وهي الغواية الأولى التي أغوى بها إبليس آدم، لكنّها لم تتحقّق لأدم ولا لإبليس، أما النقل فيجزم بالقطع العقدي بأنّ الخلود لله وحده، ﴿كُلٌّ مِنْ عَلَيْهَا فَلَنْ يَبْقَى وَجْهًا نَوَّابًا وَلَا كَرَامًا﴾²⁰³.

أمّا غريزة حبّ البقاء فهي فطرة فطر الله الكائنات عليها، كلّ كائن حيّ يحبّ الحياة، ويحبّ البقاء في الحياة، ويتعدّد عن كلّ ما يهدّد حياته، ومنها الاعتناء بحياته في الأكل والشرب والاستقرار والملبس والتداوي والتناكح والتّناسل، والدّفاع عن النفس من كلّ تهديد، هذه كلها مظاهر لحبّ البقاء، تقاوم الكائنات الموت بما تضع في بطنها لتعيش كما أنّها تقاوم الموت بالجنس والتّناسل، وهي فطرة

²⁰³ - سورة الرّحمن الآية 24-25.

كونية تتوالد ليبقى الخلف، ليستمرّ النوع والفصل، وهذا الجانب اهتم به الإسلام وأقرّه وحثّ عليه، فكانت المحافظة على الضرورات الخمس من مقاصد الدين، ولم يقطع الشرع في أيّ نصّ من نصوصه النّقلية بأنّ القصد من هذه المقاصد هو الخلود بل لأجل البقاء على الحياة حتى تستقيم العبادة ويتحقق الاستخلاف.

فصل في قوة الموت وسلطته



1- سلطة الموت:

حقيقةً يجب أن نعلمها، لا يوجد سوى الموت، لا أرى شيئاً حياً ويستحقّ الحياة، أي: لا أرى أنّ الحياة مُسرَّعة بذاتها، حرّة في وجودها وإن كان لها فعل في الوجود كما سيأتي، الموت هو الموجود، موجود لأنه يطارذك في الحياة، أماراته وعلاماته تحيط بنا في كلّ اللّحظات: قتلٌ، مرضٌ، نومٌ، إغماءٌ، ضعفٌ، نقصٌ، هرمٌ وشيخوخةٌ.. إنّهُ موجود.

ثم إنّهُ موجود بصيغة أخرى، هذه الصّيغة هي التّشريع للحياة، والتنّظيم لها، لا تعجب فالموت هو الذي يوجّه كينونة الحياة، ويخطّط لمسارها، ولنختصر الكلام فنقول: إنّ الفعل في الحياة يتمّ بدافع من الموت، فالعقلاني الطّبيعي يعمل بحرارة، ويستهلك بجنون فائق، ويتسابق بالسرّعة الممكنة، وهو لا يتسابق إلاّ لحفته، إنّ قوّمت التّسابق المسعور الجاري على ظهر الكرة الأرضية تجده بلا معنى، في كلّ شيء، لكن هناك معنى دفين في الإنسان هو أنّ المحرّك الأساس للتّسابق والجري هو الموت، مادامت الجنّة غير موجودة عند الطّبيعيين فإنّ الجنّة هي هذه الأرض، يجب أن تُستغل وتُستنزف إلى أقصى حدّ، الإنسان يصارع الموت بالعمل في الحياة، ألا يقول الإنسان في نفسه عليّ بالبناء قبل الموت، عليّ أن أفعل هذا الشّيء قبل الرّحيل، هناك اعتقاد في الموت، وهو اعتقاد غير متبوع بالعمل المشروع لما بعد الموت.

يلتقي التّفلااني مع غيره في هذا، فالتّفلاانيون يعبدون الله في الدّنيا ليلقوه في الآخرة، أو ليست مجمل العبادات للتّزود لما بعد الموت؟ ثم لماذا أوصى الشّرع بذكر هادم اللّذات؟ أو ليست الوصيّة باغتنام خمسٍ قبل خمسٍ واضحة في

ذلك، حين يتزوج المرء وينجب أوليس الموت هو الذي يدفعه لذلك، ألم يظلمها
 زكريا من ربه: ﴿وذكرناه إذ نادى ربه رجا لا تكررنا فربما وأنت خير الوارثين﴾²⁰⁴.

الموت راحة للأحياء لأنه يُعطي للحياة قيمة ومعنى، كيف سنحيا الحياة لو
 لم يكن الموت موجودا ؟

الموت يُسير الحياة، ويتحكم فيها، ويُمارس سلطته عليها، إنه كل شيء في
 فعل الوجود لا في خلق الوجود.

2. الموت تقدير

يجب التفريق بين كلام الله عن الموت كإيجاد وكلامه عنه كتقدير، فما أجراه
 بين العباد "تقدير"، ﴿فمن قدرنا بينكم الموت وما نمن بمسوقين﴾²⁰⁵، وما كان
 قبل خلق آدم إيجاد بالعدم، لأن تقدير العدم جائز كتقدير الوجود، ومن سلطة
 الموت أنه تقدير، والذي خلقه هو الذي قدره، وجعله سلطة بيده، فالموت
 يكتسب السلطة من خالقه، ومن سلطة الموت أنك تجهل زمانه، ومكانه، وكيفيته
 فيك، ﴿وما تدري نفس ماذا تكسب غدا، وما تدري نفس بأي أرض تموت﴾²⁰⁶.

الموت كائن بأمره لا بذاته، ولا شيء من ذاته إنما هو أمره عز وجل: ﴿وإنما
 قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون﴾²⁰⁷، لذلك لا يكتمل الإيمان إلا بالقضاء
 والقدر، ولا يستقيم الاعتقاد إلا به.

²⁰⁴ - سورة الأنبياء الآية 88 .

²⁰⁵ - سورة الواقعة الآية 63 .

²⁰⁶ - سورة لقمان الآية 33 .

²⁰⁷ - سورة البقرة الآية 116 .

3. الموت مُخَوِّفٌ

الموت كلمة صعبة، صعبة في النطق فكيف بالإحساس، كلمة مُخيفة، تخيف كلَّ حيٍّ، عند تذكُّرها يرتجف الفؤاد، وترتعد الفرائص، إنَّه نهاية الحياة، من مات فات، ومن فات لا يعود إلى الحياة، لذلك فهو يحدث للأحياء قلقاً نفسياً، يحكي الكاتب العراقي عدنان الربيعي في كتابه (رحلة الشَّتات والصَّين) بأنه لاحظ أثناء عيشه في الصَّين أنَّ كلمة "الموت" شيء مرعب عندهم حتى إنَّهم يتشاءمون من نطق رقم 4 باللُّغة الصَّينية التي تلفظ (سوو SU)، ويتقارب لفظها مع لفظ كلمة "موت"، وعلى سبيل المثال هناك عمارات في الصَّين تترك تسمية الطَّابق الرابع خوفاً من تشابه اللفظ مع كلمة الموت، ومن شدة الخوف من الموت حذفوا رقم 4 من المصاعيد الكهربائية، فإذا كان العدد مرَّكب من 4 وضعوا بدله رقم 3، الموت كلمة مُرعبة، ومُخيفة.

إذا ما قُدِّر لك أن ترى جثتك وقد فارقتها الحياة يوم الممات فسيستولي عليك الخوف الشَّديد، وستعود باحثاً عن أجوبة مقنعة لتساؤلات محرجة، تخيل أنَّها كذلك، وهي حتماً ستكون كذلك، فماذا عسى أن تفعل مادام بينك وبين الردى شبر؟.

الموت كائن يقضي على الجسد كلَّه، بحلوله في الدَّات يصيِّرها في مرحلتين: الأولى خروج الرُّوح ليبقى الجسد خشبة جامدة، لا يقدر على شيء، لا الأكل ولا الشرب ولا المتعة ولا الأنس، وأتعجب من أولئك الذين أجازوا نكاح نسائهم بعد موتهن، وسكتوا عن الحالة الثَّانية وهي: جواز متعة المرأة بزوجها بعد موته، هؤلاء استحضروا المتعة ولم يستحضروا المصيبة، وأيِّ متعة مع مصيبة الموت!، والثَّانية أنَّ الجسد يتفتت على مراحل من الزَّمن، قد تكون سنوات عمرك التي قضيتها في ترفيه هذا الجسد وتنعيمه تنقلب إلى سنوات من التفتت شيئاً فشيئاً، لِمَ لا، فقد تكون سنوات عمرك، فبعض العظام في المقابر تبقى لسنين، وينطبق

عليها قول عزيز مصر في رؤياه: ﴿إني أرى سبع بقرات سمان ياكلهن سبع عجاف
وسبع سنبلات خضر وأخر يابساً﴾²⁰⁸.

في التقلانية وعد ووعيد، وهما يذهبان معاً، في العقيدة وفي التصور، لا
يمكن الاقتصار على الوعيد فيبدو الإله مخيفاً، ولا يمكن الاقتصار على الوعد
فيبدو الإله غير قوي وغير شديد، هكذا حال الموت، الله عز وجل لا يُخَوِّف
بالموت ولا يُرهب بها فحسب بل هو لطيف ورحيم وغفار، ولنختصر كل ذلك في
"المتكبر"، وليس المتكبر هو المترفع فحسب ولكنّه المترفع عن أخطاء عباده، يعفو
ويسامح، ﴿قل يا عبائي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنصوا من رحمة الله إن الله
يغفر الذنوب جميعاً﴾²⁰⁹، وهذا يجعل الإنسان المؤمن يُقبل على الموت بالحب
تماماً كما أقبل عليها زميلنا ورفيقنا في الطلب والتحصيل الراحل الدكتور فريد
الأنصاري، فقد تحدّث في يومياته عن جمالية الموت²¹⁰، ولم يكن كلامه فيها
إنشاءً يتوخّى به البلاغة والفصاحة والبيان - وإن أوتي جانباً من ذلك - بل كان
الكلام نابعا من عقيدته وإحساسه حين بدأ ألم الموت يخالط ذاته، حبّ الموت لا
يعني تمنّيها، حبّ الموت لا يعني قتل النفس لأجلها، إنّ الحبّ المقصود هنا هو حبّ
لقاء الله، وفي الحديث القدسي (قال الله: إذا أحبّ عبدي لقائي أحببت
لقاءه).²¹¹

إنّ ألم الموت وأهوالها وكرهها لذّة إذا وُضع الألم والكرب في موقعه الصّحيح،
ورُبط بما لأجله كان، حين يعلم التقلاني بأنّ الألم كفارة للذنوب، والله يحب أن
يلقاه حبيبه نقيّاً صافياً حتى لا يلقيه في النّار كما جاء في الحديث المرفوع، بهذه

²⁰⁸ - سورة يوسف الآية 43.

²⁰⁹ - سورة الزمر الآية 50.

²¹⁰ - ضمّن ذلك في كتابه "جمالية الدّين معارج القلب إلى حياة الرّوح"، أنظر المشهد الثالث من الإشراق
الثاني، ص 75 وما بعدها، طبعة دار السّلام.

²¹¹ - حديث أبي هريرة، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التّوحيد، أنظر الفتح 13/466 رقم الحديث 7504

المعطيات تتغيّر النظرة، ولم لا، فقد يتغيّر الإحساس أيضًا، تلك هي حالة الموت في ثقافة النقل.

4- أسباب الخوف من الموت

تعرّض ابن مسكويه للأسباب التي تجعل الإنسان على الجملة يخاف من الموت، وهي أسباب نفسية وعلمية واقتصادية، وتصدّى لكلّ سبب بالمعالجة والبيان في صورة ما أطلق عليه (علاج الخوف من الموت)، يقول: (إنّ الخوف من الموت ليس يعرض إلا لمن لا يدري ما الموت على الحقيقة، أو لا يعلم إلى أين تصير نفسه، أو لأنه يظن أنّ بدنه إذا انحلّ وبطل تركيبه فقد انحلت ذاته، وبطلت نفسه بطلان عدم وثور، وأنّ العالم سيبقى موجودا وليس هو بموجود فيه، كما يظنّه من يجهل بقاء النفس وكيفية المعاد، أو لأنه يظن أنّ للموت ألما عظيما غير تألم الأمراض التي ربما تقدّمته وأدّت إليه، وكانت سبب حلوله، أو لأنه يعتقد عقوبة تحل به بعد الموت، أو لأنه يأسف على ما يخلفه من المال والمقتنيات، وهذه كلها ظنون باطلة، لا حقيقة لها)²¹².

ستّة أسباب، ذكرها واستطرد في معالجتها الواحد تلو الآخر، بعض بيانات مقبولة لا غبار عليها، وبعضها يحتاج إلى مزيد من التعميق، وبعضها مردود سنتويّ مناقشته في نقطة قادمة بحول الله، وعلى العموم فإنّ الأسباب الدافعة إلى الخوف من الموت هي هذه الستّة، وهي ليست على الحصر، نزيد عليها واحدةً وهي: الخوف من ملك الموت، وذلك أنّ ملاقاته الملك يخاف منها الناس في العادة، والله أعلم.

²¹² - تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، ص 217.

5. الموت: ابتلاءً ودواءً

إلى هنا عرفنا ماذا تعني ثقافة الموت بالنسبة للتقلاية، لكنّ جانباً من الموضوع بقي غامضاً من جهة ما تقدمه هذه الثقافة من معرفة حول كرب الموت وأهوالها، وهو أمر مخيف على كلّ حال، مخيف بالنسبة للشدائد والمحن التي يواجهها الإنسان في حال انعتاق الرّوح عن البدن، ولذلك وُصف الموت بـ "المُصيبة"، فهي مُصيبة من جهتين: جهة الألم والكرب الذي يصيب الجسد حين يفارقه الإحساس بخروج الرّوح، وجهة غياب حركة الذات بحلول الجمود التّهائي، وهما أمران لا يُطاقان.

في النّص النّقلي الموت مصيبة، وهي من أكبر المصائب التي تصيب الإنسان، لا توجد مصيبة أكبر منها، كلّ المصائب تأتي صغيرة وتكبر إلّا مصيبة الموت فإنّها تأتي كبيرة ثم تروح صغيرة، والصّبر دواؤها، وهو أنجع دواء يُقدّم من صيدلية النّقل العامرة بأدوية الوقاية، ويُبنى على أمور منها:

أ- تصبير الذات، " واصبر، وما صبرك إلّا بالله " ²¹³.

ب- النّطق بالاسترجاع، " إنّنا لله وإنا إليه راجعون " ²¹⁴.

ج- الظّفر بالجزاء بشارة مسبقة، وهي سمة الهداية: " وبشّر الصّابرين، الذين إذا أصابهم مصيبة قالوا إنّنا لله وإنا إليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة، وأولئك هم المهتدون " ²¹⁵.

لهذه الأسباب يصبح الموت أمراً غير مخيف، حامل هذه الثقافة لا يخاف من الموت، ضماناً ذلك أنّ الموت ما وُجد إلّا للابتلاء، فهو مثل الحياة تماماً، كلاهما مخلوق، وكلاهما للابتلاء: ﴿تبارك الذي بيده الملك وهو على كلّ شيء

²¹³ - سورة النحل الآية 127.

²¹⁴ - سورة البقرة الآية 156.

²¹⁵ - سورة البقرة الآية 155.

كبير، الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً²¹⁶، وخالق الموت لا يُخَوِّف ولا يُرهب بل هو خالق لطيف رحيم، وأكرر ما قلته سابقاً للتذكير والتأكيد: من أحب لقاء الله أحب لقاءه، ومن تقرب إليه بشبر تقرب إليه بذراع، لذلك فالتقلاني إذا حلّ به الموت يُقبل عليه بحبّ لا بكرهية، وباطمئنان لا بخوف، وبتفاؤل لا بتشاؤم، حتى الألم والكرب والشدة تتحوّل إلى ضدها تماماً حين تعلم أنّها كفّارات للخطايا، وأنّ ذلك ظرفي ومحدود أمام راحة ولدّة دائمة، راحة تُخرج من عمق الألم، ولدّة من عمق الشدة، نقل ابن أبي الدنيا في كتابه "ذمّ الدنيا" أنّ الجاهل هو الذي يحسب الشّيء الذي هو لا شيء شيئاً، والشّيء الذي هو الشّيء لا شيء، ومن لا يترك الشّيء الذي هو لا شيء لا ينال الشّيء الذي هو الشّيء، ومن لا يعرف الشّيء الذي هو الشّيء لا يترك الشّيء الذي هو لا شيء، لله ذرّه، فكتابه في ذمّ الدنيا كشف به حقيقة كنية والده.

تقرّر معنا أنّ المصائب ابتلاءات، سواء أحلت بك أو حلت بمن تحب، والاعتقاد بأنّها قضاء وقدر يخفف من لوعة الألم، يقول تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾²¹⁷، فهي مكتوبة ومسطّرة بالقدر، ونزلت عليك بالقضاء، ثم إنّ الشارع علّل ذلك بقوله: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ، وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾²¹⁸.

ولن يجني المصاب من مصيبته خيراً إلا بالصبر، والاحتساب، والإيمان بالقضاء والقدر، ويتوجه إلى الله أن يخلف له في مصيبته، ويطلب الاسترجاع، وليتّعظ بمن هو أشدّ منه مصيبة، وليعلم أنّ في المصائب ما هو أكبر مما حلّ به، وأنه مبتلى في هذه الدار، بهذا كلّ تمرّ عليه المصيبة برداً وسلاماً.

²¹⁶- سورة الملك الآيات 1-2.

²¹⁷- سورة الحديد الآية 21.

²¹⁸- سورة الحديد الآية 22.

6. الموت والتملك

في كتابه " الإنسان بين الجوهر والمظهر " To Have Or To Be " يعالج إريك فروم Erich From فكرة الخوف من الموت في فقرات ضمن محتويات الفصل الخامس، حيث ربط فكرة الخوف من الموت بنظرية "التملك"، فكلمًا ربط الإنسان نفسه بما يملك كلما زادت هواجس الخوف لديه من فقدان ما يملك، وكلما أبعد نفسه عما يملك كلما تبدد الشّعور عنده من فقدان ما يملك، والتملك هنا بمعناه العام، وتبدأ من أنانية تملك الذات، وقدّم بين يدي الموضوع عدّة تساؤلات لها صلة بموضوع الخوف من جهة فقدان الحياة، وهل الخوف يقتصر على المرضى والمستين أم هو عام على الجميع، وهل الخوف له صلة باقتراب نهاية الحياة إلخ، وطالب بدراسات نفسية لمعالجة هذه الظاهرة لا تقتصر على الأفراد بل تتوجّه إلى الجماعات الكبيرة، وعلى الرّغم من أنّ الكتاب صدر باللّغة الإنجليزية سنة 1979م فقد اعترف بعدم وجود دراسات تحليلية نفسية واجتماعية، ولذلك بادر بمحاولته في الكشف عن الطريقة الفعّالة للتغلّب على فكرة الخوف من الموت، يقول: (ونحن نرى أن ليس ثمة سوى طريق واحد للتغلّب على الخوف من الموت تدلّنا عليه تعاليم بوذا والمسيح والرواقيين والمعلم إيكهارت، وهذا الطريق هو نبذ التشبّث بالحياة والتعلّق بها)²¹⁹، وما ذكره لم يبتعد فيه كثيرا عما نطقت به الآيات القرآنية والنصوص الصّحيحة من الحديث الشّريف وما ذكره فلاسفة الإسلام، وقد أتينا على أشياء كثيرة من هذه النصوص ضمن فقرات هذا الكتاب، فالحقيقة واحدة وإن تعددت المرجعيات والأصول وحتى المعتقدات، فطالما (نحن نعيش وفق نمط التملك فلا مناص من الخوف من الموت، ولا تستطيع أي تفسيرات عقلانية أن تُزيل هذا الخوف "... ولكن من الممكن أن نخفّف من هذا الخوف حتى حين تأتي لحظة الموت "... إنّ المبادئ التي

²¹⁹ - الإنسان بين الجوهر والمظهر لإريك فروم ص 134 من التّرجمة العربية، سلسلة عالم المعرفة.

يجب أن نسترشد بها في الموت هي نفسها التي نسترشد بها في ممارسة الحياة، والخوف من الموت يقلّ بمقدار ما نحزّر أنفسنا من شهوة الملكية في كل صورها، وخصوصا الارتباط بالذّات الأنانية والتعلّق بها، لأنه إذا تحرّرتنا من هذه الشهوة فلن يكون ثمّة ما نفقده²²⁰.

7. الموت: إصابة وإدراك وتلقيا

الموت يصيب، ويدرك، ويلاقي، فهل أدركنا معاني هذه الكلمات ؟، العبرة بتنوع الكلمات هي لجلب انتباه المتغافلين والمتجاهلين للموت، أولئك هم المقصودون بقوله ﴿لَا مَا كُنْتُمْ مِنْهُ قٰئِمِينَ﴾²²¹، الحيدة أو التّجاهل أو التّغافل والنّسيان أو حتى التّكرار والجحود أمور لا تُبعد الموت، الموت لا يُتغافل عنه ولا يُنسى، ولا يحيد عن صاحبه، فهو يصيب ولا يخطئ، والخطأ فيه محال، لأنّ الموت قَصَدَ قَصَدَ الصّوّاب وأراده، ولذلك سُمي بـ "المصيبة"، ﴿الْكٰزِبِينَ إِعْمًا أَصَابَتْهُمْ مَّصِيبَةٌ﴾²²²، ﴿إِن أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مَّصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾

223

ثم إنّه يدرك، من الدرك، وهو اللّحاق والوصول إلى صاحبه، وقد استُعْمِلت هذه اللفظة في حقّ من يحسب نفسه متحصّنا من الموت بالقصور والجسور، ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيكَةٍ﴾²²⁴.

أما لقيا الموت فهي المصادفة والاستقبال، يصادفك في أيّ مكان، وفي أيّة جهة، ويستقبلك على أيّة حالة، لا موعد له ولا إنذار قبلي لتحديد موعد المجيء،

²²⁰ - المصدر السابق ص 135.

²²¹ - سورة ق الآية 19.

²²² - سورة البقرة الآية 155.

²²³ - سورة المائدة الآية 108.

²²⁴ - سورة النّساء الآية 77.

وقد استخدمت هذه اللفظة في حق الخائفين والمتجاهلين للموت، ﴿قَلْ إِنْ الْمَوْتِ
الَّذِي تَقْرَبُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مَلَاقِيكُمْ﴾²²⁵.

بين الكلمات الثلاث تكامل: المصيبة فيك أنت، والإدراك أينما كنت، والملاقاة
حيثما كنت، والكل يدلل على الفجأة والبغطة ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ
بَغْتَةً فَإِنَّمَا هُمْ مَبْلُوسُونَ﴾²²⁶.

أوضحت الآية أنّ الموت هو الذي يلقانا لا العكس، يلقانا على الرّغم منّا،
يلقانا أينما كنا، لا فرار منه بأيّة طريقة، ولا يملك المرجفون منه سوى أسلوب
التّجاهل، يتجاهلونه كما لو لم يكن موجودا، لكنّه حقيقة مُرّة فلم تجاهل اللّقاء
إذن؟ ﴿ثُمَّ تَرْجِعُونَ إِلَىٰ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، هنا
يظهر أنّ سبب التّجاهل هو حالة اللّقاء، وهي حالة لا تجعل منه لقاء حبّ وسلام،
لذلك وكلت القضية للإنسان، هو أدري بوضعه (أنا عند ظنّ عبدي بي)²²⁷.

8. الهلاك بالموت

لم يخلق الله الموت لمتعة الإنسان ولسعادته في الدّنيا، فلا أحد يزعم بأنّه
سعيد بالموت غاية السّعادة اللّهم إلا إذا أخذت عدوّه، ولا أحد يدّعي أنّه يتمتع
بالموت في الدّنيا اللّهم إلا إذا كان من المفسدين في الأرض، يتمتّع بلذّة القتل،
وهذه السّعادة ليست في قتل أعدائهم وخصومهم بل التمتع بعملية الموت وطرق
تحصيله في الغير كيفما كان هذا الغير، الموت يُفقد السّعادة ويقطع اللذّة ويحرم
الإنسان من الدّنيا، والواقع أنّ موت الإنسان ليس حرمانا من الدّنيا بل أخذ
نصيبه منها، والدنيا لا تدوم لأحد، يقع الموت حين ينتهي الأجل.

²²⁵ - سورة الجمعة الآية 8.

²²⁶ - سورة الأنعام الآية 45.

²²⁷ - طرف من حديث قدسي أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب التّوحيد، باب الحث على ذكر الله

تعالى، 2061/4 رقم الحديث 2675.

ثبت في نصوص النّقل أنّ الله سلّط الموت على أقوام فهلكتهم، و"هلك" تعني المبالغة والجهد في السّقوط والكسر، فالله عزّ وجلّ كسّر شوكتهم وأسقط جورهم حين أخذهم ليستوجبوا العذاب والعقاب، وهذا يبيّن أنّ الموت هو أداة هلاك ينتقم بها الربّ من المفسدين والظّالمين، يقول: ﴿فأهلكناهم بذنوبهم، وأغرقنا آل فرعون﴾²²⁸، وقرى جاءها البأس وهي قائلة²²⁹، وهو بأس لا تأمن منه الحضارات والمجتمعات مهما علت وتقدّمت، قد يأتيها البأس في الليل أو في النهار وهم لا يشعرون، ولا يدرون، ﴿أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون، أو آمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضمر وهم يلعبون، أفأمنوا مكر الله، فلا يامر مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾²³⁰، وقوله: ﴿فأخذهم الله بذنوبهم﴾²³¹، الآيات واضحة في مراد الله تعالى بإلحاق الهلاك بالمجتمعات والقرى والحضارات كيفما كانت وأينما كانت، وقد اعتبره الله مكرًا منه في حقّهم، وذلك لمواجهة مكرهم: ﴿ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾²³²، فالذي خلق وعيّن ومكّن له حقّ المنع والحرمان، وحقّ الإبادة والفناء، لكن ما الفرق بين هلاك الظّالمين وهلاك المؤمنين مادام المؤمنون غير مستثنين من الموت؟ الموت مقدّر على النّاس كلّهم، فإذا كان هلاكًا للجاحدين فهو هلاك أيضًا للمؤمنين؟ فما الفرق؟

الجواب بأمور ثلاثة:

الأمر الأول: يجب التفريق بين الموت وبين كيفية الموت، الموت واحد وطرق وقوعه مختلفة، ومن طرق وقوعه الهلاك، فقد أغرق قوم نوح بالطّوفان، وأغرق فرعون في اليم، ثم أخذهم بالسّنين ونقص من الثمرات التي فيه الهلاك، وأغرق

²²⁸ - سورة الأنفال الآية 55.

²²⁹ - أنظر الآية 3 من سورة الأعراف.

²³⁰ - سورة الأعراف الآيات (96-98).

²³¹ - سورة الأنفال الآية 53.

²³² - سورة الأنفال الآية 30.

قوم لوط بالماء، وقوم شعيب أخذتهم الرّجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين، وأهلك بأمور أخرى مثل الرّيح الصرصر العاتية والجراد والقمل والضفادع والدّم، وكلّها آيات مفصّلات، كل هذا يدل على أنّ الله تعالى سلّط هذه الوسائل للهلاك والانتقام، وحتى هذا ليس جواباً مُقنعاً، لأنّ هذه الوسائل قد يشترك فيها المؤمن مع الجاحد، فمن المؤمنين من مات بالرياح والوباء والزّلازل والحوادث والأعاصير والنار إلخ، فهل من تمييز بينهما؟

الجواب في الأمرين الآتين.

الأمر الثاني: إنّ إيقاع الموت في الجاحدين انتقام منهم، ومذلّة لهم، وليس ذلك للمؤمنين، المؤمن يموت بشرف وعزّة في حين يموت الجاحد في احتقار ومذلّة، وأكبر مذلّة هي الوسائل التي سلّطها الله عليهم للانتقام وللتدمير²³³، ثم إنّ الحديث المرفوع يبين أنّ من هذه الوسائل إذا عمّت على المؤمنين والجاحدين كانت رحمة على المؤمنين وعذاباً على الجاحدين²³⁴، وهذا بحسب ما سيلقاه الهالك بعد موته، المؤمن يلقى خيراً، والجاحد يلقى شراً، دليل ذلك أنّ نفس المؤمن تنشط للموت لأنها ستلقى الله، بخلاف الجاحد فإنه يفرّ من الموت ويحرص على الحياة، قد يشتركان في الهلاك لكنهما يختلفان في الجزاء والعطاء، فالعبرة إذن بالوزن: ﴿والوزن يومئذ الحقّ، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يخطئون﴾²³⁵.

الأمر الثالث: إذا خالط أهل الاعتقاد أهل الإلحاد، وكانت الغلبة لأهل الإلحاد حصل الهلاك، وفي الحديث الصحيح: (أنّهلك وفيينا الصّالحون ؟ قال:

²³³ - أنظر الآيات 129-137 من سورة الأعراف .

²³⁴ - حديث عائشة أم المؤمنين، أخرجه البخاري في جامعه الصّحيح، كتاب الطب، باب أجر الصّابر على

الطّاعون 192/10 رقم الحديث 5734.

²³⁵ - سورة الأعراف الآية 7-8.

نعم، إذا كثرت الخبث)، والحديث وارد في الفتن²³⁶، يقول القرطبي معلقاً على معنى الحديث: (دليل على أن البلاء قد يرفع عن غير الصّالحين إذا كثرت الصّالحون، فأما إذا كثرت المفسدون وقلّت الصّالحون هلك المفسدون والصّالحون معهم إذا لم يأمرُوا بالمعروف ويكرهُوا ما صنع المفسدون، وهو معنى قوله " واتّقوا فتنة لا تصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصة"²³⁷، بل يعمّ شؤمها من تعاطاها ومن رضبها، هذا بفساده وهذا برضاها...)²³⁸.

9- شمولية الموت

نعني ب "الشمولية" الإحاطة، إحاطة الموت بالحياة، بخلاف ما يذهب إليه البعض من أنّ الموت يبدأ مع الحياة، فحياة الإنسان تنتهي بالموت، وهذا تعريف مبسّط جدّاً للموت، الموت كما بيّنا سابقاً عن الحياة، ولمّا بدأت الحياة رافقها الموت وصاحبها في السّيرورة، فالإنسان يموت ويحيا في كل يوم مرّة، وقد يموت موتة مؤقتة إما بعملية تخدير أو فقدان الوعي التام، وقد يتوقّف قبله لفترات ثم ينبض، ثم إنّ خلاياه في موت وحياة، والإنسان وهو في الحياة يرى الموت يُحيط به من كلّ مكان، يراه حالّاً في الإنسان، وفي الطّبيعة، ففي كلّ لحظة موت، موت إنسان أو حيوان أو نبات أو نجم إلخ، والغرض من هذا التأكيد هو إثبات شمولية الموت، وإحاطته للحياة، فهو سابق عن الحياة، ويسير معها في وجودها، ثم إنّه لاحق عليها، ولذلك تم التأكيد على استحضاره في كلّ لحظة وحين.

الجسد الميّت وهو ما يطلق عليه "الجثة" هي حاملة للموت كلياً، وليست هي الموت، لأننا إذا دفنا الجثة لا ندفن الموت، فالموت كائن بالجثة وبدونها، والجسد

²³⁶ - حديث أمّ المؤمنين زينب بنت جحش، أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراف الساعة، باب اقتراب الفتن، 2207/4 رقم الحديث 2880.

²³⁷ - سورة الأنفال الآية 25.

²³⁸ - التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة لأبي عبد الله القرطبي ص 490.

الحيّ حامل للحياة جزئيا، وليست حياته هي الحياة كلّها، فإذا توقّفت حياته بالموت فإن الحياة تبقى بعده، ليس بموته تموت الحياة، الموت يُرافق الحياة، وهي مصدر تهديد لها، وهذا لا ينطبق على حياة الإنسان وحده بل على الكون كله وما حوى، الكون كلّ مهتدّ بالفناء في يوم ما، ﴿يَوْمَ تَبْدَأُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾²³⁹.

10. الموت الشخصي

هل الموت مسألة شخصية تخصّ كل واحد بمفرده أم أنّها مسألة عامة، الموت شخصي على النوعين: إن كان عامّا فهو شخصي، وإن كان يخصّ الشخص فهو كذلك، قد تبدو مناقشة الموضوع من هذه الزاوية لا فائدة منها لكنّها من زاوية الواقع المفترض مناقشة عامرة، وذات فائدة، وهي أنّها تجعل الإنسان لا يتكل على غيره حتى في الموت، الجنود الذين يدافعون عن الوطن ويضحّون بأرواحهم في سبيلنا يموتون من أجلنا لكن هذا لا يعني أنّنا بمنأى عن الموت، الجنود البواسل يدفعون عنك من يقتلك لكنهم لا يدفعون عنك الموت، الموت يصيب الفرد كما يصيب الجماعة، وحتى إذا أصاب الجماعة فإن الجماعة هنا لا تتحمل أذى موت الفرد، كلّ فرد من الجماعة يصيبه الموت بمفرده، وهذا هو معنى " الموت الشخصي".

للطبيعيين تصور آخر لمفهوم " الموت الشخصي"، فالموت الشخصي هو أن يعيش الإنسان موته الشخصي، وهذا محال، فالإنسان لا يمكنه أن يعيش حالة الموت الشخصي ما لم يموت، فالموت - كما يرى أبيقور- تجربة شخصية لا يستطيع أحد معرفتها ما لم يموت، وإذا مات تعذّر عليه إدراكها، الصّواب معه، لكن الحقّ هو ما تقدمه المعرفة التقلاية في التّعير عن حالة الإنسان قبل وجوده، وأثناء وجوده، وبعد وجوده.

²³⁹ - سورة إبراهيم الآية 48.

موتك يمنح الحياة لغيرك، أي بقدر ما أنت تموت بقدر ما يحيا غيرك، فئة من البشر تموت وفئة أخرى تولد وتحيا، تماما كالحشرات والنباتات والحيوانات والأجرام السماوية، لو تخيلنا بقاء الأجساد منذ عهد آدم إلى الآن لضاقت بنا الأرض، ولنفدت الموارد، ولقلت الأرزاق ولربما انعدمت، ومن دون شك فإن القتل سيقع بين البشر كما وقع بين ابني آدم، وكما هو واقع اليوم على كثرة الأراضي وشساعة البراري القاحلة، الرزق موجود وموفور ومع ذلك يعتمد الإنسان إلى قتل أخيه الإنسان، إذن الموت كائن لا محالة بالافتعال أو بالافتراض، هذا عن موت الذات، موت كل واحد متا فردا فردا.

أما الموت الجماعي فهو غير الموت الكلي، الموت الجماعي هو موت جماعة من الناس بسبب من الأسباب، إما قتلا، أو غرقا في باخرة، أو بسقوط طائرة من السماء، أو بانهيار مبنى من المباني أو بسبب جائحة مثل الطاعون أو الكوليرا أو الكورونا إلخ، أما الموت الكلي فهو المفهوم من قوله تعالى: ﴿كُلٌّ مِنْ عَلَيْهَا فَلَنْ وَيَقْرُوهُ وَجْهَ رَبِّكَ وَالْجَلَّالُ وَالْإِكْرَامُ﴾، ليتولى ربنا عز وجل تدبير شؤون الكون من جديد: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نَعْمِدُهُ، وَعَدَا عَلَيْنَا إِذَا كُنَّا فَاعْلِبِرُ﴾.

11- عدالة الموت

الموت أكثر عدالة من الحياة، عدل في كل شيء، في عالم الحياة تستطيع أن تميز بين الغني والفقير، بين المالك والمملوك، بين الكبير والصغير، الغني تظهر عليه أمواله، والفقير يبدو عليه إملاقه وحاجته، لكن إذا حلّ الموت في هؤلاء يذوب كل شيء، لا تستطيع أن تميز بينهما، سواسية في الاسترخاء، وفي السكون، وفي التسليم المطلق، سواسية في كل شيء بعد أن كانت بينهما فوارق كبيرة، وتبدأ العدالة من الغسل والكفن، والصلاة على الجنازة، لا يُذكر أحد بالاسم، وفي شقّ القبر، وقد يرقدا جنبا إلى جنب، الغني بجانب الفقير، والظالم بجانب المظلوم، والسيد بجانب العبد.

الموت عدل كلّه، الكلّ سيموت، ﴿كَلَّ مِنْ عَلَيْهَا فَاِنَّ﴾، القتل بغير حقّ حرام، يعاقب عليه الشرع والقانون، والقتلة سيموتون، سيحاسبون، ولو قتلوا أنفسهم، ولا يوجد قانون يحاكم قاتل نفسه سوى قانون الشريعة، القانون الوضعي يحاكم الأحياء ولا يحاكم الموتى، وإذا مات القاتل فلا متابعة عليه، أما القانون الإلهي فيحاسبه في محكمة الحق غدا.

حين تعلم بأنّ الموت لا يستهدفك لوحيدك بل يستهدف كلّ واحد من جنسك تحسّن بالراحة، حين تعلم بأنّ الموت لا يستهدف بني الإنسان وحدهم بل يعمّ النجوم والأفلاك والكواكب والأجرام السماوية وكلّ الكائنات المرئية والخفية، الدقيقة والكبيرة، حين تدرك ذلك تحسّن بالاطمئنان، وتعلم بأنّ الوجود مصيره إلى الموت، وأنّ الخلود ليس لأحد، حين تدرك كل هذا تدرك مغزى العدالة الإلهية، وتقول في النهاية: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ﴾²⁴⁰.

لقد تبين أنّ من بين الأسباب الباعثة على الخوف من الموت الخوف ممّا ارتكبه الخائف في حياته من فساد في الأرض، فهو عالم بأحوال نفسه، يشهد على نفسه في الدنّيا قبل الآخرة، ولذلك يخاف من الموت، وهؤلاء الخائفون لا يخافون من الموت وإنّما يخافون في الحقيقة من عدل الباري وقسطه، ولو أنّهم استغفروا الله وتابوا وظنّوا برّبهم خيرا ما خافوا من لقاء الله وعدله، وإذا تماردوا في فسادهم فعليهم ألاّ يخافوا لأنّ الله عدل، لا يظلم مثقال ذرّة، فيعدله سينالون جزاءهم، لأنّ الجزاء عقوبة على ذنب ارتكبه، ومن باب السلامة الحذر من ارتكاب الذنّب واجتنابه، وإذا قدر عليهم ارتكابه فعليهم بالتوبة والإنابة والرّجوع، فإنّ من العدل الإلهي أنّ الله تعالى فتح باب التوبة لجميع عباده قبل أن يُغرغروا، فإذا غرغروا فلا توبة ولا إنابة ولا رجوع، وقد بيّنا ذلك في فقرة "الموت والتوبة".

²⁴⁰ - سورة فاطر الآية 01.

الحياة بطبيعتها ليست عادلة لأنها تسمح للإنسان بالتمكُّ والتباهي والتفاخر، تلك هي طبيعتها ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾، ولم يقل ذلك في الموت، ومن هنا كان الموت أكثر عدالة من الحياة.

12. علاقة الموت بالإنسان

علاقة الموت بالإنسان علاقة قوية، لن تفهم العلاقة إلا بتأمل الأطروحة النقلانية لعملية الخلق، صحيح أن الله تعالى خلق الموت كما خلق سائر الكائنات، وصحيح أيضا أنه يجري عليه الفناء كما يجري على سائر الكائنات، فالوجود وُجد قبل وجوده، والحياة بدأت قبل خلقه، لكنَّ نهايتها مرتبطة بنهايته، قيام الساعة في المعتقد النقلاني تعني نهاية العالم، كل شيء سيتغير، ﴿يَوْمَ نُهِو السَّمَاءَ كَصُورِ السَّجْلِ لِلْكِتَابِ، كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نَعْمِيدُهُ، وَعَدَا عَلَيْنَا إِذَا كُنَّا فَاعْلِينَ﴾²⁴¹، ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ، وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾²⁴²، وهذا يوم القيامة كما أجمع عليه المفسرون.

إنَّ خلق آدم غير مجرى الحياة بالنسبة للكائنات المخلوقة، وهي الحقيقة التي أدركتها الملائكة حين قالت: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفُدُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾²⁴³، والمفهوم من منطوقها: ما ذنبنا نحن ونحن مسبحون وعابدون، لماذا لا تُبقي علينا وحدنا من دون هذا الكائن الذي سيفسد في الأرض وسيفسد الدماء؟ لكن الجواب أتى على الفور: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، كما أن إبليس نفسه أدرك حقيقة خلق آدم، وأنَّ النِّهَايَةَ مع نهايته فزَيَّنَ له الأكل من الشجرة متعلِّلا بالخلود والدوام لا الموت المقدر، وكان يظن أن الله تعالى سيفني آدم وحده،

²⁴¹ - سورة الأنبياء الآية 103.

²⁴² - سورة إبراهيم الآية 50.

²⁴³ - سورة البقرة الآية 29.

وسيعجل بموته بعد بُرْهة من خلقه، وأنّ الله تعالى يُبَدِّل لديه القول فيغيّر من أمره، لكن حصل ما لم يكن يتوقّعه إبليس، وهو حصول التّوبة لأدم، والأمر بالتّزول إلى الأرض، وكان إبليس مع النّازلين، لأنّه عصى الله تعالى مرتين: الأولى مخالفته لأمر السّجود، والثّاني غواية آدم وحواء بالأكل من الشّجرة بعد نهي الله تعالى لهما، وحين أدرك إبليس بأنّ الخطّة لم تنجح، والفناء قادم وهو مرتبط بهلاك بني آدم وقيام السّاعة طلب طلبا وهو قوله: ﴿قال ربّ فأُنْصِرْني إلى يومٍ يبعثون﴾، قال فإنّ من المنصّرين: إلى يوم الوقت المعلوم²⁴⁴، الخالق يعلم ما لا يعلمه المخلوق، وقد تاه عقل بعض الملاحدة في الاستهزاء حين سمى ما وقع أسطورة، وكأنّه يملك الحقيقة على ما جرى، وعلى ما يجري، وعلى ما سيجري.

13. حتمية المرض والموت

من يستطيع أن يُبعد الموت؟ هل تستطيع العلوم التّقنية والطّبيعية أن تبعد الموت؟ هل يستطيع الطب بصفته العلم الأكثر ارتباطا بالصّحة أن يُبعد الموت؟ هل تستطيع تقنية زرع القلوب الاصطناعية والكِلا وكل الأعضاء الاصطناعية أن تبعد الموت؟ ثم هل يستطيع الدّعاء والخوف والذّكر والتبتّل والتهجّد والصّلاة والصّيّام، هل تستطيع هذه كلّها ولو اجتمعت أن تُبعد الموت عن صاحبها؟ لا أحد تجرّأ في الدّعاء فطلب من الله عزّ وجل أن يؤجل له في العمر إلى حين إلا إبليس، لم يثبت أن أحدا من الأنبياء والرّسل طلب ربه هذا الطلب، وحتى الدّواء فهو شفاء من كل داء إلا السّام، والسّام الموت، والموت لا دواء له.

هل المرض هو الموت؟

ليس المرض هو الموت، لكن شاع أنّ المرض سبب في الموت، وحصل الاتفاق على أنّ الموت واحد وأسبابه متعدّدة، لكن بحسب الحكم بالأغلب أنّ أغلب من مات هو بسبب مرض معيّن، ومع ذلك فإنّ الأمر ليس على إطلاقه، فبعضهم

²⁴⁴ - سورة الحجر الآيات (36-38).

يموت بغير مرض، فيه من يموت بسبب الجوع، ومن يموت بسبب الإفراط في الأكل والشرب، ومن يموت من قلة الحركة وآخرون يموتون بسبب الإدمان على الرياضة، كم من بطل رياضي مات على حلبة الملاكمة أو في المصارعة أو في العدو الرّيفي أو في السّباحة أو في ملاعب كرة القدم.

زار جدّه الذي تجاوز التّسعين عاما وهو طريح الفراش، وكان الزائر طيبيا فسأله عمّا يشكو، فأجاب الجد: والله ما بي شيء يا ولدي، ولا أحسّ بشيء، لكنّ الجسد تعب وفني، ولم يعد يقوى على شيء، إنّه مرض كِبَر العمر يا ولدي، عندها أدرك الطبيب بأنّ في الوجود مرضا قاتلا غير قابل للمعالجة يُدعى "مرضُ كِبَر العمر".

14- الموت الوشيك

" الموت الوشيك" أو " العودة من الموت" أو " الاقتراب من الموت" Near death Experience NDE كلّها مسمّيات لظاهرة واحدة، هذه الظّاهرة التي جرى الكلام عنها في كتب ومقالات ولقاءات مع أناس من مختلف الأعمار استيقظوا بعدما أوشكوا على الموت، فحكوا أشياء غريبة، من ذلك صعود أرواحهم من أجسادهم، وسماعهم لما يجري في قاعة العمليات من حوار بين الأطباء والممرّضين، ومنهم من يحكي تجارب سلبية مثل ألم الموت وفقدان السّعادة، ومنهم من يحكي العكس من ذلك، ومنهم من يرى مشاهد غريبة مثل الأنفاق المظلمة وغير ذلك، وقد تداول النّاس هذه القصص من مختلف الأجناس والقارّات بعضهم يكذبها، وبعضهم يعتبرها هلوسات وتخيّلات أشبه ما تكون بالأحلام والهذيان، لكنّ العِلْم أخذ الوضع بجديّة، وأرجع أطباء الأعصاب السّبب إلى نقص الأكسجين أو تأثير أدوية التّنويم فتحدث تلك الهلوسة، وحتّى إذا كان الأمر مجرد أوهام فكيف يمكن للمريض رؤية الأشياء وهو ميّت سريريا؟، يصرّح خبير طبّ الأعصاب في المستشفى الملكي بكونينهاغن دانييل كوندزيلا Daniél Kondziella بقوله: "كلّ هؤلاء الأشخاص (العائدين من الموت) تمّ إنعاشهم مرّة أخرى،

وتمكّنت أدمغتهم من البقاء على قيد الحياة دون أي ضرر كبير، وإلا لما تمكّنوا من سرد ما عاشوه في تلك التجارب سنوات عديدة بعد وقوعها، وهذا يعني أنّها تجارب تحدث في وقت لا يزال الدّماغ يعمل فيه بشكل جيّد".²⁴⁵

ولم يبق الموضوع في إطار استصدار أحكام من مثل الأحكام السّابقة بل من العلماء من تخصصّ في موضوع "الموت الوشيك"، ومن هؤلاء الفيلسوف والطّيب الأمريكي ريموند مودي Raymond Moody الذي خالط النّاس وتحدّث إلى الكثير من الّذين عادوا من الموت حسب زعمه، وجمع تجاربهم كتجارب اقتراب من الموت، وعالج التّجربة مع عيّنات من هذا النوع، ووضع منهجية يصفها بالعلمية مودعا ذلك في كتابه الشهير "الحياة بعد الحياة" Life after Life²⁴⁶، لكنّ الكتاب جوبه بانتقادات وردود، فإذا تركنا عنوان كتاب ريموند بوذي ورجعنا إلى المسّميات التي أعطيت للظاهرة فسنجد أنّ ما تحصّل يتماشى مع تلك العناوين، فالمستجوبون والّذين تمّت محاولتهم هم ممن أوشكوا على الموت أو اقتربوا منه، قد يكونون ماتوا بالفعل ثم عادوا إلى الحياة وهو أمر مستغرب من النّاس العاديين، ولا يمكن التّسليم به على الاطلاق، وهذه الفكرة ليست جديدة بل ترجع جذورها إلى القرن الهجري الثّالث، فقد صنّف الحافظ أبو بكر عبد الله بن محمّد القرشي الأموي الشهير بابن أبي الدنيا الذي كانت وفاته سنة 281هـ كتابا بعنوان "من عاش بعد الموت"²⁴⁷، ويتضمّن أشياء كثيرة تزيد على ما ذكر هنا، وذكر الحافظ أبو بكر البيهقي: (وقد رُوي التكلّم بعد الموت عن جماعةٍ بأسانيدٍ صحيحة)²⁴⁸.

²⁴⁵ - صرّح بذلك لإذاعة "دوتشلاندر فونك" الألمانية بتاريخ 15 نوفمبر/ تشرين الثّاني 2019م.

²⁴⁶ - أستاذ الفلسفة في جامعة شرق كارولينا، نشر الكتاب عام 1975م، ترجمه على العربية مورييس جلال، عن عن مكتبة الفكر الجديد، وهو متاح للتّحميل على النت.

²⁴⁷ - الكتاب محقّق ومطبوع، حققه محمّد حسام بيضون، ونشرته مؤسسة الكتب الثّقافية ببيروت في طبعته الأولى عام 1413هـ.

²⁴⁸ - في دلائل النّبوة 6/158.

فصل في الموت والإيمان



1. الموت: عطاء وجزاء

أ- الموت أساس الإيمان

هي عقيدة نقلانية مقرّرة، هي فيصل التّفرفة بين الإسلام والزّندقة، وهي تدخل في كل أركان الإيمان الستّة، ولا يستقيم الإيمان إلا بالإيمان بالموت والبعث والحساب والعقاب، وقد صوّر القرآن الكريم حوار الوالدين المؤمنين مع الابن الجاحد العاق: ﴿والذي قال لوالديه أفأ لكم، أتعدانني أن اخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثن الله ويلدء امرن، إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أسلّصير الأوليبر﴾²⁴⁹.

ب- خروج الرّوح

أو انعقادها من الجسد، تختلف التّعابير والواقعة واحدة، وتعدّد التسمّيات والحالة واحدة، هل تخيلنا كيف تتمّ عملية خروج الرّوح من الجسد في دقائق معدودات وهي اتّحدت بالجسد في سنوات؟، كل تلك السنين من التزاوج تُطوى في دقائق محدودة، ولا أدري هل تُحسب دقائق التّزع من مسيرة العمر أم لا، دقائق لها صبغة خاصة، وهي من أشأم اللّحظات في الحياة، ومن أصعب الأوقات، فيها يذهب كلّ شيء، اللّعب واللّهو والمرح والفرح والأصدقاء والجيران، والمنصب والرّعاية والشّهرة، وتُنسى حتى أيّام الاحتفالات في أعياد الميلاد، تذهب أيّام طفولتك البريئة يوم كنت تلهو لا يعرف الهمّ قلبك ولا تُراقب شيئاً، تذهب أيّام الشّباب التي كنت فيها قويّاً طليقاً، تلاعب الأقران وتصارع الخلان، تذهب أيّام

²⁴⁹ - سورة الأحقاف الآية 16.

الرَّجولة وزمن المسؤولية، أيام زواجك ومعانقة خليلتك، كل هذا يُطوى في تلك الدقائق، يُطوى معك ليُروى بعدك.

ج- آخر كلمة

الحياة جميلة جدا، وحلوة خضرة، ولها قيمة حقيقية لا تظهر الآن، بل تظهر في الساعات الأخيرة من العمر، وإذا تطلّب منك أن تقول لنا أشياء عن أحاسيسك ومشاعرك تجاه " الحياة " وقد أدبرت، وعن " الموت " وقد أقبلت فإنّ الكلمات تصبح عاجزة عن الوصف، تتزاحم الأفكار، وتصبح عاجزا لأنك تريد أن تقول كلّ شيء في عبارة أو كلمة أو إشارة، لكن اللسان يخرص، وحتى العقل يتوقف، لا تقل أيّ شيء فكلّ شيء قد انتهى الآن، عليك بكلمة واحدة يجب أن تقولها عند خروج الرّوح، ويجب أن تكون آخر الكلام وهي شهادة التّلقين: (لا إله إلاّ الله محمّد رسول الله).

لم يكن صدّام حسين يملك لحظة إعدامه غير الكلمة نفسها، كانت هذه الكلمة هي التي واجه بها القدر المحتوم وهو الذي حكم العراق أزيد من ربع قرن، وفي اللحظات تلك، وفي يوم النّحر كان التلفزيون اللّيبّي يعرض قصّة عمر المختار، هذا البطل الذي انتهت حياته بالشّنق من قبل المحتلّين الإيطاليين، تماما كما فعلت أمريكا بصدّام، لقد شُنق صدّام كما شُنق قبله عمر المختار، لكنّ القاتلين لم يكونوا يدركون أنّهم قدموا لهؤلاء خدمة جليّة لم يكونوا يتوقعون حدوثها، وهي " الشهادة "، الشهادة التي تضمن للإنسان الحياة الحقيقية ﴿ولا تحسبن الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتا، بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون﴾²⁵⁰، ثم إنّهم سجّلوا أسماءهم بدمائهم في تاريخ المقاومة والمقاومين تماما كما فعل المستعمر الفرنسي بعلال بن عبد الله وحمّان الفطواكي وغيرهما، إنّها لحظات البقاء لا الفناء، لحظات الحياة الحقيقية لا الحياة الزائلة، وهي هدية ساقها القدر لم يكونوا

²⁵⁰ - سورة آل عمران الآية 169.

يتوقعون ذلك لو ماتوا على الأُسرة، وحتىّ المسيح عيسى عليه السّلام لم يكن ليرفع لولا تقديمه للصّلب، يقول أحد المسيحيّين: (الموت مخيف بغير يسوع، لكنّه في المسيح مقدّس ورقيق، وهو فرحة المؤمن الحق) ²⁵¹، والنقلانية تخالف النّصرانية في موت المسيح، لم يمّت بالصّلب بل سيتوفاه الله ويرفعه إليه مرّة أخرى بعد النزول، ولا بدّل "المرفوع" من "النزول" ليزوق الموت.

د- الجزاء بعد العمل والعطاء

الموت حلقة وصل بين الدّنيا والآخرة، بالموت تُردّ إلى الله وإليه ترجع، وكلمات وعبارات ﴿تَرْجُونَ﴾، ﴿وإِليه تُرْجَعُونَ﴾ و﴿إِلَى رَبِّكَ تُرْجَعُونَ﴾ تدلّ على أنّك كنت في الأوّل عنده، منه خرجت بالخلق وإليه تعود.

إنّ الرّجوع ليس رجوعاً ألياً بل رجوعاً يقتضيه الجزاء، لو قلت لعامل عندك: اعمل وستأخذ أجرك في نهاية اليوم، أو في نهاية الأسبوع أو آخر الشّهر كان ذلك معقولاً، ويتماشى مع الحق والشرع والقانون، الأجرة هي استحقاق يكون بعد تمام العمل، ولا يكون قبل الشّروع فيه لأنّ الشّيطان يفسد الشّروط، ويبطل العمل، ووجهه أنّ العامل حين يأخذ أجره قبل العمل يتباطأ فيه ويتكاسل، فالأجرحافز عن العمل، وهو الباعث على النّشاط فيه ولربّما الإخلاص فيه، هذا من وجهه، أما من وجه آخر فكثير من العمّال إذا أخذوا أجورهم انصرفوا قبل إكمال عملهم، ولربّما انصرفوا عنه بالكلّية لأنّ ما لأجله يعملون قد أخذوه، ولذلك فالأجور تُستخلص في نهاية اليوم أو الأسبوع أو الشّهر بحسب العقد والشّروط.

هكذا حال الإنسان في أوّل الخلق، وفي الهبوط إلى الأرض، آدم كان في الجنّة مُنعماً عليه من ربه، يأكل من خيراتها ولا يُبالي، لكنّه لم يضع أوامر ربّه في الحسبان، فعصى ربّه فكان الهبوط، وهبوطه إلى الأرض مقيد بالعمل إذا أراد

²⁵¹ - إشكالية الموت ص 36.

الرجوع إلى الجنة، فما كان يأخذه بلا تعب ولا نصب أصبح بالعبادة والنصب، والرجوع إلى الجنة هو الجزاء الذي أعدّه الله تعالى للعاملين المخلصين، وللعابدين الشاكرين، ﴿فمن زحرج عن النار وأدخل الجنة فقد فاز﴾²⁵²، أي فاز بالجزاء، ولا جزاء بلا عمل، وقوله: ﴿وقل اعملوا فسير الله عملكم ورسوله والمؤمنون، وسترون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾²⁵³، وقوله: ﴿وإنما توفون أجوركم يوم القيامة﴾²⁵⁴.

2- الموت: المقبول والمردول

أ- تمني الموت: أجائز هو أم مكروه.

نهى الشرع عن تمني الموت لكن ليس بإطلاق، وقد حملها البعض عن النهي المطلق فكرهوا الموت، وزهدوا في ذكره وتذكره، بل منهم من لا يطبق سماع كلمة الموت، وإذا ذكر الموت أمامه قام وغادر المكان.

صحيح جدًا أنّ الشارع بين كراهية الموت، وبوّب كثير من العلماء وأهل الحديث ب (كراهية تمني الموت)، ولذلك تجنّب كثير من الصحابة الدّعاء به، كان أنس بن مالك يقول: (لولا أنّي سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول لا تمنّوا الموت لتمنّيت) ²⁵⁵، وقال قيس بن أبي حازم: (أتينا خباب بن الأثر نعوذ به وقد اكتوى سبعا فقال: " لولا أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم نهانا أن ندعو بالموت لدعوت به) ²⁵⁶.

²⁵² - سورة آل عمران الآية 185.

²⁵³ - سورة التوبة الآية 106.

²⁵⁴ - سورة آل عمران الآية 185.

²⁵⁵ - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التمني، باب ما يكره من التمني، في الفتح 220/13 رقم الحديث 7233.

²⁵⁶ - أخرجه البخاري في صحيحه، أنظر الفتح 220/13 رقم الحديث 7234.

لكن الأمر ليس على إطلاقه، فقد بين الشارح علّة ذلك، وحدّدها، وذلك في أحاديث منها حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه مرفوعاً: (لا يتمّي أحدكم الموت، ولا يدع به من قبل أن يأتيه، إنّه إذا مات أحدكم انقطع عمله، وإنه لا يزيد المؤمن عمره إلاّ خيراً)²⁵⁷، ومثله حديث سعد بن عبيد مرفوعاً: (لا يتمّي أحدكم الموت إلاّ محسناً فلعلّه يزداد، وإما مسيئاً فلعلّه يستعقب)²⁵⁸، فالتلّعليل محصور في كون حياة المؤمن غنيمة لفعل الخير، والموت يقطع هذا الخير، فإن كان العبد مسيئاً فليتب وليرجع وباب التّوبة مفتوح، وإن كان محسناً فليزد من إحسانه فهذا يُثقل به ميزان حسناته، ثم إنّ مردّ كلّ ذلك إلى الصّبر، فمنشأ تمّي الموت يكون بسبب ما يقع فيه الإنسان من مشاكل وأمراض تدفع به نحو تمّي الموت، كما جاء في الحديث الصّحيح: (والذي نفسي بيده لا تذهب الدّنيا حتى يمرّ الرّجل على القبر فيتمرّغ عليه يقول يا ليتني كنت مكان صاحب هذا القبر، وليس به الدّين، إلاّ البلاء)²⁵⁹، وينسى الصّبر المأمور به في مثل هذه النوازل، ثم إنّ حُكم الصّبر معلّل بكفّارة الدّنوب كما جاء في الحديث: (ما يصيب المسلم، من نصب ولا وصب، ولا همّ ولا حزن ولا أذى ولا غمّ، حتّى الشّوكة يُشاكّها، إلاّ كفر الله بها من خطاياها)²⁶⁰، وفي عدم التّمّي الحث على الرّضا بالقضاء والتّسليم لأوامر الله تعالى، ولا يدخل في هذا قول النّبى صلّى الله عليه وسلم عند حضور أجله: (اللهم اغفر لي وارحمني، وألحقني بالرّزق الأعلى)²⁶¹ فإنّ هذا كان عند حضور أجله، ثم إنّه خُير بين البقاء في الدّنيا والموت فاختر ما

²⁵⁷ - صحيح مسلم 4/2065 رقم الحديث 2682.

²⁵⁸ - أخرجه البخاري في صحيحه، أنظر الفتح 13/220 رقم الحديث 7235

²⁵⁹ - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط السّاعة، 4/2231 رقم الحديث 157.

²⁶⁰ - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرضى، باب ما جاء في كفّارة المرض، أنظر الفتح 10/103 رقم

الحديث 5641.

²⁶¹ - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرضى، باب تمّي المريض الموت، في الفتح 13/127 رقم

الحديث 5674

عند الله، لكن إن كان ولا بد فقد علم النبي أمته دعاء لا يوقع في الاعتراض على القدر، جاء في حديث أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يتمنين أحدكم الموت لضرّ نزل به، فإن كان لا بدّ متمنيا فليقل: اللهم أحييني ما كانت الحياة خيرا لي، وتوفّي إذا كانت الوفاة خيرا لي)

262

وكان الصّالحون يتمنون لقاء ربهم من دون تمنّ للموت، فهذا يوسف بن يعقوب عليه السّلام بعد أن أدّى ما عليه من مهام عظيمة، وبعد أن كابد المحن والشّدائد والمصائب، وهي ابتلاءات عصبية اشتاق للقاء ربّه فدعا بقوله: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَلْوِيلِ الْأَمْثَالِ﴾، فالحق السّملاوات والأرض، أنت وليّ في الدّنيا والآخرة، توفّني مسلما وألحقني بالصّالحين²⁶³، أو يطلبون من ربهم أن يتوفّاهم على صفة معينة، من مثل قوله تعالى: ﴿وَتُوفَّقْنَا مَعَ الْآبِرَارِ﴾²⁶⁴.

لا يدعو به على نفسه، ولا يدعو به على غيره، فإنّ الموت مؤقّت بالأجال.

في الوقت الذي تزرع فيه بعض الفلسفات الخوف والفرع في نفوس النّاس من جهة الموت يأتي النّقل ليزرع في المقابل السّكينة والطمأنينة، لا أحد يتمنّى الخروج من الجنّة ليرجع إلى الدّنيا ليقتل إلاّ الشّهيد فإنه يتمنّى العودة إلى الدّنيا ليقتل مرّة أخرى، جاء في حديث أنس بن مالك مرفوعا: (ما أحد يدخل الجنّة يحبّ أن يرجع إلى الدّنيا وما له على الأرض من شيء إلاّ الشّهيد يتمنّى أن يرجع إلى الدّنيا ليقتل عشر مرّات لما يرى من الكرامة)²⁶⁵.

²⁶² - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الدّكر والدّعاء والتّوبة والاستغفار، باب كراهة تمّني الموت،

2064/4 رقم الحديث 2680.

²⁶³ - سورة يوسف الآية 101.

²⁶⁴ - سورة آل عمران الآية 193.

²⁶⁵ - أخرجه البخاري في جامعه الصّحيح، كتاب الجهاد والسير، باب تمّني المجاهد أن يرجع إلى الدنيا،

أنظر الفتح 32/6 رقم الحديث 2817.

ب- الموت والتوبة

ما بال الإنسان لا يتوب إلا في اللحظات النهائية من عمره، في اللحظات النهائية يريد أن يكون خيرا، تقيا، ورعا، عادلا، مؤمنا، لا يصدر منه إلا الخير لنفسه ولغيره، وهل ما يريده هو محقق فعلا، هل يمنحه الموت الفرصة لفعل كل ذلك، لا يمكن ذلك من ثلاث وجوه:

الأول أن الموت لا يمنحه الفرصة ليعود إلى الحياة ليعمل ثم يموت، لأن الأمر هنا ليس بيده، وليس حرا فيه، هو بيد الخالق، والخالق سبحانه ما منحها لأحد من العالمين حتى يمنحها لأي عاص يريد التوبة لحظة النزاع: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ، لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ، كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾²⁶⁶.

الثاني أن التائب في ساعة الغرغرة يعلم بها مسبقا، فهو في لحظة ارتكاب المعصية يعلم بأنه سيموت، يعلم بأن الموت سيقطع وجوده عن الحياة، وأنه لن يعود ليعمل صالحا ثم يموت، إذا كان الإنسان يعلم كل هذا فلم لا يتوب قبل لحظة الغرغرة؟

الثالث أن للتوبة شروطا، وكلها في مرحلة الحياة لا في لحظة النزاع، وهي الندم والإقلاع، والإصلاح والبيان، وهي المضمّنة في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأُصْلِحُوا وَيَتَّبِعُوا آيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُحِبُّونَ إِلَّا التَّوْبَةَ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾²⁶⁷، وفي قوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا، فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾²⁶⁸، إذن، متى سيصلح وسيبين، ومتى سيرد المظالم إلى أهلها، ويصل رحمه بعد قطعها، ويعاشر الناس بالحسنى حتى يشهدوا له بالصّلاح، ومتى سيتبع

²⁶⁶ - سورة المؤمنون الآية 99-100.

²⁶⁷ - سورة البقرة الآية 159.

²⁶⁸ - سورة الفرقان الآية 70.

الحسنة السيئة لتمحها...؟ كلّ هذا انتهى وقته، لذلك لم يقبل الله تعالى توبة فرعون بعد إعلانه للتوبة وهو في اليمّ غريقا، ولم يسمع تلك التوبة غير ربّه التي حكاها بقوله: ﴿حتّى إذا أمركه الغرق قال ءأمنت أنه لا إله إلاّ الكرى ءأمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾²⁶⁹، فردّها عليه بقوله: ﴿ءالآن، وقد عصيت قبل وكنت من المفسكين، فاليوم ننجيبك ببدنك لتكون لمن خلفك آية، وإنّ كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون﴾²⁷⁰.

التوبة توبتان: صحيحة وفسادة، فالصّحيحة هي التي تتوقّر فيها شروطها ويتقبّلها الله من الإنسان، والفسادة هي التي يأخذ العبد فيها بالشروط ظاهرا مع استمراره في الفساد ظاهرا وباطنا، وتترتّب على النوعين السابقين النتيجة التالية: توبة مقبولة وتوبة مردودة، المقبولة هي الصّحيحة، وغير المقبولة هي الفاسدة وما جاء في ساعة الغرغرة.

توبة اللّحظات الأخيرة هي التي جاء فيها الحُكم قاطعا بقوله تعالى: ﴿وليبست التوبة للكّين يعملون السيئات حتّى إذا حضر أحكهم الموت قال إني تبت الآن، ولا الكّين يموتون وهم كّفار، أولئذا أعتدنا لهم عذابا ليما﴾²⁷¹، والمقصد هو أن يقطع الإنسان من فكره فكرة المداومة على المفاسد والمعاصي والتوبة في آخر الوقت.

ج- التوبة بين الرّحيم والنّقيم والرّجيم

هذا المقطع مرتبط بما سبق، فالكلام فيه من خصائص التوبة المطلوبة قبل الموت، على الإنسان أن يعلم بأنّه مخطئ لا محالة، لا يتضايق من أخطائه إلاّ أن يزيد فيها ويتمادى، أما كونه حطّاء فتلك هي خاصيته، والله ما جعل الإنسان

²⁶⁹ - سورة يونس الآية 90.

²⁷⁰ - سورة يونس الآية 91-92.

²⁷¹ - سورة النساء الآية 18.

على الخطيئة إلا للرجوع والإنابة، فإذا لم يكن للخطيئة معنى فلا يبقى للجزاء مغزى، لا قيمة للحسنات إذن، ولا جدوى من النار، (لولم تُذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله فيغفر لهم)²⁷²، لكن إلى جانب هذا كله على الإنسان أن يعلم بأن أخطائه تُقابل من ثلاث جهات متباينة: من الرحيم والتّقيم والرحيم، فأما الرحيم فهو الله، وأما التّقيم فهو الإنسان عدو نفسه، وأما الرحيم فهو إبليس.

الله سبحانه وتعالى "رحيم"، والرحيم من أسمائه الحُسنى، ومن رحمته قوله في الحديث القدسي: (يا ابن آدم إنك ما دعوتني غفرت لك ما كان فيك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة)²⁷³، وجاء في الحديث المرفوع: (إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها)²⁷⁴، إن أعلنتها توبةً فإن الله غفور رحيم، لقوله تعالى: ﴿نبي عبداً يأتينا الغفور الرحيم﴾²⁷⁵.

وأما التّقيم فهو الإنسان، ينتقم من نفسه حين يلقي بها في هواها، وينتقم من أخيه الإنسان، فإذا وجدت الله يغفر ويرحم فإنك لا تجد هذا الوصف في بني آدم، لا تجد من يصفح عنك، ويستر عيوبك، ويتجاوز عن هفواتك، بل تجد من

²⁷² - حديث مرفوع صحيح من رواية أبي أيوب الأنصاري، أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب سقوط الذنوب بالاستغفار 2105/4-2106 رقم الحديث 2748.

²⁷³ - أخرجه الترمذي في سننه من حديث أنس بن مالك 548/5 رقم الحديث 3540.

²⁷⁴ - حديث أبي موسى الأشعري أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب، 2113/4 رقم الحديث 2759.

²⁷⁵ - سورة الحجر الآية 49.

يشهر ويشمت بك، ومن يؤاخذك على الصغيرة والكبيرة، إذا تأملت أحوال النَّاس في العداة تجدهم على هذا الحال.

وأما الرَّجيم فهو إبليس، وهذه من صفاته التي أمرنا أن نتعوذ بالله منه، ولما كان معنى الرَّجيم "الطرد من رحمة الله" فإنه يجتهد ليل نهار في جرّ الإنسان معه إلى الطرد من الرحمة، وقد يتحالف الإنسان النقيم مع الشيطان الرجيم على تحقيق ما يهلك به الإنسان نفسه، يعني أنّ الإنسان يتحالف مع إبليس على تدنيس نفسه، والإلقاء بها في مهاوي السخط والغضب واللعنة.

يروى عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل فيقول: (حضرت وفاة أبي أحمد وببدي خرقة لأشد لحبيبه، فكان يعرق ثم يفيق ويقول بيده: لا بعد، لا بعد، فعل هذا مرارا، فقلت له يا أبت: أي شيء يبدو منك؟ قال: إنّ الشيطان قائم بحدائي عاض على أنامله، يقول: يا أحمد فتني، وأنا أقول: لا بعد، لا بعد، حتى أموت).²⁷⁶

ونحو هذا حكاة القرطبي المفسر بقوله: (حضرت أبا شيخنا أبي جعفر أحمد بن محمد بن محمد القرطبي بقرطبة وقد احتضر، فقيل له: قل لا إله إلا الله، فكان يقول: لا، لا، فلما أفاق ذكرنا له ذلك، فقال: أتاني شيطانان عن يميني وعن شمالي، يقول أحدهما: مت يهودياً فإنه خير الأديان، والآخر يقول: مت نصرانياً فإنه خير الأديان، فكنت أقول لهما: لا، لا، إليّ تقولان هذا)²⁷⁷.

ومضمونها أنه مادامت الروح لم تخرج إلى بارها فلا مأمّن من الشيطان وأظنها هي فتنة المحيا والممات التي أمرنا بالتعوذ منها، ولذلك سنّ الشرع تلقين الموتى الشهادة عند خروج الروح.

²⁷⁶ - التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة لأبي عبد الله القرطبي، ص 40.

²⁷⁷ - المصدر السابق ص 40.

د- الموت العرفاني

ونعني به الموت عند الزّهاد والصّوّفية، أصحاب الدّوق الرّفيّع، والذّين تتسامى أرواحهم لمعانقة القدر، هؤلاء لهم قصّة مع الموت يطول سردها، ولم أجد من عانقه أكثر منهم، ولهم في ذلك وصايا ونصائح، أحيوا بها معارف الذّين، فكانت قوتا للقلوب، وصفة للصفوة، وتذكّرة للأحياء، وتنبها للغافلين، وتطهيراً للنّفوس، وحلية للأوليّاء وترقية لمقام الأصفياء، وأيقظوا الهمم بشروح الحكم، وذلك بما أفاض الله عليهم من الفيوض الرّبّانية، حتى صتّفوا في الثّبات على الممات، وسقوا معارف النّقل بوابل صيب من الكلام الطّيب، فأجادوا في لطائف المعارف، وفي صيد الخواطر، فكانت معارفهم عن الموت بحرا رائقا يدفع إلى الزّهد والرّقائق، فأغنوا بالفوائد وأصابوا في إيجاد الدّواء للدّاء، وأجادوا بجواب كاف لمن سألهم عن الدّواء الشّافي، كم من واحد دفعوه عن الوقوع في مصائد إبليس فإن إبليس طرقا عديدة للتّلبيس، عاشوا على المحبّة والإخاء، فطهّروا القلوب وصفوا النفوس، ونحن إذ نذكر ما حُكي عنهم من توجيه للسّالك إلى أنواع الموت الّتي حدّدوها فقالوا: (يجب على السّالك أن يوطّن نفسه على أنواع الموت الأربعة، وهي: الموت الأبيض وهو الجوع، والموت الأسود وهو الصّبر على أذى النّاس، والموت الأحمر مخالفة النّفس، والموت الأخضر وهو عبارة عن ترقيع الثّياب)²⁷⁸، والموت في اصطلاحهم عبارة عن جمع أهواء النّفس²⁷⁹، أو هو الحجاب عن أنوار المكاشفات والتّجلي²⁸⁰.

كانوا يحبّون الموت لا رغبة فيه، ولكن بدافع حيم لله، وهو السّبيل الموصل إليه، فمن السّنة حديث شريح بن هانئ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: ("من أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله الله عليه وسلّم")

²⁷⁸ - كشّاف اصطلاحات الفنون ص 1669.

²⁷⁹ - المصدر السابق

²⁸⁰ - محيط المحيط للبيستاني 161-160/8.

لقاءه"، قال فأتيت عائشة فقلت: يا أمّ المؤمنين سمعت أبا هريرة يذكر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً، إن كان كذلك فقد هلكتنا، فقالت: "إنّ الهالك من هلك بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم، وماذا؟" قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أحبّ لقاء الله أحبّ لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه"، وليس منّا أحد إلّا وهو يكره الموت، فقالت: قد قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس بالذي تذهب إليه، ولكن إذا شخص البصر، وحشرج الصدر، واقتشر الجلد، وتشنّجت الأصابع فعند ذلك "من أحبّ لقاء الله أحبّ لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه".²⁸¹

وعلى هذا كان صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول أبو هريرة: (من رأى الموت يباع فليشتريه لي)²⁸²، وقال أبو الدرداء: (أحبّ الموت اشتياقاً إلى ربّي).²⁸³

3- شهادة الموت

أ- الإسلام والموت

كل دين له علاقة بالموت من نوع ما، فاليهودية تختزل الموت فيمن أصابته الصّاعقة فأماتهم الله ثم أحياهم، وفيمن أماته الله بشخصه الذي قال ﴿أَنْتِ يَجِيبِينَ هَذِهِ اللَّذِيَّةَ مَوْتَهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾²⁸⁴، وفي بقرة بني إسرائيل وغير ذلك من الوقائع التي تُبين أنّ الموت بالنسبة لليهودية آية من الآيات، أما عند المسيحيين فقد انحصر الكلام عندهم عن الموت في معجزة عيسى بإحياء الموتى،

²⁸¹ - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذّكر والدّعاء والتّوبة والاستغفار، باب من أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه، 2066/4 رقم الحديث 2685، وأخرجه من حديث عائشة

أيضاً، أنظر 2065/4 رقم الحديث 2684

²⁸² - أورده الحافظ ابن الجوزي في الثّبات عند الممات ص 45

²⁸³ - المصدر السّابق ص 47، وقد تقدّم الاستشهاد به.

²⁸⁴ - سورة البقرة الآية 258.

وفي صلب المسيح الذي هو حسب المعتقد المسيحي خلاصا لذنوبهم، فعيسى بصَلْبِهِ غَسَلَ خَطَايَا كُلِّ الْمَسِيحِيِّينَ لِكُونِهِ قَدَّمَ نَفْسَهُ قُرْبَانًا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى.

أما الموت في دين الإسلام فالأمر يختلف، ذلك أن الموت يكتسب خصائص أساسية من خصائص الإسلام، فالحياة بدأت بالإسلام (كل مولود يولد على الفطرة)، وتعطي آية الميثاق في قصّة الخلق برهاناً على ذلك، لما خلق الله آدم أخرج من صلبه ذريته، وأشهدهم على أنفسهم، وأخذ عليهم العهد والميثاق، وعند الموت يجب أن تكون شهادة التوحيد حاضرة، وفي حديث تلقين الموتى شهادة لا إله إلاّ الله دليل على ذلك، وهي قضايا بسطنا الكلام فيها في فقرة من فقرات هذا الكتاب، هذه خاصية.

أما الخاصية الأخرى فالموت لها صلة بالإسلام، في كون الإسلام في أصل معناه هو التسليم والانقياد والطاعة والاستسلام لله تعالى بصفة مطلقة، استسلام لا تشوبه شائبة، وبهذا عرّفوا الإسلام²⁸⁵، والموت يشبه الإسلام من هذا الوجه، فقد جرت العادة أن نقول فيمن مات: "فلان أسلم الروح إلى بارئها"، وحين يحلّ الموت في الإنسان فإنه يستسلم لله تعالى استسلاماً مطلقاً، فالميت ترتخي عضلاته، ويغيب وعيه، وتلتفّ الساق بالساق، فهو في حالة انقياد ورجوع إلى الله: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾²⁸⁶، وقوله: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجُوعَ﴾²⁸⁷، وقوله: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ وَأَنْتُمْ حِينئذٍ تَنْصُرُونَ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾²⁸⁸، وقوله: ﴿خَشَعْنَا أَبْصَارَهُمْ، نِيْرُجُونَ مِنَ الْإِجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ، مَفْضَعِينَ إِلَىٰ الْجَاثِغِ﴾²⁸⁹،

²⁸⁵ - أنظر كتاب النبوات لابن تيمية الحرّاني، ص 87-88.

²⁸⁶ - سورة ق الآية 21.

²⁸⁷ - سورة العلق الآية 8.

²⁸⁸ - سورة الواقعة (86-88).

²⁸⁹ - سورة القمر (7-8).

علاقة الموت بالإسلام هي صبغة الله، تلك الصبغة المذكورة في قوله تعالى:
﴿صبغة الله، ومن أحسن من الله صبغة، ونحن له عابدون﴾²⁹⁰.

ونجمل موقف الإسلام من الموت فيما يلي:

أ- ذكره وتذكره والتفكير فيه.

ب- الاستعداد له.

ج- عدم تمنّيه والدعاء به.

د- تحريم قتل الذات وتعذيبها، وتحريم قتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق.

وقد فصلنا في هذه العناصر الأربعة في مواطنها من هذا العمل.

مثلاً أنّ للموت سكرات فإنّ له علامات وأثارا يفرضها على صاحبه فرضاً، لذلك فإنّ الكثيرين ممن أدركهم الموت لا يملكون غير الوصية والتلفظ بالشهادة، والشهادة هي الشهادة على التوحيد، ولها حكم ثلاثة:

الأولى أنّها هي الميثاق الذي أخذه الله على البشرية منذ الأزل، شهدنا به، وتذكّر نصوص النقل أنّ الله تعالى أخرج من صلب آدم ذريته، وأشهدهم على أنفسهم فشهدوا فأرجعهم إلى صلبه لا يتناسلون إلاّ على ذلك، وهو المفهوم من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ضُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ، شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾²⁹¹.

²⁹⁰- سورة البقرة 137.

²⁹¹- سورة الأعراف الآية 172.

الثانية أنّ كل مولود يولد بها، وهي الفطرة المقصودة في قوله تعالى: ﴿فَصِرَ اللَّهُ الَّذِي فِيهِ فُصْرُ النَّاسِ عَلَيْهَا، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ، عَلِمَ الْكَاذِبِينَ الْقِيمَ﴾²⁹²، وهي المنعوتة في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)²⁹³.

الثالثة أنّ ما نطقَتْ به في الأزل وأنت في الخلق، وما وُلدت ودخلت به إلى الدنّيا يجب أن تخرج به منها.

الموت على الإسلام وصيّة الله تعالى لأتبيائه، ووصيّة الأنبياء والرسل لأهلهم وأولادهم وأتباعهم، هي وصيّة إبراهيم لبنيه، ووصيّة يعقوب لبنيه ﴿وَأَوْصِي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ، وَيَعْقُوبَ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الْكَاذِبِينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾²⁹⁴، وكان من دعاء يوسف بن يعقوب: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْقِنِي بِالصَّالِحِينَ﴾²⁹⁵.

الموت على الإسلام هو حُسن الخاتمة، وهو الثّبات عند الممات، والموت على غير دين الإسلام هو الخسران المبين.

ب- إلى ربك الرجعى:

في القرآن الكريم ﴿ارْجِعْ﴾، و﴿الرَّجْعَى﴾، وكل ما شتق من المادة اللغوية "رجع" فهو منها، وهو بمعناها الذي حدّده ابن فارس في المقاييس بأنه يدل على الردّ والتكرار²⁹⁶، ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُضْمِنَّةُ، ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ رَاضِيَةً مُرْضِيَةً﴾²⁹⁷،

²⁹² - سورة الروم الآية 29.

²⁹³ - تقدم تخريجه .

²⁹⁴ - سورة البقرة الآية 131.

²⁹⁵ - سورة يوسف الآية 101.

²⁹⁶ - مقاييس اللغة لابن فارس، مادة "رجع".

²⁹⁷ - سورة الفجر الآية 30-31.

ومعناه الرجوع من حيث بدأ أو انطلق، ولا خصوصية في الرجوع لنفس دون أخرى، فالرجوع إلى الله تعالى من سنة خلقه، فكل الأمور تُرجع إليه لقوله ﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾²⁹⁸، فمصير الوجود والكون: "الرجوع إلى الله"، لأنه كان بأمره، وكل ما كان بأمره يُرجع إليه، والإنسان داخل في الأمر الإلهي بالوجود، فرجوعه إليه هو بمقصد المحاسبة: ﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله، ثم توفى كل نفس ما كسبت وهملاً يظلمون﴾²⁹⁹، وسُنْجَلِي الموضوع في الفقرات القادمة بحول الله.

أما الرجعى - بضم الراء - فهي من المرجع والرجوع، مصدر على فُعَلَى مثل: بُشِرَى، صيغة مبالغة لتقرير الرجوع على من شكَّ فيه أو نفيه، وبحسب ارتباط الآية بما قبلها دلَّت على للتخويف وإقرار العدالة الإلهية، ولها ثلاث دلالات:

الدلالة الأولى: ما استنبطه البعض من أنّ الله تعالى اختصر الحياة كلّها في هذه الآية الوجيزة، ذات الكلمات المحدودة والمحكمة: ﴿إِنّ إِلَى رَبِّكَ الرجعى﴾، والغرض: الحث على الإيمان، والعمل الصالح، والحرص أن يلقى العبد ربّه بقلب سليم.

الدلالة الثانية: أنّ الرب هو ربك، حتى ولو كنت كارها لربوبيته، جاحدا لوجوده، فالحياة لا تُسَلَّم للعابثين لمجرد جحودهم، ليس كلُّ جحود أو إنكار هو حجة تُعطي الشرعية لتشريع الفساد والسعي به في الأرض، يُفهم هذا من تقديم ﴿إلى ربك﴾ على ﴿الرجعى﴾.

الدلالة الثالثة: رجوعك إلى الله لا محالة، وأول مراحل الرجوع: الموت.

²⁹⁸- في آل عمران الآية 109، وفي الأنفال الآية 45، وفي الحج الآية 74.

²⁹⁹- سورة البقرة الآية 280.

ج- الموت على الفطرة

النوم صورة مصغرة عن الموت، تجعل الإنسان يذوق الموت والبعث في كل يوم وليلة، يموت بالليل ويحيا بالنهار، وتلك آية من آياته لكل من أراد أن يعرف حقيقة الموت والبعث، يرجع الإنسان إلى ذاته ويتأمل وضعه من جهة النوم واليقظة وسيدرك حقيقة الموت والبعث، نفس الإنسان في النوم هي في حالة وفاة، لكنها وفاة مؤقتة، يقول تعالى: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليُقضى أجل مسمر﴾³⁰⁰، ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا، وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمَسُدُّ النَّفْسَ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾³⁰¹، وكان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: (الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النّشور)³⁰²، وقد علّم النبي صلى الله عليه وسلم عليه وسلم أمته دعاء النوم، فمن دعا به ومات في النوم مات على الفطرة لقوله في الحديث المرفوع: (إذا أردت مضجعك فقل: اللهم أسلمت نفسي إليك، وفوضت أمري إليك، ووجهت وجهي إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبةً إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت، فإن مُتَّ مُتَّ على الفطرة)³⁰³.

من لوازم الموت على الفطرة الموت في المنام على الأدعية المسنونة، ومن مات في النوم كأنه مات مرتين: موت النوم وموت الموت، والذي يشفع للإنسان هو دعاء

³⁰⁰ - سورة الأنعام الآية 61.

³⁰¹ - سورة الزمر الآية 42.

³⁰² - حديث حذيفة بن اليمان، متفق عليه، أخرجه البخاري في جامعه الصحيح، كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا نام، أنظر الفتح 113/11 رقم الحديث 6312، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكروالتوبة والاستغفار، باب ما يقول عند التوم وأخذ المضجع، 2083/4 رقم الحديث 2711.

³⁰³ - ينظر الدعاء في حديث البراء بن عازب الذي أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، أنظر الفتح 113/11 رقم الحديث 6313، وإمام مسلم في صحيحه، كتاب الذكروالتوبة والاستغفار، باب ما يقول عند التوم وأخذ المضجع، 2083/4 رقم الحديث 2710.

النّوم، فكأنه يقوم مقام النّطق بالشّهادة عند خروج الرّوح في حالة اليقظة، لكنّ النّوم لا يساعد على ذلك، ومن العلماء من ميّز بين الموتين، فلعلّ في تمييزهم فائدة، يقول الزجاج: (النّفس التي تفارق الإنسان عند النّوم هي التي للتمييز، والتي تفارقه عند الموت هي التي للحياة، وهي التي يزول معها التّنفس، وسّي النّوم موتا لأنه يزول معه العقل والحركة، تمثيلا وتشبيها)³⁰⁴، ويقول القرطبي في المفهم: (النّوم والموت يجمعهما انقطاع تعلق الرّوح بالبدن، وذلك قد يكون ظاهرا وهو النّوم، ولذا قيل: النّوم أخو الموت، وباطنا وهو الموت، فإطلاق النّوم على الموت يكون مجازا لاشتراكهما في تعلق الرّوح بالبدن)³⁰⁵.

وعلى كل حال فالنّوم في حياة الإنسان منقصة وضعف، فالله عز وجل الموصوف بالكمال ﴿لَا تَلْخُذْهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾³⁰⁶، وأهل الجنّة لا ينامون، أمّا الإنسان في الحياة الدّنيا فنومه نقص يُعوض به نواقص الذات، لذلك كان في حقّه ضرورة حياتية.

د- الموت والكتاب

للكتاب في النّقلانية عدّة دلالات، الأولى " اللّوح المحفوظ"، وهو المقصود بقوله تعالى: ﴿عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ﴾³⁰⁷، والثانية "كتاب" أهل الكتاب، والمقصود به التّوراة والإنجيل وما أنزل على الأنبياء والرّسل السّابقين من ألواح وصحف، والثالثة " القرآن الكريم " بصفته كتابا، ﴿أَلَمْ، عَلَّمَا الْكِتَابَ لِأَرْبَابٍ، فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾³⁰⁸، ﴿كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ

³⁰⁴ - أورده الحافظ ابن حجر في الفتح 114/11.

³⁰⁵ - أورده في المصدر السابق.

³⁰⁶ - سورة البقرة الآية 254.

³⁰⁷ - سورة طه الآية 51.

³⁰⁸ - سورة البقرة الآية 1.

خبيبر³⁰⁹ ، والرابعة كتاب كلّ واحد منّا، يُسجل فيه الكرام الكاتبين مجمل أعمال العبد بإحصاء دقيق، وهو المقصود بقوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ كِتَابًا كَفَرًا بِنَفْسِهِ الْيَوْمَ عَلَيَّ حَسِيبًا﴾، وإذا كانت المقارنة جارية بين هذه الأنواع من الكتب من حيث عددها وخصائصها ومميزاتها فإنه لا يهمنّا منها سوى الكتاب الأخير، وهو الكتاب المخصّص لكلّ عبد من العباد، يرافقه في مسيرة حياته من يوم أن عقل وضبط وأصبح مكلفا إلى أن يُطوى في لحظة موته ولا يظهر إلا في وقت الحساب ﴿وَنُفِجَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾³¹⁰ ، ولذلك قرّناه بالموت في هذه الفقرة.

يجسّد هذه الكتاب ما يلي:

أ- الإحصاء الدقيق لعمل العبد إن خيرا فخير وإن شرا فشر، كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، يقول تعالى: ﴿وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْبَصِيرِينَ مِمَّا فِيهِ، وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَارُ صَغِيرَةٌ وَلَا كَبِيرَةٌ إِلَّا أَحْصَانًا، وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا، وَلَا يَنْظُرُونَ إِلَّآ بِأَنفُسِهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾³¹¹ ، وقوله: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ يعني: أنّ ما فعلوه في الدّنيا يروونه ماثلا أمامهم، حاضرا غير مرتفع كأنهم فعلوه اللّحظة، فلا تقادم على الجريمة، ولا نسيان، ولا تغطية.

حين يموت الإنسان ينقطع عن الدّنيا، وحقيقة هذا الكتاب أنّه حجّة عليك بوجودك في الدّنيا، فهو مرآة مجمل أعمالك، الأعمال التي كان ربّك يدلك على الصّالح منها لفعله، والطّالِح لاجتنابه، وما حقيقة عبادته إلّا في امتثال أوامره، وما أوامره سوى افعل ما ينفَعك ولا تفعل ما يضرّك ويسوؤك فعّله يوم العرض والحساب، وحين يعرض عليك الكتاب لا يمكنك أن ترجع إلى الدّنيا للتّدليل على

³⁰⁹ - سورة هود الآية 1.

³¹⁰ - سورة الإسراء الآية 13.

³¹¹ - سورة الكهف الآية 48.

ما فعلت في تلك السنّة، أو في ذلك الشهر، أو في ذلك اليوم، فإذا قتلت نفسا بريئة مثلا فلا يمكنك الرجوع إلى الدنيا لتعيش لحظة القتل من جديد كما يفعل في التحقيق اليوم بإعادة تمثيل الجريمة، هذا غير موجود، لكن هذا الكتاب تفرّد بخاصية عدم مغادرة أيّ شيء كان صغيرا أو كبيرا إلاّ أحصاه، وقد دلّ على ذلك بمنتهى البيان حين قال: ﴿ووجّدوا ما عملوا حاضرا﴾، فإذا كانت مجمل أعمالك حاضرة فلم يُطلب منك الرجوع إلى الدنيا لتمثيلها؟!.

ب- الغرض من هذا الكتاب تحقيق العدالة الإلهية بين العباد، لا تفاضل بين عبد وعبد إلاّ بما في هذا الكتاب، ﴿فمن يعمل مثقال غرّة خيرا يره، ومن يعمل مثقال غرّة شرا يره﴾³¹²، وذكرت الآية أنّ العبد لا يسمع ذلك فحسب بل يراه بجارحة عينيه حيث يصبح بصره في ذلك اليوم حديد، وحديد في قوله تعالى ﴿فكشفنا عنها غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾³¹³، من الحدّة، لأنه بعد كشف الغطاء أصبح يرى بالبصر الحادّ لا بالبصر العادي، وهذا من التحوّلات التي تطرأ على الإنسان في عالم ما بعد الموت، ومن هنا فإنه يقرأ كتابه ببصره هذا.

ج- أوكل الله تعالى بالكتاب ملائكة مهمّتهم هي المراقبة والمتابعة والكتابة، ﴿وإنّ عليكم لحافضين، كراما كاتبين، يعلمون ما تفعلون﴾³¹⁴، وهما ملكان ملك اليمين وملك الشّمال، أحدهما يكتب الحسنات والآخر يكتب السيّئات، الحسنات تتصرّف في الكتاب بعشر أمثالها، والسيّئة لا تعدّ إلاّ واحدة، وهذا من عدل الله تعالى ورحمته وشفقته على عباده، وقد وصفتهم الآية بالحفظ، لا يزيدون شيئا في الكتاب ولا ينقصون، وأنّهم كرام يعدلون ﴿ما يلفظ من قول إلاّ لديه رقيب عتيد﴾، فمن همّ بفعل الحسنات ولم يفعلها كتبت له حسنة، ومن همّ بفعل السيّئة ولم يفعلها كتبت له حسنة كاملة، ومن مواصفاتهم أنّهم يكتبون بناءً

³¹² - سورة الزلزلة الآية 8-9.

³¹³ - سورة ق الآية 22.

³¹⁴ - سورة الانفطار الآيات (10-12).

على علمهم بفعل العبد، لا يضعون بينهم وبين العبد حاجزا، ولا ينوبون في ذلك أحدا.

د- مثلما أوكل الله تعالى للكاتبين قضية الكتاب أوكل إلى العبد قراءة ما في كتابه، ليطلع عليه ويرى ما فيه ﴿ونُزِجْ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا، اقْرَأْ كِتَابًا كَفَمِنْ نَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلِيمًا حَسِيبًا﴾³¹⁵، وهذا في منتهى العدل، ليس لك الحق في التصرف فيه بل لك الحق في قراءته والاطلاع على ما فيه فقط لتعرف مصيرك، وتقتنع بهذا المصير الذي صيرت إليه نفسك، أما الزيادة فيه والنقصان منه فهو حقّ كان لك في الدنّيا، حين طلب منك أن تعمل صالحا، وتقول خيرا، وتقدّم لنفسك، فإذا كانت حتى الذرّة من الأعمال تُسجّل فإنّ الله تعالى لا يظلم مثقال "ذرة"، وقد ذكرها في محكم التّنزيل صريحة واضحة بقوله: ﴿وما أنا بخَلَامٍ للعبيد﴾³¹⁶، وبقوله ﴿ولا يظلم ربنا أحدا﴾³¹⁷.

هـ- من خصائص هذا الكتاب أنّه مفتوح إلى لحظة الموت، فعند الموت يغلق الكتاب لكنّه في حقّ الشّهداء والأنبياء والرّسل والصّدقات الجارية يبقى مفتوحا بعد موت العبد إلى لحظة الحساب، ثم إنّ القلم قد يرفع عن العبد في حياته في لحظات نومه، أو في فقد وعيه أو عقله، ومن خلال الآيات يتضح أنّ الكتاب لا يغادر شيئا إلا أحصاه، وهذا يدل على أنّ الأعمال والأفعال والأقوال يراها العبد بصوته وبصورته يوم قال وفعل، مؤرّخة زمانا، ومبيّنة بالمكان والأشخاص، وقد تسرّب شيء من ذلك للإنسان في العصر الحديث فبدأ يُسجّل الجرائم والفضائع والمنكرات بالصّوت والصّورة، وينشرها عبر الفضائيات يراها الخاص والعام، وكذلك فعل الخيرات والأعمال الصّالحات من العبادات والمساعدات، شيء مما سيقع بعد الموت حقّق منه الإنسان شيئا بفعل التطور العلمي والتكنولوجي،

³¹⁵ - سورة الإسراء الآية 13-14

³¹⁶ - سورة ق الآية 29.

³¹⁷ - سورة الكهف الآية 48.

ومعلوم أنّ هذه الآلات والوسائل لا تغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصتها، فلننظر مثلا إلى الحلقات المعروضة على الشاشات في وقائع الحرب العالمية الثانية، وما سجّلت من فضائع في قتل الملايين من البشر، وما يقع اليوم في أرجاء من العالم الإسلامي من قتل وحرق وتهجير وقصف وإبادة وعريضة، وهي مسجّلة بالصوّت والصّورة، ومنقولة إلى الملايين من البشر، لقد ارتكب الإنسان الجرائم من شتى الأنواع والألوان، ووثّقها بنفسه على نفسه، وأذاعها إلى العالم، أو لا يدخل هذا في قوله تعالى: ﴿اقرأ كتابا كفى بنفسك اليوم عبيبا﴾³¹⁸، إذا كانت الآلة التي هي من صنع البشر لا تغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصتها فما بالك بهذا الكتاب الرّبّاني الذي خصّه الله تعالى بهذه المواصفات قبل اختراع هذه الآلات.

و- من خصائص هذا الكتاب أنّ العبد إذا كان من أهل الجنّة فسيأخذ كتابه بيمينه، ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا وينقلب إلى أهله مسرورا﴾³¹⁹، وإذا كان من أهل النّار فسيأخذه بشماله من وراء ظهره، ﴿وأما من أوتي كتابه وراء ظهره فخسرناه فسوف يدعو ثورا ويصلى معبرا﴾³²⁰، والملائكة الذين يحضرون هم الموكّلون بالكتاب، وهم المطلّعون على ما فيه، والنّتيجة التي يحدّدها الكتاب هي التي تجعلهم يتسلّمونه بتلك الكيفية، وتكون معهم ملائكة الرّحمة أو ملائكة العذاب، ملائكة الرّحمة يبشرون فيقولون: ﴿سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾³²¹، وملائكة العذاب تقول للعبد الظالم لنفسه: ﴿اليوم نجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحقّ، وكنتم عن آياته تستكبرون﴾³²².

³¹⁸ - سورة الإسراء الآية 14.

³¹⁹ - سورة الانشقاق الآيات (7-9).

³²⁰ - سورة الانشقاق الآيات (10-12).

³²¹ - سورة الرّعد الآية 24.

³²² - سورة الأنعام الآية 93.

ز- من خصائصه الانتشار، ﴿وفُجِرَ له يومَ القيامةِ كتابا يلقاه منشورا﴾³²³، وقوله: ﴿وَإِنَّا الصَّحَفَ نُشْرَتُ﴾³²⁴، والنَّشْرُ معناه أن تذاع في الملامن الناس والملائكة فتُفتح بعد أن كانت مطوية خاصة بالكرام الكاتبن، الكلّ يقرؤه ويطّلع عليه كما اطلع هو عليه، وهذا زيادة في تأكيد العدالة، ونزاهة المحاسبة وتثبيت الجزاء، كما كانت الملائكة والناس يشهدون في الدنيا فإنهم سيشهدون على ما في الكتاب غدا، وهذا يبين أنّ الكتاب يكون مفتوحا كسجل أو شريط يجمع العمل من أول سريان القلم إلى آخر العمر: ﴿ينبأ الانسان يومئذ بما قدّم وأخّر، بل الانسان علم نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره﴾³²⁵.

ه- الموت والتواضع

نقطة جديدة بالتّصوير، حين يحلّ الموت في الإنسان يتواضع حتى ولو لم يكن التواضع خلقه في الحياة، كلّ المتكبرين والمتجبرين والملاحدة يتواضعون عند موتهم، طلب موسى من فرعون ذلك لكنّه أبى ورفض، بل ادّعى الرّبوبية فوق ذلك، وحين فاجأه الموت قال: ﴿عامنت أنه لا إله إلاّ الذي آمننت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾³²⁶، فجاء الجواب قاطعا: ﴿الان، وقد عصيت قبل وكنت من المفسكين، فاليوم ننجيّا ببدننا لتكون لمن خلفنا آية﴾³²⁷.

التواضع نوعان: تواضع مبرور، حين يعيش الإنسان متواضعا، شبّ عليه وشاب عليه، ومن آمارات التواضع السّجود لله، فإن السّجود قمة في التقرب إلى الله، مثل هذا لا يزيده مرضه واحتضاره وقربه من الموت إلاّ تواضعا.

³²³ - سورة الإسراء الآية 13.

³²⁴ - سورة التكويد الآية 10.

³²⁵ - سورة القيامة الآية 13.

³²⁶ - سورة يونس الآية 90.

³²⁷ - سورة يونس الآية 91-92.

وتواضع بالإجبار، حين يعيش الإنسان متكبرًا ومتجبرًا، فهذا يكون مصيره كمصير فرعون، ولم يكن تواضعه ذلك ليشفع له بل لينذره، يقول تعالى تعبيراً عن حالهم: ﴿يَوْمَ يَكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَكْبِعُونَ، خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهُقُهُمْ ذُلَّةٌ، وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾³²⁸، كما أنّ الواحد منهم يتمي الرجوع إلى الدنيا ليغيّر من حاله مع خالقه والناس: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ، لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ، كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾³²⁹، ومعنى قوله "إنّها كلمة هو قائلها" أنّه لا يملك قولاً آخر غيرها، إذ من المتوقع أن يقول ذلك، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالِكُمْ وَلَا أَوْلَادِكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ، وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولُ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾³³⁰، ويقول تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الضَّالِّمُونَ فِي عُقْرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسُحُوا أَيْدِيَهُمْ أخرجوا أنفسكم، اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق، وكنتم عن آياته تستكبرون﴾³³¹.

التكبر سمة مدمرة، تجعل من الإنسان كارثة على غيره، والكبرياء - كما يقول المثل - يسبق السقوط، تماماً كما وقع لإبليس، فقد وقع ضحية كبريائه، وحتى الأديان الأخرى تدمّه، فالمسيحية تعتبره "أشد الكبائر السبع القاتلة شراً"³³²، فهو يمنع الإنسان من التوبة والاعتراف بالذنب، ويدفعه في نفس الوقت إلى جلب الموت لنفسه ولغيره، التكبر يدفع صاحبه إلى اعتبار نفسه فوق البشر، يلحق بهم الموت لكن حين يدركه يظهر نقصه وتلاشى عظمته، من حماقة الإنسان أنّه سخر كلّ وسائل التدمير للقتل والإبادة، ولا يقف وراء هذا التنافس

³²⁸ - سورة القلم الآية 42-43.

³²⁹ - سورة المومنون الآية 100-101.

³³⁰ - سورة المنافقون الآية 9-11.

³³¹ - سورة الأنعام الآية 93.

³³² - الإنسان وهموم الموت لأرنولد توينبي ص109.

المسعود سوى الكبرياء، كبرياء الجنس، كبرياء القومية، كبرياء الذات، كبرياء السلطة...

هؤلاء بينهم وبين تأمل الآيات وتدوّقها حاجز، فالله طبع على قلوب المتكبرين، وصرفهم عن آياته كما صرف أبا لهب ومسيلمة وغيرهما، ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، وقد بيّنت الآية وجه التكبر وأسلوبه: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كَلِمَةَ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرِّشْكِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا، فَلَا يَأْتُهُمْ كُتُبًا بآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾³³³.

يقول أرنولد توينبي: (إنّ الحرب واحدة فقط من الأعراض والعواقب لفشل الإنسان أخلاقياً، ويؤدّي فشله الأخلاقي إلى وقوفه وجهاً لوجه أمام تناقض آخر في حالته، وإلى جانب التناقض بين شعور الإنسان بكرامته وبين الحقيقة الصّلبة في موته، هناك تناقض بين موهبة ذكائه في السيطرة على الطّبيعة غير البشرية بواسطة علمه وتكنيته، وبين قصوره الأخلاقي في التعامل مع إخوانه من البشر، ومع نفسه ومع الوجود الرّوحي الذي يسمو على الإنسان نفسه، والذي يوجد وراء ظواهر الكون، على أية صورة يمثّلها هذا الوجود الرّوحي في لغات الأديان المختلفة)³³⁴.

³³³ - سورة الأعراف الآية 146.

³³⁴ - الإنسان وهموم الموت ص 109.

فصل في الموت والعلوم



1- الموت والعلم

منذ القدم والإنسان يبحث عن البقاء الدائم ولو بطرق أسطورية، وتاه فكره وذاع خياله في تلفيق حكايات خرافية صدّقها العقل اليوناني القديم، وتماشى معها، تقول الأسطورة: (فلقد وقعت إيوس إلهة الفجر الجميلة في غرام شخصٍ فإن يُدعى تيثونس وتزوَّجت به، ولكن بينما ظلَّت الإلهة شابةً دوما بدأ تيثونس يشيخ، ولذا توسَّلت إيوس إلى كبير الآلهة زيوس ليجعل حبيبها خالدًا كالآلهة، ولقد نَقَذ لها زيوس رغبتها، لكن إيوس ارتكبت خطأً مميتاً: لقد نسيت أن تطلب الشباب الخالد لتيثونس، وفي النهاية أصبح تيثونس مُقعداً مهترًا يتحدَّث إلى نفسه بلا انقطاع، وقد أثار هذا غضب الآلهة عليه فحوَّلوه إلى جنذب)³³⁵،

يفيض هذا النَّص بمعاني ودلالات عميقة حول تصور اليونان لقضية الخلود والشَّيخوخة والشَّباب، وأنه كان همًا يكافحون ضده في حياتهم، ولهم تصور عنه حتى بعد الموت، وكذلك فعل المصريون القدامى فقد حنَّطوا الجنادب، ووضعوها مع الجثث المحتنَّطة لتبقي لهم نضرة الحياة والشباب.

وما زال البحث جارياً إلى اليوم يقاوم الإنسان الأمراض القاتلة ليعيش، والتَّركيز على الشَّباب والفتوة بالقيام بالتدريبات الرياضية والتَّوازن الغذائي الممكن، واكتشاف العقاقير والأدوية المضادة للتَّجاعيد وانكماش الجلد، وآلات توفير الجهد، فالشَّيخوخة إنذار شؤم بالنسبة للإنسان، لأن مواجهة الشَّيخوخة

³³⁵- روى مستقبليّة، ميتشيو كامو، سلسلة عالم المعرفة، العدد 270، ص 261.

هي مواجهة لحقيقة الفناء، فالجسم كلما تقدّم به العمر يصدأ وتبلى أعضاؤه، ومع كل ذلك لم يستطع الإنسان بالعلم تحقيق الخلود ومكافحة الموت .

بعد فصل " العيش إلى الأبد"، وفصل "الاستنساخ وتصميم الأطفال" يقرّ ميثيو كاكو في فصل "جينات عالم جديد وشجاع" عن تطور مثير يمكن أن تحقّقه تكنولوجيا النانو، يقرّ بإمكانية (صنع آلات جزيئية بمسّنات وأجزاء متحرّكة عن طريق التحكم في الذرّات المستقلّة، وإذا أمكن في المستقبل برمجتها بحيث تتكاثر ذاتيا، فمن الممكن أن تنجز عجائب أشبه بالمعجزات من الهندسة التكنولوجية والبيولوجية.

(ويُدعي أنصار تكنولوجيا الأجهزة التّانوية أنّها قد تعطينا أيضا نوعا من الخلود، فهم يعتقدون بتجميد جسم الإنسان بعد الموت، ومن ثم استخدام أجهزة إنسان آلي جزيئية تعكس تلف الخلية المحتم، الذي يحدث عندما تحطّم البلورات الجليدية جدار الخلية، وبالفعل فإنّ الكثير من المروّجين لها وقّعوا مسبقا على وثائق لتجميد أجسامهم بعد موتهم)³³⁶.

مرّ على هذا الكلام أزيد من عشرين سنة، وكانت للباحث تنبؤات عن تغيّرات ستقع في سنة 2020م في عالم البيولوجيا والتطوّرات تكنولوجيا النانو وعالم الكمبيوتر والأنترنترنت والعقل الآلي تحقّقت منها أمور من أخطرها ما تكلم عليه في الصفحة 334 من ظهور وتطوّر البحث في الجراثيم الفتّاكة وانطلاقها عبر الهواء للفتك بالملايين من البشر، وهي تتطابق ما يقع للبشرية اليوم مع الكوفيد 19، لكن ما أشار إليه هنا هو مجرّد حلم علمي لم يتحقّق منه حتى الآن أيّ شيء، وما أشار إليه هو سبب من الأسباب التي دفعت بالذين يضعون ثقهم في مثل هذه التّظريّات ظنّا منهم أنّها ستوفّر لهم الخلود أو العيش في المستقبل، وقد استشعر الباحث ذلك حين استهلّ كلامه في الفصل الثّاني عشر بنصّ لروني دوبو نقله عنه

³³⁶- المرجع السّابق ص 344.

من " سراب الصّحة " والمنشور عام 1959م، يقول فيه دوبو: (إنّ أيّ محاولة لتكييف العالم، وتعديل شخصية الإنسان لخلق نموذج مختار من الحياة تتضمّن عواقب غير معروفة، إنّ مصير الإنسانية من المؤكد أن يظل نتيجة لذلك مقامرة، لأنّ الطّبيعة سوف تردّ على ذلك في زمن غير متوقّع وبطريقة غير منظورة)³³⁷، وقد بسطنا الكلام في هذا الموضوع في فقرة ستأتي بعنوان " مقابر التّجميد ".

قفزات علمية في عالم الفيزياء والبيولوجيا والطبّ والهندسة جبارة جدّا يكافح فيها الإنسان فكّ لغز الوجود من الوجود والعدم، والموت والحياة، المثبت منها حتّى الآن لا يتخالف مع النّصوص النّقلية في شيء، ولذلك على النّقلانية أن لا تبقى جامدة أمام هذه الابتكارات القوية، وصامته أمام هذه الكشوفات العلمية المبهرة، ستدلي النّقلانية برأها، وستدخل في عالم النّظرية العلمية، وتحدث في أنساقها المعرفية روافد مهمّة لتكافح موجة الإلحاد الطّافحة على النّظريات السّائدة، تدفع بالنّصوص أمام العلم ومع العلم وبعد العلم، ونحن على يقين بأنّ القفزة الكبيرة والثّورة العظيمة التي سيحدثها العلم من شأنها أن تقوّي الأطروحات النّقلانية في الطّبيعة والإنسان والكون، وهذه النّظرة ليست مجرد تفاعل عاطفي بل تستند إلى معطيات ومستندات لا يفقهها إلاّ المشتغل بها.

حين يلوّح علماء الكوسمولوجيا والفيزياء والبيولوجيا والطبّ بالنّصوص الدّينية من التّوراة والإنجيل أو من القصص الأسطورية للهندوس والرّومان والصّينيين فلاّتهم لا يعرفون غير التّوراة والإنجيل وهذه الأساطير³³⁸، ومنهم من عاش على التدينّ فلما فقه قارن ونقد، وهم في الحقيقة لا ينعقدون سوى نصوص الكتاب المقدّس باسم الدّين، وليست نصوص الإسلام من الدّين الذي يتكلّمون

³³⁷- المرجع السابق ص 311، الفصل الثاني عشر.

³³⁸- المرجع السابق ص 261، وص 285.

عنه، إثمها دين لكتها ليست كالدين الذي يؤمنون به ﴿لكم دينكم ولي كبير﴾³³⁹، ولذلك فالثورة العلمية التي ستقع في المستقبل قد لا تصمد أمامها رؤى يوحنا في الإصحاح الثاني عشر، ولا معتقدات الهنود والصينيين واليونان لكتهم في المقابل حين يبحثون عن التوافق بين العلم والدين لا يستشهدون سوى باليهودية والمسيحية والبوذية³⁴⁰، وهذا يدل على أنّ المعارف عن الدين عند العلماء محصورة في أديان معينة.

2- الموت والعلوم الحديثة

زهّد النَّاس في دراسة موضوع الموت لثلاثة أسباب:

الأول: أنّه موضوع مستعص عن الدّراسة، فدراسة الموت بالنّسبة لهؤلاء يتطلّب شرط الإحساس به، ولا يكفي الكلام عن الموت في حدّ ذاته بقدر ما يجب الكلام عن ما بعد الموت، وهما عنصران لا يمكن تحقّقهما في غياب الإحساس والوعي، لأنّ الموت يكون حالاً في الجسد، ولم يثبت قط أنّ ميّتا تكلم وهو ميّت، فأنبأ الأحياء عن عالم ما بعد الموت، وقد ذُكرت أشياء من ذلك لكنّ البعض ينظر إليها بعدم الاقتناع.

الثاني: أنّ ظاهرة الموت لا تحتاج إلى مزيد من الكلام، ومزيد من الدّراسة، فدراسته من باب تحصيل الحاصل، فيكفي أن يكون موجوداً كظاهرة طبيعية، والإنسان يتعايش مع الظواهر الطّبيعية المفترضة كتعايشه مع اللّيل والنّهار، والشّمس والقمر، والخير والشر إلخ.

³³⁹ - سورة الكافرون الآية 6.

³⁴⁰ - أنظر ما قاله ميتشيو كاكو عن نظرية الانفجار الكبير والكون المتعدّد في رؤى مستقبلية في الصفحة

الثالث: قدّمت العلوم والمعارف الإنسانية أشياء كثيرة عن الموت، فهي في الأديان والفلسفات والأشعار والكتابات، فما الجديد المضاف في موضوع الموت أمام هذا الكمّ الهائل من الإنتاجات العلمية والمعرفية.

هذه تبريرات غير سليمة، وتحليلات سقيمة، وهي تبريرات العاجز عن اقتحام موضوع يحتاج إلى بحث ودراسة، كلّ الظواهر قابلة للدراسة، والبحث المطلوب هو من الحي لا من الميت، أو لنقل هو مطلوب من "الحي الحي" لا من "الحي الميت".

لقد قدّم العلم اليوم وفرةً من المعلومات عن الموت (واهتمّت علوم وتخصّصات عديدة بدراسة الموت، منها: الطب والتّمرّض، والصّحة العامّة، والعلوم الاجتماعية والسلوكية، وعلى الأخص علم النّفس، وعلم الاجتماع، والقانون، فضلا عن الدّين والفلسفة، ولقد نشأ في العقود الأخيرة علم دراسة الموت والاحتضار *Thanatology*، وتطوّر هذا العلم حتى أصبح مقرّرا دراسيا في الجامعات، كما نشرت فيه مراجع كثيرة، وأصبح الموت مجالا جيّدا للدراسة والبحث، ومن بين الموضوعات التي بُحثت في هذا العلم أسباب الوفاة والتي مازالت أمراض القلب والسّرطان من أهمّها، على الرّغم من زيادة معدلات الإعمار في العالم كله، "..." ومن بين المباحث الحيوية في علم دراسة الموت أيضا مسألة نقل الأعضاء *Organ Transplantation* وما ترتّب عليه من جوانب أخلاقية وقانونية فضلا عن علاقته المباشرة بتعريف الموت وخصوصا السّؤال المهم الذي أثير منذ مدّة ليست بالقصيرة: هل يحدث الموت عندما يتوقّف القلب أو عندما يتوقّف المخ" أساس الوعي عن توليد الطاقة الكهربائية؟، ويعتبر تقرير " هافارد الشهير عن " موت المخ *Brain death* " أحد البحوث المهمّة التي هدفت إلى الإجابة عن السّؤال الثاني).³⁴¹

³⁴¹ - قلق الموت للدكتور أحمد محمد عبد الخالق ص 7-8.

هذه الجهود التي قدّمت وفرة من المعلومات عن الموت لم تستثمر جيّداً في الكلام عن الموت من وجهة نظر العلوم الإنسانية، وبخاصة في علم النفس، وقد احتار الباحثون في معرفة السبب في كون علماء النفس قد قالوا القليل عن الموت في حين أنّهم قالوا الكثير عن جوانب أخرى مثل الجنس والاعتصاب والقهر إلخ³⁴²، كما قام البعض بتوجيه تلك الدّراسات والأبحاث نحو الجحود والإلحاد حتّى يجد الملحدون سنداً علمياً وعقلانياً لمعاركهم التي خاضوها ضد الغيب والموت، وما قدّمه آخرون لا يعدو أن يكون تاريخاً للموت، أو أشعاراً وتأمّلات، أو انطباعات ذاتية، أو جمعا للتّصوص من هذا المرجع أو ذاك لا تستطيع أن تظفر منها بشيء، نعم، إنّ المقدّم في الموضوع يجب استثماره، وتحليله، فهو دين يلزم الوفاء به بالمساهمة به في تقديم إجابة علمية عن أسئلة محرّجة ووجهية، والدّفْع بها إلى مجاري الرؤية العلمية النّقلائية للموضوع، رؤية تُقدّم للأحياء صحوة فكرية في موضوع الموت وحقيقة وجوده، الموت موجود، لكن الإحساس به وعنصر التّعامل معه بما يلزم هو المفقود، مفقود عند المؤمنين والملحدين على حدّ سواء، المفقود هو ثقافة الموت لا الموت، ولعلّك في مطالعة هذه الفقرات المبتوثة في هذا الكتاب ستجد شيئا يروي الغلّة.

كان الإنسان إذا رأى الموت قد حلّت في فرد أو جماعة ترتعد فرائصه، وحين يرى جثة الميت يتخشع ويلين قبله ويطأطئ رأسه، أمّا اليوم فقد اختلفت الحالة، فموت الإنسان هو كموت حيوان، أصبح الموت هواية بل إنّ رؤية الموت أصبح مجلة للضحك والاستهتار، يتفنّن الإنسان المعاصر في إلحاق الموت بالإنسان والحيوان والطّبيعة بمختلف الأساليب والطرق، وهو يجتهد بالعلوم والابتكارات في تحقيق الإرهاب بالموت بمختلف الطرق والوسائل، ولا يتخشع إلّا إذا حلّ الموت في حبيبه وقريبه، أمّا البعيد فهو بعيد.

³⁴² - قلق الموت ص 6-7.

أعتقد بأن ثقافة العصر الحديث تروج للقتل والموت والدّمار والفناء أكثر مما تروج لأيّ شيء آخر، فالزّعيم لا يكون عظيماً إلا إذا كان قاتلاً، والجندي لا يرتقي في سلّم الجندية إلا إذا أجاد القتل، وغالبية الرّسوم المتحرّكة والأفلام ذات الشّهرة العالمية هي التي يدور موضوعها عن القتل والغدر والإبادة، والدّول التي تتصدّر قائمة التّقدم الصّناعي والتّجاري هي التي تخترع وتبتكر وسائل القتل والتّدمير، وإذا دخلت في الحروب تفتنت في أشكال القتل والترويع، كما أنّ المسلسلات الاجتماعية التي تلقى إقبالا هي التي تضرب على وتره القتل والخيانة، ولا تنقل لنا وسائل الإعلام بمختلف صورها سوى أساليب الفتك والتّهجير والتّدمير، لقد ارتوت الكرة الأرضية في أيّ مكان من العالم بدماء البشر، وها هي تتحرّك سابحة في الفضاء كمقبرة صامته يقتل فيها الإنسان الإنسان بوحشية منقطعة النظير، أعتقد بأنّ الثّقافة الإنسانيّة اليوم هي ثقافة الموت (صراع الحضارات)، (صراع الثّقافات)، (موت الإله)، (موت الإنسان)، (غزوالطّبيعة...).

كيف يقتل الإنسان أرواحا ما ساهم في خلقها، ولو جاز لأحد أن يقتل أحدا لجاز للوالدين قتل أولادهما، لأنّهما سبباً في وجودهما، ومع ذلك جاء التّهي مغلظا في الموضوع، فالوالد والد للولد وليس خالقا له، وهو هبة من الله له، ألم يكن الآباء هم أيضا نتيجة آباؤهم وأجداهم، ولو سُمح للوالدين قتل أولادهم بناء على هذه الاستحقاقات السّببية لحصل الفناء للبشرية.

أو لا يجب أن نُفكر في نوع واحد من أنواع الموت هو (الموت البطيء)، وقد بسطناه كنوع من أنواع الموت في موضعه، ويمكن أن نجعل من تلك الأنواع موضوعا للدراسة والبحث، وهذا ما يجب أن تتولاه "المعرفة الأسمى"، المعرفة التي تتولّأها التّقلانية في صيغتها الحديثة والمعاصرة، نفكر في هذا النوع من الموت الذي به تموت شعوب وقبائل في مقابل أن تحيا شعوب وقبائل أخرى، فهل قدّر القدر أن حياة شعوب معيّنّة لا تستقيم إلا بإبادة حياة شعوب أخرى، وهل قدّر القدر أن غنى وتقدّم بعضها مبنيّ على فقر وتخلّف البعض الآخر، كيف نفهم هذا

القتل المريب والمفزع، الجماعي والفردى الذي تحدّثه شعوب لأخرى، شعوب تموت بالوباء، وأخرى بالجوع وبالحصار المفتعل، وأخرى بالقصف والتدمير، وأخرى بالنسف والتفجير، وأخرى تنتظر الدور، أي دين وأية عقيدة تسمح بهذا؟ ما أرحم الخالق حين وهب الحياة ولم يسلبها من أحد ليعطيها لأحد، لم يسلب الحياة والروح من كائن معين فيجعله في الموت لهيبه لأدم وبنيه، ولم يأمر ملك الموت أن يقبض روح فلان وينفخها في آخر، فالملك القابض ليس هو عينه الملك النافع، ﴿أَجْعَلْ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نَسَبِحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ، قُلْ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾³⁴³.

3- الموت بين عبثية العلم وطرق التجريب

على الطب أن يفكر في الأحياء الذين يحيون الحياة العادية، أو ليس الحي الموجود أمامنا في أمس الحاجة إلى مدّ عمره بأجل يريده بمعالجة أمراضه وسدّ حاجاته عوض التّفكير في حياة جسد مات وانتهى، يُجمّد في مقابر التّبريد بغيّة إحيائه في زمن ما؟ وإذا ما وقرّ الطبّ هذا الحلم هل يستطيع أن يوقّر الحنان والعطف ورابطة الدّم والعلاقات الاجتماعية والمصالح الذاتية والرغبات الخاصّة؟ ثم هل هذا الجسد سيبقى حيّاً إلى ما لا نهاية؟ وهل يمكن تشييب الخلايا إن هرمت وشاخت؟ وحتى لو تمكّن العلماء من إعادة بناء خلايا الجسد فهل يمكن حصر الأضرار النّاجمة عن ذلك، وأكثر هذه الأضرار الأضرار النّفسية التي ستحدث للجسد الحي، غير أنّ المتفائلين الخياليين يتوقّعون التغلّب على هذه المشاكل من كل الزوايا، وهو حلم في تصورنا، فهم يجيبون عن أسئلة لغرض رفع الحرج، وغرضهم هو الوصول إلى العملية وإقناع النّاس بها لكونها تدرّ عليهم دخلاً مادياً تماماً كما فعل بعض الكهنة حين منعوا مسّ الجثّة، لأن الموت بزعمهم ينتقل من الميت إلى الحي، وهم وحدهم المؤهلون لمسّها وحملها لأنهم يتقاضون

³⁴³ - سورة البقرة الآية 29.

على العملية أجورا باهضة، إنَّها "تجارة الموت"، يصبح الموت سلعة تباع بالأثمنة الباهضة، والعوائل التي تتولَّى القيام بالعملية إنَّما تقوم بها بدافع غريزة حبِّ الميِّت، وحبِّ بقاء الجثَّة بجانبهم، لقد فقدوا الأمل لكون الموت قضى على قريبيهم وحببيهم لكنَّ هؤلاء الأغبياء يأتون ليقدموا إليهم وعدا بأنَّ الحياة يمكن أن تعود لقريبيهم، إنَّها عملية إرضاء رغبة عابرة بمقابل مادّي صرف.

إنَّه حلم في اليقظة، التبشير الحضارية تثبت أنَّ إنسان المستقبل سيكون أكثر عدوانية، وأنه يرغب في العيش وحده على كوكب الأرض من دون إنسان بعيد وغريب عنه، ناهيك أنَّ هذه العملية ستطرح من المشاكل القانونية الشيء الكثير، ومن هنا فالقانون يرفضها ولا أتكلم عن الأديان، فالأديان تحرّمها وتمنعها، وعنصر الرفض متمثل فيما يلي:

1- الأديان السّماوية تقوم بدفن الموتى لا بتجميد رُفاتهم في مقابر التّجميد تبقى فيها إلى الأبد.

2- الأديان غير السّماوية، وأقواها الموجودة اليوم على الأرض تؤمن بحرق الموتى ولا تؤمن بالتّجميد.

3- غير المتديّنين لا يرون فيها فائدة كبيرة لأنَّ فيها هدرا للأموال، والأحياء أولى بالعناية من الأموات، وهي في النّهاية وسيلة تجارية وليست بدافع ديني أو عقدي.

ويعتقد آخرون أنَّ التّجربة مفيدة للطب أكثر من كونها مفيدة لإنسان يراد إحيائه، إنَّها رياضة طبيّة، وتدريبات على كشوفات واختراعات، وعلى تطورات تقنية في مجال الطب "الميكروسكوبي"، وإن كان لها من نجاح فنجاحها في القيام بهذه التّجربة على موتى البشر وإن باءت بالفشل، ومعلوم أنَّ النّجاح لا يتحقّق إلا بعد فشل كبير، وسنجلّي حقيقة الموضوع في معرض الكلام عن "مقابر التّجميد".

قد تكون العملية عبارة عن الحفاظ على الأعضاء البشرية بُغية استغلالها في وقت ما، تماما كما يفعل الطبّ اليوم في عملية زرع الأعضاء، فهل تنجح عملية زرع عضو من ميّت مات بقرون من الزّمن في جسد إنسان سيولد في المستقبل؟ الجواب يتطلب انتظار قرون من الزمن؟ فلننتظر!.

4- الماورائيات والتجارب التقنية

إنّ ادعاء معرفة الأشباح والأرواح هو أشبه ما يكون بادعاء علم الغيب، وحاول المفسّرون الجدد إضفاء عنصر العلمية على حرفتهم هاته بدعوى أنّهم متخصصّون في " الماورائيات"، ويستطيعون فكّ ألغاز الغيبيات ومنها موضوع " الأشباح والأرواح"، فالموت حسب تصوّرهم يذهب بالجسد فقط لكن الإنسان يبقى موجودا بالطاقة وبشكل كهروميغناطيسي، وبما أنّ الآلات الكهربائية مثل الفيديو وغيرها مُغنّطسة فإنّها تستطيع أن ترصد انطباعات الأصوات، فقاموا بتجارب بحيث رصدوا المكان الذي يتصورون أنّ الشّبح موجود فيه، وقصدوا الأماكن المهجورة والمفجوعة كمكان قُتل فيه إنسان مثلا، أو وقعت فيه فاجعة عظيمة أزهقت فيها أرواح، أو مكان مخيف لا يلجّه أحد، ووضعوا كاميرات وأجهزة ملصقة في جهات معيّنة من المكان، ويوهم صاحب العملية بأنه أصبح في اتصال مباشر مع الشّبح، فيوجه إليه أسئلة محدّدة عن اسمه، ولماذا هو هنا، ومن أرسله، وهل هو من الأخير أم من الأشرار إلخ، فلا يجبه أحد، ولا يسمع صوتا، ولا يرى شبحا، ولا يحصل على جواب إنّما يحاول أن يجيب نفسه بنفسه بدعوى أنّ الشّبح تقمّص جسده، وحلّ فيه، فيحاول أن يزرع في المشاهدين والحاضرين أنّ العملية واقعية، وأن ما يقع هو صحيح.

يدعي هؤلاء بحرفتهم الجديدة التي هي في أصلها قديمة لكنّ الجديد فيها هو الآلات الحديثة التي تمّ النجّح بها في هذا المجال الذي هو ليس من مجالها، يزعم هؤلاء أنّ الشّبح يسكن في مكان معين، وربّما يكون عين المكان الذي يسكنه

الإنسان العادي، وأنه يتحرّك ويصدر أصواتا تُسمع بين الحين والحين، وهي غير مفهومة، وأنه يأكل ويشرب، وأنه ينام في مكان معيّن، وأنه يدخل على النَّاس في منامهم فيفزعهم إلى غير ذلك من المزاغم، فإذا كان هذا الشَّبح بهذه المواصفات فلمَ لا يتحرّك مثل تحرّك سائر النَّاس، ولم لا يأكل كما يأكلون، ولم لا ينام معهم حيث ينامون، ويخاطبهم عيانا وجهارا ؟؟، لماذا هذا الاختفاء المريب، وهذا الانزعاج المخيف، إذا كانت الأشباح تعيش في عالم آخر لا نعرفه، وفي مجال لا ندركه، وهي تأبى الظهور والانكشاف فكيف نعتقد في وجودها ونعتمد تفسيرها ؟ إنَّ من خصائص التَّفسير وجود المفسِّر، فكيف نفسِّر وجود شبح الموتى ؟ لا يستطيع أحد أن يثبت ذلك ولو كان حفَّار القبور أو غسَّال الجنائز، تساؤلات كثيرة تبيِّن أنَّ المسَمَّى " الشَّبح " لا وجود له، وأنَّ الموجود هو صورة الشَّبح في خيالهم، تخيَّلوا الشَّبح فاعتقدوا بوجوده، ونتيجة لذلك دخل على الخط شبح آخر هو " المشعوذ"، المشعوذ الذي يخفي حقيقته لتحقيق مراده تحت مظلة الأشباح والأرواح، أمَّا الشَّبح إذا كان ينتهي إلى هذا العالم فعليه بالظَّهور لأنَّه جزء منَّا ونحن جزء منه، وذلك من حيث الوجود والخلق، وإذا كان موجودا وينتهي إلى عالم آخر فلا حاجة لنا به.

5- الأشباح والتواصل التقني

العلاقة بين الأشباح والموت علاقة عضوية، وراء كل تصور عن الأشباح الموت، فإذا صحَّحنا النظرة عن الموت صحَّحناها عن الأشباح، وهذا ما نقوم به. يكثر تصوُّر الأشباح ورؤيتها عند الذين فقدوا أحبة لهم عن طريق الموت، هؤلاء من كثرة تعلقهم بهم وحبِّهم لهم يتخيَّلون أرواحهم تطوف بهم، ومنهم من يُقامر بالقول إنَّ ذلك يراه رأي العين، وهذا كلُّه ناتج من ضُعب المعرفة بحقيقة الموت، ومن ضُعب الإيمان بعقيدة القضاء والقدر، ومن فرط الحبِّ وهول صدمة الفراق، فحين يضعف الإيمان يجنح العقل نحو التَّفكير والخيال، وحين

تختلط هذه الأمور كلها بالإفراط في الحبّ مع قوّة الصّدمة وشدّتها يقع الإنسان في هستيريا رؤية الموتى.

وبما أنّ العلم تجارة، وأنّ العلوم والمعارف تكيّفت لخدمة المصالح والطّموحات فقد حاول بعض المهندسين ادعاء التّواصل مع الموتى، وظهرت جمعيات تهتمّ بالموضوع، ظهرت على بعض القنوات الفضائية الوثائقية، وقامت بتجارب في الموضوع تابعت بعضها فوجدتها مُخزية، فهي أشبه ما تكون باستعراض عضلات من دون فعل شيء ملزم، قد تكون فعلتْ لكنّها لم تصل إلى شيء يثبت وجود أشباح الموتى، إنّ القول بوجود الأشباح هو قول بوجود الحياة بعد الموت، أو عدم وجود الموت البتّة لأنّ الموت يصير صاحبه إلى شبح، إدعاءات بعيدة عن الصّواب، فالنقلاني حين يعتقد بوجود حياة بعد الموت، ويقرّ بأنّها هي الحياة الحقيقية لا يفسر الأمور على هذا النحو، ولا تسير الأمور عنده بهذه الكيفية.

6- الموت والبيئة

العلاقة بين البيئة والموت في الإسلام علاقة منسجمة من جهة الخلق، وهما يدلّان على الله، كلاهما مخلوق، ويبقى الإنسان هو المحور، ومن جهة التّعامل مع الموت والموتى في الدّفن وما وراء الدّفن من المعتقدات التي تبدو منسجمة مع الأطروحة النّقلانية للموت، وحين نتكلّم عن البيئة والموت نعني حماية البيئة والمحافظة عليهما من جهتين:

- الأولى: المحافظة عليها من الموت، لأنّ موت البيئة يعني موت الإنسان، فالبيئة هي المحيط الطّبيعي الذي يعيش فيه الإنسان، كلّ ما يلوّث البيئة ويضرّ بها ويحدث فيها خلاا هو منهي عنه بنصّ الشرع، وقد أنجزت في الموضوع رسائل جامعية في الماجستير والدكتوراه بعضها وقع تحت إشرافنا والبعض الآخر كنا

أعضاء في لجنة مناقشته³⁴⁴، هذه الرسائل الجامعية أوضحت بما فيه الكفاية نظرية الإسلام في البيئة، وأثر التلوّث على الإنسان من جهة هوائه وغذائه.

- الثانية: إذا تأملنا غسل الميّت وتكفينه، والتّعجيل بدفنه، وموقف الإسلام من الجنازة، وأنها لا تنجس - والمؤمن ليس بنجس حيّا كان أو ميّتا - ثم إذا قارنا بين الدّفن في الإسلام والحرق أو الدّفن السّماوي وغير ذلك من المظاهر التي تبعث على الاشمئزاز أدركنا قيمة تقدير الإسلام للبيئة، ومحافظة علمها، فللدّفن قيمة كبيرة وفلسفة عميقة تدلّ على أنّ الإنسان رجع إلى أصله، وتحلّل الجثمان يعود على البيئة والطّبيعة بالتّففع، فهو نافع للبيئة حيّا كان أو ميّتا. حتى لو اصطيد وذبح، أو مات ووري جثمانه التّراب .

يوجد في كتاب " الفلسفة البيئية" لمايكل زيمرمان نصّ منقول من مقال لكارين ج. وارين جاء فيه: (ذات مرّة أخبرني شيخ من قبيلة سيوكس الهندية قصّة عن ابنه، فقد أرسل ابنه البالغ من العمر سبع سنوات ليعيش مع جدّيه في محمية سيوكس بحيث يتمكّن من " تعلّم الأساليب الهندية"، ومن ضمن ما علّمه الجدّان للابن- واسمه كان- كيفية اصطيد ذوات الأرجل الأربعة، فقد علّم الولد ما يلي:

(أطلق السّهم على أخيك ذي الأربع في ناحيته الخلفية، بحيث تبطنه ولا تقتله، ثم خذ رأسه بيدك وانظر في عينيه ففي العينين تكون المعاناة كلّها، انظر إلى عيني أخيك واشعر بألمه، بعدها خذ سكّينك واذبح ذا الأربع أسفل ذقنه، في عنقه، بحيث يموت بسرعة، وبينما تقوم بذلك اسأل أخاك ذا الأربع أن يسامحك لما فعلته، أقم أيضا صلاة الشّكر لقربك ذي الأربع لأنّه قدّم جسده لك للتو، لتأكل عندما تحتاج الطّعام، وتلبس حين تحتاج الكساء، وعدّ ذا الأربع بأنك

³⁴⁴- من ذلك " النّظرية البيئية الإسلامية: الأسس المعرفية والمنهجية " للطالب جمال الدّين ناسك، رسالة دكتوراه تحت إشرافنا، نوقشت بكلية الآداب ببني ملال سنة 2014م .

سوف تدفن جسدك في الأرض عندما تموت ليصبح غذاء للأرض وللزهور والشقيقة لك وللوعل أخيك، فمن اللائق أنك سوف تصلي مباركا ذا الأربع، وبدورك، وفي الوقت المناسب ترد له التحية بجسدك بهذه الطريقة، فقد منحك ذو الأربع حياته كي تبقى).³⁴⁵

لا تهمننا النصيحة من حيث المرجعية الدينية لكن الذي يهمننا ما تتضمنه من "قوة أخلاقية" في المحافظة على البيئة، هذه القوة التي يدركها الإنسان بفطرته مع عالم الحيوانات التي سخرها الله له حتى تستقيم حياته على الأرض في توازن كامل، وحتى تستقيم عبادته وفق التمكن الذي وهبه الله إليه، وهو على كل حال يجد الحيوان طائعا ممتثلا، وهي دورات الحياة، فالإنسان يصطاد ويذبح ليعيش، لكنّه في النهاية يموت ليُدفن، ومثلما كان الحيوان وسيلة ليعيشه سيصبح الإنسان وسيلة لتعيش كائنات أخرى حيّة، وهي جزما ستنتقل من وعاء بطنه، وأخرى تنبت فوق تراب جسده، جاعلةً من عناصر تحلله مادّة للعيش وللحياة.

7- الموت وعلم الكون

لا يمكن فصل موضوع الموت عن عوالم الكون التي استطاع الإنسان أن يتعرّف عليها عن قرب أو عن بعد، ومن خلال التّعرف عن بعد استطاع التّخمين لمعرفة ما هو أبعد، ربّما ما هو أبعد حتّى من الخيال، لقد خلّفت الكوسمولوجيا رصيذا من البرامج الوثائقية ومن الكتابات والتأليفات التي كتبها رواد الفضاء في إطار ما يطلق عليه "إبستيمولوجيا الكوسمولوجيا" أي: علم معرفة الكون، وهو الذي نراه في كتابات رائد الفضاء المشهور كارل ساغان³⁴⁶ ودونالد جولد سميت³⁴⁷

³⁴⁵ - النص مأخوذ من مقال كارين. ج. وارين بعنوان "قوة ووعد النسوية الإيكولوجية" ضمن كتاب "

الفلسفة البيئية" لمايكل زيمرمان، ترجمة معين شفيق رومية، الجزء الثاني، ص 117-118.

³⁴⁶ - أستاذ العلم وعلم الفضاء بمعهد دافيد دانكان ومدير معمل دراسات الكواكب بجامعة كورنيل، قام بدور رائد في رحلات سفن الفضاء، وشغل خبيرا ومستشارا لوكالة ناسا الفضائية، وتقديرا

وعالم الفيزياء النظرية ستيفن هوكينغ³⁴⁸ وغيرهم، من المفروض أن نتقدّم بهذا السؤال بين يدي هذه النظريات عن حقيقة هذه العوالم، هل هي عوالم حيّة أم عوالم ميّنة، إذا كانت حيّة فما نوع الحياة الموجودة فيها، هل هي حياة تخصّها أم حياة تخصّ الإنسان ؟ وإذا كانت ميّنة فأيّ موت يليق بوضعها هل هو موت يخصّها أم موت يخصّ الإنسان أم أنّ وضع الكون هو وضع لا ينطبق عليه موت أو حياة في وضعية لم يقف الإنسان عليها بعد ؟

كيفما كان الجواب فإنّ التّقويم يبقى للإنسان في نهاية المطاف، لأنّ وضع الكون يخصّه ولا يخصّ الكون، هذا منطلق الإنسان الداخلي الذي يتفاعل به في عالم الحياة، فليقل ما شاء في قضيّة الكون، من جهة الموت والحياة فإنّ للكون منطقته الخاص به، ولغته التي يتكلّم بها، والقانون الطبيعي الذي يسير عليه، وهو ما يحاول الإنسان عن طريق العلم امتلاكه للتّجاوب مع الكون، دائما يبقى التّقويم من منظور الإنسان لأنّه المقياس الحقيقي للبحث عن عوالم حيّة خارج الكرة الأرضية التي نعيش فيها، تقرر النّقلاية أنّ الحياة لا توجد سوى في هذه الأرض، ولذلك خلّق الإنسان منها وأنزل إليها، وأقبر فيها وسيخرج منها، لم يُثبِت العلم حتى الآن ما يخالف هذا الطّرح في وجود عوالم أخرى حتّى خارج المجموعة

لجهوده أطلق اسمه على كويكب سيّار هو "الاسترويد 2709 ساغان"، له أزيد من عشرين كتابا، منها كتاب (الكون)، و(كوكب الأرض نقطة زرقاء باهتة)، وغير ذلك.

³⁴⁷ - دكتوراه في علم الفلك، وأستاذ محاضر في عدد من الجامعات الأمريكية، ومستشار علمي لعدد من الأفلام الوثائقية المتعلقة بالكون، يعرف بتبسيطه لعلم الفلك للجمهور، حاز على عدة جوائز تقديرية، من مؤلفاته (البحث عن حياة على المريخ)، ترجمة إيهاب عبد الرحيم محمد، سلسلة عالم المعرفة، العدد 288.

³⁴⁸ - ستيفن هوكينغ، إنجليزي الأصل، أستاذ بجامعة كامبرج، كان على نفس الكرسي الجامعي الذي كان عليه نيوتن وديراك، عاش مريضا مُقعدا على كرسي متحرّك، ولم يحل المرض دون إحرازه مكانة مرموقة في الفيزياء النظرية، أثبت أنّ الكون بدأ بانفجاره الكبير، ومن أبحاثه "الكون في قشرة جوز"، ترجمه على العربية الدكتور مصطفى إبراهيم فهد، سلسلة عالم المعرفة، العدد 291، مارس 2003م.

الشمسية صالحة للحياة بمقياس مفهوم الحياة عند الإنسان، إنَّ انطلاق المركبات الفضائية والأقمار الاصطناعية عبر الفضاء البعيد إنّما لغرض البحث عن الحياة، وكما قال كارل ساغان: (فالحياة تبحث عن الحياة)³⁴⁹.

لا نختلف على أنّ الكون يتمدد عبر اللانهائي، وتوجد في الكون الملايين من المجرات، وما الأرض سوى ذرة من غبار، أو هي نقطة زرقاء باهتة عائمة في الفضاء كما قرر الكوسمولوجيون، ومن المحال أن لا توجد حياة تليق بصنف آخر من المخلوقات، ربّما أولئك الذين لا يتنفسون ولا يأكلون ولا يشربون، وقد عرفتنا النقلانية بالجنّ والملائكة، وعلمتنا أنّ الحياة موجودة في الجنة، ولا حياة ولا موت في النار، وفي ليلة الإسراء والمعراج طويت مجمل المقاييس البشرية في السفر لا بمنطق القدماء ولا بمنطق العلم الحديث، الحياة موجودة ودليل ذلك تسبيح هذا الكون للخالق، والرحلة إلى عوالم أخرى بعد الموت، أعتقد أنّ مهاجمة كارل ساغان للدين والفلسفة³⁵⁰ في تقديم تصوراتهما عن الكون له ما يبرّره من منطلقين: الأول انطلاقه من الملاحظة والتجربة بصفته رائدا للفضاء، رأى ما لم يره غيره، وشعر بشعور لم يحس به غيره، والثاني أنّ الدين الذي تكلم عليه هو صنف من الدين وليس كلّ الدين، فلو اطّلع على ما جاء به الإسلام من حقائق ربّما غير رأيه، لأنّه لا يوجد في تعاليم دين الإسلام ما يخالف التجربة والملاحظة التي استند إليهما، وما ثبت أنّ الإسلام حارب العلم، ولم يعتذر فقيه من فقهاء الإسلام يوما للعلماء كما اعتذر البابا بيوس التاسع في " منهاج الأثام Syllabus Erros " الذي أعلنه في اجتماع لمجلس الفاتيكان حين زعم بأنّ رجال اللاهوت عندما أكدوا مركزية الأرض إنّما ذهبوا ضحية المعنى الحرفي للنص³⁵¹، وتدلّ

³⁴⁹ - أنظر كتابه: كوكب الأرض نقطة زرقاء باهتة، رؤية لمستقبل الإنسان في الفضاء، ترجمة شهرت

العالم، مراجعة حسين بيومي، سلسلة عالم المعرفة العدد 254، ص 14.

³⁵⁰ - المصدر السابق ص 29 و39.

³⁵¹ - المصدر السابق ص 54-55.

الانتقادات التي مازالت تُغمر بها الكنيسة من قبل الفلاسفة والعلماء من أنّ
اعتذار الكنيسة عن جرائمها في حقّ العلم والعلماء لم تشفع لها.

نحن أمام ثلاث خيارات في الاعتقاد لا رابع لها:

- إمّا أن نعتبر أن الحياة لا توجد إلا في هذا الكوكب، وهو كوكب الأرض، لأنّ
الحياة لا توجد إلاّ فيه، وحتىّ مفهوم الحياة يتحدّد بطبيعة الحياة هنا، ويبقى
الكون بالنسبة للأرض مقبرة فسيحة، ترعب بالصّمت، وإنّ "غزو" الفضاء لم يكن
بجسد الإنسان ذاته بل بالإنسان الآلي الذي ناب عن جسد الإنسان في نقل
المعلومات وإرسال الصور والبيانات.

- وإمّا أن نعتبر أن الكون كلّه حيّا بدليل خلقه وتسيّحه، وتكاثره وتناقضه،
وموته وحياته، وفيه مايقبل أن يعيش الإنسان عليه إذا أخذ مقوّمات الحياة من
الأرض إلى القمر أو المريخ، وهو الآن حلم البشرية لإقامة مستوطنات دائمة على
أرض المريخ³⁵².

- وإمّا أن نعتبر الكون فيه موت تليق به وحياة تليق به تخالف ما عليه
وضعية الموت والحياة على الأرض.

أعلم علم اليقين بأنني سأموت، وسأسافر كما تسافر صورة الكواكب لأنّ
روحي سيحملها ملك جميل، سأسافر بسرعة فوق السّرعة، بل فوق تخيلي
للسّرعة، سنرى عالما آخر فيه ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على بال
بشر، عالم يختلط فيه جنس الملائكة بجنس البشر وأجناس أخرى لا نعلم عنها
شيئا، قد تحطّ روجي الرّجال في مكان ما من هذا الكون الفسيح، حيث أرى من
أعرف من النّاس ومن لا أعرف، الّذين سبقونا إلى الموت، والّذين لحقوا بنا بعد
الموت، سأكون في ضيافة ربّي، ربّ الأرض الجميل وربّ الكون الجليل، حاملا

³⁵² - أنظر " الطّريق إلى المريخ " للمهندس سعد شعبان، سلسلة عالم المعرفة، العدد 228، السنة
1997م، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت.

صحيفة أعمال في عنقي، أنتظر سلامة مصيري وحسن ضيافتي، ذلك هو حُسن ظني بالربّ الكريم.

8- موت الكون

حالة الكون مثل حالة الجسد تماما، كلما تقدّم الزمن بالجسد كلما شاخ وبلي، وضعفت أعضاؤه، ولا نشك في موت الخلايا، وهو ما عبّر عنه ميتشيو كاكو³⁵³ في فقرة من فقرات كتابه (التقدّم في السن: أنت تصدأ)³⁵⁴ بقوله: (إنّ تطبيق ذلك على الكون يعني أنّ النجوم ستستهلك في النهاية وقودها النووي، مخفضة درجات الحرارة إلى حوالي الصفر المطلق، وخالقا كونا بائسا يتألّف من نجوم ميّنة وثقوب سوداء وغاز بارد لا شكل له، إنّ مصير الكون هو الوصول إلى حالة من الفوضى العظمى)³⁵⁵.

صحيح أنّ الكون في النهاية سيقع فيه اضطراب عظيم، وهو اضطراب "قيام الساعة"، ونهاية المسير، هذا الاضطراب عبّر عنه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾³⁵⁶، وبقوله: ﴿وَإِنَّمَا الْبَحْرُ مِيَّزٌ وَإِنَّمَا الْقُبُورُ بِعَثَرٍ﴾³⁵⁷، وبقوله: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ المنفوشِ﴾³⁵⁸، وبقوله: ﴿إِنَّمَا زلزلت الارض

³⁵³ - Michio KaKo أستاذ الفيزياء النظرية في سيتي كوليج في نيويورك، من العلماء البارزين على المستوى الدولي، من مؤسسي نظرية مجال الأوتار، مؤلفاته: "الفضاء المتعدّد الأبعاد"، و"نظرية المجال الكمي: مقدمة حديثة"، عدا كتاب "رؤى مستقبلية" المترجم إلى اللغة العربية والمنشور في سلسلة عالم المعرفة، له برنامج علمي يذاع في جميع أنحاء الولايات المتحدة، وحاصل على دكتوراة الفلسفة من جامعة باركلي.

³⁵⁴ - المصدر السابق ص 265.

³⁵⁵ - رؤى مستقبلية ص 264.

³⁵⁶ - سورة الإنشقاق الآية 1.

³⁵⁷ - سورة الانفطار الآية 3-4.

³⁵⁸ - سورة القارعة الآية 5.

زلزالها³⁵⁹ ، وبقوله: ﴿إِنَّا الشَّمْسُ كَوَّرَتْ، وَإِنَّا النُّجُومَ انكسرت﴾³⁶⁰ ، وبقوله: ﴿فَإِنَّا النُّجُومَ كَمَسَتْ﴾³⁶¹ ، وبقوله: ﴿يَوْمَ تَبَدَّلَ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾³⁶² وغير ذلك من العلامات الدالة على اضطراب الأرض وتغيّر نظامها، وهو نظام لم تعد الحياة فيه صالحة، لكن للعلماء تخطيط آخر وهو تسخير قوانين "فيزياء الكم" لجعل مصير البشرية بين النجوم، فهم يدركون تمام الإدراك أنّ الأرض ستدمّر في المستقبل، ولذلك سخّروا برنامج الفضاء ليكون الخلاص الوحيد للجنس البشري من الاندثار، وقد وضعوا أنفسهم أمام خيارين: إمّا أن يبقوا مع الأرض ويُدَمَّرُون معها، وإمّا أن يهاجروا مع النجوم بحثا عن مكان أكثر أمنا، وكما أقرّ كارل ساغان أنّ حياة الإنسان أعلى من أن تتقيّد بكوكب واحد، وقد حدّدوا التاريخ الأقصى لبقاء الأرض في 5 بلايين عاما، وهو الزمن الذي ستستنفد الشمس وقودها الهيدروجيني وستتحوّل إلى نجم أحمر ضخم مكوّر، وعلى الأرض ستغلي بحار المحيطات تدريجيا، أي ستسجر وتتبخّر، نستمع إلى كلامه وهو يقرر هذه الحقيقة فيقول: (إنّ الحدّ الأقصى لوجود الأرض هو بحدود خمسة بلايين عام، عندما تستنفد الشمس وقودها الهيدروجيني، وستتحوّل إلى نجم أحمر ضخم، وفي ذلك الحين سيتمدّد الغلاف الجوي للشمس ليصل إلى مدار المريخ، وعلى الأرض ستغلي المحيطات تدريجيا، وستنصهر الجبال وستشتعل السماء، وسوف تحترق الأرض وتتحوّل إلى رماد)³⁶³.

هناك نظرية فيزيائية كوسمولوجية تقول بـ "الموت الإنتروبي" Entropy، ومعناها أنّ الكون سيموت متجمّدا، وقد بُنيت هذه النّظرية على حقيقة تمدّد

³⁵⁹ - سورة الزلزلة الآية 1.

³⁶⁰ - سورة التكوّن الآية 1-2.

³⁶¹ - سورة المرسلات الآية 8.

³⁶² - سورة إبراهيم الآية 48.

³⁶³ - المصدر السابق ص 408.

الكون، فمنذ الانفجار العظيم والكون ما زال في طور التمدد³⁶⁴، وهذا التوسّع إلى الأبد يقتضي منه أن يبرد تدريجياً، وسيحتضن نجوماً ممتة وثقوب سوداء، وستنخفض الحرارة إلى قرب الصفر المطلق، وحتى الثقوب السوداء ستبتخر، ويتخافت الكون إلى غازات هي أشبه بدخان ساج.

الكون سيموت وسيبقى لكن لا ندري هل بنظرية الاحتراق أم بنظرية التجمّد أم بهما معاً، وكونه معرضاً للفناء حقيقة تقرّها النّقلائية من منطلق نصوصها الغيبية، لا شيء يخالف أو يتخالف مع ما جاء به العلم، الحقيقة واحدة لكنّ التأويل يبقى قائماً، لم يتكلم العلم عن وضع الكون قبل الانفجار الكبير، هل كان مادّة أم لا، أم أنّ هناك كونا متعدّداً حسب ستيفن هوكينج، ثمّ إذا كانت مادّة الكون واحدة ومتشابهة في التكوين الفيزيائي فإنّ التمدد نفسه لا يعكس الحقيقة العامّة للكون، فقد اقتنع الفلكيون بأنّ حوالي 90 بالمائة من المادّة في الكون هي مادّة سوداء غير مضيئة، لها كتلة وغير مرئية، وهي تحيط بالكون المتمدّد من كلّ الجوانب، ما حقيقة هذه المادّة؟ وما دورها؟ لا يقدّم العلم شيئاً عن حقيقة المادّة السوداء الغامضة، وهي بالنسبة إلينا ضرب من الغيب، الغيب العلمي، المادّة موجودة لكنّ المعرفة العلمية الحقيقية عنها مفقودة، وقد كنتُ ذائب البحث والمقارنة بين معطيات العلم وحقائق النّقل، العلماء حتى الآن يجتهدون، لكنّ السّياسة أفسدت نُبل العلم، ففي الوقت الذي انطلقت فيه المراكب الفضائية المأهولة وغير المأهولة للبحث عن عوالم أخرى يعيش فيها الإنسان رغبة في البقاء فإنّ سياسات الدّول الرّاعية للأبحاث الفضائية تساهم في قتل الإنسان وإبادته على هذا الكوكب، هذا كوكب وجدّه الإنسان أمامه فعمره، فماذا لو كان من صنعه، إنّ البحث عن عوالم أخرى يتوطّن فيها الإنسان حماية له من الفناء هي مجرد رغبة علمية، وطموح علمي فقط، فالإنسان سيساهم في إبادة نفسه بنفسه على هذه الأرض، وحين ستقلص نسبة البشر على الأرض ستدمر، لأنّ تدميرها المؤقت والحتمي والمقرّر في النّقلائية لا يكون يومها إلا على الأشرار والمفسدين،

³⁶⁴ أنظر تاريخ العلم لجون غريبين، سلسلة عالم المعرفة العدد 390 السنة 2012، ص 345 وما بعدها.

وتقدّم التّقلانية حقيقة أخرى هي أنّ الفساد الذي سيّطال الأرض سيّطال الكون كلّ، لا يوجد مكان آمن للإنسان يومئذ، ففساد الكون سيكون شاملاً.

لا بدّ من التّفكير في مفهوم الزّمن ذاته، ونتكلّم هنا عن (الزّمكان)، حين يتّحد زمان الكون مع مكان الكون، أيّ مستقبل سيكون للكون إذن؟ هل هذا المستقبل إيجابي في حياة الكون أم سلبي، وإذا كان الجواب بالثّاني فهل الكون يسير فعلاً إلى الأمام أم أنّ زمنه معكوس إلى الوراء، وهو ما يمكن أن نُطلق عليه بـ "الزمن الورائي"، حين يسير الكون نحو نقطة بدايته، أي الرّجوع إلى الأصل ﴿إِنَّ الْوَرْثَةَ الرَّجْعِيَّةُ﴾³⁶⁵، ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نَعْمِدُهُ﴾³⁶⁶.

ما أحلى أن تتضافر معطيات العلم مع حقائق الإيمان، فالموت ليس شيئاً يمكن التّفكير فيه للتخلّص منه، بل هو شيء يمكن التعايش معه والعمل لمقتضاه.

9- عضريت الموت

استعرنا هذا المصطلح من الكوسمولوجي كارل ساغان حين أطلقه على المغامرة الكبرى التي يقودها الإنسان اليوم للتدمير بالأسلحة النوويّة، كل إنسان على هذه الأرض يخشى الأسلحة النوويّة، لكنّ الدول ذات الطّموح التكنولوجي تخطّط لامتلاكها، والسبب أنّ الدول التي تمتلكها تهدّد باستعمالها ولربّما تمارس الغطرسة والاستغلال بها، وما مبرّر "قوّة الرّدع" إلّا خدعة يُبرّز بها الامتلاك، فهو امتلاك لـ "قوّة القهر"، وكيفما كان الحال فإنّ الكلّ يُجمع على أنّ هذه المغامرات جنون، لقد ذاق الإنسان تجربة استخدام الأسلحة النوويّة في قنبلة ناجازاكي وهيروشيما، وبين الحين والحين تقع انفجارات في بعض المفاعلات مثل تشرنوبل في روسيا وأخرى في اليابان، وهذا التّوع من أسلحة الدّمار الشّامل في تزايد

³⁶⁵ - سورة العلق الآية 8.

³⁶⁶ - سورة الأنبياء الآية 103.

مستمر، وأصبح امتلاكه سهلاً، واليوم أصبحت الصناعات النووية صناعة محلية، وهو تزايد يهدد حياة الملايين من البشر، كما يهدد السلامة البيئية للكرة الأرضية، ومما زاد من خطورة تهديد الحياة صناعة الصواريخ الحاملة للرؤوس النووية، وهي أسلحة يمكنها أن تطأ أية بقعة في العالم، (ولا يوجد مكان واحد آمن على الكرة الأرضية، فالطاقة الموجودة على هذه الأسلحة مثل "عفريت الموت" الذي ينتظر بصبر نافذ أن يفرك له مصباح علاء الدين السحري)، ينقل ساغان شهادة كتبها طالبة مدرسة نجت من الهجوم النووي الأمريكي ما يلي: (استطعت أن أسمع عبر الظلمة التي تشبه قاع جهنم أصوات الطلاب الآخرين يصرخون مستنجدين بأمهاتهم، وفي قاعدة الجسر وفي داخل صهريج كبير كان قد حُفر هناك كانت أمُّ تبكي ممسكة فوق رأسها بطفل عار كان جسمه كله أحمر محترقا، وكانت أمُّ أخرى تبكي وتنشج وهي تلقم بثديها المحترق طفلها الرضيع، وفي الصهريج كان الطلاب واقفين ولا يظهر منهم فوق الماء سوى رؤوسهم وأذرعهم المتشابكة وهم يبكون مستنجدين بأهلهم، ولكن كلِّ مار كان قد جرح، ولم يكن هناك أحد يمكن الاستنجاد به، وكان الشعر المحروق على رؤوس النَّاس مشويا وأبيض، ومغطى بالغبار، ولم يبد عليهم أنهم بشر، أو مخلوقات من هذا العالم)³⁶⁷، إنها صورة مصغرة عمَّا أحدثه عفريت الموت في ذلك الوقت، أمَّا اليوم فالأمر- إن وقع- سيكون أفضع من الأمس، والذي سيفرك على النزر قد يكون شخصا واحدا أو مجموعة أشخاص تتحكّم في أرواح الملايين من البشر، فإذا كان هؤلاء يتسابقون نحو امتلاك هذه الأسلحة لمصلحتهم فمن يتكلّم باسم الأرض، ذلك هو العنوان العريض الذي جعله ساغان للفصل العاشر من كتابه³⁶⁸.

³⁶⁷ - الكون ص 278.

³⁶⁸ - الكون، ص 275 وص 277.

10. المحدثون والموت

لا يستقيم الكلام عن التقلانية من دون استحضار روادها وفرسانها الأوائل، أولئك الذين خدموها علما ومعرفة ومنهجاً، وتركوا لنا ذخيرة من المعارف صالحة للعبادات وللمعاملات، صالحة للعلم والثقافة وللعمل والعبادة، صالحة للمنهج والمعرفة وللإنسان وللحضارة وللقيم، قوم لم يعوزهم التنظير والتحليل، لأنهم فعلوا ما هو أكبر وأكثر من التحليل والتنظير، تركوه لأن صنعهم لم تكن في حاجة إليه، كانت جهودهم تقنية بحثية، تلك التقنية هي التي صانت الخبر، وضبطت المرويات، فانطلقت في الزمان محفوظة أبد الدهر، ووقروا على الأمة جهوداً بأن سدوا الثغرات قبل اتساعها، ولو تركوا تلك التقنية ومالوا إلى الجدل لوقع للأمة الإسلامية ما وقع لأهل الكتاب، وكان لنا من التراث سوى علم الكلام والفلسفة المتأثرة بالإغريق، عاشوا تقنيين ولم يعيشوا منظرين ومحللين، وحتى أولئك الجهلة الذين يطلبون من المحدثين ما هو خارج عن صنعهم إنما جاءوا ببدعة ما سبقوا إليها، مطلب لم يطلبه منهم ابن رشد والفارابي والغزالي والكندي وابن سينا، هؤلاء كانوا يقدرّون الجهود، ويثمنون بناء صرح العلوم، ندعو هؤلاء الناعقين أن يسألوا التقنيين المحدثين في عالم التحليل الفيزيائي والاختباري وعالم الصناعات الدقيقة المجهرية والمخبرية هل هم في حاجة إلى التنظير والتحليل.

للمحدثين تجارب مع الموت مثلما أنّ للصوفية ولالأدباء وللفلاسفة تجارب معه، وكلّ فئة تسوق قصتها بطريقتها وبأسلوب الصنعة العلمية التي تسلكها، للمحدثين قصص وحكايات وروايات يطول بنا المقال في سردها، أورد منها قصة لطيفة وقعت لأبي زرعة الرازي وهو في الاحتضار، سأسوق الواقعة كما نقلتها ووثقتها وعلقت عليها في الجزء الأول من دراستي عن أبي حاتم الرازي.

تعود الواقعة إلى سنة أربع وستين ومائتين، إذ اجتمع أبو حاتم محمد بن إدريس بن المنذر ومحمد بن مسلم ابن وارة والمنذر بن شاذان وأحمد بن إسماعيل

بن يزيد وجماعة من حفاظ الري ومحدثيها على أبي زرعة عبيد الله بن عبد الكريم وهو مبسوط على سريريه، وقد استرخت جوارحه، مطعون، مبطون يعرق جبينه في التَّزَع فاستحيوا من تلقينه وهو أستاذهم، ومثل أبي زرعة لا يلقن شهادة التَّوْحِيد، فبادر أبو حاتم محمد بن مسلم بن وارة قائلاً: ما تحفظ في تلقين الموتى: لا إله إلا الله؟ قال محمد بن مسلم: يُروى عن معاذ بن جبل - فمن قبل أن يستتم رفع أبو زرعة رأسه وهو في التَّزَع فقال: روى عبد الحميد بن جعفر عن صالح بن أبي عريب عن كثير بن مرة عن معاذ عن النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة³⁶⁹ وعند الخليلي في الإرشاد أن روحه خرجت مع آخر كلمة نطق بها قال أبو حاتم: (فصار البيت ضجةً ببكاء من حضر)³⁷⁰.

أما قصة احتضار الإمام أحمد بن حنبل والتي حكاها ولده عبد الله فقد أثبتناها في فقرة (التَّوْبَة بين الرَّحِيمِ والنَّقِيمِ والرَّجِيمِ) فلتلتمس هناك .

ومنهم من مات في الصَّلَاة كعبد الله بن سعد بن أبي سرح المصري القرشي، ذكروا بأنَّ له صحبة³⁷¹، وحميد بن أبي حميد الطويل، أبو عبيدة الخزاعي، مات وهو قائم يصلي³⁷²، وممَّن تكلم بعد الموت رجلان صحابي وتابعي، فالصَّحَابِي فهو زهير بن خارجة بن أبي زهير الخزرجي الأنصاري، توفي زمن عثمان³⁷³، وأما التَّابِعِي فهو الرَّبِيع بن جِراش، فقد ذكر ابن أبي الدُّنْيَا في كتابه " من عاش بعد الموت " أنَّ

³⁶⁹ - حديث معاذ أخرجه أبو عبد الله الحاكم في المستدرک على الصَّحِيحِينَ 351/1 و500/1، وأبو داود في السَّنَنِ 190/3 حديث رقم 3116، وأخرجه مسلم في الصَّحِيح وفيه: (من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة)، كتاب الإيمان 55/1 رقم 43.

³⁷⁰ - أنظر كتابنا " أبوحاتم الرازي وجهوده في خدمة السنة النبوية: التَّحْصِيل، الضَّبْط، الأداء " 63/3-64، الأولى 2004م، المطبعة والوراقة الوطنية بمراكش.

³⁷¹ - الجرح والتَّعْدِيل لعبد الرحمن بن أبي حاتم الرَّازِي 63/5.

³⁷² - التَّهْدِيب 35/3 ترجمة رقم 65.

³⁷³ - أنظر 562/3.

الربيع بن حراش كان حلف أن لا يضحك أبدا حتى يعلم هل هو في الجنة أو في النار، فمكث كذلك لا يضحكه أحد فضحك حين مات، وقصّة حوارهِ مع أخيه بعد موته أوردها ابن سعد في الطبقات³⁷⁴ ولا أدري ما هي، وذكروا في أمره حديثا مرفوعا ضعيفا لعائشة رضي الله عنها³⁷⁵.

ومن جملة من ذكروا سُعير بن الخُمس، فقد ذكر الحافظ الذهبي في الميزان أنه ما ولد له ابنة مالك إلا بعد ما قدّموه ليدفنوه فتحرك فرُدَّ إلى منزله وعاش أعواما، وحدّث بأحاديث قليلة³⁷⁶.

³⁷⁴ - الطبقات الكبرى لابن سعد 196/6 ترجمة رقم 2045.

³⁷⁵ - الخبر في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم 457-456/3 ترجمة رقم 2062، وانظر كتاب "من عاش بعد الموت" لابن أبي الدنيا ت 281هـ، النص رقم 11، تحقيق محمد حسان بيضون، مؤسسة الكتب العلمية بيروت، الأولى 1413هـ.

³⁷⁶ - ميزان الاعتدال في نقد الرجال للحافظ الذهبي 239/3 ترجمة رقم 3311.

فصل في النقلانية وموت الموت



1- موت الموت

نحن أمام أطروحتين في موضوع (موت الموت)، أطروحة عقلانية تقضي بالقضاء على الموت ب " العلم"، أي: موت الموت بالعلم، وأخرى نقلانية تقضي بالقضاء على الموت بالاعتقاد الديني، أي: أن الذي خلق الموت يُميته، وبين الأطروحتين تباين كبير، نبدأ بالأولى ونثني بالثانية.

أ- عقلانية (موت الموت):

377 يجسدها الكتاب الذي أصدره الطبيب والمفكر الفرنسي ألكسندر لوران بعنوان (LA MORT DE LA MORT: comment la tèchnomédecine va bolverser l'humanité).³⁷⁸

مضمون الكتاب أن من الثورات التي تميّز بها القرن الواحد والعشرون ثورة البيوتكنولوجية التي تهتم بالمجال البيولوجي للعلاجات الجينية والخلايا الجذعية والتهجين بين الإنسان والآلة، وهي محاولات من العلم الحديث تحاول أن تمنح الإنسان حياة أطول من المتوقع، بل محاولة القضاء على الموت في المستقبل، لقد آمن المؤلف بفكرة القضاء على الموت مُستشرفاً أن الأجيال المستقبلية ستنعم بهذا الإنجاز بخلاف من سبق، وافترض " فجوة جينية" قدرها بسنة 2030 ستقلب فيها التقنية الطبية مع علوم أخرى حياة البشرية، وهو

³⁷⁷ - الدكتور ALEXDRE Laurent، طبيب ومفكر فرنسي، متخصص في البيولوجيا، ولد عام 1960م،

يعيش حالياً في مدينة بروكسيل بلجيكا .

³⁷⁸ ، عدد صفحاته 425، صدر في أبريل من سنة 2011م. lattes - صدر الكتاب في فرنسا عن دار النشر

نفس التقدير الذي ذهب إليه غيره، في طليعة هذه العلوم: النانوتكنولوجي، البيولوجيا، المعلومات، علوم الإدراك، هذه العلوم ستدفع الآلة إلى أن تُصبح قادرة على التَّحكم في ذاتها، وبإمكانها آنذاك أن تُخلص البشرية من هموم الموت، يقول: (غدا، لن يكون الموت هو النتيجة الطبيعية للحياة بل سيُصبح مرضاً كبقية الأمراض)³⁷⁹.

يقدم الكتاب مفهوماً جديداً عن الموت، (مستثمراً في ذلك التطورات التي حصلت في ميدان الطب والبيولوجيا. فبدل أن ينظر إلى الموت على أنه لعنة، ينبغي اعتباره حدثاً طبيعياً بيولوجياً، من أجل تحسين نسل الأجيال القادمة، وإعادة نحت وتشكيل الكائن الحي، أو هو نتيجة لإعادة التكاثر، وأداة تستعمل في سياق تطور الطبيعة.

هناك وظيفة إيجابية يلعبها الموت بالنسبة إلى الكائن الحي، فالخلايا الميتة يقول الكاتب، هي التي تضمن ولادة الخلايا الجديدة، وكأن الموت هو مثل ذلك النحات الذي ينحت قطعة الرخام، من أجل إخراج التمثال. فالموت بصيغة أخرى هو: "الثلث الذي ندفعه من أجل التكاثر، أو من أجل الانتخاب الطبيعي".

وإذن، فالموت من منظور الطبيعة يلعب دوراً إيجابياً. إنه الأداة التي تضمن الطبيعة من خلالها استمرارية الحياة. ولكن إذا كان المنظور الطبيعي التقليدي، قد اعتبر أن الموت شيئاً مبتوتاً بشكل قدرتي داخل خلايانا، فإن المنظور المعاصر يرى عكس ذلك. مثلاً كما يذكر الكاتب هناك بعض الخلايا التي لا تموت مثل الخلايا السرطانية. كما أن هناك خلايا أخرى في جسم الإنسان، مثل تلك التي

³⁷⁹ - ينظر مقال بعنوان (موت الموت: طوباوية جديدة أم ديستوبيا غير مسبوقه)، مقال إلكتروني على الموقع:

تمنح الحيوانات المنوية والبويضات، تظلّ قابلة للتكاثر إلى ما لانهاية. هذا بالإضافة إلى البكتيريات التي يمكنها بدورها التكاثر من دون الموت.

بالمجمل يؤكد الكاتب أن الموت، لن يظلّ قدراً محتوماً إذا تمكّنا من التحكم في التقنيات الجديدة، وبالتالي سيصبح الموت اختياراً فردياً وليس قانوناً قديماً. بمعنى أن الإنسان هو الذي يختار بمحض إرادته مغادرة هذه الحياة، أو ربما تتدخل بعض الحوادث العرضية، أو جرائم القتل التي قد تحدّ من عمر الإنسان³⁸⁰.

ب- نقلانية (موت الموت):

تحكم النقلانية على الموت بالموت بالقضايا المصيرية التالية:

أ- تنهى معتنقها أن يتمّي الموت، بحكم أنّ متمّي الموت قد يكون مُحسناً فيحبس نفسه بالموت عن الإحسان، وهو غير مقبول لأنه يلحق الأذى بنفسه بحصر عمله، والزيادة في الخير خير، والمسيء لنفسه يسدّ الباب في وجه التّوبة، ومن يدري فلعله يتوب ويقفل راجعاً إلى الله، والتّوبة لا يتحصّل منها إلاّ الخير له ولغيره.

ب- وتنهى معتنقها أن يتمّي الحياة إلاّ إذا كان له فيها خير، وكانت الحياة ستجعله من صنف من وصفناه بـ "الحي الحي" في الحياة الدّنيا ليكون بعدها في صنف "الميتّ الحي" في مرحلة ما بعد الموت، تمّي الموت لا يكون إلاّ إذا كانت راحة من كلّ شر، والتمّي فرقان بين الصّادقين والكاذبين، المستعدّ للموت قبل حلوله

³⁸⁰ - من المقال السابق.

وقد فصلنا في هذا الموضوع بما يكفي في فصل متقدم بعنوان "الموت والعلوم" بعناصره العشرة المحورية.

فيه لا يخاف، ومن لم يستعد وكان عن الموت لاهيا عاش خائفا، لذلك قيل لهم: ﴿فتمنوا الموت إن كنتم صالحين﴾، ولن يتمنوه أبدا بما قدّمت أيديهم³⁸¹.

ج- ليس بموتك تموت الحياة، الحياة ممتدة بعدك إلى أمد، ومن هذا المنظور يجب التفريق بين أمرين: أن تموت الحياة بموتك هو خطأ في التصور وادعاء بالظن، فالموت إذا حلّت فيك لا تعني أنّها حلّت في الكل، عند موتك تكون أنت الميت والكلّ في حياة، أما هنا قضيتان: إحداها مقبولة والأخرى مردولة فلنتأملهما جيدا.

الأولى: هي فيمن يعلم من نفسه الموت فيساهم في حياة الآخرين، مثل المتطوّع بأعضاء جسده في سبيل إنقاذ أرواح تتوقّف حياتهم على أعضائه، هذا إن كان يعلم بهلاكه لا محالة، وتطوّعه بها لا يكون إلا بعد خروج روحه، فهذا وضعه يقاس على من وهب حياته في سبيل الله، يموت ليحيا غيره، له أجر الشهداء وأصحاب التّضحيات الشّريفة والأعمال النّبيلة التي تحافظ على الأرواح وتصون الأنفس من الضّيعاء ﴿ومن أحييها فكأنما أحيى الناس جميعا﴾³⁸².

الثانية: هي فيمن يعلم من نفسه الموت لكنّه يساهم بالفتك بالآخرين، هذا الصنف من المتشائمين الذين عاشوا في الحياة لا يحبّون الخير إلا لأنفسهم، وإذا أصاب الخير غيرهم فهم في ضنك وشقاء، ومن هؤلاء المصابون بالأمراض المعدية القاتلة، مثل ما تعيشه البشرية اليوم في ظلّ وباء الكورونا، هؤلاء إذا خرّقوا الحضر وقصدوا نقل العدوى لغيرهم فقد ساهموا في القتل، سواء حصل الموت أو لم يحصل، لأنّ العمل بالنّية، ومن نيتهم القتل، وهذا الصنف هو بخلاف الأول ﴿من قتل نفسا بغير نفس أو فسادا في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا﴾³⁸³.

³⁸¹ - سورة الجمعة الآية 6.

³⁸² - سورة المائدة الآية 34.

³⁸³ - سورة المائدة الآية 34.

تُعلم النّقلانية الإنسان كيف يحيا الحياة، وكيف يموت إذا حلّ به الموت، وتعلّمه كيف يُعلم الحياة وكيف يُعلم الموت، ومهما تعدّدت علوم النّقل وتنوّعت وتشعبت فرأس أمرها هو كسب الاستعداد للموت، فأيّ علمٍ من علومه لا يجعل من صاحبه من صنف " الحي الحي " ليكون من صنف " الميت الحي " فلا فائدة منه،

هناك قاعدةٌ مقرّرةٌ نقلانيا أنّ كلّ شيءٍ محكوم عليه بالموت، حتى الموت يموت، لأنّه مخلوق (خلق الموت والحياة) وكل مخلوق يموت، الحياة تموت بالموت، والموت يموت بالعدم، والعدم هو حالة ما قبل الوجود، والوجود هو حياة كانت بكلمة (كن) الإلهية، ربّبت معي أنّ العدم هو الأصل الأول للوجود، ثم الوجود، ثم الموت، ثم موت الوجود ثم موت ملك الموت، ثم موت الموت.

تحدّث النّبي صلّى الله عليه وسلم عن موت الموت فقال: "يجاء بالموت يوم القيامة كأنّه كبش أملح فيوقف بين الجنّة والنّار فيقال: يا أهل الجنّة: هل تعرفون هذا؟ قال: فيشربّون وينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت، قال فيؤمر به فيذبح، قال: ثم يقال: يا أهل الجنّة، خلود فلا موت، قال: ويا أهل النّار، خلود فلا موت، قال: ثم قرأ رسول الله صلّى الله عليه وسلم: ﴿وأنكرهم يوم العسرة إنك قُصر الامر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون﴾ سورة مريم 39، وأشار بيده إلى الدّنيا³⁸⁴.

2. ثقافة الموت والبيان النقلاني

في عصرٍ كثيرٍ فيه الموت، أعني استهداف الإنسان وبصفة خاصة إنسان الإسلام بالموت، في كلّ مكان وعلى جميع الأصعدة، وبكل المبررات، في عصر أصبح الموت هواية بالبدن والروح، وموضحة فكرية وثقافية.

³⁸⁴ - حديث أبي سعيد الخدري، أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الجنّة، 2188/4 حديث رقم 2849، وقد تقدّم الاستشهاد به.

في عصر حصد فيه الكوفيد 19 المستجد أرواحا كثيرة. ولم يتوقف حصاده إلى حدّ كتابة هذه السطور محدثا ضررا بليغا بالصحة والاقتصاد والاجتماع والمعرفة والسياسة.

في إطار هذه الموجة تنبري فئات تتسلح بشعار "العقلانية" لتتحدث عن المعرفة الإسلامية بأنها معرفة الموت والظلام، معرفة العدم والتّيه، مبررين ذلك بأنها "ثقافة الأموات"، ثم إنّها - حسب تصورهم- تدعو إلى الموت.

كلّ هذه التّعوت قدحية الدّلالة، فهم يعنون بـ "ثقافة الأموات" أنّ المتكلمين فيها هم الأموات بسبب أنّها تفسح المجال للموتى ليتكلّموا، ويفهم من الثانية ما فهمه كازانوفيا بفهم غير سليم.

يجب التّساؤل بخصوص المعنى الأول: هل العقلانية لا تفسح في المجال للموتى ليتكلّموا، لماذا يتكلّم موتى اليونان والرومان، وموتى القرون البائدة وحتى موتى القرون القريبة من الرّياضيين والميكانيكيين والكوسمولوجيين والفلاسفة والأدباء والشّعراء، هل يستقيم وجود حضارة أو ثقافة لا يتكلّم فيها الأموات؟ إذا كانت هذه الحضارة موجودة فأين هي؟ وإذا استحال وجودها فلم يفسح المجال للموتى بالكلام، أليس التاريخ - وأنا هنا أتكلّم عن تاريخ أيّ فن ومجال - مقبرة يتكلّم فيها الأموات وأنّ إنتاجاتهم من الكلام تربو ربّما على إنتاجات الأحياء، أليست هذه هي خاصية كلّ حضارة؟، وهوية كلّ ثقافة مع تباين واختلاف؟.

إذا كان كلّ علم لا يستطيع التخلّص من ماضيه، وأنّ أمواته يتحكّمون فيه، ويمارسون سلطة عليه فلم نجوّز هذا لثقافة ولا نجوّزه لأخرى، لماذا هو ضروري وحتى وجائز في العقلانية وحرام وتسلّط ودمار في النّقلاية؟

وبخصوص قولهم في المعنى الثاني أنّ النّقلاية تسعى إلى إزالة كلّ ما يعاكسها وتقضي بالموت على كلّ ما يخالفها نراه حيفا في حق ثقافة التّقل، وتحامل عليها، النّقلاية لا تقضي على معاكسها، وقد أثبت التّاريخ أنّ معاكسها

عاش فيها، واحتضنت المخالف من دون ضجر وذلك تحت رايات حضارات نقلاية متعاقبة عبر الزمن، حضارات نشرت هذه الثقافة، وحمتها، وساهمت في تنميتها بكلّ الوسائل والإمكانيات، وأثبت التاريخ عكس ما يحكم به اليوم على ثقافة النّقل، لماذا؟ لأن الصّراع ليس من طبيعة النّقلانية، مقولة " الصّراع والصّرع " ليست من خصوصية النّقلانية ولا هي من مرجعياتها، فهي مقولات مدسوسة في حقل هذه الثقافة، وأن الأوان أن تعلن براءتها من هذا الوصف المخزي الذي نُعتت به قسرا، الصّراع يعني الإبادة والقضاء على الآخر ﴿فتري القوم فيها صرعو كأنهم أعجاز نخل خلوية﴾³⁸⁵، شعار النّقلانية ودعامتها هو التّدافع لا التّصارع، وقد بيّنت ذلك في عمل منشور منذ ما يقرب من عشرين سنة، والتّدافع الذي تكلمت عليه هو الذي جعل النّقلانية تحافظ على الإنسان والبنيان والعمران، وترعى اللّغة والتقاليد والأعراف، وتتصدّى للغلو، وتعتبره من البدع المنكرة بل غلّظت في ذلك أيما تغليظ، إنّها دعامة النّقلانية وأحد خصوصياتها التي استثمرتها في بناء الدّات وتنمية القدرات، البناء من الفراغ لا أصل له، والنّقلانيون لا يؤمنون به، والتّشديد والتّكوين من العدم من خلق الإله، أما ما يخالفها ويقف في طريقها ولربّما يحاربها فبفعل " التّدافع الناعم"، التّدافع الذي يغيّر موقع الخصم من موقع الطّلاح إلى موقع الصّلاح، من موقع الفساد إلى موقع النّفع، بل ذهب الآية - وهي من القواعد العامّة الكلّية الموجهة - إلى أبعد من ذلك، إنّ التّحول من العدو إلى الوليّ الحميم ﴿المفع بللتري هي أحسر، فإلما الخري بيننا وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾³⁸⁶.

أما نعتها ب " ثقافة الموت" فهو حقّ أريد به باطل، حقّ لأنّها تذكّر الإنسان ب " الموت"، ولا تدعوه إلى الموت، الكلام عن الموت وتشريحه وتشخيصه والتّذكير به شيء، والدعوة إليه شيء آخر، ويكفي القول بأنّ الأحكام الشرعية النّاطمة

³⁸⁵ - سورة الحاقة الآية 7.

³⁸⁶ - سورة فصلت الآية 34.

للنقلانية تحريم قتل النفس، أو حتى تمنيه فكيف بالدعوة إليه، لقد نظر كازانوف - وهو مستشرق توفي سنة 1926م - بعين عوراء إلى الموضوع حين ظن بأن محمداً لم يجمع القرآن في عهده لأنه كان يتوقع قرب نهاية العالم، ومقولة "نهاية العالم" التي استوحاها من النص الشرعي وراءها تفسيراً لقضايا كثيرة كان من نتائجها عنده ما تقدم، وقد أصل ذلك في كتابه "محمد وانتهاء العالم في عقيدة الإسلام الأصلية" والكتاب نشره في باريس عام 1910م، لم يتوقف الحكم عند كازانوف وحده بل تعداه إلى مستشرقين كثير، وامتد إلى الثقافة العربية التابعة التي تقرر مثل هذه التعوت بكبرياء وغرور.

إن الحكم على النقلانية بأنها ثقافة الموت حكم مجاني للصواب، جعلوه في هدفها وقصدها وهو في الحقيقة في سوء فهمها ومعرفتها، فبالقدر الذي تتكلم فيه عن الموت تتكلم عن الحياة، تتكلم عن الموت ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْتَةٍ﴾، وتتكلم عن الحياة ﴿لِيَحْيِيَ مَنْ حَيِيَ عَن بَيْتَةٍ﴾³⁸⁷ وفي عقيدة النقلانية أن "الحياة" مخلوقة، وأن "الموت" مخلوق كذلك، والغرض من خلقهما هو لأجل ابتلاء الإنسان بهما ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾³⁸⁸، وتقرر معرفياً أن أول موت هو "العدم"، وحين خرج الإنسان من العدم إلى الوجود كان هذا الوجود "حياة"، وهي الحياة الأولى للإنسان، الحياة التي يحيها مع سائر الكائنات، وهذا يدل على أن الحياة الأولى خرجت من الموت الأولى "العدم"، ثم إنّه سيموت بعد ذلك ليحيا حياة أخرى، تبشر هذه الثقافة معتنقيها والمؤمنين بها بأن تلك الحياة - وهي الحياة الثانية - هي الحياة الحقيقية الموصوفة بـ "الحيوان"، لكن ما العلاقة بين الإنسان والحيوان؟

العلاقة من الناحية اللغوية اشتقاقية، كلاهما على وزن فعلان، الحيوان على وزن فعلان وكذلك الإنسان، والألف والنون في الحيوان للمبالغة في الحياة،

³⁸⁷ - سورة الأنفال الآية 43.

³⁸⁸ - سورة الملك الآية 2.

وسميت الدواب به وسائر الحيوانات لأنها ممتلئة حياة، وكذلك في الإنسان الألف والنون صيغة مبالغة لامتلأه بالإنسية، ووجه الفرق بينهما أنّ الحيوان كائن متحرك غيرناطق وغير عاقل، وقد يقول قائل إنه ناطق بِنطقه وعاقل بعقله، نقول: إنه غير ناطق مثل نطق الإنسان، وغير عاقل مثل عقل الإنسان، لذلك أنيط التّكليف بالثاني ورُفِع عن الأول، ولم يكن وجوده عبثا في الحياة بل وجوده وجود تسخير، سَخَّرَهُ اللهُ لِلإِنسَانِ ﴿وَالنَّيْلُ وَالْبَغَالُ وَالْحَمِيرُ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾³⁸⁹، ﴿وَكُلًّا مَسْرُورًا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾³⁹⁰، ووجه آخر هو أنّ الإنسان وإن شارك الحيوان في الحياة فإنّ هذه الحياة وُصفت بـ "الدّنيا"، ولم توصف الحياة بـ "الحيوان" إلا في الآخرة، ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾³⁹¹، ومن هنا فالإنسان لا يكون حيوانا إلا في الآخرة، وقد نعتت بذلك لأنّ الإنسان لا يموت فيها، ويحيا فيها على الدوام، وأما قولنا في العادة "إنسان" و"حيوان" فهو للتّمييز ليس إلا، تمييز الكائن المكلف والمستخلف، صاحب الأمانة ومسئولية عمارة الأرض، أمّا وصف الإنسان بالحيوان في بعض الاطلاقات العُرفية فهي تنصرف إلى القدح حين يخرج الإنسان عن إنسانيته ليصبح مثل الحيوان في سلوكه وتصرفاته كما سيأتي بيانه.

والحيوان اسم يقع على كلّ حيّ ذي روح، فهو جنس الحي، وأصله في اللّغة "حييان"، فقلبت الياء التي هي لام وواو استكراها لتوّلّي اليائين لتختلف الحركات، ومنهم من يرى أنّ الواو أصلية فيها، وهي على جميع الوجوه لا تفيد القدح أصلا، لكن يجوز تشبيه بعض الإنسان ببعض أنواع الحيوانات ﴿فمثلته كمثل الكلب إن عمل عليه يلهث أو تركه يلهث﴾³⁹²، ﴿كمثل العمار يعمل أسفارا﴾³⁹³، وهي

³⁸⁹ - سورة النحل الآية 8.

³⁹⁰ - سورة الحج الآية 34.

³⁹¹ - سورة العنكبوت الآية 64.

³⁹² - سورة الشمس الآية 8.

³⁹³ - سورة الجمعة الآية 5.

كلها تشبيهه في حق الإنسان الذي يلغي عقله، ويقفل قلبه، ويعطل حواسه في التدبر والتفكر، فينسى المسؤولية والأمانة وما لأجله وجد، ويطلق العنان لشهوته الجامحة.

تضع النقلانية أمامك دارين: إحداهما "أولى"، والثانية "أخرى"، حياة تكون هنا، وحياة تكون هناك، لا فصل بين الحياتين، ولا فرق بين الموتين، الحياة الأولى سبب للثانية، لن تتحقق لك الثانية إلا بحسن استغلالك للأولى في حدود الامتثال، وتقدم النقلانية برهاناً على أنك في كل يوم تموت وتحيا، تموت في النوم، وتحيا في اليقظة، وهما يشكّان شيئاً واحداً، هذا الشيء هو الحياة الأولى، إنك في كل يوم تأخذ درسا في موضوع "الموت والحياة" بطريقة تطبيقية وعملية.

إن إطلاق ثقافة الموت على النقلانية نعت لا يتطابق مع حقيقة هذه الثقافة، والسبب الوجيه هو أن هذه الثقافة هي الثقافة الوحيدة التي تحكم على الموت بالموت، كما لا توجد ثقافة تعطي لمعتنقها حياة أطول وعمراً أكبر من هذه الثقافة، وعليه يمكن تصنيف الإنسان من هذا المنظور إلى أربعة أصناف جامعة: ميّت حيّ، وحيّ ميّت، وحيّ حيّ، وميّت ميّت، وسنفضّل في هذه الأصناف.

-الميّت الحيّ: من لحقه الموت في جسده، وطوى بدنه، لكن عمله في العلم والعمل بقي لمن بعده، يذكر به عبر السنين، هذا الذي نُطلق عليه "الميّت الحيّ"، وهو على أنواع ذكرها الحديث المرفوع: (إذا مات ابن آدم انقطع عنه عمله من الدنيا إلا من ثلاث: ولد صالح أو صدقة جارية أو علم ينتفع به)³⁹⁴، وتؤكد الآية الكريمة التالية: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتٌ بَلْ أحياءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾³⁹⁵، لقد مات الأنبياء وبقيت دعواتهم، مات العلماء وبقوا علمهم، مات الشهداء وبقوا أثرهم.

³⁹⁴ - سيأتي تخريجه.

³⁹⁵ - سورة البقرة الآية 153.

لم يزل الموت وجود بعض النَّاسِ، هم حاضرون في وجداننا وأحلامنا وذكرياتنا، حضور ساهموا فيه لما كانوا أحياء في وقت زال آخرون من ذاكرتنا، لا نملك نحن الأحياء افتعال تذكّر ميّت أو نسيانه، إنّ الحاضر هو الذي ساهم في حضوره، وإن المنسي هو الذي ساهم في نسياننا إياه، ويجب التذكير بأننا نحفظ للموتى بذكرياتهم في تصوّرنا لكننا لا نسلمهم مقود قيادة الحياة ﴿لئلاّ أمة قد خلت﴾³⁹⁶.

-الحيّ الميّت: هو الجسد الحيّ، المتحرّك، لكنّه ميّت في علمه وعمله، لا يقدر صالحاً، يعيش للبدن فقط، يقتات كما تقتات الهائم، مع خلاف هو أنّ الهائم تقتات وليس عليها تكليف، وهي تتماشى في وجودها وسعها مع فطرتها المجبولة عليها، ﴿إن هم إلاّ كالانعلم بل هم أضل سبيلاً﴾³⁹⁷، هؤلاء هم الذين يقولون ﴿ما هي إلاّ حيئاتنا الدنيا نموت ونمينا وما يهلكنا إلاّ الكهف﴾³⁹⁸، وعلى خلاف هؤلاء يأتي الصّنف الثالث، وهو الصّنف الذي تركّب فيه الحياة مرتين.

-الحيّ الحيّ: هو الذي يحيا حياته بالعمل المطلوب فعله، والعمل عملاً: عمل وفق الامتثال، وعمل لا يراعي الأوامر ولا يجتنب النّواهي، الأوّل عمل صالح، والثاني طالح، والكلّ مراقب، ﴿فمن يعمل مثقال غرّة خيراً يره، ومن يعمل مثقال غرّة شراً يره﴾³⁹⁹، العمل كله على نوعين: في الصّالح ما هو جارٍ وما هو ظرفي- أي: ليس من الأعمال التي يجري ثوابها على الإنسان بعد موته، وفي الطّالح ما هو جارٍ وما هو ظرفي كذلك، (من سنّ في الإسلام سنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنّ في الإسلام سنّة سيّئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم

³⁹⁶ - سورة البقرة الآية 133.

³⁹⁷ - سورة الفرقان الآية 44.

³⁹⁸ - سورة الجاثية الآية 23.

³⁹⁹ - سورة الزلزلة الآية 8-9.

شيء)⁴⁰⁰ ، وعلى هذا البيان والتوجيه يبقى الإنسان حيًا إلى الأبد إن حيي في هذه الحياة، ويموت إلى الأبد إن هو مات في هذه الحياة. والصنف المقصود من خطاب النقل هو الإنسان الحي، وهو الإنسان الذي لم يلحقه الموت بعد، إن كان على الانحراف عليه بالرجوع، وباب التوبة مفتوح ما لم يغرغر، عليه ب " التوبة" ليظفر بالسعادة، وليكون حيًا، والحياة هنا على معنيين: حيّ مذكور في الدنيا بعمله، زرعه يوم كان في " الحياة الدنيا "، يذكره الأحياء فيها فيترحمون عليه ويدعون له بالمغفرة، وحيّ غير مذكور في الدنيا، لا يستحضره ولا يذكره أحد، لكنّه حيّ هناك بشهادة في سبيل الله أو بعمل لا يعرفه إلا الله.

تتوجه النقلانية بالخطاب إلى " الحي " لا إلى الميت، يوجهه الوحي فيأمره وينهاه، ويوعده ويتوعده ليرشده إلى الطريق المستقيم، الطريق المعبر عنه ب " الصراط "، فالعمر ما هو إلا ساعات محدودات في أيام معدودات وأشهر محسوبات وستين ممدودات، المطلوب من هذا الصنف أن يكون (في الدنيا كالغريب أو عابري سبيل)⁴⁰¹ ، لكن ليس بالمعنى السلبي الذي يعني التواكل والانعزال، لأنه إن فعل كان من صنف " الحيّ الميت "، بل عليه أن يستجيب للتوجيهات المستوحاة من كلام الوحي، ومنها قول عبد الله بن عمر: (إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك)⁴⁰² ، وقوله: (اغتنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك،

⁴⁰⁰ - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمر أو كلمة طيبة، 705/2 رقم الحديث 1017.

⁴⁰¹ - أخرجه البخاري في جامعه الصحيح، كتاب الرقاق، باب كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، أنظر فتح الباري 233/11 رقم الحديث 6416.

⁴⁰² - المصدر السابق

وصحَّتكَ قبل سقمك، وفراغك قبل شغلِكَ، وغناك قبل فقرك، وحياتك قبل موتك⁴⁰³، وهذا الصَّنْف هو أكيَس النَّاسِ،

-المَيِّت المَيِّت: هو من طواه الموت بمرة، لا يُذكر في الدُّنيا بشيء أبداً، هذا الصَّنْف ساهم في موت نفسه بنفسه، فهو يعلم بأنَّ الموت حالٌّ فيه لا محالة لكنَّه لم يتزوَّد لمرحلة ما بعد الموت بعمل من جنس الأعمال المطلوب فعلها، وهو على نوعين: نوع لا يُذكر بمرة كأنَّه ما كان على هذه الأرض، ونوع إذا ذُكر ذُكر بالسَّوء لكونه سنَّ سنَّة سيئة، و(من سنَّ سنَّة سيئة فعله وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة)، وإذا كان النوع الأول لم يترك ما به يُذكر من العمل الصَّالح فإنَّ النَّوع الثَّاني يذكر بالذَّم، وقد حفظ القرآن بعضاً من هذا النوع بالاسم الخاص مثل فرعون وأبي لهب وأحيمر ثمود وأبرهة صاحب الفيل، فأبو لهب وامرأته اعتديا على نبي الله، وفرعون اعتدى على وحدانية الله، وأحيمر ثمود عقر ناقة الله، وأبرهة الحبشي اعتدى على بيت الله وغير ذلك، أو بالوصف العام من مثل الكذَّابين والمستهزئين والمنافقين والكافرين إلخ، وتبعَتْ ثقافةُ النَّقل القرآن الكريم في ذلك فحفظت في سجلاتها أسماء أصحاب البدع والضلالات والمتنبئين والوضَّاعين الكذَّابين في الحديث، وكلَّ من صنَّف في النظريات المنحرفة التي تسيء إلى الله ورسوله، هؤلاء طلبوا الشهرة والصَّيت فتحقَّق لهم ذلك، الموت في الحياة أخطر من الموت الحقيقي، لأنَّ موت الإنسان في حياته هو بيده وموته الحقيقي بيد ربه، وربه يريد له الحياة الحقيقية هنا وهناك، وقد اتَّضح بالاستقراء أنَّ النقلانية خلَّدت ذكر من أساء إليها، وكذلك من أحسن إليها، فلينعَّم المحسنون بصيت محمود أبد الدَّهر، وليشقى المسيئون من أصحاب الحضور والظهور بصيت مذموم أبد الدَّهر، و(كلُّ يعمل على شاكلته).

⁴⁰³ - أخرج الحاكم في المستدرک 341/4 رقم الحديث 7846 وقال: (هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه).

3. جدلية الموت والحياة

هل الحياة هي الموت في غياب الموت أم العكس؟ وأيهما أصل للآخر؟ أم هما يسيران جنباً إلى جنب؟.

ستجد الجواب مبثوثاً في مواطن متفرقة من فقرات هذا الكتاب، لكن دعونا نقول بأنّ الجواب الكامل متعذّر بسبب أنّ كلّ واحد بحد ذاته أصل لصلتهما بالخلق، أصل الموت الخلق وكذلك الحياة، كلاهما مخلوق.

يُقرأ الموت في الكون كلّهُ، وتراه رأي العين، تراه في الأشجار الميتة، والأزهار الذابلة، وفي تساقط أوراق الخريف الجافة، وفي الحيوانات النافقة، والحشرات الميتة، في الكائنات صغيرها وكبيرها، وتحدثنا الكوسمولوجيا عن موت النجوم والكواكب والأفلاك والأجرام السماوية العملاقة، واندثارها، ثم منها تنشأ الحياة مرّة أخرى، إنّها دورة من دورات القدر، ولذلك فبادراكنا للمغزى الحقيقي للموت ندرك معه المغزى الحقيقي للحياة، أي من خلال تمثلك للمفهوم الأول تتحدّد في ذهنك تلقائياً حقيقة المفهوم الثاني، فإذا كان الموت على هذا الحال فهو لا يعني العدم، لأنّ الحياة تستمر بعده، وتستمر بعد موت الموت، إنّها جدلية الموت والحياة ﴿يُفْرَجُ النُّعْمَ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُفْرَجُ الْمَيِّتَ مِنَ النُّعْمِ، وَيُعْبَرُ الْإَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾

404

الحياة جميلة من دون شك، وهي حلوة خضرة، الكلّ يحبّ الحياة لكن مع ذلك فإنّ الحياة تهب الإنسان للموت، والدليل من وجهين، وجه نقلاني ووجه عقلائي.

الوجه النقلاني يؤكد أنّ الظفر بالحياة الحقيقية بعد الموت لا يكون إلّا بالزهد في الحياة، ومن هنا جاء مصطلح "الزهد"، أي الزهد في الدنيا، (حُجبت

النَّارِ بِالشَّهَوَاتِ وَحُجِبَتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ)⁴⁰⁵، أما الوجه العقلائي فمن جهة أنّ الحياة كلّما امتدّت كلما دفعت نحو الأجل، فكل سنة يخطوها الإنسان في الحياة إنّما يخطوها نحو الموت، وحتى طول العمر ليس مزية في ذاته بالنسبة للمعمّرين، والطاعنون في السن هم أكثر النَّاسِ مللا من الحياة، وأغلبهم يتمنّى الرحيل.

4. الموت ووسطية التّفكير

حين تدعو النّقلائية معتنقها بالتّفكير في الموت فهذا لا يعني نسيان الحياة، إنما يعني التوسّط في التّفكير، والاعتدال بين الهمّين، ثم إنّ التّنبية موجّه للذين غلبوا جانب الحياة الدّنيا، ومنهم من ألغى فكرة الموت من خياله، يعيش للدّنيا، هؤلاء هم المقصودون باتّخاذ موقف معتدل لإنقاذ أنفسهم، ولا يُفهم من التّنبية من مال ميلة عظيمة فعذبّ نفسه بكثرة التّفكير في الموت، فيجهدّها في الألم والحرمان من متاع الحياة التي خلقها الله ومنحها لعباده، لقد ظهر في تاريخنا أناس أجهدوا أنفسهم في كثرة ذكر هادم اللذات، وهيمنت عليهم فكرة الخطايا والمصائب والسّيئات، فاعتزلوا النّساء، وانفصلوا عن المجتمع، وعاشوا عيشة الحزن والكآبة، حرموا أنفسهم من النّظافة، لا تظهر عليهم نِعْمُ الله، والله يحبّ أن يرى نعمته على عبده وإلّا لما كان لوجودها معنى، وليس معنى ذلك أنّهم يتطلّعون إلى حياة أفضل من هذه وأجود، وهروبا من بطش الظّالمين واضطهاد المضطّهدين، هذا تبرير ترفضه النّقلائية، لأنّ الحياة الأخرى المطلوبة تبدأ من هذه الحياة، من لم يعيش هذه الحياة على الطّريقة المطلوبة شرعا لن ينال الحياة الأخرى المرغوبة شرعا.

اعلم بأنّك جنّت إلى هذه الدّنيا بغير إرادتك، وعشت فيها بغير إرادتك، وستنتقل منها بغير إرادتك، ولذلك تحتمّ عليك قبول ما هو مفترض وحتمي، وهو

⁴⁰⁵ - حديث أبي هريرة، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرّقاق، باب حجبت النَّار بالشَّهَوَاتِ، أنظر الفتح 320/11 رقم الحديث 6487.

نهاية الحياة، والعلمُ بإيمانٍ أنّك لا تدري ماذا تكسب غدا، ولا بأيّ أرض تموت، ولا في أيّ زمان بالضبط ستقع وفاتك، أنت خاضع لقانون إلهي محكم، أنبئت به في نصوص منقولة محفوظة ناطقة ودالة.

5- مدارات السكون والحركة بين الموت والحياة

الحياة حركة والموت سكون، الحياة عمل وكدّ وسعي، والموت توقّف واستسلام للمصير، الحياة تتطلّع إلى الأمل والموت هو توقّف الأمل، لا يجعلك الموت في الماضي الذي مررت منه، ولا في المستقبل الذي تتطلّع إليه، إنّه يضعك حيث وقفت، لذلك يؤرخ لك في شهادة الوفاة باليوم والشهر والسنة، كما أنّ الموت لا يجعلك تبرح المكان الذي حللت به وأدركك فيه، هذا من حيث المبدأ ومن حيث المعقول العقلي، أمّا من حيث المعقول النقلي فالموت ينقلك إلى عالم آخر ومكان آخر.

(قبل ساعتين كان يجلس في هذا المكان نفسه، لم يكن يعرف أنّ النهاية ستكون بمثل هذه السرعة، لقد أعلمه الطبيب أنّ ما من أمل، ولكن قدر أنّ ذلك يدوم أياما، وكمثل لمح البصر همدت كلُّ حركة) ..⁴⁰⁶

أوحى إليّ هذا النص بأشياء من حياتي، من ذكرياتي مع أناس رحلوا، في حي السباعية بتوادد الحمراء المحروسة بعناية الله وحيث كنتُ أسكن، كان جاري المتقاعد من التعليم يجلس كلّ صباح على كرسي أثبته أمام بيته، كنتُ أوّل من يصادفه عند خروجه من البيت، وكنتُ أسلم عليه وأحيّيه، كان يصافحني ويسألني عن العمل والأولاد والصحة والعافية، تلك هي أسئلته الرّاتبة التي ألقها منه منذ أن عرفتّه، واستمرّ الحال سنين عدّة، حتّى جاء يوم من أيام القدر، وبينما أنا قادم من العمل وجدتُ حشودا من النّاس أمام باب بيته، لقد مات المسكين بعد أن أوصى بدفنه في مقبرة بلده الكائنة بإحدى قبائل دكّالة في اتجاه

⁴⁰⁶ - إشكالية الموت في أدب جورج سالم وغابرييل مارسيل وأليبرت كامو للدكتور غسان السّيد ص 49.

مدينة الجديدة، واستمرّ الحال لكن حاله لم يستمر، لم أعد أرى الرّجل على الكرسي في نفس المكان، بل حتّى الكرسي اختفى، وكنت أحسّ بأنّ شيئاً قد أثر على مجريات حياتي، لقد مرّت في حياتي من مثل هذه الحوادث وقائع كثيرة، ولربّما أحتفظ بذكريات عن رفقاء وأصدقاء وأهل وأحباب وأساتذة وشيوخ كلّها بمثل هذه الحالة أو أكثر، كما أعلم أنّ غيبي يحتفظ بمثل هذا، والحالات تختلف، منهم من يجعل من مثل هذه الوقائع درسا للمواعظ، ومنهم من يتلذذ بها في ذاكرته ليداعب بها مخيّلته أحلامه، فلا يحدثُ بها سوى نفسه، ومنهم من يطردها من خياله لأنّها تُفسد عليه طعم الحياة، وهؤلاء كمن لا يصفح من عرف البارحة ويجتهد في مصافحة الأصدقاء الجدد، وهو لا ينسى أنّه بهذا الأسلوب سيفقد الجميع، هكذا حال الذّكريات، إنّها دروس ومواعظ للذّات قبل النّاس، ما يقع لموت النّاس من اختفاء قد لا يهّمك، لأنّ الموت أخذهم ولم يأخذك، لكن من موقع الإحساس تدرك أنّ أشياء معيّنة، وأنماطا معيّنة من حياتك تغيّرت، هم أحسّوا بالموت حين حلّ فيهم، لكننا تقاسمنا معهم الألم بفراقهم.

6- موت الرّوح

قد يظن من يطالع هذا العنوان أنّ قصدي بـ "الرّوح" الرّوح المعنوية حين نقول مثلا "الرّوح الوطنية" أو "الرّوح القومية" أو "الرّوح الرياضية" إلى غير ذلك من النّعوت التي تدلّ على المعنى المعنوي للرّوح، كما قد يظن البعض بأنّي أعني بها الرّوح التي تتحدّ بالبدن فتهب الحياة للجسد، فالجسد بالرّوح يحيا، وحين تخرج الرّوح يموت، كلّاً، لا أعني هذا أيضا، المعنى الذي أقصده هنا هو المعنى الحقيقي للرّوح، وهو المعنى المستفاد من قوله تعالى "ويسألونك عن الرّوح، قل الرّوح من امر ربّي"⁴⁰⁷، أتكلّم هنا عن هذه الرّوح، وأستفهم بالقول: هل هذه الرّوح تموت؟

⁴⁰⁷ - سورة الإسراء الآية 85.

أقول نعم، الرّوح تموت، والدليل على ذلك قاعدتان: الأولى أنّ الفناء يجري على كلّ شيء باستثناء وجه الله الخالق، وهذه القاعدة بُنيت على قوله تعالى: ﴿كَلَّ مِنْ عَلَيْهَا فَن وَيَقْرِي وَجْه رَّبِّهَا نُو الْجَلَال وَالْإِكْرَام﴾⁴⁰⁸، ف" كلّ " استغراق للعموم إلا ما استثني، والرّوح داخلة في هذا العموم من باب أولى، لأنّها من أمرالله، وكلّ ما خلقه الله تعالى هو من أمرالله، فهي تتحدّد مع الخلق في هذه الخاصية، ولذلك يجري عليها الفناء كما يجري على غيرها، ونعني بالفناء هنا " الموت".

الموت الذي نتكلّم عنه هنا بخصوص الرّوح لا يعني انعقادها من الجسد ومباينتها له، فهذا ليس موتاً للرّوح إنّما هو موت للجسد، فتفسير الموت المعروف هو خروج الرّوح من الجسد، وفي هذه الحالة لا يلحق الموت الرّوح بل الجسد الذي كانت فيه الرّوح، ودليل قوّتها في الموت هو أنّ رجوعها للجسد ثانية يهب الحياة له، فيقوم حيّاً، فالله يحيي الموتى بهذا السبب، لكن موت الرّوح له جانب آخر تفسّره القاعدة الثانية وهي أنّ الرّوح قبل النشأة الأولى هو موتها، أي قبل خلق آدم فلما نفخ فيه قام بشرا سويا، هذه الرّوح قبل النّفخ بها كانت ميّتة، وهو المستفاد من قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾⁴⁰⁹، وقوله (ربّنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين)⁴¹⁰، فقوله تعالى (وكنتم أمواتا) هو خطاب للروح لا للجسد، لأنّ جسد آدم لم يتكوّن بعد حتّى يحيا ثم يموت ثم يحيا ليرجع إلى الله الخالق، وكذلك الموتة الأولى.

إذا تأملنا قوله تعالى عن الرّوح ﴿قُلِ الرّوح من أمر ربّي﴾ أدركنا المعنى المراد، فسواء قلنا إنّ الرّوح تموت أو إنّ الرّوح تهب الحياة فالكلّ من أمر الله: الحياة بأمرالله، والموت بأمرالله، والرّوح من أمرالله، فما الذي يتغير هنا؟ لا شيء يتغير

⁴⁰⁸ - سورة الرّحمن الآية 26-27.

⁴⁰⁹ - سورة البقرة الآية 27.

⁴¹⁰ - سورة غافر الآية 11.

مادام الكلّ بأمر الله. قلنا بأنّ الرّوح تهب الحياة لكنّها ليست فاعلا بحدّ ذاتها بل ب "أمرالله"، يقول الحافظ ابن حجر في تفسير قوله تعالى " من أمر ربّي ": (كون الرّوح من عالم الأمرالذي هو عالم الملكوت، لا عالم الخلق الذي هو عالم الغيب والشّهادة، "... ونقل ابن منده في " كتاب الرّوح"⁴¹¹ له عن محمد بن نصر المروزي الإمام المطّلع على اختلاف الأحكام من عهد الصّحابة إلى عهد فقهاء الأمصار أنّه نقل الإجماع على أنّ الرّوح مخلوقة، وإنما ينقل القول بقدمها عن بعض غلاة الرافضة والمتصوفة، واختلف هل تفتى عند فناء العالم قبل البعث أو تستمر باقية ؟ على قولين، والله أعلم).⁴¹²

وبناءً على ما تقدّم نقرّر ما يلي:

الإنسان يموت، وملك الموت يموت، والموت يموت، والروح تموت، ﴿كل من عليها فان ويبقى وجه ربّه ذو الجلال والإكرام﴾.

⁴¹¹ - محمد بن يحيى بن منده العبيدي، توفّي عام 395هـ، منهم من سعى كتابه " التّفنّس والرّوح"، ذكره

الحافظ الذهبي في العلو للعلّي الغفار، ص533.

⁴¹² - فتح الباري 404/8.

فصل في جدلية الروح والنفس والنفخ والجسد



1- ماهية الروح والنفخ

أ- نفخ الروح في الجسد

تمت عملية النفخ في ثلاث حالات مختلفة، كل حالة لها وضعها الخاص، وجميعها براهين وآيات ومعجزات تخص الإنسان.

الأولى كانت في بداية الخلق، لما خلق الله آدم وسوّى طينته نفخ فيه من روحه، وهو الصريح الواضح الذي حكي في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَوَّيْتَهُ وَنَفَخْتَ فِيهِ مِنْ رُوْحِي فَقَعَوْا لَهُ سَاجِدِينَ﴾⁴¹³، لا خلاف في أنّ خطاب الأمر موجّه من الله تعالى للملائكة، ولا خلاف في أنّ المقصود بالسجود هو آدم عليه السلام، كما أنّ الآية واضحة في ترتيب المراحل التي مرّ منها آدم من مبدأ خلقه إلى نفخ الروح فيه، والذي يهّمنا هنا هو عملية النفخ التي جاءت بعد تسوية الجسد هل كانت من الله سبحانه وتعالى مباشرة أم كانت من الملك الموكل بالنفخ؟، لم يتحدّد لنا شيء من ذلك لكنّ الذي تحدّد هو أنّ النفخ كان من قبل الملك في النفخة الثانية، وهو الذي دلّ عليه حديث عبد الله بن مسعود مرفوعاً أنّ الإنسان حين يصير في عالم الرّحم مُضغَةً يبعث الله إليه ملكاً فيكتب أربع كلمات: عمله وأجله ورقه وشقي أم سعيد ثم ينفخ فيه الروح⁴¹⁴، أما الحالة الثالثة ففي قصة مريم البتول العذراء مع الملك ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوْحِنَا﴾⁴¹⁵. والنفخ كان من

⁴¹³ - سورة ص الآية 71.

⁴¹⁴ - أخرجه البيهقي في جامع الصّحيح، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم وذريته، أنظر الفتح

363/6 رقم الحديث 3332.

⁴¹⁵ - سورة الأنبياء الآية 90.

المملك، وهو الذي تبدى لها بشرا، وحصل الحوار بينه وبينها، وكان الموضوع هو الدفاع عن شرفها، لكن الله تعالى شرفها، فالمحافظة على الشرف ورثت الشرف، ولم يكن النفخ إلا بأمر الله تعالى.

النفخات ثلاث، وهذا التعدد لا يقتضي تعددا في الروح المنفوخة، فالروح واحدة، لأن مصدرها واحد، والمقصود بها واحد هو "الإنسان"، وهي التي تخرج بالموت في وقت الموت، فلا تعدد في الروح إذن.

ب- حقيقة النفخ

لم يُستعمل النفخ الإلهي إلا في حالتين: نفخ الروح في الهيئة، جسد أو هيئة طير، والنفخ في الصور، تكلمنا عن نفخ الروح في الهيئة، وسقنا دلائلها النقلية، وهذا النوع من النفخ يهب الحياة للهيئة، أما النفخ في الصور فله وظيفتان: الأولى يتحصّل بها الصّعق فتميّت الأحياء، والثانية يتحصّل بها البعث فيحيا بها الأموات، وقد ذكرنا في آية واحدة ﴿ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا ما شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينضرون﴾⁴¹⁶. تُسعى النفخة الأولى بالزّاجفة، والثانية بالردّافة، ﴿يوم ترجف الزّاجفة التّراففة﴾⁴¹⁷، ﴿وما ينضرون إلاّ صيحةً واحدةً تلاخذهم وهم يَحْصَمُونَ، فلا يستصيعون توكيبةً ولا إلى أهلهم يرجعون، ونفخ في الصور فإذا هم من الأجماع إلى ربهم ينسلون﴾⁴¹⁸، نفختان مُتعاكستان في الوظيفة، وهما موكولتان إلى المملك بأمر من الله تعالى، ﴿وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق، ويوم يقول كز، فيكون، قوله الحق، وله الملأ، يوم ينفخ في الصور، عالم الغيب والشهامة﴾⁴¹⁹، وكلمة "يوم" المذكورة في هذه الآية هي ظرف زمان على الحقيقة،

⁴¹⁶ - سورة الزمر الآية 68.

⁴¹⁷ - سورة النازعات الآية 6-7.

⁴¹⁸ - سورة يس الآية (48-50).

⁴¹⁹ - سورة الأنعام الآية 73-74.

كل ذلك يكون في يوم واحد، كما أنّ السّاعة التي تعني يوم القيامة تكون في ساعةٍ واحدةٍ.

2- الرّوح والجسد

أ- الرّوح والجسد: أيهما أسبق

الأسبقية هنا ليست الأسبقية في الوجود بل الأسبقية في ذات الإنسان، أيهما أسبق هل ذاته أم روحه؟

تُقدّم النّقلانية جواباً جاهزاً لمن أراد أن يتدبّر ويتذكّر، فالسّابق من الإنسان جسده لأنّ الله تعالى لما خلق آدم خلق جسده من تراب هذه الأرض التي نعيش عليها لا من تراب أرض أخرى، ولذلك فالأنس لا يتحقّق للإنسان إلا مع الأرض، منها خُلق وإليها سيرجع، وتذكر الآيات أنّ الله تعالى حاور الملائكة في خلق آدم كما في قصّة الخلق المبتوثة في سورة البقرة وفي غيرها، لكنّ بعض الآيات تذكر أنّ الله خلق الإنسان من تراب، ومن صلصال كالفخّار، ومن حمأ مسنون، ومن ماء مهين إلخ، فهل في هذه المواد ما يُظهر أنّه مختلف أو أنّ الآيات متعاكسة، الجواب لا، فالإنسان مرّ من أطوار، من مبدأ خلقه إلى نفخ الرّوح فيه، فالصلصال أجود أنواع الطّين، والطّين أجود أنواع الأتربة، فإذا قلنا إنّ الإنسان خُلق من تراب فهذه حقيقة، وإذا قلنا إنّهُ مخلوق من صلصال فهذه حقيقة أيضاً لأنّ الصّللصال من التّراب، وإذا قلنا خُلق من الحمأ المسنون فالحمأ أجود أنواع الصّللصال، ﴿ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون﴾⁴²⁰، وقوله: ﴿وانمّ قال ربّنا للملائكة إني خالق بشرا من صلصال﴾⁴²¹، وهكذا، وما نلاحظه هو أنّ الكلام يجري عن مادّة خلق جسد الإنسان، وحين سوى خلقه نفخ

⁴²⁰ - سورة الحجر الآية 26.

⁴²¹ - سورة الحجر الآية 28.

فيه من روحه فتبدى بشرا سويا، ﴿فإنما سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾⁴²².

تبيّن الآية أنّ نفخ الرّوح في الجسد جاء بعد تسويته، ثم بعد ذلك بدأ يتناسل من ماء مهين، وهو ما تدلّ عليه الآية الكريمة التي لا نجد أبلغ منها في الجمع والبيان والترتيب: ﴿ولقد خلقنا الانسان من سلاية من صبير، ثم جعلناه نطفة في قرار مكبر، ثم خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظاما، فكسونا العظام لحما، ثم أنشأناه خلقا آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين، ثم إنكم بعدة ايام لمبيتون، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون﴾⁴²³.

هذه هي الصّورة الكاملة من الخلق إلى البعث، وقد قلنا بأن الجسد سبق الرّوح في عملية خلق الإنسان، لكنّ الوضع يختلف بالنسبة لبعثه، فيوم الخروج تسبق الرّوح الجسد، فيخرج من الأجداث سراعا، وهو ما يدلّ عليه قوله تعالى ﴿وإنما النفوس زوجت﴾⁴²⁴، يعني جمع الرّوح بالبدن، فالجمع هو التّزواج بينهما فيكون الإنسان نفسا، وهذا التّزواج دنيوي وأخروي، كان في الدّنيا للابتلاء ثم عاد في الآخرة للحساب، فقولهم وهم يتعجبون: ﴿يلوئنا من بعثنا من مرقدنا﴾⁴²⁵، فالذي بعثهم من مرقدهم أحلّ روحهم فيهم، فمعلوم أنّ الجسد تحلّل، والعظام تفكّكت، لكن قدرة الله عزّ وجل اقتضت الجمع، ﴿أييسب الانسان أن لن نجمع عظامه بلو، فالذين علم نسوي بنانه﴾⁴²⁶.

⁴²² - سورة الحجر الآية 29.

⁴²³ - سورة المؤمنون الآيات (12-16).

⁴²⁴ - سورة التّكوير الآية 7.

⁴²⁵ - سورة يس الآية 52.

⁴²⁶ - القيامة الآية 3-4.

ب- روح القرآن وروح الإنسان

في موضوع كموضوع الموت حيث تكون الرّوح مركز الكلام وعين الخطاب يكمن سرّ عجيب، بالرّوح يكون الإنسان كائنًا حيا، وبانعدام الرّوح يكون الإنسان جثة هامدة، ولذلك فللرّوح سرّ عجيب هو أنّها من الله، ومرجعها إلى الله، فمفتاحها بيد خالقها ولم يضع أمرها بيد أحد من العباد، لا بيد ملك مرسل ولا بيد نبي مقرب، فكل من فيه الرّوح فيه أمر من الله، وأمر روجه موكولة إلى الله، ولم توصف هذه الرّوح إلا في ثلاثة: في جبريل، وروح آدم وبنيه، والقرآن الكريم، وهي في كلّ الحالات وعلى جميع الصّفات منسوبة إلى الله عزّ وجل، فجبريل هو "روح القدس"، والقدس هو الله، وهو الموصوف في القرآن ب"الرّوح الأمين"، والرّوح المنفوخة في آدم هي من روح الله، وكذلك القرآن الكريم فهو روح من الله، يقول تعالى: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا، ما كنت تكريما الكتاب ولا الایمان، ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا﴾⁴²⁷، فما علاقة هذه الرّوح بروح الإنسان؟

روح القرآن من الله، وروح الإنسان من الله، فالعلاقة بينهما وحدة المصدر، فإذا كانت وحدة المصدر محققة فإنّ هذا يدلّ على وحدة المصير، حين نفخ الله الرّوح في آدم لم يدعها للشيطان بل أنزل الوحي هدى وبينات لمهتدي بها آدم بعد الهبوط، وآخر ما نزل من الوحي القرآن الكريم الموصوف ب"الرّوح"، فأية سورة الشّورى السّابقة بيّنت أنّه "روح"، وأنّ هذه الرّوح "نور" مهتدي به العباد، والعلاقة بين الرّوحين هي من جهة ما يلحق الآلة من الفساد، فالقرآن إذا دخل إلى آلة الجسد كان حيّا، متحرّكا، وتلك هي الحياة الطّيبة، والحياة الحقيقية التي تضمن لصاحبها "الحياة الشّاملة"، وهي المتمثلة في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾⁴²⁸، لكن إذا خرج القرآن

⁴²⁷ - سورة الشّورى الآية 49.

⁴²⁸ - سورة الأنفال الآية 24.

من الذات كانت خربة، ميّته، وقد تموت "الموتة الشاملة"، موتة الدنيا والآخرة، وكذلك روح البدن، إذا حلّت في الجسد كان حيًا، وإذا فارقت الجسد كان ميّتًا، يقول البروسوي الحنفي في تفسير الآية السابقة: (هو القرآن، الذي هو للقلوب بمنزلة الأرواح للأبدان، أي: يحصل لها ما به ما مثل الحياة وهو العلم النافع المزيل للجهل الذي هو كالموت)⁴²⁹، ولهذا السّبب فالقرآن مصدر أصيل من مصادر النقلانية، لأنه روح ثقافة النّقل، وروح قوّة العقل.

ج- عيسى والرّوح

علاقة عيسى عليه السّلام بالرّوح تتبدّى في عدّة مواطن، فهو كلمة الله، وروح منه، ودلّت الآيات على أنّ حقيقة عيسى روح منفوخة في أمّه، دلّت على ذلك الآية 91 من سورة الأنبياء ﴿والتّي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا، وجعلناها وابنها آيتين للعالمين﴾، رفع الله من شأنها، وذكرها تعالى في مقام الأنبياء في سورة الأنبياء، ومن خلال السّياق يتّضح أنّ مريم حازت مرتبة النّبوة بهذه الرّوح التي نفّخت فيها، والنّفخ هنا كان في جسدها كله لقوله تعالى: ﴿فنفخنا فيها من روحنا﴾، ثم دلّت الآية 12 من سورة التحريم على أنّ النّفخ كان في جزء من جسدها وهو الفرج، يقول تعالى: ﴿ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا﴾، ولا تعارض بين الآيتين لأنّ مدخل الرّوح إلى جسدها كان هو الفرج، ومن موجبات النّفخ أنّها حافظت على شرفها حتى لما جاءها الملك دخلت في حوار شديد معه، وما ذاك إلّا لأجل الحسب والشّرف كما تقدم، فبسبب النّفخ فيها والحوار مع الملك كانت نبيّةً، وبسبب النّفخ والكلمة كان عيسى عليه السّلام نبيًا ورسولًا، ولذلك جعلهما الله تعالى آيتين للعالمين، هذه حقيقة علاقة عيسى بالرّوح التي كانت أمّه مجالها.

⁴²⁹ - روح البيان في تفسير القرآن للحنفي الخلوّتي البروسوي 342/8، سورة الشّورى، الآية 49.

ثم هناك علاقة أخرى بالروح من جهة كونه يُرَجَع الأرواح إلى الأجساد بعد مفارقتها له بالموت، كما أنه كان لهجاء ب "الروح" في وصاياه لبني إسرائيل، من وصاياه قوله: (ما من أحد يمكنه أن يدخل ملكوت الله إلا إذا ولد من المادة والروح، لأنّ مولود الجسد يكون جسدا، ومولود الروح يكون روحا)⁴³⁰ ، ويقول: (فالريح تهبّ حيث تشاء فتسمع صوتها ولا تعرف من أين تبيء وإلى أين تذهب، هكذا كل من يولد من الروح)⁴³¹ .

يفرق عيسى عليه السلام هنا - إن كان المنسوب إليه صحيحا- بين الملائكة التي هي أرواح فقط وبين بني آدم المخلوقين من الماء والروح، ويقصد بالماء التناسل من ماء مهيّن، والملوكوت المقصود في كلامه هي دعوته الموجهة للإنسان، وهي دعوة روحية، تخاطب الروح لتحبي الإنسان بصفته مخلوقا من مادة وروح، فلا بدّ من مخاطبته من جانب الروح حتى يتحرك نحو النور الحقيقي، وهو النور الذي يدخله الجنّة، وكأنّ عيسى يريد أن يقول لبني إسرائيل إنّني كلمة الله إليكم وروح منه، أخاطبكم من لدنه بخطاب الروح، ولا أحد يقوم بذلك في هذا الوقت غيري، فإذا أردتم الدخول في ملكوت الله فاسمعوا وأطيعوا.

د- المسيح والولادة الثنائية

فكرة مولد الإنسان مرتين هي فكرة جاءت في إنجيل يوحنا في الإصحاح الثالث، وقد جاءت في جواب عيسى عليه السلام لفريسي من رؤساء اليهود واسمه نيقوديموس، قال له عيسى عليه السلام: (الحقّ الحقّ أقول لكم، ما من أحد

⁴³⁰ - إنجيل يوحنا، الإصحاح 3/56-

⁴³¹ - إنجيل يوحنا، الإصحاح 3/8

يمكنه أن يرى ملكوت الله إلا إذا وُلد ثانية)⁴³² ، وقال مرّة أخرى: (لا تتعجّب من قولي لك: يجب عليكم أن تولدوا ثانية)⁴³³ .

سُئِلَ عيسى عن معنى "الولادة الثانية"، وقد سأله نيقوديموس عن ذلك فأجاب بأنّها معرفة النور بعد الضلال، الولادة الأولى هي الولادة الطّبيعية من ماء فقط، والثانية تكون بالروح، وعلّما بالهدى والبيّنات التي أنزلها الله عليه ليخرج النّاس من الظلمة إلى نوراليقين، وقد ذكر ابن القيم كلام عيسى السّابق لبني إسرائيل في مدارج السّالكين، وذكر أنه سمع ابن تيمية يقول بأن الولادة الثّانية نوعان: الأولى هذه المعروفة، والثانية ولادة القلب والروح وخروجهما من مَشيمة النّفس وظلمة الطّبع.⁴³⁴

ونقل من قوله في زيادة البيان ما يلي: (وهذه الولادة لما كانت بسبب الرّسول كان كالأب للمؤمنين، وقد قرأ أبي بن كعب رضي الله عنه " النّبىء أولى بالمؤمنين من انفسهم " وهو أبّ لهم، وقال: ومعنى هذه الآية والقراءة في قوله تعالى " وأزواجه أمّهاتهم " إذ ثبوت أمومة أزواجه لهم فرع عن ثبوت أبوته، قال: فالشّيخ والمعلّم والمؤدّب أب الروح، والوالد أب الجسم)⁴³⁵ .

وقولة عيسى في الولادة مرّتين أتى على ذكرها الإمام أحمد في الزهد منسوبة إلى عيسى، وعلّق عليها الحافظ ابن تيمية بقوله: (هي ولادة الأرواح والقلوب من الأبدان، وخروجها إلى عالم الطّبيعة، كما وُلدت الأبدان من البدن وخرجت منه، والولادة الأخرى هي الولادة المعروفة، والله أعلم)⁴³⁶ .

⁴³² - إنجيل يوحنا 3/3، الكتاب المقدّس ص 143.

⁴³³ - المصدر السّابق

⁴³⁴ - مدارج السّالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين 77/3، (منزلة الوجد).

⁴³⁵ - المصدر السّابق 77/3-78، والآية 6 من سورة الأحزاب.

⁴³⁶ - أورده ابن القيم في مدارج السّالكين 155/3.

وقامت الدّراسات النّفسيّة الحديثة على بحث الولادة الثّانية بصفتها أحد العوامل التي تفسّر التّبّان في قلق الموت، وأظهرت الدّراسات أن المسيحيّين المعتقدين في الميلاد الثّاني يميلون إلى الخوف من الموت بدرجة أقلّ من المسيحيّين الّذين الّذين لا يعتقدون في ذلك⁴³⁷، وهي دراسات يمكن أن تعطيك تصنيفات لكثّما لا تمنحك اليقين الثّابت في الموضوع بسبب تباين المفحوصين والمستجوبين من جهة الاعتقاد وعدمه.

3- أشباح وأرواح

أ- الأشباح والأرواح: تحديد وتقييد

يجب التّفريق بين أشباح الأرواح وأشباح الملائكة والجن والشّياطين، الملائكة والجن والشّياطين مخلوقات غير مادية، ويمكنها أن تتقمّص الأجسام لتظهر على الصّورة التي تليق بوضعها، ومن هنا فإنّنا لا ننكر وجود هذه المخلوقات لأنّ نكرانها يوقع في المحذور، وهو مخالف للمعتقد ومباين للإيمان، لكن هل تظهر هذه المخلوقات على صورة أشباح؟ لا نملك جوابا بالإيجاب كما لا نملك جوابا بالنفي، لكن الّذي نملك قوله هو أنّنا لا نعيش وحدنا في هذا الكون، كون نراه ممتدّا لكن لا نملك عن أجرامه وكواكبه حقيقة ثابتة، وحتّى هذا الكوكب الذي نعيش فيه توجد فيه مخلوقات ماكروسكوبية، وأخرى ميكروسكوبية، وأخرى وبكلّ تأكيد في ما وراء الميكروسكوب، الإنسان لا يعلم كلّ شيء، ولا يعرف كلّ شيء وإن ادّعى معرفة كلّ شيء، وموضوع الملائكة والجن والشّياطين موضوع لا يدخل فيما نحن بصدد معالجته في هذا الكتاب، فموضوعنا هو أشباح الأرواح، ونعني بالأرواح هنا الأموات.

⁴³⁷ - قلق الموت ص 103.

ب- تحليل لغز الأشباح

موضوع الأشباح لغز محيّر منذ القدم، خضع للرّواية الشّفوية وللکلام السّردي، ولم تثبت حتّى الآن دراسة علمية تؤكّد وجود الأشباح على هذه الأرض، ما يروج شائعات لا تتعدّى المرويّات الشّفوية والحكايات الخرافية والانطباعات الشّخصية. ونحن نتكلّم هنا عن الأشباح من حيث الوجود لا من حيث معاينة الوجود، وهناك فرق بين الإحساس بوجود شيء ما ووجوده بالفعل، بين وجود تلك الأشباح في داخل الإنسان وعدم وجودها في خارجه، فلا يلزم من الأوّل وجود الثّاني حقيقة، وقد يمتطي أحد على هذا الكلام فيردّ أحاديث الأنبياء وأخبارهم بالغيب، فإنّهم رأوا أجساما، وشاهدوا صورا، وسمعوا أصواتا لم يشارکهم فيها أحد، وهؤلاء من الذين لا يفرقون بين الأنبياء والرّسل وبين غيرهم، تلك من خصائص الوحي.

قد تكون القضية راجعة إلى الحالات النّفسية المضطربة التي يعاني منها بعض النّاس حيث ينعكس ذلك على تصرفات لا إرادية مثل التّبول في اللّيل، والكلام العشوائي، والحركات المضطربة، والصّياح والفرع عند النوم، تلك حالات معروفة في المرض النّفسي، ويستطيع علماء النّفس المرضي أن يثبتوا الكثير منها، لأنّه لا مانع أن يرى المريض في اليقظة ما يراه في النّوم، ولا مانع من أن يتصرّف بنفس التّصرّف الذي تصرّف به وهو نائم، وحين يأتي الكلام عمّا وقع وجرى يتدخّل الخيال في القضية، وتتضخّم الصّورة بشكل كبير، وهذا يكون عند صنفين من النّاس:

-صنف الشّيوخ والعجزة الذين يتوقّف تفكيرهم في المستقبل ويرجع بهم القهقري، فلا كلام إلّا عن الماضي والأصدقاء والأحباب الموتى، والقضية تبدو واضحة جدا، فهم ينفقون من مخزون الذاكرة، ذاكرة المراحل المشرقة أو المظلمة التي عاشوها، أما المستقبل القريب أو البعيد فلا حظّ لهم منه، لأنّهم أوشكوا على الرّحيل.

-صنف من النَّاس يتغذى على الخرافة ويعيش بها، ثقافته هي الأساطير والتخيّلات، من هؤلاء من يحاول جعل الخرافة حقيقة، والخيال واقعا.

وتأتي ظاهرة الأشباح بطرق تفسيرية متعدّدة، فهبوب رياح قوية، وصدّ الأبواب وغلقتها، وانقطاع التيّار الكهربائي باستمرار كلّها أمور يعزّيها العقل الخرافي إلى وجود أشباح وأرواح، وقد استغلّ المشعوذون هذه الظواهر فجعلوا منها حرفة وتخصّصا، فادّعوا التّحكم في الأشباح والأرواح، والقدرة على معرفة أشكالها وأنواعها، وطردها من الإنسان والمكان والزّمان، أو تعطيل قدرتها وطاقتها على الأحياء، وقد جنى هؤلاء أرباحا طائلة، وهم اليوم في كلّ مكان من العالم.

ج- شبح الأشباح وروحانية الأرواح

إنّ تصورهم لبقاء روح الموتى حيّة حتى بعد فراق الجسد تعبير صادق على أنّ الحياة بعد الموت ممكنة، وهو اعتراف علي لم يأت هذه المرّة من الدّين، لكن مع هذا الاعتراف تبقى خرافة الاعتقاد حاصلة في طريقة التواصل هذه، لم يتّخذ هؤلاء المفسرون طريقة الرّوح الحيّة كأسلوب للتواصل مع الأرواح الميّتة بل مالوا إلى تقنيات مادّية منها طريقة الحقول المغناطيسية التي تمّت الإشارة إليها، وعصا التحسّس حيث تتحرّك عقارب الآلة مغناطيسيا كلّما حصل الضّغط، أما عصا التحسّس فهما مقبضان كلّ واحد منهما باليد، وهي أشبه ما تكون بالطريقة التّقليدية التي يسلكها القرويون في البحث عن المياه الجوفية مستخدمين في ذلك عصا مزدوجة تتحرّك باليد، فإذا تحرّك المقبضان أو تحرّك قضيب واحد يفترضون أنّ هذا من توقيع الأشباح، وقد جرت تجارب في جهات من الأرض من قبل جمعيات تخصّصت في هذا الغرض، يمكث أفرادها في الكهوف والجبال والأبنية المهجورة والمنازل والبيوت المشبوهة أيّاما وليال مستخدمين أجهزة الرّصد هذه، ولم يصلوا إلى نتائج علمية دقيقة اللّهم بعض الاستنتاجات والخلاصات التي ترجع إلى الانطباعات الدّاتية والتخيّلات الغريبة والمدهشة، أما طريقة إدامة

النظر والتركيز على صورة معينة فتقوم بنفس الدور في ترسيخ هذا المعتقد، فكثير منهم يتخيل بأن الصورة القديمة المعلقة على الجدار تتحرك، أو تستبدل بصورة أخرى إلى غير ذلك، لكن إذا وقف أكثر من واحد للنظر لا يظهر لهم ذلك، إنها تخيلات ليس إلا، فمثلما يتخيل لك أن صورة ما مرسومة في السماء بفعل اختلاط الألوان الطبيعية وهي على الجدران مثلا، أو تظهر لك صورة الميت المحبوب على المرأة، أو أن وجه المسيح ظهر على رغيف خبز، أو أن وجه ملك من الملائكة ظهر على بساط ماء المسبح، تماما كما وقع لرجل مهووس بالصّلاح راح يجدد وضوءه لصلاة الصّبح وكان الصّنبور مثقوبا من جهة لا ترى فأصابه البلبل في يديه، وبدأ الماء يقطر منها، فصاح في أصحابه: "بُشرى، إنها معجزة وكرامة، إن الماء يخرج من بين أصابعي"، ليست الوقائع هي التي تخدعنا في بعض الأحيان بل حتى الحواس.

ما يقال عن الصّورة يقال عن الصّوت أيضا، فألات التّسجيل لا بدّ وأن تلتقط أصواتا، قد تكون حفيف الأشجار أو زقزقة العصافير أو مواء القطط، أو نباح الكلاب، أو صوت الرّعد، لا بدّ للآلة أن تسجّل شيئا ما، وما يفترض أنّها لم تسجّل شيئا راجع إلى شيء واحد هو أن الآلة فيها عطب، أما إذا كانت صالحة وتعمل فلا بد من تسجيل شيء، ومن هنا إذا سمعوا أصواتا اختلفوا في تفسيرها، وهنا يتكرّر عندنا موضوع "تخيّل الصّورة" في "تمثل الصّوت"، فما سمعه هذا قد لا يسمعه ذلك، إنها قوة التّسجيل والرّصد، وقوة التّعبير والتخيّل.

إنّ الاعتماد على الآلات والتّقنيات الحديثة في حلّ لغز الأشباح لم يأت أكله حتّى الآن، بل حتّى الآلات يمكن أن تمارس الخداع على أصحابها، أو يمكن أن يمارسوه هم على غيرهم بتسخير الآلة في ذلك.

إنّ الذي يمكن الجزم به هو أنّ الآلات عاجزة حتى الآن على تقديم صورة لميت قضى نحبه، لم يتأكد ولم يثبت أنّنا عثرنا على صورة إنسان ظهر بعد موته أو سجّل صوته بعد موته، وما للآلات القدرة عليه هو المحافظة على صورة

التقطت للهالك في حياته، أو المحافظة على صوته المسجل في حياته، ويمكن بثّه بعد مماته بسنين أو حتى قرون، وما يُفعل في المسلسلات التاريخية والتي يتعامل معها البعض كحقيقة في تقيّد شخصيّة ناس ماتوا بقرون إنّما هو تخيل وتمثيل لا صلة له بالحقيقة.

وبالتأكيد لا حقيقة لما يقال حتى الآن عن الأشباح.

4- الروح والنفس والجسد

أ- الروح والنفس

حصل خلاف بين العلماء هل الروح هي النفس أم هما متغايران، وقيل في ذلك كلام كثير يطول بنا سرده ومتابعة من قال بذلك، فالذين قالوا بأنّ النفس هي الروح أو العكس لهم مبرراتهم النقلية منها قول الملائكة لظالحي أنفسهم ﴿أخرجوا أنفسكم﴾⁴³⁸، والمراد هنا الأرواح، وهي مسألة مشهورة، وفيها كما قالوا أقوال كثيرة، والذين حكموا بالتغاير لهم مبرراتهم أيضا، غير أنّ الذين قالوا بالتغاير حجّتهم أقوى، ودليلهم أوضح، ومنهم أبو بكر بن العربي، والحافظ ابن حجر، والإمام السهيلي وغيرهم، ومبرّرهم في ذلك قوله تعالى: ﴿فإنّما سويته ونفخت فيه من روحي﴾⁴³⁹، وقوله: ﴿تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما نفسى﴾⁴⁴⁰، فإنه لا يصحّ جعل أحدهما موضع الآخر، ولولا التغاير لساغ ذلك⁴⁴¹.

لقد جهد الإنسان منذ القدم في معرفة الروح، فقد أخرج البخاري في جامعه الصحيح أنّ جماعة من اليهود سألوا النبي صلّى الله عليه وسلم عن الروح، فأنزل الله عليه: ﴿يسألوننا عن الروح قل الروح من أمر ربّي، وما أوتيتهم من

⁴³⁸ - سورة الأنعام الآية 94.

⁴³⁹ - سورة الحجر الآية 29.

⁴⁴⁰ - سورة المائدة الآية 118.

⁴⁴¹ - أنظر ما نقله الحافظ ابن حجر في الموضوع في فتح الباري 403-402/8.

العلم إلا قليلاً⁴⁴² ، وقد وردت جملة من الأقوال في مراد اليهود بهذا السؤال⁴⁴³ ،
نوردها كالاتي:

أ- قيل سألوه عن جبريل، لأن جبريل روح الله، وهو عدوهم من الملائكة كما
يزعمون.

ب- وقيل سألوه عن الروح التي تكون بها الحياة في الجسد، فالروح هو
سبب الحياة.

ج- وقيل سألوه عن كيفية مسلك الروح في البدن وامتزاجه به، وهذا هو
الذي استأثر الله بعلمه.

د- وقيل سألوه عن روح الإنسان لأن اليهود لا يعترفون بأن عيسى روح الله،
ولا تجهل أن جبريل ملك، وأن الملائكة أرواح.

هـ- وقيل إن السؤال يحتمل أن يكون عن ماهية الروح، وهل هي متحيزة أم
لا، وهل هي حالة في متحيز أم لا، وهل هي قديمة أو حادثة، وهل تبقى بعد
انفصالها من الجسد أو تفتي، وما حقيقة تعذيبها وتنعيمها، وغير ذلك من
متعلقاتها.

هذه الأسئلة كلها محتملة منهم، وإيرادها نافع في البيان، وقد ذكر الفخر
الرازي بأن الجواب وقع على أحسن الوجوه.

يقول: (والجواب يدل على أنها شيء موجود مغاير للطبائع والأخلاق
وتركيبتها، فهو جوهر بسيط مجرد لا يحدث إلا بمحدث وهو قوله تعالى "كن"،
فكأنه قال: هي موجودة محدثة بأمر الله وتكوينه، ولها تأثير في إفادة الحياة

⁴⁴² - حديث عبد الله بن مسعود، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب (ويسألونك عن
الروح)، فتح الباري 401/8 حديث رقم 4721. والآية 85 من سورة الإسراء.

⁴⁴³ - المصدر السابق 402/8.

للجسد، ولا يلزم من عدم العلم بكيفيتها المخصوصة نفيه، قال: ويحتمل أن يكون المراد بالأمر في قوله ﴿من أمر ربّي﴾ الفعل، كقوله ﴿وما أمر فرعون برشيده﴾ أي: فعله، فيكون الجواب: الرّوح من فعل ربّي، وإن كان السؤال هل هي قديمة أو حادثة؟ فيكون الجواب إنّها حادثة⁴⁴⁴.

إذن، الجواب هو أنّ الرّوح من أمر الله، كلّ ما هو من أمر الله فالله أعلم به، ولا دخل للعلم البشري فيه، لأنّه لا يفيدهم في عبادة، ولا تشريع، ولا في أخلاق، ولم يؤمروا بمعرفته، ما لا تترتب على معرفته فائدة، ولذلك قال: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ في طريقة لصرفهم عن أسئلة تضرهم.

لقد احتار اليهود في أمر الرّوح لأنّ التّوراة لم تسعفهم بشيء في الموضوع، ولا كهنتم أشبعوا رغبتهم في موضوع الرّوح، أما المسيحيون فجعلوه تارة في المسيح، ثم نقلوه إلى الصّليب لأنّ جسد المسيح- حسب المعتقد- صُلب عليه وخرجت روحه من هناك، ويسمونه "الصّلب الرّوحى"، والصّلب الرّوحى عندهم جزء من الدّين، ويتكلّم الإنجيل عن "روح القدس" و"الرّوح النّجس"، ولم يكن عيسى عليه السّلام يخفي أنّه بروح الله يطرد أرواح الشياطين، كما تكلم عن الأرواح النّجسة وهي الأرواح التي تدخل في الإنسان⁴⁴⁵، والتي جاء التّصريح بها واضحاً في قوله تعالى ﴿الذي يؤسّر في صدور النّاس من الحنّة والنّاس﴾⁴⁴⁶.

وما جاء في تعريف الرّوح عند الفلاسفة المسلمين وغير المسلمين فغير مُقنع للأسباب التي تقدّم بيانها، فما هو على التّوقيف يجب أن يبقى على التّوقيف، وذكر الفخر الرّازي أنّ السّلف سكتوا عن البحث في هذه الأشياء والتعمّق فيها، ومنهم عبد الله بن عباس فإنّه كان لا يفسّر الرّوح.

⁴⁴⁴ - نقله الحافظ ابن حجر في الفتح 402/8-403.

⁴⁴⁵ - أنظر إنجيل متى 28/12، 34/12 (عودة الرّوح النّجس)، العهد الجديد، الكتاب المقدّس، ص 22.

⁴⁴⁶ - سورة النّاس .

أما النفس فقد تقدّم بأنّها المزاوجة بين الرّوح والجسد، وهما مزاجتان: الأولى عند الخلق للابتلاء، والثانية عند البعث للحساب، في الأولى تذوق النفس الموت ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾، والخطاب هنا للرّوح والجسد، فمن دون روح لا يتحصّل ذوق الموت بالإحساس، وفي الثانية تزوج النفس بالرّوح والجسد ﴿وإنما النفوس زوجت﴾، وقوله ﴿وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد﴾، وتخطب أيضا بقول ربّها: ﴿يا أيّتها النفس المضمّنة، ارجعي إلى ربّي راضية مرضية، فإدخلي في عبادي وإدخلي جنتي﴾⁴⁴⁷.

وبالاستقراء للآيات يتضح أنّ الخطاب في الموت والحياة والخير والشر هو للنفس التي تعني الرّوح والجسد، فالرّوح تمنح الطاقة للجسد فقط، وتكون عامّة على الجسد الحي، وكل أعضاء الجسد تكون فيها طاقة روحية تمنحها الحياة، والعذاب غدًا يكون للنفس التي هي الجسد والرّوح، والرّوح لا تتأثر بالعذاب بل النفس هي التي تتأثر، كما أنّها لا تتأثر بالموت في النّار لأنه لا وجود للموت في جهنّم، فالإنسان في الجحيم ﴿لا يموت فيها ولا يبعث﴾، ولا نتصور جسدا يعذب من دون روح.

ب- الرّوح والسّاعة

الرّوح موجودة ودليل وجودها سؤالهم عنها، فعدم تعريف الرّوح لا يلغي وجودها بل يثبتها، لا يمكنهم أنّ يسألوا عن شيء ما لم يكونوا قد عرفوه سابقا، واليهود وجّهوا سؤالهم إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلّم عن الرّوح مثلما وجّهوا نفس السؤال إلى عيسى من قبل، كان جواب عيسى جوابا تقريبا لم يحدّد فيه كنه الرّوح ولا ماهيتها، أما محمّد النبي الأمي فانتظر الجواب من خالق الرّوح، وهو جواب لا يتضمّن تعريفا، وقد تكلمنا عن هذا الموضوع في فقرة خاصة من فقرات هذا الكتاب، ومثلما سألوه عن الرّوح سألوه عن السّاعة، والسّاعة

⁴⁴⁷ - سورة الفجر الآيات (27-30).

معلومة، وهو اليوم الذي سيقوم فيه النَّاسُ لربِّ العالمين، ويقولون بأنَّها سُميت بالسَّاعة لأنَّ كلَّ ذلك سيكون في ساعة واحدة، وقيل المراد بالسَّاعة الوقت، ويطلق عليها اليوم، واليوم وقت، والمراد بالسؤال تأقيت قيام الوقوع، وهو أمر استأثر الله بعلمه أيضا، فالله أخفى توقيت السَّاعة وتعريف الرُّوح لحكمة يعلمها، وما أخفاه فيه مصلحة لبني آدم، فقد تُركت للمباغثة، وحتى لا يتكل النَّاس أويتعطلَّ السَّعي والعمل والحركة ﴿يسألوننا عن السَّاعة أيلان مرسلها، قل إنما علمها عند ربِّي، لا يبليها لوقتها إلا هو، ثقلت في السَّموات والأرض، لا تأتيكم إلا بغتة، يسألوننا كأننا حفي عنها، قل إنما علمها عند الله ولكنَّ أكثر النَّاس لا يعلمون﴾⁴⁴⁸، والمعنى الذي يفهم من سياق الآية أنَّ قوله "حفي عنها" معناها: تملكَّ العلم بها، أو هي موكولة لك أو هي داخلة في مهمَّة الرِّسالة والنبوة.

الرُّوح والسَّاعة أمرهما لا يعلمه إلا الله، ولذلك قال في سؤال السَّاعة: ﴿ولكنَّ أكثر النَّاس لا يعلمون﴾، وفي سؤال الرُّوح: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾.

ج- تسوية البنان

تقدّم معنا قوله تعالى من سورة القيامة: ﴿بلى فللمرین علی أن نسوی بنانه﴾، آية قيلت منذ قرون، كان الإنسان يفهم منها فهما معينا، فهم يتماشي مع طبيعة الوعي البشري، لكنَّ العلم اليوم أثبت للبنان حقائق علمية مدهشة تولدت عنها معارف أخرى، وما أثبتته العلم يجعل المرء يقف مدهوشا أمام حقائق الوحي.

جاءت هذه الآية جوابا على من أنكر المعاد واستبعد حشر الأجساد بعد أن أصبحت ترابا، فأقسم الله تعالى على أن يسوي بنان الإنسان بعد أن ذاب في التراب، والبنان هي بصمات أصابع اليد، وهو أرنبه أصابع اليد العشرة، أرنبه في

⁴⁴⁸ - سورة الأعراف الآية 187.

كل أصبع، وإذا تأملتها في أصبعك وجدت مساحتها صغيرة جدا، لكن في هذه المساحة توجد الهندسة الفريدة، كل هندسة تحمل خصائص صاحبها، وقد توصل العلم الحديث إلى خصائص البصمات وقدرتها العجيبة على التمييز، واتخذتها الدول وسيلة لإثبات هوية الأشخاص، ومن السرّ العجيب أنّ البصمات لا تتطابق بين شخصين أبدا، وهذا يدلّ على أنّ الملايين من البشر الذين مزّوا على هذه الأرض، والذين هم عليها اليوم، والذين سيولدون إلى قيام الساعة بمختلف جنسياتهم وانتماءاتهم وطبقاتهم لا يتشابهون في البصمة، ولم يسأل السائل عن البنان، ولم يستفهم عنه بل أنكر وجحد لكنّ الخالق الباري أجابه بتسوية البنان، ولم يكن جاحد العرب في ذلك العصر يدرك بأنّ البنان يحتوي على هذا السرّ العجيب.

د- الماء أصل الحياة

الماء أصل الحياة، هذه حقيقة نقلانية قبل أن تكون عقلانية، مقرّرة بكلام الله تعالى، فلا تناقض بين العلم والدين من هذه الناحية، فقد جعل الله من الماء أصلا للحياة كلّها بما فيها حياة الإنسان، فمن جهة الحياة كلّها يقول تعالى: ﴿أولم ير الذين كفروا أنّ السّموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما، وجعلنا من الماء كلّ شيء حيّ، أفلا يؤمنون﴾⁴⁴⁹، ف "كلّ" هنا للعموم تشمل الإنسان والحيوان والنبات، وهو ما يتفق مع قوله تعالى: ﴿والله خلق كلّ حياء من ماء﴾⁴⁵⁰، ويقول: ﴿وأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾⁴⁵¹.

يقول الدكتور موريس بوكاي وهو يقارن موضوع أصل الحياة بين القرآن والتّوراة والإنجيل والعلم: (ليس هناك شكّ في مفهوم المصدر، فالعبارة يمكن أن

⁴⁴⁹ - سورة الأنبياء الآية 30.

⁴⁵⁰ - سورة النور الآية 45.

⁴⁵¹ - سورة طه الآية 52.

تعني أنّ كلّ شيء مصدره الماء كما دة جوهريّة، أو أنّ أصل كلّ شيء حي هو الماء، ويتّفق هذان المعنيان تماما مع العلميّة: فالثّابت بالتحديد أنّ أصل الحياة مائي، وأنّ الماء هو العنصر الأوّل المكوّن لكلّ خلية حية، فلا حياة ممكنة بلا ماء، وإذا ما نوقشت إمكانية الحياة على كوكب ما فإنّ أوّل سؤال يطرح هو: أيحتوي هذا الكوكب على كمية ماء كافية للحياة عليه...؟⁴⁵²

ويقول في خاتمة الفصل: (وإذن، فسواء كان المقصود هو أصل الحياة عموما، أو العنصر الذي يجعل النباتات تولد في التربة، أو كان المقصود هو بذرة الحيوان فإنّ كلّ عبارات القرآن تتّفق تماما مع المعطيات العلميّة الحديثة، ولا مكان مطلقا في نص القرآن لأيّ خرافة من الخرافات التي كانت منتشرة في عصر تنزيل القرآن)⁴⁵³.

كون الماء الموجود في الأرض منزل من السّماء حقيقة مؤكدة بنصّ الوحي، ولذلك فوجود الماء خارج الأرض ممكّنٌ جدا، لأنّ مصدر الماء السّماء، وأصل الحياة الماء.

ماء زمزم معجزة من المعزات التي وهبها الله لآل إبراهيم عليه السّلام، معجزة في خروجه، ومعجزة في بقاءه، وما ترتّب عن هذا البقاء من حياة دبّت على أرض قاحلة، فلولا الماء لما كان اجتماع قبيلة جرهم ومجاورتها لهاجر، ولولا الماء لما كانت قبيلة قريش، ولما كان البيت، ولما كان حجّ البيت، ولما كانت بعثة نبوية في تلك الديار، الماء أساس الحياة، والحياة أساس العبادة.

⁴⁵² - القرآن الكريم والتّوراة والإنجيل والعلم: دراسة الكتب المقدّسة في ضوء المعارف الحديثة، لموريس

بوكاي ص 225.

⁴⁵³ - المصدر السّابق ص 226.

ه- ثلاثية التكوين

نعني ب "ثلاثية التكوين" أنّ الإنسان مكوّن في خِلقته من ثلاث مكونات يجدر بنا تأملها، وهي: التراب، والماء، والروح.

التراب هو من تراب هذه الأرض، وقد خُلق الإنسان من أجود أنواع التراب وهو الطين، ومن أجود أنواع الطين وهو الصلصال، ومن أجود أنواع الصلصال وهو الحمأ المسنون، فهو خيار من خيار من خيار، ولعلّ الحكمة من ذلك هي أنّ الإنسان سينزل إلى الأرض ليعيش فيها، ويموت فيها، ومنها سيبعث، وهو المقصود من قوله تعالى: ﴿منها خلقناكم، وإليها نعيدهم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾. وقوله: ﴿قال فيها قبون، وفيها تموتون، ومنها نُخرجون﴾⁴⁵⁴.

خلق الإنسان من تراب هذه الأرض ليقع الانسجام بينه وبينها، فهو جزء منها، وطبيعي أن يحصل الأنس بينه وبينها لأنّ المكونات الموجودة فيه موجودة فيها، وقد أدرك الطبيعويون ذلك فحصرُوا مكوّن الإنسان فيما هو طبيعي فقط ووجدوا ما عداه.

الماء أساس الحياة، ماء الطبيعة، وكذلك ماء الإنسان، ماء الطبيعة أساس حياة الكائنات كلّها، وماء الإنسان سبب في حياة الإنسان بصفة خاصة، والألف والنون في "الإنسان" للتثنية، ويقصد بها الرجل والمرأة، لأنّ للرجل ماء وللمرأة ماء، ماء الرجل يتضمن الحيوان المنوي، وماء المرأة يتضمن البويضة الشهرية.

ماء الطبيعة سابق في الوجود على ماء الإنسان، لأنّ الخلق مقدّم على عملية التّناسل، فالله خالق لحياة الإنسان والتّناسل سبب فيه، ولذلك كان الأمر الإلهي في عالم الأرحام بنفخ الروح وتحديد الرزق والأجل والسعادة.

⁴⁵⁴ - سورة الأعراف الآية 24.

التُّراب مادة صلبة، والماء مادّة سائلة، اختلط الصَّلب بالسَّائل فكانت العجنة، ومن العجنة الطَّينية كانت صورة الجسم، وهي من أحسن الصُّور، ولم تكن على مثال سابق، ﴿فِي أَيْ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكِبَهَا﴾⁴⁵⁵، ثم بعد أن تسوّى الجسد الطيني جاءت عملية نفخ الرُّوح فتبدّى آدم بعدها بشرا سويا، ثم خلقت حواء بعد خلق آدم، ومن ضلعه خلقها.

الإنسان مخلوق من ثلاث مكونات: مكون مادّي صلب وهو التُّراب، ومكون مادّي سائل وهو الماء، ومكون ثالث معنوي هو الرُّوح، وهي التي تُعطي للجسد الحياة، وحين تخرج منه في الأجل المؤقت يرجع الجسد إلى أصله، تذوب سوائله فتمتصّها الأرض، ويتحلّل جسده ليرجع إلى أصله وهو التُّراب.

لا يتم الوقوف عند الماء كمكون من مكونات الخلق لأنه يشترك مع التُّراب في صفة المادّة، فهما مادّة، وتنفرد عنهما الرُّوح بكونها غير مادّة، ولذلك تقع الإشارة إلى المادّة الرُّوح في خلق آدم، حين دخلت الرُّوح إلى جسد آدم لم يرها آدم لأنها هَبَّتْ كالرَّيح كما قال عيسى في تعريفها، وحين تخرج لا يراها الآدمي لكنّه يملك الإحساس بالألم في خروجها مثلما ملك آدم الإحساس بالسَّعادة والحياة في دخولها، وقد صرف الله السؤال عنها حين سأل اليهود النّبي صلّى الله عليه وسلّم، وهم سألوه كما سألو عيسى عنها من قبل، كان الجواب: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، الرُّوح لا يعلم كنهها إلا الله لكتّما موجودة وفاعلة، فالذّي أعطاهما في أوّل الوقت أخذها في آخر الوقت، أعطاهما بسبب وسيأخذها بسبب.

⁴⁵⁵ - سورة الإنفطار الآية 8.

فصل في الموت وثقافة الاستعداد



1- الموت بين الأدبية واللاأدبية

يشكل الموت في النّقلانية مصدرا للمعرفة، فهو موضوع خصب للبحث والكلام، للحبّ والإيمان، للوعظ والإرشاد، للتربية والأخلاق، إنّها "المعرفة الأسمى" التي تسمو بالإنسان نحو معارج الكمال البشري، إنّ النّظر إلى الرّوح وهي تفارق البدن "ثقافة"، تلقين الميّت الشهادة "ثقافة"، غسل الجنازة وتكفينها "ثقافة"، تشييعها "ثقافة"، التّأبين والعزاء في مصيبتها "ثقافة"، زيارة المقابر "ثقافة"، وما تقدّمه من أخبار عن المُساءلة في القبر والمصير والبعث والحساب والصّراط والجنّة والنّار هو "ثقافة متكاملة الأركان"، وقد أشفقنا على القراء من إيراد النّصوص الدّالة على ذلك والتي تجلّي الصورة في أسمى بيان، وفضّلنا الاكتفاء بالإشارة لوضوح الرؤية وبيانها، وهي رؤية مرتبة بالسلوك اليومي في حياة الناس، لكن مع ذلك سنكون مضطرين إلى إيراد واقعة حكاها المبرد (ت 286هـ) في كتابه التعازي والمراثي، وما وقع في الحكاية هو مما عمّت به البلوى في التساؤل عن المصير، ما فتئ المتشكّكون يتساءلون عن مصير الإنسان بعد الموت، حكى المبرد واقعةً صاحبها هو عبد الله بن عباس، تعكس هذه الواقعة الحوار بين من يدري وبين من لا يدري، خرج عبد الله بن عباس في جنازة رجلٍ هلك من قريش فلما دُفن قال بعض الحاضرين: ليت شعري إلى ماذا صار صاحبنا ؟ فبادره ابن عباس بالقول: أما تدري؟، قال: لا والله، فقال ابن عباس: لكني والله أدري، قال الله جل ثناؤه: " فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم، وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين، وأما إن كان من المكذّبين الضّالّين

فإنزل من حميم وتصلية جحيم"، وليس صاحبنا من المكذبين الضالين، فإن أخطأه أن يكون من المقرين فلن يخطئه أن يكون من أصحاب اليمين).⁴⁵⁶

إن الناظر في المظاهر المتجلية للموت من دون أن ينخرط في معرفتها يفوت على نفسه فهم حقيقة الموت، وهو فهم يفيد الأحياء أولاً فيجعلهم من صنف الأدرية، ولا نعلم في حدود مانعلم أن ثقافة ما تقدم لإنسانها نمطا من المعرفة المريحة كهذه المعرفة.

2. الاستعداد للموت

الاستعداد استعدادان: مرذول ومقبول، فالمرذول هو الاستعداد المادي للموت، شراء القبر وتجهيزه وزخرفته واختيار مقبرته وموقعه، والتكلف في مناسبة التأبين والتعزية بتخصيص ميزانية على الأكل والشرب ولا شيء غير هذا، وهو مرذول لأنه يصاحب الرياء والتظاهر، فبعض مناسبات الأتراح تتم في شكل مناسبات الأفراح، يقول ثابت البناني: (كنا نشهد الجنائز فلا ترى إلا مقنعا باكيا)⁴⁵⁷، أما اليوم فلا ترى في المرافقين للجنائز رجلا متخشعا، تراهم لاهين غافلين، يتحاورون كما لو أنهم في مسيرة تجوب الشوارع، ولم لا، فالقهقهات والضحك تُسمع عن بُعد، أما بيت العزاء فكأنه محل وليمة، أزياء النساء من أعلى طراز، وعلى الطاؤولات ما لذي وطاب من المكأكولات والمشروبات، ولا كلام بين أهل الهالك سوى عن الإرث ومخلفاته، ومدار كلام الجلساء غيبة ونميمة، وغالبا ما يحضر المجلس مجموعة من الطلبة⁴⁵⁸ يتصايحون بالقرآن بحناجر ملوثة لا تقيم قراءة ولا تثبت للمقروء معنى، والأغرب من ذلك كاميرا تصوير تدور بين الناس، وليس في

⁴⁵⁶ - التعازي والمرثي للمبرّد ص 44، والآيات من سورة الواقعة (88-93).

⁴⁵⁷ - إحياء علوم الدين 4/571.

⁴⁵⁸ - المعنى الشائع عندنا أنها تطلق على الذين يطلبون الحاجة بالقرآن، يقرؤونه في الجنائز والولائم جماعات.

القوم رجل رشيد يحث ويعظ، يوجّه ويرشد، فإذا كانت للموت ثقافة فهذا أوانها، والمكان مناسبها، في المقبرة لترشيد وعي الناس بالموت، والترحم على الهالك وعلى موتى المسلمين والدعوة للمشيّعين، وفي البيت الدعاء للميت وللحاضرين، ومواساة أهله في فقده وتصبيرهم، تماما كما فعل علي بن أبي طالب، فقد أخرج أبونعيم الأصبهاني في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء أنّ عليا شيّع جنازة، فلما وضعت في لحدّها عجّ أهلها بالبكاء، فقال: (ما تبكون؟ أما والله لو عاينوا ما عاين ميتهم لأذهلتهم معاينتهم عن ميتهم، وإنّ له فيهم لعودة ثم عودة حتى لا يبقي منهم أحدا)، ثم وعظهم بقوله: (أوصيكم عباد الله بتقوى الله الذي ضرب لكم الأمثال، ووقّت لكم الآجال، وجعل لكم أسماعا تعي ما عناها، وأبصارا لتجلو عن غشاها، وأفئدة تفهم ما دهاها، في تركيب صورها وما أعرها، فإنّ الله لم يخلقكم عبثا، ولم يضرب عنكم الدهر صفحا، بل أكرمكم بالنعم السوابغ، وأرشدكم بأوفر الرّوافد، وأحاط بكم الإحصاء، وأرصد لكم الجزاء في السراء والضراء، فاتّقوا الله عباد الله، وجدوا في الطلب، وبادروا بالعمل مقطّع التّهّمات⁴⁵⁹، وهادم اللذات، فإنّ الدّنيا لا يدوم نعيمها، ولا تؤمن فجائعها، غرور حائل⁴⁶⁰، وشبح فائل⁴⁶¹، وسناد مائل⁴⁶²، يمضي مستطرفا، ويردي مستردفا، بأنعاب شهواتها وختل تواضعها، اتّعظوا عباد الله بالعبر، واعتبروا بالآيات والأثر، وازدجروا بالتندر، وانتفعوا بالمواعظ، فكأن قد علقتكم مخالب المنية، وضمكم بيت التراب، ودهمتكم مقطعات الأمور بنفخة الصّور، وبعثرة القبور، وسياقة المحشر، وموقف الحساب بإحاطة قدرة الجبار، كل نفس معها سائق يسوقها لمحشرها، وشاهد يشهد عليها بعملها، (وأشرقّت الارض بنور ربها ووُضع الكتاب، وحيء

⁴⁵⁹ والرغبات والإفراط فيهما . التّهّمات معناها: الحاجات -

⁴⁶⁰ - حائل أي متغير.

⁴⁶¹ - فائل: أي ضعيف.

⁴⁶² - سناد مائل: صيغت العبارة للقدح في الدنيا، فمن اتكأ عليها مالت به .

بالنبيين والشهداء، وقُضي بينهم بالحقّ وهم لا يُظلمون⁴⁶³، فارتجّت لذلك اليوم البلاد، ونادى المناد، وكان يوم التّلاق، وكشف عن ساق، وكسفت الشّمس، وحشرت الوحوش مكان مواطن الحشر، وبدت الأسرار، وهلكت الأشرار، وارتجّت الأفئدة، فنزلت بأهل النّار من الله سطوة مجيحة⁴⁶⁴، وعقوبة منيحة⁴⁶⁵، وبرزت الجحيم لها كُلب⁴⁶⁶ ولجُب⁴⁶⁷ وقصيف رعد وتغيّظ ووعيد، تأجّج جحيمها، وغلا حميمها، وتوقد سمومها، فلا ينفس خالدها، ولا تنقطع حسراتها، ولا يقصم قبولها⁴⁶⁸، معهم ملائكة يبشّرونهم بنزل من حميم، وتصلية جحيم، عن الله محجوبون، ولأوليائه مفارقون، وإلى النّار منطلقون.

عباد الله، اتقوا الله تقيّة من كنع⁴⁶⁹ فخنع، ووجل فرحل، وحدّر فأبصر فازدجر، فاحتثّ طلبا، ونجا هربا، وقدم للمعاد، واستظهر الزّاد، وكفى بالله منتقما وبصيرا، وكفى بالكتاب خصما وحجيجا، وكفى بالجنّة ثوبا، وكفى بالنّار وبالا وعقابا، وأستغفر الله لي ولكم⁴⁷⁰.

أما الاستعداد المقبول فهو الاستعداد المطلوب الذي حتّ عليه علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، الموت لها حالةٌ وصيتٌ، وصورتها ماثلة في عقل كلّ واحد منا، وهي من هذا الوجه مثل الضّيف الذي سيحلّ في دارك فإنّك على أتمّ المعرفة به، فتستقبله باستقبال يليق بمقامه، ولسنا ببعيدين عن الإمام علي لقد

⁴⁶³ - الآية من سورة الزمر 66.

⁴⁶⁴ - مجيحة: أي مهلكة، ومبطشة.

⁴⁶⁵ - تجعلهم ينوحون ويصرخون.

⁴⁶⁶ - لها أنياب كأنياب الكلاب تجذب الناس إليها، وهو كناية عن اشتداد الحر.

⁴⁶⁷ - لجب بمعنى الصوت.

⁴⁶⁸ - قبولها أي قيودها الضخمة.

⁴⁶⁹ - كنع: خضع ولان.

⁴⁷⁰ - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصبهاني 1/ (77-79)، المهاجرون من الصحابة، علي بن

أبي طالب، وثيق عباراته ودقيق إشاراته.

قدّمت زوجه فاطمة الزهراء رضي الله تعالى عنها درسا في الاستعداد للموت غير مسبوق، لما استشعرت نعيمها أخبرت بأنها مقبوضة في نفس اليوم، فغسّلت نفسها ودفنت ذلك الغسل، وأوصت ألاّ تكشّف، أخرج ابن سعد والإمام أحمد من حديث عبيد الله بن علي بن أبي رافع عن أبيه عن أمّه سلمي⁴⁷¹ قالت: (مرضت فاطمة، فلما كان اليوم الذي توفيت قالت لي: يا أمّه، اسكبي لي غُسلا، فغسّلت أحسن ما كانت تغتسل، ثم لبست ثيابا لها جددا، ثم قالت: اجعلي فراشي وسط البيت، فاضطّجعت عليه، واستقبلت القبلة وقالت: يا أمّه، إنّي مقبوضة الساعة، وقد اغتسلتُ فلا يكشفني لي أحد كنفاً⁴⁷²، فماتت، فجاء علي فأخبرته، فاحتملها ودفنها بغسلها ذلك)⁴⁷³.

وقد رثاها علي بن أبي طالب بأبيات من الشعر جاء فيها:

لكلّ اجتماع من خليلين فُرقة ***** وكلّ الذي دون الممات قليل

وإن افتقادي فاطما بعد أحمد ***** دليل على أن لا يدوم خليل⁴⁷⁴.

تلك هي الدروس التي نستفيدها من بيت علي وفاطمة عليهما السلام في الاستعداد للموت.

3- الوصية بالموت

لا خير في وصية لا يكون فيها الموت حاضرا، ولا خير في موصي لا يوصي بالموت، ولا خير في موصى لا يضع بين عينيه الوصية بالموت، وهذا من ذخائر

⁴⁷¹ - سلمي هي مولدة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي امرأة أبي رافع مولى رسول الله، كانت قابلة لخديجة بنت خويلد في أولادها من رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنظر ترجمتها في الطبقات الكبرى لابن سعد 181/8 رقم 4157.

⁴⁷² - عند ابن سعد في الطبقات الكبرى 23-22/8 كتفا

⁴⁷³ - الخبر في الإصابة للحافظ ابن حجر 267/8، وقد تكلموا في الأثر بتجريح بعض رواته.

⁴⁷⁴ - مروج الذهب للمسعودي 297/2، وانظر وصايا العلماء عند حضور الموت ص 42.

ثقافة النقل، وهي ذخائر منسية، لا تُفتح ولا يلتفت إليها، والمنايا يوشك أن تسبق الوصايا كما قال ابن عمر⁴⁷⁵، وقد صنّف في الموضوع الحافظ أبو سليمان محمد بن عبد الله بن أحمد بن زبر الربيعي- كانت وفاته سنة 379هـ - رسالة قيّمة بعنوان (وصايا العلماء عند حضور الموت)، جمع فيها وصايا الصحابة والتّابعين من المحدثين والفقهاء والعلماء بأسانيده إلهم، ومن الوصايا القيّمة أنّ أبا بكر لما أوْشك أن يقبض أرسل إلى عمر بن الخطاب وأوصاه بوصيّة تتضمّن ذكر الموت، وأبو بكر أوصى بما أوصى به الرّسول ﷺ، وأوصى بما هو صائر إليه، ثم إنّه أوصى بما سيصير إليه عمر بن الخطاب من بعده، فقال له: (فإن حفظت وصيّتي هذه، فلا يكوننّ غائب أحبّ إليك من الموت، ولا بدّ لك منه، وإن أنت ضيّعت وصيّتي هذه فلا يكوننّ غائب أبغض إليك من الموت، ولا بدّ لك منه، ولست تعجزه)، وكان آخر ما قال قبل خروج روحه: ﴿توفني مسلماً وألحقني بالصالحين﴾.⁴⁷⁶

ولما طعن أبو عبيدة بن الجراح بالأردن - وقد وقفت على قبره هناك- دعا من حضره من المسلمين فأوصاهم بالصّلاة والزّكاة والصّوم والصّدقة والحج والاعتماد وصلة الرّحم والنّصيحة، ثمّ قال: (ولا تلهكم الدنيا فإنّ امرءاً لو عمّر ألف حوّل ما كان له بدّ من أن يصير إلى مثل مصرعي هذا الذي ترون، إنّ الله كتب الموت على بني آدم فهم ميّتون، وأكيسهم أطوعهم لرّبّه، وأعملهم ليوم ميّعاده، والسّلام عليكم ورحمة الله وبركاته، يا معاذ بن جبل: صلّ بالنّاس).⁴⁷⁷

ولما حضر الموت عبد الله بن مسعود دعا ابنه قائلاً: (يا عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود: إنّني أوصيك بخمس خصال فاحفظهنّ عني، أظهر اليأس للنّاس

⁴⁷⁵ - قول موقوف لابن عمر أخرجه الحافظ أبو سليمان الربيعي في وصايا العلماء عند حضور الموت، ص 24.

⁴⁷⁶ - الوصية بتمامها أخرجه أبو سليمان الربيعي في وصايا العلماء عند حضور الموت بسند ضعيف، أنظر ص 33، وهي عند ابن الجوزي في الثّبات عند الممات ص 81، وعند الغزالي في إحياء علوم الدّين 562/4، والآية من سورة يوسف رقم 101.

⁴⁷⁷ - كتاب التّعازي والمراثي للمبرد ص 121-122.

فإنّ ذلك غنى فاضل، ودع مطلب الحاجات إلى النَّاس فإن ذلك فقر حاضر، ودع ما تعتذر منه من الأمور ولا تعمل به، وإن استطعت أن لا يأتي عليك يوم إلا وأنت خير منك بالأمس فافعل، وإذا صلّيت صلاة فصل صلاة مودّع كأنك لا تصلّي بعدها) ⁴⁷⁸.

هذا هو الجانب الذي تجسده الوصية الشرعية عند الموت، أما الجانب الآخر للموضوع فنختار منه وصية "ستيفن بول جوبز" أحد أقطاب رجال الأعمال في الولايات المتحدة، المؤسس الشريك والمدير التنفيذي لشركة آبل العالمية ⁴⁷⁹، نقلوا عنه ما يلي: (لقد وصلتُ الى قمّة النجاح في الأعمال التجارية. في عيون الآخرين، حياتي كانت رمزاً للنجاح، ومع ذلك، وبصرف النظر عن العمل، كان لدي وقت قليل للفرح، في هذا الوقت، وأنا ممدد على سريري في المستشفى، أتذكر حياتي الطويلة، وأدرك أن جميع الجوائز والثروات التي كنت فخوراً جداً بها أصبحت ضئيلة وغير ذات معنى مع اقتراب الموت الوشيك، الآن فقط أفهم، بعدما أمضيت حياةً محاولاً جمع ما يكفي من المال لبقية حياتي، أن لدينا ما يكفي من الوقت لتحقيق أهداف لا تتعلق بالثروة فقط ...) ⁴⁸⁰.

4- مذاكرة الموت

إنّ أكبر خسارة بالنسبة للإنسان نسيان الموت، وأكبر ربح بالنسبة للإنسان هو ذكر الموت، ويتضمن الذّكر هنا التذكّر والتذكير، فالموت ثقافة، ومعرفة متكاملة، ينجي بها الإنسان نفسه وغيره، صحيح أن الموت له ارتباط بالغيب أكثر

⁴⁷⁸ - أخرجه الحافظ أبو سليمان الربيعي في وصايا العلماء عند حضور الموت بسند منقطع، ص 51.

⁴⁷⁹ - ستيفن بول جوبز Steven Paul Jobs ، ولد في 24 فبراير 1955، وكانت وفاته في 5 أكتوبر 2011م، رصدت سيرته الذاتية طبع سنة 2012م، وله ترجمة موسعة في ويكيبيديا (الموسوعة الحرة)

على الموقع: <https://ar.wikipedia.org/wiki>

⁴⁸⁰ ، ومنهم من شكك فيه .gkindshivani.wordpress.com- النص مترجم عن اللغة الإنجليزية، والخبر

لكنّ الدرس من عالم الغيب جاهز منذ قرون، وقد تراكم عبر الزمن، فمذاكرة الموت وصية من الشّرع: (اذكروا هادم اللّذات)، ولن يستقيم تذكير النّاس به ما لم يذكره الإنسان مع نفسه أولاً، يبدأ بنفسه، سئل النّبي ﷺ عن أكيس النّاس فقال (أكثركم ذكركم للموت)، وكان يقول: (الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت) ⁴⁸¹.

كم نخصّص من الوقت لذكر الموت؟ لا شيء، كلّ الوقت لذكر الحياة، الإنسان يحيا الحياة، ويذكر الحياة، لكنّه ينسى الموت، مع العلم أنّ الموت والحياة كائنان موجودان، وقدّرهما عليه، القلب الذي لا يذكر الموت قو قلب قاس وصلب، قلب ممتلئ بالحياة الدّنيا وحدها، لا مكان فيه للحياة الآخرة، هل حدّدنا ولو مرّة في الشّهر موعدا نتذاكر فيه عن الموت وأهوالها، والموتى ووقائعهم، كم تُعجبنى قراءة سير الماضين من الصّالحين وغير الصّالحين، موعظة عظيمة لمن تدبّرها، وعنصر التدبّر مهمّ جدا هنا، كلّنا نرى الأهرامات ماثلة أمامنا، وموميאות الفراعنة وآثارهم المتبقية، البعض يراها سياحة ومنتعة، لكن عند آخرين -وهم قلة- يرونها آية من آيات الله، وإذا ربطوها بقصّة فرعون مع موسى فذاك تفسير للقرآن لن يظفر بمثله.

كان عمر بن عبد العزيز يجمع كل ليلة الفقهاء فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة، ثم يبكون كأن بين أيديهم جنازة، وروي أنّه إذا ذكر الموت عنده انتفض انتفاض الطّير، فيبكي حتى تجري دموعه على لحيته، وبكى ليلة فبكى أهل الدّار جميعهم، فلما تجلّت عنهم العبرة قالت له زوجته فاطمة: (بأبي أنت يا أمير المؤمنين

⁴⁸¹ - أخرجه الترمذي في سننه، 638/4 رقم الحديث 2459، كتاب القيامة والرقائق والورع، باب 25، وقال: (هذا حديث حسن).

ممّ بكيت؟ قال: ذكرت منصرف القوم من بين يدي الله تعالى، فريق في الجنة وفريق في السّعير)، ثم صرخ وغشي عليه⁴⁸².

ولذكر الموت شروط لا بد من تحقّقها، من دونها لا يجد الراغب في ذكره للموت حلاوةً، أو هو لا ينتفع من ذكره له بشيء، سطر الإمام الغزالي في تحقيق ذكر الموت فقرةً جيدةً جاء فيها: (اعلم أنّ الموت هائلٌ وخطره عظيم، وغفلة الناس لقلّة فكرهم فيه وذكرهم له، ومَنْ يذكره ليس يذكره بقلبٍ فارغ بل بقلب مشغول بشهوة الدّنيا فلا ينجع ذكر الموت في قلبه، فالطريق فيه أن يُفرغ العبد قلبه عن كلّ شيءٍ إلّا عن ذكر الموت الذي هو بين يديه، كالذي يُريد أن يُسافر إلى مفازة مخطرة أو يركب البحر فإنّه لا يتفكّر إلّا فيه، فإذا باشر ذكر الموت قلبه فيوشك أن يؤثّر فيه، وعند ذلك يقلّ فرحه وسروره بالدّنيا وينكسر قلبه. وأنجّع طريق فيه أن يُكثر ذكر أشكاله وأقرانه الذين مضوا قبله، فيتذكّر موتهم ومصارعهم تحت التّراب، ويتذكّر صورهم من مناصبهم وأحوالهم، ويتأمّل كيف محا التراب الآن حسن صورهم، وكيف تبدّدت أجزاءهم في قبورهم، وكيف أرملوا نساءهم، وأيتموا أولادهم، وضيّعوا أموالهم، وخلت منهم مساجدهم ومجالسهم، وانقطعت آثارهم،

فمهما تذكّر رجل رجلاً، وفصّل في قلبه حاله، وكيفية موته، ووهم صورته، وتذكّر نشاطه، وتردّده وتأمّله للعيش والبقاء، ونسيانه للموت، وانخداعه بمواتاة الأسباب، وركونه إلى القوّة والشّباب، وميله إلى الضحك واللّهو، وغفلته عمّا بين يديه من الموت الدّريع والهلاك السريع، وأنّه كيف كان يتردّد والآن قد تهدّمت رجلاه ومفاصله، وأنّه كيف كان ينطق وقد أكل الدّود لسانه، وكيف كان يضحك وقد أكل التّراب أسنانه؟ وكيف كان يُدبّر لنفسه ما لا يحتاج إليه - إلى عشر سنين- في وقت لم يكن بينه وبين الموت إلّا شهر وهو غافل عمّا يُراد به، حتى جاءه

⁴⁸² - صفة الصّفوة لابن الجوزي 121/2.

الموت في وقتٍ لم يحتسبه، فانكشف له صورة الملك، وقرع سمعه النداء إِمَّا
بالجنة أو بالنار، فعند ذلك ينظر في نفسه أنه مثلهم، وغفلته كغفلتهم، وستكون
عاقبته كعاقبتهم) ⁴⁸³.

ونقل من قول أبي الدرداء قوله: (إذا ذكرت الموتى فعد نفسك كأحدهم)،
ومن قول ابن مسعود: (السَّعيد من وعظ بغيره)، ثم قال: (فملازمة هذا الأفكار
وأمثالها مع دخول المقابر ومشاهدة المرضى هو الذي يجدد ذكر الموت في القلب،
حتى يغلب عليه بحيث يصير نصب عينيه، فعند ذلك يوشك أن يسند له،
ويتجافى عن دار الغرور وإلا فالذكر بظاهر القلب وعذبة اللسان قليل الجدوى في
التحذير والتنبية، ومهما طاب قلبه بشيء من الدنيا ينبغي أن يتذكر في الحال أنه
لا بدَّ له من مفارقتة) ⁴⁸⁴

وفي نهاية هذه الفقرة نوصي بالقول: تذكر الموت، فإن لم تتذكره فهو
يُذْكَرُكَ.

5- التدريب على الموت

يجب التفريق بين " التربية المتصلة بالموت " و" التدريب على الموت."

التربية المتصلة بالموت ويطلق عليها Death Education تتم عبر وسائل
سمعية وبصرية وعبر محاضرات وحلقات دراسية لفائدة أصحاب المهن الذين
يتعاملون مع المرضى المحتضرين، وتخض الممرضين والممرضات، فتزايد أعداد
المحتضرين ورؤية الموتى كل يوم والتعامل مع الجثث البشرية يحدث قلقا لدى
أصحاب المهن مما يؤثر على نفسياتهم، وهذا التأثير يمتد إلى عملهم فيسوء
تعاملهم مع المرضى، مع العلم أنّ المعاملة الطيبة مع المحتضر هي جزء من

⁴⁸³ - إحياء علوم الدين 533/4.

⁴⁸⁴ - المصدر السابق 534/4.

حقوقه التي يجب أن تُراعى⁴⁸⁵، وإذا كان هذا الأسلوب قد نجح نسبياً في بعض الجهات من العالم فإن موجة الكوفيد 19 التي اجتاحت العالم أظهرت مدى حاجة الأطر الطبيّة والصحية في العالم إلى هذا النوع من الترتيب.

أما التّدريب على الموت فهو نوع من الاستعداد للموت، وهو فرع من علم دراسة الموت والاحتضار الذي يطلق عليه *Thanatologie*، وقد تكلمنا عليه في مقدّمة الكتاب، وسواء تمّ هذا الاستعداد في إطار هذا العلم أو في خارجه فإنّه قد تمّ العمل به في بعض الجامعات والجهات الرّسمية وغير الرّسمية في جهات مختلفة من العالم، ففي التّاييلاند قامت جامعة في بانكوك بتنظيم دورة حول كيفية الاستعداد للموت والتّعامل معه، أقيمت الدورة تحت شعار (الموت الجميل)، مستغلّة مناسبة موت ملك البلاد، وصرحت موجّهة الدورة - وهي أستاذة جامعية وتدعى " أيم أوتشا واتانابورانون" - بأنّ التّدريب يدخل في الأنشطة الدّراسية التي تسمح للطلّاب بالتّدريب على الحزن لفقدان أحبّائهم، وعليهم أن يُحسّوا ويعتقدوا أنّ البكاء لا بأس به، ، وبینت بوضوح أنّ الهدف من الدّورة هو (مساعدة الطّلاب على الاستعداد للموت، الذي هو أمر طبيعي جداً...وألّا يخافوا منه)، مضيفة بأنّ (هذا الاستعداد يجب أن يكون شاملاً، عقلياً ومالياً على حدّ سواء).

وأضفت أن (الدّورة سوف تعلّم الطلاب أيضاً قيمة الحياة، حتى يتمكّنوا من أن يعيشوا حياتهم على أكمل وجه، وألّا يضرّوا بالآخرين أو يُقدموا على الانتحار).

كما فكّر في الموضوع نفسه مكتب تابع للإدارة المحلية في شمال غرب عاصمة كوريا الجنوبية فترجمته في صورة دورة تدريبية بعنوان (الموت بشكل جديد)، نُظّم التّدريب تحت شعار: (لا تعتبر الحياة شيئاً مسلماً به، وتعيش وكأنك تعيش أبداً)، فمن خلال العنوان والشّعار تظهر الرّسالة التي أراد المنظّمون

⁴⁸⁵ - قلق الموت ص 229-230

إرسالها للناس، فقد صحّ مدرب الدّورة السيّد كانج كوانج من أنّ التّجربة جعلت الإنسان يقترب أكثر من الموت، وهذا الاقتراب الفعلي الذي توقّره هذه الدّورة يفيد كلّ النّاس كبارا وصغارا، وصورة هذا التّدريب أنّ المتدربين ارتدوا الملابس التّقليدية الصّفراء التي يرتادها الموتى، ورفدوا في طمأنينة وسلام داخل النّعش إلى أن جاء رجل متجهم أسود اللّون وأغلق عليهم التّابوت بإحكام، وبدأ كلّ واحد يتأمّل وضعه كجنازة في تابوت، غارقا في أحلامه وتأمّلاته، سابحا في أحاسيس غريبة وشعور مريب، وقد خضع لهذه التّدريب حوالي سبعين شخصا من النّساء والرّجال، والمهم هو ما عبّر عنه هؤلاء من أحاسيس ومشاعر تجاه الموت، وكلّهم يتخيّلون أنّ ما هم فيه كأنه جنازة حقيقية، تحكي واحدة منهم- وهي امرأة مهذّدة في حياتها بسبب السّرطان وتُدعى بايك سونج أوك- إنّ ما مرّت به جعلها تحسّ بالأخريّن أكثر، وبدأت من يومها تقترب من النّاس أكثر، تقول: (لن أكون جشعة بعد الآن.. سأقترب من زوجي، وأعبّر عن حبّي لأولادي أكثر).

لقد اهتمّ عدد كبير من النّاس بهذه الدّورات، وانخرطوا فيها، وانتشرت على شبكة الأنترنت في مواقع عديدة، ونحن نقول إنّ النّتيجة التي خلصت إليها هذه الدّورة التّكوينية عن الموت جعلتنا نقرب من ثقافة النّقل أكثر، وإنّ معرفة هذه الثّقافة شفاء لما في الصّدور بخصوص قضية الموت، ذلك أنّ الدّورة التّكوينية اهتمّت بإحساس الإنسان وهو في صورة الموت، ولم تشر من قريب أو من بعيد إلى مصير الإنسان بعد الموت، وهو الأمر الذي لا يمكن استفادته من دورة تكوينية، ومع ذلك تبقى الفكرة في حدّ ذاتها جيّدة، وتلفت انتباه شريحة من البشر إلى تدكّر الموت.

6- زيارة المقابر

إذا كنت تخاف من الموت فلا تخف من زيارة المقبرة، المقبرة ليست هي الموت، إنّك زائر، والزائر مثل الضيف، المكان الذي جاء منه يرجع إليه، المقبرة لا

تمسكك، لكتّها تقدّم إليك دروسا لا تجدها في أية مدرسة أو جامعة، وحين جاءت الوصية، ونسخ النّهي بالأمر في زيارة القبور كان القصد هو ما علّل به الأمر، وهي أنّها تُذكر بالآخرة. الكيّس من يأخذ من زيارة المقبرة درسا وموعظة، بل منهم من كان يهدّب بها نفسه، ويلين بها قلبه، من هؤلاء صفوان بن سليم – وهو رجل من التابعين- كان إذا قسا قلبه قصد البقيع، وكان يفعل ذلك منفردا، ويذهب متخفيا، يجلس إلى قبر من القبور ويقنع رأسه ويبكي على خطيئته، تنبّه إليه محمد بن صالح التّمّار فتبعه فوجده على هذا الحال، وحكى ذلك لمحمد بن المنكدر بقوله: (إنّما ظننت أنّه قبر بعض أهله، فقال محمد: كلّهم أهله وإخوته، إنّما هو رجل يحرك قلبه بذكر الأموات كلما عرضت له قسوة)⁴⁸⁶.

وروي عن أبي ذر الغفاري أنّه قال: قال لي رسول الله صلّى الله عليه وسلم: (زر القبور تذكر بها الآخرة، واغسل الموتى، فإن معالجة جسد خاوي موعظة بليغة، وصلّ على الجنائز لعل ذلك أن يحزنك فإن الحزين في ظلّ الله)⁴⁸⁷.

من بين الأسباب الدّافعة للتّصنيف في هذا الموضوع الكلمات التي ساهمتُ بها في دفن الجنائز، كلمات تمّت في المقابر، وعلى رؤوس الموتى، والمقصود بها الأحياء المشيّعون، الدخول إلى المقابر يطلعك على عالم آخر، عالم المقابر الصّامته، والأجساد المترابطة فيها عليها ركام من الأتربة، نُقشت عليها كتابات تاريخية تبين أن صاحب هذا القبر هو فلان بن فلان، مات يوم كذا، في شهر كذا، من سنة كذا، كتابة تشير إلى أنّ الهالك عاش فوق الأرض لكنّه الآن تحتها، ترى المقابر مترابطة فيها الصغير والكبير ومتوسط العمر، كلّ الأعمار موجودة هنا، وكلّ أصناف البشر من الرّجال والنّساء والأطفال، فيها الغني والفقير، قبور بُنيت بالأحجار الملونة، والنّقوش، وعليها نباتات خضراء وعشب أخضر، وأخرى سويت

⁴⁸⁶ - سير أعلام النّبلاء للحافظ الذّهي 366/5-367 ترجمة صفوان بن سليم، برقم 165.

⁴⁸⁷ - أخرجه الحاكم في المستدرک، وقال: (حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه)، كتاب الرقاق برقم

8059، وهو عند الغزالي في إحياء علوم الدّين 578/4.

بالتراب، عليها عشب يابس، وأخرى لا تكاد تتميز، مطموسة بالأرض، أعتقد أن الكلمات المكتوبة ومظاهر القبور التي هي على هذا الشكل موجّهة للأحياء لا للموتى، الموتى أفضوا إلى ما قدّموا ولن ينتفعوا بشيء من ذلك، مدعوُّ وأنت هنا لتنظر إلى الأحياء خارج المقبرة، وإلى عالم البنائيات المحيطة بها، عالم العمران الشاهق، إنسان يتعالى في البنيان، طبقة بعد أخرى، وآخر تُحفر له حفرة ينزل فيها إلى باطن الأرض لا يحرك ساكنا، يالها من معادلة متعاكسة.

نقول هذا الكلام لأن العقلانيين الأشرار يقبلون حقيقة زيارة المقابر، فرؤيتهم للمقبرة لا تعني شيئا عندهم، فهي بالعكس تذكّر في الحياة، فإذا كانت الأحكام الدينية تبيح زيارة المقابر لأنها تذكّر في الموت، لأنّ من خلال المقابر يُدرك الموت في الموت فإنّ رؤية العقلاني الملحد أو الجاحد البرهاني يرى أنّها تذكرك في الحياة، ومن هنا عليك أن تغادر المقبرة وأنت في قمة الفرح لأنك فوق التراب، وأن تلك الرؤية تدفعك لاستشعار عظمة الحياة، فإذا كانت الرؤية الأولى تجعلك تحس بالحزن فإنّ هذه الرؤية تجعلك تحسّ بالفرح لأنك حي، والحياة نعمة عظيمة، هذا التصور هو تصور معكوس، يجعل من المرء ميّتا وهو حي، يتفاضل مع الموتى ومن هم تحت التراب، ثم إنّه يخلط بين عالم السياسة وعالم الرّوح حين يحمل الاعتقاد في الموت التّفريط في الحياة ليستولي عليها من يعمرها، فكأن الموت هو سبب العزوف عن الحياة بمرّة، وهو تصور غير سليم، فالإنسان إذا تحرّر من الاعتقاد وأنكر الغيب بإمكانه أن يقول ما شاء، ويجازف بأيّ شيء.

في المقبرة ترى العدل المطلق، الكلّ تحت الأرض، بنفس الحالة إلّا شيئا تراه في البنيان والألوان والعشب الأخضر والكتابة على الحيطان، وهذه أمور لا تجلب للميت نفعاً ولا تلحق به ضرراً، إنّما هي من مباهاة الأحياء، أو هي من تعليم أهل الميت على قبر ميّتهم حتى لا يتلف ولا يعرف، إنّها صورة مصغّرة عن يوم القيامة (ذا أردت صورة مصغّرة ليوم القيامة فاخرج إلى المقبرة، تجد فيها الشّريف والوضيع، والدّكر والأنثى، والصّغير والكبير، كلّهم سواء، كلّهم تحت هذا التراب،

كلّهم عليهم ما عليهم من التّراب، ما فيه أحد عنده قصر ولا أحد عنده خدم، ولا شيء، ولهذا قيل: أوّل عدل الآخرة القبور)⁴⁸⁸.

7- التّعوذ من عذاب القبر

عذاب القبر وارد، وهو عقيدة في دين الإسلام، لا ينكره إلا جاحد أو جاهل، الجاحد لا كلام معه لأنّه غير معتقد، والجاهل نسوق له هذه الأحاديث مساق التّعليم، فإنّ العلم يرفع الجهل، ولا يزهد في العلم إلا مستحي أو متكبر، الحديث الأوّل أخرجه البخاري في صحيحه من حديث أبي أيوب الأنصاري قال: (خرج النّبي صلّى الله عليه وسلم وقد وجبت الشمس فسمع صوتا فقال: يهود تعذب في قبرها)⁴⁸⁹، والثاني حديث أبي هريرة قال: (كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يدعو: اللهم إنّي أعوذ بك من عذاب القبر، ومن عذاب النّار، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال)⁴⁹⁰.

⁴⁸⁸ - الشّيخ العثيمين رحمه الله في شرح بلوغ المرام 608/2.

⁴⁸⁹ - الجامع الصحيح، كتاب الجنائز، باب التّعوذ من عذاب القبر، أنظر الفتح 241/3 رقم الحديث 1375.

⁴⁹⁰ - المصدر السّابق 241/3 رقم الحديث 1377.

فصل في نقلانية تصور الحياؤه والموت



1- نقلانية الحياؤه

الإنسان يحيا الحياة لغرضين: الأول ليعيش حياة سعيدة، هادئة وخالية من المشاكل التي تعكر صفو السعادة الدنيوية، والثاني ليكون لهذه الحياة هدف ومعنى، فلا تكون حياة بهيمية، الحياة لها معنى، وهذا المعنى هو الذي يحدّد قيمتها، وقد ألف الإنسان أن يعيش حياته منذ القدم بطريقة طبيعية وعادية من دون التّفكير في الهدف والقيمة، وفي دوره فيها، ورسالته في الوجود، وكيف يحيا الحياة، وحقيقة الموت، وما بعد الموت، وكيف يتعامل معه الموت...

لا يستقيم أن نتحدث عن الموت في الجنّة، لأن طبيعة الجنّة تشير إلى الحياة الحقيقية، الجنّة هي جزء من يستحقّها ليحيا فيها الحياة الحقيقية، ولذلك لا يوجد موت في الجنّة، وحتى ما يقدّم لأهل الجنّة من لحم طير ممّا يشتهون، فتلك طيور تُذبح ولا تموت، لا موت لأيّ كائن، أكان ملكا أو إنسانا أو حيوانا، لذلك قال تعالى بعد أن وصف ما أعدّ للمتّقين في الجنّة من عيون وحوار عين وفاكهة مما يتخيرون قال: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ، إِلَّا الْمَوْتَ الْأَوَّلَ، وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾⁴⁹¹.

2- حياؤه الموت

الحياة لا تجتمع مع الموت لأنهما نقيضان، والنقيضان لا يجتمعان، وقانون الخلق يفرض أنّ الحيّ غير ميّت، فإذا مات استحال حيّا، لكن أليس للموت فعل

⁴⁹¹ - سورة الدّخان الآية 53.

في الذات؟، أو ليس فعله ذاك هو حياته؟، أو ليس خلقه هو وجوده؟ ألا يدل ذلك على أنّ الموت حيٌّ؟

نعم، إنّه حيٌّ، ودليل حياته وجوده، ويجب التفريق بين الجسد الميت والموت، فلا يلزم من موت الجسد وخروج الرّوح موت الموت، فلو مات الموت كموت الجسد لما بقي للموت وجود تماما كالجسد الميت، ما بقي له وجود سوى وجوده في الذاكرة والوجدان، إنّ حياة الموت في الدّنيا وفعله في الأحياء هو المقدّمة الأولى والصّحيحة نحو الكلام عن موت الموت في العالم الآخر.

3- النقلانية وعناصر الذات

نعني بعناصر الذات الجسد الحي، وبذلك نقول إن الأطراف المحدّدة للإنسان تجاه الموت خمسة: الطّرف الأول: الأنا، الطّرف الثاني: الرّوح، الطّرف الثالث: العقل، الطّرف الرابع: الموت، الطّرف الخامس: الحياة.

سنتكلم عن هذه الأطراف مجتمعةً ومتفرقةً في هذا الكتاب بحسب طبيعة موضوع فقراته، الأنا هي الذات، وهي الجسد، فبالعقل يكون عاقلا، وهو الأنا المفكر، الحي الذي يعيش ويحس، يتألّم ويتلذّذ، ويشقى ويسعد، إذا حلّت الرّوح في الجسد فهو حيٌّ وإذا فارقتة فهو ميت، وتشكل الرّوح طرفا مستقلا لكونها كائنة بالجسد وبدون الجسد، فإذا كانت كانت الأنا بالذات والعقل، وإذا غابت تركت الجسد خشبة هامة، علاقة الرّوح بالجسد علاقة تزاوج، تزاوج يهب الحياة، الحياة بكلّ أبعادها، ومن هنا كانت الحياة طرفا مستقلا، لأنّ الحياة قد تكون بالأنا وبغيرها، فموت الذات لا يميت الحياة كلّها، أما الطّرف الأخير فهو الموت، والموت كائن مستقل، موجود بحياتنا، والدليل على ذلك تفكيرنا فيه ونحن أحياء، ثم هو موجود حينما يحلّ في الذات، كما تشكل الحياة طرفا خامسا، وهو طرف مستقل، هو ضد الموت لأنه ضدّها في التّعريف فقط لا في الوجود، فهما يتبادلان جدلية الوجود وعدم الوجود، قد يكون الموت ولا تكون الحياة، والعكس، وقد

يكونان معا، وهو موضوع عالجناه في موضعه، لكن مزية الحياة أنّها حين تكون فإن الأطراف الثلاثة تكون مجتمعةً وتتفاعل مترادفةً: الذات والعقل والروح، لكن إذا حلّ الموت لا يبقى غير الجسد وإلى حين.

4. حبّ الحياة بين بين

الكلّ يحبّ الحياة ولا أحد يكرهها، ونفوسهم لا تميل إلى الموت ولا أحد يحبّها، تُرى: لماذا نحبّ الحياة؟ هل نحبّها لأنها محور الوجود، أم نحبّها لتفريه الجسد أم لأنها حياة وحسب، أم لأنّ لنا فيها مبادئ وقيم يجب إيصالها والقيام بها؟

إذا حدّدنا الجواب على هذه الأسئلة تحكّمنا في تصرفاتنا تجاه الموت، إنّ البقاء وحبّ البقاء غريزة في الإنسان، لم تصنعها العلوم الطّبيعية والإنسانية، ولم تأت بها أية نظرية من النظريات الفلسفية، نعم يتمّ الكلام عليها بأساليب وطرق مختلفة لكنّ الكلام على الشّيء لا يعني خلقه وإيجاده، إنّها الغريزة الفطرية التي تدفع الإنسان نحو البقاء ونحو حبّ الحياة، لكنها غريزة تُهدّب وتوجّه وتُغدّي بالتّشريع النّقلاي والتّوجيه الرّباني.

مما يدعو إلى الاستغراب أن توجد لدينا معارف عديدة وفهوم كثيرة عن الموت، من الطب والبيولوجيا والفقهاء وتاريخ الفكر البشري وعلوم الآداب والفلسفة والشّعور والجغرافيا لكنّها لم تستثمر كما يجب، كثير من المؤمنين ومن غير المؤمنين يوجدون في حالة من الجهل التام بقضية الموت، أما العلماء والباحثون والمفكّرون فهم غير مستعدّين لتقديم إجابات واضحة عن الأسئلة الأساسية المطروحة.

الطّبيعيّون ليسوا مهملين خاملين، إنّهم يناضلون ضدّ الموت بالحياة، ويُسخّرون الأولى للثانية، إنّهم يحيون حياة معينة، يضربون في الأرض فسادا من أجل الحياة، كلّ شيء حلال، وكلّ شيء مباح، وكلّ ما هو على وجه الأرض منحة

من الطّبيعة يجب استنزافه، والإنسان جزء من الطّبيعة، لا قدسية له ولا شرف، إنّه مثل الشّجرة، يتنفس ليعيش ثم إنّه في الوقت نفسه مسخّر لغيره، فهو وأشياء الطّبيعة سواء، فليمت ليحيا غيره، هي دورات الطّبيعة الحتمية.

إن الموت الطّبيعي هو الاستغلال المفرط للحياة، ومن لم يستغل عمره في الحياة فهو من منظور الطّبيعيّين كالميت مرتين، وإذا استغلّ الإنسان حياته كما يجب فهو كمن وضع للموت استعداداه، فليأت الموت إذن، لأنّه في هذه الحالة سيستقبلها بسهولة، مساكين هؤلاء الذين يؤمنون بحبّ الحياة، إنّ عواطفهم نبيلة تجاهها، وقد أكسبتهم عاطفتهم إحساسا مرهفا، يُشفقون على القطط والكلاب والحمير والبغال وحتى التماسيح والثعابين لكنّ الشّفقة تزول حين يُسحق الإنسان في أرجاء المعمور بالزيت والنار، وبأقذر الأساليب، قلوبهم ليّنة إلى درجة أنّهم يحبون كلّ النّساء، النّساء عندهم مثل المرأة الواحدة، يحبّ اليوم هذه وغداً أخرى، وقد صرّح أحدهم في إطار حرية الجسد: (يعجبني أن أرى جسدا عاريا لسبب واحد هو أنّه أحبّ إليّ من الجسد المكسي).

إنّ الخسارة تلو الخسارة عند الطّبيعيّين هي حين يأخذ الموت شابين في ريعان العمر، أو طفلا مازال يشقّ طريقه في الحياة، أو حين يموت الفقير الذي ما طرد الفقر بالغنى، والمريض الذي ما طرد المرض بالصّحة، والمظلوم الذي ما طرد الظلم بالعدل، والفاشل في الحياة الذي ما طرد الفشل بالنّجاح، والطامع المترجّي الذي فاجأه الموت فلم يحقق أمنيته، مثل هؤلاء يخيفهم الموت، والموت خسارة لهم، يقول مونتاني: (إنّ هذا شرط خلقكم، والموت جزء منكم، وأنتم تتهرّبون من أنفسكم)⁴⁹²، أما ميشال فيريه فيتحدّث متأوّها: (لقد ماتت طفولتنا، ومات شبابنا، ونحن لا نعيش إلا بثمر موت الأيام والسّاعات واللّحظات).⁴⁹³

⁴⁹² - الماركسيون والدين ص 128.

⁴⁹³ - المرجع السابق.

هل ما قيل صواب؟ هل الموت شرط الخلق؟ وهل هو جزء منا؟ وهل الطفولة تموت مع الشباب؟ لا تتعب في البحث عن الجواب فإنّ الكلام ليس لنا بكلّ تأكيد.

الملحدون بالموت سيعرفونه حين يحلّ فيهم، وسيدركون أنّ هذا هو الموت الذي كانوا عنه يحيّدون، وكما قال أحدهم وقد فاجأه الموت (إنّما الموتُ فيّ)، والملحد اللبيب هو من يراه في غيره ويتعظ.

5. المسيحية والحياة

كيف تنظر المسيحية إلى الحياة، وكيف تحدّدتها وتحدّد قيمتها؟

لقد تكلم يسوع عن الحياة كما تكلم عنها محمّد صلّى الله عليه وسلم، والوحي يخرج من مشكاة واحدة، والفرق أنّ خطاب محمّد صلّى الله عليه وسلم جاء للناس كافّة، وخطاب عيسى كان لبني إسرائيل خاصّة، لقد وجد عيسى عليه السلام من قومه معارضةً قويةً في فهم الحياة وطبيعتها، والموت وحقيقته، مع العلم أنّهم رأوا رأي العين كيف يعالج العُميان والعُرجان والمفلوجين وذوي العاهات، وكيف يشفي الأطفال ويمشي على الماء ويحيي الموتى إلخ، وبينّ لهم أنّ هذا كلّهُ ليس من عنده ولا بقدرته بل هو بقدرته الله عزّ وجل الذي أرسله ليصحّح لهم النّظرة إلى الحياة وليحيوا حياة طيبة، وتُقرر نصوص الأناجيل أنّ " الحياة الأبدية" هي من يسمع لوصايا عيسى وتوجيهاته، ويؤمن بها في العلم والعمل، ومن لم يسمع ويؤمن به فهو في " حياة الدينونة"، الحياة الأولى تنقل الإنسان من الموت إلى الحياة، أما الثّانية فتُردي به إلى الدينونة⁴⁹⁴.

6. حاضر الموتى

علاقتنا مع الأموات غير مفصولة ولا هي مقطوعة، الموت غير قاطع لوجود الأحبة والعظماء في قلوبنا، إنّ وجودهم في أعماقنا لا يدلّ إلاّ على شيء واحد،

⁴⁹⁴ - أنظر إنجيل يوحنا 5/ (24-26)، الكتاب المقدّس ص 148.

وهو أنّ العلاقة بيننا وبينهم موجودة على الرّغم من وجود الموت، وهنا نكون جميعا في الحياة، حياتنا التي لم يصبها الموت وموتهم الذي لم يزل آثارهم من الوجود،

للموتى حضورٌ فيما بيننا، والحضور ليس حضور وجود بل حضور تذكر وتقول، حاضرون بعنصر الرواية والحكاية، الحكاية تصير وجودهم وجودا، تنقلهم من عالم النسيان إلى عالم الاستحضار، من عالم الفرقة إلى عالم المعاشرة، تتحدث عنهم كما لو كانوا موجودين، سواء أكانت رواية الحكاية مكتوبة أو شفاهية منطوقة، لا يهم، إنهم حاضرون.

الصّورة تستحضر شيئا من وجودهم، فالصّورة ليست تعبيراً عن كل السنين بل هي تعبير عن لحظة من الزمن، لكتّها تعكس شيئا من حياة الميت، يبدو ماثلا أمامك كما لو أنه معك، وكثيرا ما كانت الصّورة تعبّر عن وجود الفقيد في بيته، يموت الفقيد وتبقى صورته معلقة على الجدار، يراها أولاده كلّما دخلوا وخرجوا، كانت الأمّ لبيبةً جدّا حين علّقت إلى جانب صورة زوجها الهالك جُبتّه، وكانت تملأ جيوب الجبّة بنقود المصروف اليومي، كلّما أراد الأطفال نقودا لشراء الحاجيات المنزلية كانت الأم تقول لهم: " اذهبوا وخذوا النّقود من جيوب والدكم "، تكرّرت تلك العادة سنين حتى كبر الأطفال، استطاعت هذه اللّبيبة التقيّة أن تجعل من صورة زوجها وشخصيته حاضرة على الدوام في بيته ولو بعد موته بسنين.

إنّني حين أنظر إلى صورة والدتي وهي ميّتة يخيل إليّ أن كلّ حياتها فيها، إنّ الصّورة الماثلة أمامي تعكس كل ما مرّ من سنين عمرها إلى تلك اللّحظة، وحين يحلّ الموت فإنه يطوي العمر طيا، يذهب الجسد بحمولة ثقيلة من السنين والتجارب والذكريات، تلك الذكريات المنقوشة في الشّعور واللاشعور والتي تجعل الإنسان حيّا كان حيّا أو ميّتا.

الموتى حاضرون معنا، مائلون أماننا بأقوالهم وأفعالهم، وكثير من الأحياء لا يتحركون إلا بوصايا الموتى وبرسائلهم، لو كان الأمر على خلاف ذلك لما كان للوصية معنى ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِيَّاهِمْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي، قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ، إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾⁴⁹⁵.

7- عيسى والذهب

جاء في قصص بني إسرائيل أنّ عيسى عليه السلام كان معه صاحبٌ في بعض سياحاته فأصابهما الجوع، وقد انتهيا إلى قرية، فقال عيسى عليه السلام لصاحبه: انطلق فاطلب لنا طعاما من هذه القرية، وأعطاه ما يشتري به الطعام، فذهب الرجل وقام عيسى عليه الصلاة والسلام يصلي، فجاء الرجل بثلاثة أرغفة فقعد ينظر انصراف عيسى من الصلاة، فأبطأ عليه فأكل رغيفا، وكان عيسى عليه الصلاة والسلام رآه حين جاء، ورأى الأرغفة ثلاثة، فلما انصرف من صلاته لم يجد إلا رغيفين فقال له: أين الرغيف الثالث؟ فقال الرجل: ما كان إلا رغيفين، فأكلاهما، ثم مرّا على وجوههما حتى أتيا على ظباء ترعى فدعا عيسى عليه الصلاة والسلام واحدا منها فجاءه فذكاه وأكلا منه، فقال له عيسى: بالذي أراك هذه الآية، من أكل الرغيف الثالث؟ فقال: ما كان إلا اثنين، ثم مرّا على وجوههما حتى جاء قرية فدعا عيسى ربه أن ينطق له من يخبره عن حال هذه القرية، فأنطق الله له لينةً فسألها عيسى فأخبرته بكل ما أراد، وصاحبه يتعجب ممّا رأى، فقال له عيسى: بحقّ من أراك هذه الآية من صاحب الرغيف الثالث؟ فقال: ما كان إلا اثنين، فمرّا على وجوههما حتى انتهيا إلى نهر عجاج فأخذ عيسى عليه الصلاة والسلام بيد الرجل ومشى به على الماء حتى جاوزا النهر، فقال الرجل: سبحان الله، فقال عيسى عليه الصلاة والسلام: بالذي أراك هذه الآية، من صاحب الرغيف الثالث؟ فقال: ما كان إلا اثنين، فمرّا على وجوههما حتى أتيا قريةً عظيمةً حربيةً،

⁴⁹⁵ - سورة البقرة الآية 132.

وإذا قريب منها ثلاث لبنات عظام، وقيل ثلاثة أكوام من الرَّمْل، فقال لها عيسى عليه السَّلام: كوني ذَهَبًا بإذن الله فكانت كذلك، فلما رآها الرَّجُل قال: هذا مال!، فقال عيسى: نعم، واحدة لي، وواحدة لك، وواحدة لصاحب الرِّغيف الثالث، فقال الرَّجُل: أنا صاحب الرِّغيف الثالث، فقال عيسى عليه السَّلام: هي كلُّها لك، ثم فارقه عيسى، وأقام الرَّجُل ليس معه ما يحملها عليه، فمرَّ به ثلاثة نفر فقتلوه، فقال اثنان منهما للثالث: انطلق إلى القرية فأتنا بطعام فانطلق، فلمَّا غاب قال أحدهما للآخر: إذا جاء قتلناه واقتسمنا المال بيننا، فقال الآخر: نعم، وأمَّا الَّذي ذهب ليشتري الطعام فإنَّه أضمر لصاحبيه السَّوء، وقال: أجعل لهما في الطعام سُمَّمًا فإذا أكلاه ماتا وأخذ المال لنفسه، فوضع السَّم في الطعام وجاء، فقاما إليه فقتلاه، وأكلا الطَّعام فماتا، فمرَّ بهم عيسى عليه السَّلام وهم مصروعون حولها فقال: هكذا الدُّنيا تفعل بأهلها⁴⁹⁶.

هذا من قصص بني إسرائيل، من رواية وهب بن منبه، وقد وردت بصيغ مختلفة، وهي قصص أمرنا أن لا نكذبها ولا نصدِّقها، وأن نتحدَّث عن بني إسرائيل ولا حرج، والقصة أبلغ من هذا العذر كلِّه، فهي في المال وما يفعله في الإنسان، من أجل بطنه يكذب، ومن أجل جيبه وشهوة التملُّك يقتل، يرى الآيات والعلامات ظاهرة، ويعيشها هو بنفسه ولا يتعظ، إذا لم يتعظ صاحب النَّبي فكيف بغير الصَّاحب، وإذا لم يتدبَّر من عاش الآية وجرب العلامة فكيف بمن سمع عنها، لكنَّ المنهج النَّقلي علَّمنا بقاعدته (ألا ليبليغ الشَّاهد الغائب، فلعلَّ بعض من يبلغه يكون له أوعى له من بعض من سمعه)⁴⁹⁷، فمازالت الدُّنيا تفعل بأصحابها ما فعلت بهؤلاء جميعا، قتل بعضهم بعضا من أجلها، فماتوا وتركوها.

⁴⁹⁶ - القصة بتمامها في كتاب المستطرف في كلِّ فنٍّ مستطرف لشهاب الدِّين الأبيشيبي، ص 579-580.

⁴⁹⁷ - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القسامة، باب تغليظ تحريم الدِّماء، 1306/3 رقم الحديث

فصل في الموت وما بعد الموت



1- حلول الموت

أ- الموت والانتحار

الانتحار هو التّعجيل بالموت في الدّات، حين يقدم الإنسان على قتل نفسه قصداً فهو منتحر، والمنتحر هو الذي لا يعتقد في الإيمان أو أنّ الإيمان عنده ناقص جداً بدليل وجود مؤمنين أقدموا على الانتحار، ومنهم من عاد من صلاة الصبح فشقق نفسه، ألا يعلم بالمصير والجزاء؟، من قتل نفسه هو كمن قتل نفس غيره، النّفس أمانة عند الإنسان يجب عليه أن يراها حتى تُؤخذ منه، المصير هو النّار كما قرّر ذلك نبي الإسلام محمّد صلّى الله عليه وسلم حين علم أنّ رجلاً قتل نفسه فقال: هو في النّار⁴⁹⁸.

موضوعنا الآن ليس معالجة ظاهرة الانتحار في حدّ ذاتها ولكنه موضوع يصوّب النّظر إليها في صلّتها بالموت، هل من أحدٍ قتل نفسه خوفاً من الموت؟ فإذا كان يخاف من الموت فلم أقدم عليها بالانتحار؟

المنتحر لا يخاف الموت، كلّما زاد القلق النّفسي، وزاد الإدمان على المسكّرات والمخدّرات، وكثر الإجرام، واشتدّ الاكتئاب والقلق والتوتّرات العصبية والأمراض العقلية والنّفسية والعضوية، وسدّت الأبواب، وضافت سبل العيش كلما تقلّص هامش الخوف من الموت، لماذا؟ لأنّ هذه العوامل - وهي كثيرة- هي ضرب من القتل البطيء، والمعرض للقتل البطيء لا يهاب الموت لأنه يسير إليه يوماً بعد

⁴⁹⁸ - أنظر ما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه 103/1 وما بعدها، الأحاديث برقم 109 و110 و111.

آخر، ومن هنا فهو يُقدم عليه بكل أريحية من دون النظر في العواقب، ولا توجد عنده عواقب دنيوية لأنه فارقها وقطع معها، فلا أحد يتابعه بعد الموت، ولا أحد يسأله عن تبعات ذلك، العواقب المقصودة هي العواقب الأخروية، الناس كلهم لهم نفس الإحساس، وعندهم مضايقات، ومشاكل متنوعة، وهم في قلق دائم لكنهم لا يرون في الانتحار حلاً لمشاكلهم، ولا يُقدمون عليه بسبب الإيمان بالقضاء والقدر، هنا يكون الإيمان رادعاً، ودور الإيمان هنا هو أنه يزيل نية الانتحار، وإذا زالت نية الإقدام تحصل الإحجام.

ب- موت الفجأة

وهو موت البغته الذي جاء ذكره في قوله تعالى: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾⁴⁹⁹، وقوله صلى الله عليه وسلم: (صلّ صلاة مودّع)⁵⁰⁰، وقوله (إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء)⁵⁰¹، وهو تنبيه تحذير من الموت باستمرار، فلحظته عصبية جداً لا على الذي أصابته الموت ولا على أهل المصاب وأقربائه وذويه، وهو تنبيه يستعجل التوبة من دون تسويق، والتمادي في تجاهل الموت من دون كسب الاستعداد له خسارة كبرى، والاستعداد له في كلّ وقت يكسب السعادة، ويجعل المرء في احتياط دائم من الوقوع في المحذور، سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن موت الفجأة فقال: (راحة للمؤمن وأخذة أسف للفاجر)⁵⁰².

⁴⁹⁹ - سورة الأعراف الآية 187.

⁵⁰⁰ - حديث أبي أيوب الأنصاري، أخرجه الإمام أحمد في المسند، 484/38 رقم الحديث 23498، وهو

صحيح.

⁵⁰¹ - موقوف على قول ابن عمر، تقدّم تخريجه

⁵⁰² - حديث عائشة أخرجه الإمام أحمد في المسند 136/6، المطبعة الميمنية

ج- سكرة الموت

لم يأت هذا الوصف إنشاءً، ولا هو وصف خرج مخرج المجاز بل هو مصطلح قرآني له دلالة حقيقية: ﴿وجاءت سكرة الموت بالحق﴾⁵⁰³، ثم نطق به الذي لا ينطق عن الهوى، نطق به وهو يذوق ألم الموت ومرارته، فقال صلى الله عليه وسلم: (إنَّ للموت سكرات)⁵⁰⁴.

وسكرة الموت غشيتها التي تدلّ على أنّ الإنسان هالك لا محالة، وهي من سكرٍ، ومنه السكران، وهو خلاف الصّاحي، والسكر نقيض الصّحو، وذكر اللّغويون للسكر ثلاثة أنواع: سكر الشّباب، وسكر المال، وسكر السّلطة⁵⁰⁵، ونسوا نوعاً رابعاً، وهو النّوع المنصوص عليه بالنّقل وهو "سكر الموت"، هذا النّوع من السكر هو الذي نحن بصدد الكلام عليه هنا، ولن نتكلّم عن النوع الخامس وهو سكر الشّراب، فهذا من تحصيل الحاصل، وعليه يقاس سكر الموت، لأنّ المحتضر يكون في حالة سكر، ومرجع ذلك إلى الخوف والعذاب، وهي معلّلة بمقتضى قوله: ﴿وترى النّاس سكارى وما هم بسكارى ولكنّ عذاب الله شديد﴾⁵⁰⁶، أي: أنّ ما أصابهم من سكر فهو ليس من سكر الشّراب بل من سكر العذاب.

أماننا آية عامة، هي بمثابة قاعدة كلية، جامعة ومضطرة، وموضوعية وواقعية، ويمكن أن نجمع فيها كل ما تقاس به القواعد الكلية عند المنظرين من الفقهاء والأصوليين والمناطقية، وهي قوله تعالى: ﴿كلّ نفس ذائقة الموت﴾⁵⁰⁷، ومعنى " ذائقة الموت " ذائقة لألم الموت، حتى الآن لا نعلم أنّ نفساً بشرية

⁵⁰³ - سورة ق الآية 19.

⁵⁰⁴ - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب مرض النّبي ﷺ ووفاته، أنظر الفتح 144/8 رقم الحديث 4449.

⁵⁰⁵ - لسان العرب لابن منظور 305/6

⁵⁰⁶ - سورة الحج الآية 2.

⁵⁰⁷ - سورة آل عمران الآية 185.

استثنائها الموت في عالم الحياة الدنيا، ولا نعلم أن نفسا بشرية ماتت ولم تذوق الموت.

لما حضرت الوفاة عمرو بن العاص دخل عليه عبد الله بن عباس فقال له: يا أبا عبد الله: كنت أسمعك كثيرا ما تقول: وددت لو رأيت رجلا عاقلا حضرته الوفاة حتى أسأله عما يجد، فكيف تجد؟ فقال: أجد كأن السماء مطبقة على الأرض، وكأني بينهما، كأنما أتنفس من خرت إبرة، اللهم خذ مني حتى ترضى.⁵⁰⁸

ما علاقة سكرة الموت بالاحتضار؟

بالمعنى المحدد لمفهوم الاحتضار أو للمعاني التي أعطيت له فإن سكرة الموت تدخل في عموم الاحتضار، فالاحتضار عملية ينشأ عنها إحساس ذاتي والسكرة منه.

د- الموت والاحتضار

سكرة الموت هي الاحتضار، تتكلم العلوم والمعارف الإنسانية والطبيعية عن الاحتضار، وتتكلم النصوص الشرعية عن سكرات الموت، والاحتضار هو حضور الموت في الذات، يقولون: حضر المريض واحتضر إذا نزل به الموت أو دنا موته⁵⁰⁹، وقيل الاحتضار من حضور الملائكة، وهو قريب من المعنى السابق، ومعناه لحظات خروج الروح، ومنه قوله تعالى: ﴿حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن﴾⁵¹⁰.

وتكلمت بعض النظريات التحليلية للموت عن الاحتضار هل هو حدث أو عملية، فالموت هو الحدث، والاحتضار عملية، وهي قضية لها صلة بمصدر الموت،

⁵⁰⁸- وفيات الأعيان 5/ 565-566 ترجمة رقم 846.

⁵⁰⁹- لسان العرب 3/216، مادة (حضر).

⁵¹⁰- سورة النساء الآية 18.

هل هو من داخل الإنسان أم من خارجه، فإذا قُتل بالبرق أو بالسيارة أو بالرصاص فمصدر الموت خارجي، أما إذا كان من داخله مثل مرض باطني أو سكتة قلبية أو دماغية فهذا داخلي، والاحتضار يشمل بعضا من الحالتين حين يكون إحساسا مبدئيا بما هو عادي ومتوقّع، الاحتضار يكمن في حالة المحتضر وليس مجرد الحكم بالأعراض، فقد تكون الأعراض خادعة، كأن تحكّم عليه بأنه يحتضر بناء على أعراض معيّنة لكنه يقوم بعدها ولا يموت، والتفريق بين حدث الموت وعملية الاحتضار يتحدّد بمقياس السؤال التالي: تقول في العملية كم من الزمن استغرق احتضاره؟، وتقول في الحدث: متى مات؟، وتستطيع أن تميّز بينهما حين ترى إنسانا مات من دون احتضار، ومن المفاهيم التي تمّ تحديدها للاحتضار ما يلي:

- الاحتضار عملية والموت حدث.
- يعي الإنسان عملية الاحتضار أو لا يعيها.
- الوعي بالاحتضار يعني أنّ الإنسان يواجه الموت فعليا، ويحسّ بها عمليا.
- قد يموت الإنسان من دون احتضار، ومنه موت الفجأة.
- بعض المواقف يعيشها الإنسان لا تجعله في مواجهة الموت أو هو سيموت فعلا.

هذه المفاهيم ذكرها نينيان سمارت وأقر بسطحيتها فاسحا في المجال لتصورات أخرى تكمل ما تقدّم⁵¹¹، وهو الأمر الذي نقوم به الآن في ربط الاحتضار بسكرات الموت.

⁵¹¹ - نينيان سمارت ضمن كتاب الإنسان وهموم الموت ص 50 وما بعدها

2- ما بعد الموت

أ- هل الموتى يسمعون ويبصرون

أثبتت دراسة أحدثتها جامعة ستوني بروك للطب Stony Brook Medicine ومقرها في نيويورك بالولايات المتحدة الأمريكية، وهي إحدى الدراسات العلمية الطبية التي هي من العيار الثقيل، ورائد هذه الدراسة هو الدكتور سام بارنيا⁵¹² الذي أجرى دراسات عديدة في "إنعاش الموتى" بأحدث تقنيات الإنعاش القلبي الرئوي، وهو صاحب كتاب "عكس الموت" الذي نشره في المملكة المتحدة، ويقول بأن الكثير من الناس الذين ماتوا بسكتة قلبية يمكن إنعاشهم حتى بعد أربع وعشرين ساعة من وفاتهم إذا تمّ حسن استخدام الإنعاش بوسائله وأدواته، وتؤكد بعض الدراسات التي أنجزت على هذا البحث⁵¹³ أنه في حال الموت يتوقف المخ، لكن مراكز السمع والإبصار تستمر في إعطاء إشارات لفترات طويلة بعد الوفاة لبضع ساعات، وهذا يدل على أنّ الميت يسمع ما يجري حوله حتى إنّه يسمع الباكين، ويرى ما يجري أمام عينيه إن التقطت عيناه الصورة الماثلة أمامه تماماً لو كان حياً لكنّه عاجز عن الكلام، ومشلول عن الحركة.

هذا ما أكده الطبّ في أحدث دراسة في الموضوع، لكن ما هو موقف الشرع من هذه الظاهرة؟

هناك نصوص حديثة صحيحة ووقائع من السيرة النبوية تتكلم في هذا الموضوع الذي أثبتته العلم المعاصر، ونحن نقول دائماً إنّ الشرع ليس في حاجة إلى العلم ليؤكد صحة ما جاء به، ويثبت صلاحية أحكامه، جاء الشرع بأمر أكدها

⁵¹² - Dr. Sam Parnia أستاذ مشارك في الطب، في المركز الطبي لجامعة نيويورك أنجون. وهو مدير الأبحاث في الإنعاش القلبي الرئوي في المملكة المتحدة.

⁵¹³ - (دراسة جديدة: العقول البشرية تبقى حية لساعات بعد الموت)، عنوان البحث الموجود على موقع:

https://www.outerplaces.com/science/item/after-death-study-human-brains-alive-hours-19095

العلم، كما جاء بأخرى لم يقل العلم بعد كلمته فيها سواء بالإثبات أو بالنفي، فهي باقية على أصلها، وليس من شروط الإيمان والتصديق استشارة العلم.

من هذه النصوص ما ثبت عن أنس بن مالك أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (إنَّ العبد إذا وُضع في قبره وتولَّى عنه أصحابه وإنه ليسمع قرع نعالهم...) ⁵¹⁴.

وثبت عنه قوله: (سمع المسلمون نداء النبي صلى الله عليه وسلم من جوف الليل وهو على بئر بدر ينادي: يا أبا جهل بن هشام، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبه بن ربيعة، يا أمية بن خلف ألا هل وجدتم ما وعد ربكم حقا؟! فقال المسلمون: يا رسول الله، تنادي قوما قد جيفوا؟ فقال: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، إلا إنهم لا يستطيعون أن يجيبوني) ⁵¹⁵.

قيلت هذه النصوص على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وتناقلتها الصدور والسطور قرونا عدة، وها نحن اليوم نشهد ميلاد هذه الشهادة العلمية من عالم الطب الحديث التي تثبت صحة ما جاء به الوحي، ولا ندري كم سننتظر من قرون ليقول العلم كلمته في صحة ما جاء في مرويات السنة النبوية الصحيحة، وكما قلتُ لسنا في حاجة إلى تأكيد العلم لما جاء به الوحي، لكنّها فائدة تحجم الطاعنين في النصوص من دون قواعد علمية.

⁵¹⁴ - حديث أنس بن مالك، أخرجه البخاري في جامعه الصحيح، كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر، أنظر الفتح 232/3 رقم الحديث 1374.

⁵¹⁵ - أخرجه ابن حبان في صحيحه من حديث أنس، كتاب التاريخ، باب المعجزات، ذكر الأخبار عن مصارع من قُتل ببدر من قريش، أنظر صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، 14/458-459 رقم الحديث 6525، مؤسسة الرسالة، بيروت، طبعة 1993م.

ب- مآل الأرواح بعد الموت

إذا أدركنا حقيقة الرّوح وقفنا على مصيرها ومآلها، فمن صفاتها أنّها من أمر الله، وأن مصدرها علوي، وأنّها تُقبض ويُصعد بها، وأنّها تزوج للبدن في القبر وعند البعث.

يقول الحافظ ابن الجوزي: (قد أشكل على النّاس أمر النّفس وماهيّتها، مع إجماعهم على وجودها، ولا يضر الجهل بذاتها مع إثباتها، ثم أشكل عليهم مصيرها بعد الموت، مذهب أهل الحقّ أنّ لها وجودا بعد موتها، وأنّها تنعم وتعذب⁵¹⁶، ومن الآثار الدّالة على ذلك حديث عبد الله بن مسعود في أرواح المؤمنين، أخرجه الإمام مسلم في صحيحه.⁵¹⁷

يرد الحافظ ابن الجوزي على صنفين من المتدخلين في الموضوع، صنف الآخذين بظواهر النصوص، وصنف المتردد بين الشك واليقين، يخاطب الصنف الأول فيقول: (وقد أخذ بعض الجهلة بظواهر أحاديث النعيم، فقال: إن الموتى يأكلون في القبور، وينكحون، والصّواب من ذلك أنّ النّفس تخرج بعد الموت إلى نعيم أو عذاب، وأنّها تجد ذلك إلى يوم القيامة، وإذا كانت القيامة أُعيدت على الجسد ليتكامل لها التنعم بالوسائط، وقوله " في حواصل طير خضر" دليل على أنّ النّفوس لا تنال لذّة إلا بواسطة، إلا أن تلك اللذة لذّة مطعم أو مشرب، فأما لذّات المعارف والعلوم فيجوز أن تنالها بذاتها، مع عدم الوسائط)⁵¹⁸.

ويُخاطب الصّنف الثاني منطلقا في حوار مع نفسه قائلا: (والمقصود من هذا المذكور أنّي رأيت بعض الانزعاج من الموت، وملاحظة النفس بعين العدم عنده، فقلت لها: إن كنت مصدّقة للشريعة فقد أخبرت بما تعرفين، ولا وجه للإنكار،

⁵¹⁶ - صيد الخاطر، ص 21

⁵¹⁷ - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمامة 1502/3 رقم الحديث 1887.

⁵¹⁸ - صيد الخاطر ص 27.

وإن كان هناك ريب في أخبار الشريعة صار الكلام في بيان صحة الشريعة، فقالت: لا ريب عندي، فقلتُ: فاجتهد في تصحيح الإيمان، وتحقيق التقوى، وأبشري حينئذ بالراحة من ساعة الموت، فإني لا أخاف عليك إلا من التّقصير في العمل، واعلمي أنّ تفاوت التّعيم بمقدار درجات الفضائل، فارتفعي بأجحة الجدّ إلى أعلى أبراجها، واحذري من قانص هوى، أو شرك غرة، والله الموفق) ⁵¹⁹.

الذي حدّر منه الحافظ ابن الجوزي - وهو صاحب كتاب تلبس إبليس - هو ما يفعله بعض المتشككين وفنّاص الهوى من أهل زماننا: يخربون الإيمان، ويحطّمون التقوى والورع، ويزرعون اليأس والقنط في النفوس، يشككون في كل شيء بلا شيء، والجهلة لهم تبع.

ج- حياة البرزخ

جاء ذكر البرزخ في القرآن الكريم في سياقين:

الأول في معرض كلامه تعالى عن البحرين أحدهما ماؤه عذب والآخر مالح مرّ، وجعل بينهما برزخا حتى لا يختلط ماؤهما، ذكر ذلك في سورة الرحمن الآية 20، وفي سورة الفرقان الآية 53.

الثاني: في معرض كلامه عن حالة الموتى ما بين الموت والبعث، وهو المذكور في سورة (المؤمنون الآية 100) في قوله تعالى: ﴿ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾.

المعنى الأول يدلّ على الثّاني، فالبرزخ هو الحاجز والمانع، وهو لغة "ما بين كلّ شيئين"، ومعناه: "ما بين الدّنيا والآخرة قبل الحشر، من وقت الموت إلى البعث، فمن مات فقد دخل البرزخ" ⁵²⁰، والآية بتمامها تجيب أولئك الموتى الذين يطلبون الرّجوع إلى الدنيا لعمل الصّالحات التي ضيّعوها لما كانوا في الدّنيا: ﴿حتو

⁵¹⁹- المرجع السابق.

⁵²⁰- لسان العرب لابن منظور 375/1، مادة "برزخ".

إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ، لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ، كَذَلِكِ،
إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمَنْ وَرِثَهُمُ بَرَزَخَ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ⁵²¹.

من خلال الآية يتّضح أنّ البرزخ يفصل بين جهتين: جهة ما قبل البرزخ، وهي الجهة التي يتجمّع فيها الموتى في انتظار البعث والحشر، وجهة ما وراء البرزخ، وهي جهة المصير، الجنّة أو النّار، فمن تخطّى البرزخ لا يرجع، وجلّ الذين أماتهم الله ثم أحياهم، المذكورين في القرآن من أمثال أصحاب الكهف، وصاحب بقرة بني إسرائيل، والذي أماته الله مائة عام ثم بعثه، ومن أحياهم عيسى عليه السّلام، ويدخل معهم أولئك الذين ماتوا في الدنيا ثم أنعشوا فعاشوا، أولئك الذين ماتوا سريريا، أو خرج قلوبهم من جسدكم في العمليات الجراحية ثم أصعقوا فعاشوا، وقد أثبت الطبّ الحديث أنّهم بالألوف كانوا في حكم الموتى لكنهم عادت إليهم أرواحهم وعاشوا، كل هؤلاء من أصحاب البرزخ، لم يتجاوزوه بعد، فإذا تجاوزوه فلا حياة إلا الحياة الآخرة.

وما ذكرناه هنا لا يعني أن الميت لا يعرف مصيره هل هو في الجنّة أو في النّار، وأنه يعرض على الجنّة حتّى أنه يطلب التّعجيل بالحساب، أو يعرض على النّار حتى أنّه يتمنّى عدم قيام الحساب كما دلّت على ذلك الآثار الصّحيحة المرفوعة.

د- نقد أو هام منكري عذاب القبر

وصلني شريط مسجّل من برنامج موضوع حوار "عذاب القبر"⁵²²، للأسف كان ضيف الحوار ينتمي إلى شعبة الدراسات الإسلامية بشهادة جامعية، وبما أنّ الموضوع لا يخصّ البرنامج وحده، ولا صاحبة البرنامج معه، لأنه "عقيدة"، فهو عقيدة المجتمع والأمة، في الحوار تخليط وتغليط تجاوز الحد، فإذا كان الحوار مكفولا لأيّ أحد بقوة القانون فعلى الأقل أنّ الذي يدير البرنامج ويتصدّى

⁵²¹ - سورة المؤمنون الآية 99-100.

⁵²² - تابعه على الرّابط <https://www.youtube.com/watch?v=gDsGxZAtvRE>

لمعالجة هذا الموضوع يجب أن يكون على دراية وعلم به، فالضعف كان ظاهرا، والعجز عن المواكبة كان بائنا، وتحدي الضيف كان قويا، ليس لصاحبة البرنامج وحدها بل لملايين المسلمين، لقد استمعتُ للحوار بعناية، وسجّلت عليه ما يلي:

1- الموضوع هو من القضايا الغيبية، فالرجل يناقش موضوعا مغرقا في الغيبات، وهو "عذاب القبر"، كنت أظنّه مات واستيقض من القبر ليحكي عن العذاب أهو موجود أم غير موجود، لكنه مال إلى النفي، ونفى ما في الغيب هو كإثبات ما فيه، وأمامه قضايا واقعية هي الأهم من نفي عذاب القبر، وهي عذاب الإنسان قبل القبر، عذاب الإنسان وهو على وجه الأرض، الإنسان الذي تغول وأصبح وحشا ولا تزيده مثل هذه الخرجات إلا تغولا.. تصورات تنفي وجود عذاب القبر لتجعل الناس تعيش العذاب فوق القبر.

2- طرق الاستدلال عنده معكوسة تماما، استند إلى القرآن ولا يوجد في القرآن ما ينفي عذاب القبر، بل في القرآن ما يشير إلى ذلك من وجوه:

الأول هو وجه عام، وهو أنّ الله تعالى أمر نبيه أن يبين للناس ما نزل إليهم، والبيان يقتضي الشرح والتفصيل والزيادة والتوضيح فضلا عن التأكيد، ولو كان القرآن وحده كافيا لما كان موجبا للبيان، وما جاء في أحاديث الجنائز وعذاب القبر داخل في البيان.

الثاني أنّ في القرآن الكريم من الآيات ما يدلّ على ذلك، ففيه الآية التي ذكرتها صاحبة البرنامج والتي اعترض عليها بآتها غير صريحة في عذاب القبر، والعقائد يحتاج فيها إلى الصريح والواضح، مع العلم أنّ القرآن الكريم أجمل قضايا كثيرة في العقيدة من دون تفصيل فيها، فأمن بها العلماء من دون تجسيد ولا تمثيل ولا مزيد من التوضيح، ثم إنّه لما نفى الآية لم يثبت صريح معناها وما المراد بها، وفي القرآن آيات تدلّ على ذلك منها قوله تعالى: " فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا، وينقلب إلى أهله مسرورا، وأما من أوتي

كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبورا، ويصلّى سعيرا)⁵²³، كل هذا بصيغة الاستقبال، وليس في الآن، متى يؤتى كتابه ويعرف مقامه، سؤال يجيب عليه منكر عذاب القبر.

وقوله تعالى: ﴿ولو ترى إلى الضالمون في غمرات الموت، والملائكة باسخوا أيديهم أخرجوا أنفسهم، اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق، وكنتم عن آياته تستكبرون﴾⁵²⁴. ومعلوم أنّ اللحظة هي عند الموت، والملائكة تقبض الرّوح، وأخرجوا أنفسهم أي من القبر، والبخاري بوّب في عذاب القبر من الصحيح فذكر هذه الآية.

والآية الأخرى قوله تعالى: ﴿مما خصبئناهم أغرقوا فأدخلوا ناراً، فلم يجكوا لهم من حون الله أنصرا﴾⁵²⁵، ففعل "أغرقوا" يدلّ على حدث وقع في الماضي والفاء في " فأدخلوا " هنا فورية، وتدلّ على الحاضر، أي أنّهم ذاقوا النار بعد غرقهم مباشرة، وهؤلاء ليسوا مدفونين في التراب بل في اليمّ غارقين، وهذا فيه بيان على أنّ العذاب يكون في القبر وفي غير القبر، فلماذا ارتبط العذاب بالقبر؟

الجواب لغلبة الدّفن على غيره، لكن السّؤال والعذاب والبشارة الخ حاصلة بعد الموت على الفور.

من الآيات الدّالة على عذاب القبر قوله تعالى: ﴿النار يعرضون عليها غدوا وعشيا، ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشدّ العذاب﴾⁵²⁶.

3- من طرق الاستدلال المعكوسة أنّه طالب بالدليل على أنّ عذاب القبر موجود، وأمامه العشرات من الأحاديث النّبوية الصّحيحة، والحديث الصّحيح

⁵²³ - سورة الانشقاق (7-12).

⁵²⁴ - سورة الأنعام الآية 94.

⁵²⁵ - سورة نوح الآية 26.

⁵²⁶ - سورة غافر الآية 46.

أجمع العلماء من الأصوليين والفقهاء والمحدثين وغيرهم على أنه دليل بحد ذاته، فأَيُّ دليل أقوى من هذا الدليل؟ وأيُّ دليل بعد هذا الدليل.

4- وصُفَّ ما صحَّ في الموضوع بأنه من أخبار الآحاد هو هروب، وتعلَّق غير علمي وغير سليم، ففيه الآحاد وغير الآحاد، ولا نريد أن نثقل الموضوع بما تواتر فيه من أحاديث، وقد روى أحاديث القبر عن النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكثر من ثلاثين صحابياً، وما تواتر ليس بالقول فحسب بل بالفعل والعمل والتقارير، وحصل الإجماع على ذلك، وأمور الجنائز مقطوع بها لأنها "عملية"، ومن عمل النَّبي وعمل الصَّحابة وعمل أهل المدينة في البقيع.

5- قول الضَّيف بأنه لا يوجد إلاَّ وحي واحد هو القرآن حسم التَّقاش، فلا يوجد في معرض الإلغاء إذن "عذاب القبر" وحده بل قضايا كثيرة من أمور العقيدة والتَّشريع لم تعد تلزمه، وأظن بأنها تنتظر دورها.

6- تسمية الملكين اللذين يسألان بـ "منكر ونكير" تتضمَّن جواباً حاسماً على أنّ المنكر لعذاب القبر سيجد أمامه منكر ونكيراً، تسمياً بذلك لأنهما يختبران من ينكر ومن يجحد، وفيه حكمة من أنّ التحقُّق من الجحود والإيمان هما الضمانة الأولى لمعرفة المصير، فمن أنكر وجحد فإنَّه لا يتحمَّل تبعات جزئيات الإيمان الأخرى، ومن آمن ونجح في السؤال كان هذا علامة البشارة بالخير، ولا أخال المنكر للعذاب في القبر إلاَّ ناكراً لعالم القبر جملة وتفصيلاً، لأنَّه لا يستقيم أن ينكر العذاب ويثبت السؤال وأسماء الملائكة...

المنكرون على صنفين: فيه من يُنكر وهو يُسأل في القبر، وفيه من يُنكر قبل وقوعه في القبر، وصاحبنا من الذين سبق عليهم القلم، فتعجَّل قبل السؤال، سلوا الله حسن الخاتمة.

7- إنكار الشَّيء بذات الشَّيء نفسه هو إثبات له، المنكر ينكر السَّنة، ثم يتوسل بالسَّنة في قصَّة المرأة اليهودية التي دخلت على عائشة وحدثها عن عذاب

القبر فأنكرت ذلك لينكر هو أيضا عذاب القبر بها، القصّة قد تكون صحيحة، ولها مستلزمات من الفهم والمعرفة مما قعده العلماء قبل قرون خلت من معرفة سبب الورود والنسخ، وقد يكون في مرحلة ما قبل نزول الوحي بالموضوع، فالنبي بقي نبيا ورسولا إلى آخر مرحلة من حياته، وحتى بعد مماته إلى أن تقوم الساعة، وهي أمور يدركها المبتدئون في تعلم السنّة، وهي: الجمع أو الترجيح أو النسخ أو التوقف.

8- نكران شطر من السنّة أو السنّة كلّها يترتب عليه انهيارات في المعرفة الإسلامية، سيتأثر الفقه الإسلامي بحجّة أنّ أحكاما شرعية كثيرة ستلغى لأنّها مبنية على الحديث، وإذا ألغيت تلك الأحكام أصبح المعتقد في حلّ من أمره في مجال العبادات والمعاملات، وسيتأثر التفسير لأنّ قسما عظيما منه بتفسير السنّة وأقوال الصّحابة والتابعين، وستتأثر العقيدة لأنّ قسما منها سيزول مثل عذاب القبر، ونزول عيسى والدجال وغير ذلك، وسيعاد النظر في أحاديث الفتن وأشراط الساعة التي تُبنى في قسم عريض منها على السنّة والحديث، وستزول القراءات القرآنية لأنّ "القراءات سنّة يأخذها الآخر عن الأول"، وإذا مُست القراءات مُسّ القرآن الكريم، وهكذا....

9- عذاب القبر غيب، الكلام فيه يستلزم الخبر المنبي بالوحي، لا يوجد أحد مات فقام من القبر يثبت أو ينفي، ولذلك فمنطلق الاعتقاد به من الخبر، وهو الحديث أو القرآن أو هما معا، وأمّا الذي يطالب بالدليل فهو المطالب به، لأنّ الشّرع استقرّ على وجوب الإيمان بالدليل، ولذلك فالنّافي عليه بدليل النفي، أما التعلق بالأصلين بالركون إلى التأويل في واحد، ونكران الآخر فلا يستقيم، وما زلنا في حاجة إلى دليل نفي مثلما أمنا بدليل إثبات.

10- لا أدري ما الذي هيّجه على هذا الموضوع، هل الاعتبارات السياسية التي جزم بها كانت تقف وراء نسج "أسطورة عذاب القبر" أم دوافع سياسية أخرى دفعته لنفي عذاب القبر؟

وفي الأخير فإنني أهني الضيف مرتين: الأولى على هذا الإنجاز الكبير، الذي تجاوز فيه عقل الشافعي والشاطبي وإمام مالك وابن رشد وابن حزم والقاضي عبد الجبار والشهرستاني وابن سينا والفارابي وابن خلدون... كل هؤلاء وغيرهم كانوا مخدوعين، عاشوا على الأساطير والأوهام طيلة قرون، حتى جاء المنقذ من الضلال الذي نفى الأسطورة المفردة بالأساطير المكعبة، والثانية: الجراءة التي يتحلّى بها، والتطاول الكبير على الخصوصيات والمعتقدات.

هـ- الخروج من الأجدات

جاء في القرآن الكريم أنّ الخروج يكون من "الأجدات"، وتكرّرت "الأجدات" المقصودة بخروج الناس منها ثلاث مرات في القرآن الكريم: في سورة يس، والمعارج، والقمر، ثم ذكر الله تعالى أنه يبعث مَنْ في "القبور"، فما الفرق بين القبور والأجدات؟

جلّ المفسرين لا يفرقون بين القبور والأجدات، فالأجدات هي القبور، والقبور هي الأجدات، وهو تفسير مقنع لو أراد الإنسان المعنى الإجمالي العام، لكنّه إذا دقّق في الكلمتين وجد فرقا ولاسيما في سياق الاستعمال، فحين يتكلّم الله تعالى عن الخروج من الأجدات يستعمل "يخرجون"، و"ينسلون"، و"سراعا"، لكنّه حين يتكلم عن القبور والمقابر فمن دون حركة ولا فعل من مثل قوله تعالى: ﴿قد يؤسوا من الآخرة كما يؤس الكفار من أصحاب القبور﴾⁵²⁷.

والقبر في معناه هو مكان لدفن الجثة لسترها، وقد شرّع الله الدفن تكريما لبني آدم حتى توارى سوءته، فيُستر، فهو يعني السّتر والإخفاء والموارة والتّغطية الكاملة لجسد الميت، ومنها قوله ﴿ثمّ أماته فأقبره﴾⁵²⁸، أي أخفاه، فلا معنى للقبور غير هذا.

⁵²⁷ - سورة الممتحنة الآية 13.

⁵²⁸ - سورة عبس الآية 21.

أما "الأحداث" فمعناها لا يتحدّد إلا من السّياق ومن لغة العرب، فمن اللّغة الجدثة صوت الحافر والخف، كما يطلق على صوت مضغ اللّحم⁵²⁹، وهذه المعاني اللّغوية تتماشى مع سياق المعاني التي يدلّ عليها سياق الاستعمال في القرآن الكريم، يقول تعالى: ﴿ونفخ في الصور فإذا هم من الأجماع إلى ربهم ينسلون﴾⁵³⁰، وقوله: ﴿يوم يخرجون من الأجماع سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون﴾⁵³¹، أي: يخرجون بسرعة، يقصدون مكائهم، وهم أعرف به، لا تهاون ولا تراخي، وقوله: ﴿خشعا أبصارهم يخرجون من الأجماع كأنهم جراد منتشر﴾⁵³²، وهذا وصف لهم، في صورتهم الخاصة أنّ أبصارهم ذليلة من هول المصير والحدث، وفي صورتهم العامّة كالجراد حين يخرج، وذلك لكثرتهم، وهذا لا يكون إلاّ عند "البعث"، مثل الجراد الذي يشق طريقه بتنظيم، ويعرف المكان الذي يقصده، أما عند "قيام الساعة" فالناس تكون كالفراس المبتوث، يتحركون كما يتحرك الفراش من دون انتظام، وذلك من هول الواقعة.

إذا قارنّا بين القبر والأحداث وجدنا أنّ القبر له صلة بالدّفن فقط، فيه سكون، ولا حركة فيه، في حين أنّ الأحداث يرتبط بخروج الموتى مسرعين، لهم صوت كصوت الحافر، يسمع لركضهم صوتا، أما ترتيب الدّلالة اللّغوية في مضغ اللّحم ففيه إشارة على صوت المضغ أولا ثم المضغ في حدّ ذاته ثانيا، فإذا تجاوزنا الصّوت الذي يقترب من صوت الحافر فإنّ المضغ يعني تزيّل اللحم عن بعضه، وتفتيته، وتفريقه ليسهل بلعه، كذلك تفعل الأرض بالجنّة فهي تفتتها وتفرّق ما بها من مواد حتى تتحلّل وتتفتت، ثم فيه إشارة أخرى وهي أنه لا يلزم من الجنّة أن

⁵²⁹ - انظر تاج العروس من جواهر القاموس للسيد محمد مرتضى الزبيدي، مادة (حدث)، 196/5.

⁵³⁰ - سورة يس الآية 51.

⁵³¹ - سورة المعارج الآية 43.

⁵³² - سورة القمر الآية 7.

تكون في قبر، فقد تفتت بانفجار أو حرق أو غيره، ولهذا لا يلزم أن يكون البعث من القبور لسببين:

الأول: أنّ المقابر تتغير صورتها غدا يوم القيامة، ولا تبقى على هيئتها لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا الْقُبُورَ بَعَثْنَا﴾⁵³³، والآية جاءت في سياق انفطار السموات واندثار الكواكب وتغير البحار، وبعثت القبور تحطيمها وتغير أماكن وجودها، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّا نَفْخُ فِي الصُّورِ نَفْخَةً وَاحِدَةً، وَحَمَلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾⁵³⁴، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾⁵³⁵، والبروز هنا يعني الخروج من الأرض وهي على هذا الحال لا من القبر.

الثاني: من الموتى من لا يدفن في القبر، منهم من يغرق في البحر فتأكله الأسماك، ومنهم من تفتسه الوحوش في البراري والغابات، كما أنّ من الموتى من يُحرق جثمانه وينثر رماده في البر والبحر، وعدد هؤلاء ربما أكبر من عدد من يدفن كما سنرى عند البوذيين والهندوس، ومنهم من يقوم بالدفن السماوي فيقدم جثت الموتى للطيور والنسور المفترسة.. هؤلاء كيف يبعثون؟ ومن أين يخرجون؟

إذا بعثت القبور وتلاشت تبقى (الأجداث)، والأجداث ليست هي القبور، أي ما اختلط بالتراب، وهذه الأجداث تحضر أينما وُجدت، ومن أيّ مكان كانت، وقد صوّرها الله سبحانه وتعالى وبين كيفية وطريقة خروج الإنسان بها فقال: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مَبْرُكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ، وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا صَٰلِعٌ نُضِيدٌ، رِزْقًا لِلْعِبَادِ، وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدًا بَلَدًا﴾⁵³⁶، والخروج يعني خروج الإنسان من الأجداث، وهو من المشاهد التي تعبر عن عظيم قدرته

⁵³³ - سورة الانفطار الآية 4.

⁵³⁴ - سورة الحاقة الآية 18.

⁵³⁵ - سورة إبراهيم الآية 50.

⁵³⁶ - سورة ق الآيات (9-11).

و- إحياء الموتى

هل تمكّن أحد بعد خالق الموت من إحياء الموتى؟

لا أتكلّم هنا في المجاز الذي يعني إخراج النّاس من الظّلمات إلى النور، فهذه مهمّة جميع الأنبياء والرسل، ويدخل معهم العلماء بصفّتهم ورثة الأنبياء، كما لا أتكلّم عن إحياء إبراهيم للطير فالذي أحياها هو خالق الطّير، ولا عن إحياء قوم موسى بعد أن أصابهم الصّاعقة لأنّ الله هو الذي أحياهم، ولا عن بقرة بني إسرائيل، وغير ذلك، إنّما أتكلّم هنا عن إحياء موتى البشر من قبل البشر.

الذي يبتعد عن ثقافة التّقل لا يمكنه إلّا الجزم بالتّفي، لكن الذي يطالع دروس ثقافة الموت داخل الثّقافة التّقلية يجزم بأنّ الذي أحيا الموتى بعد خالق الموت هو عيسى عليه السّلام، وهي المعجزة الوحيدة التي جعلها بيد عيسى، وأظن جازما بأنّه النّبي الوحيد الذي مكّنه الله تعالى من أن يحيي الموتى بإذنه، وهي آية من الآيات التي وضعها الله تعالى بيده رغبةً في إيمان قومه ورجوعهم إلى دعوته.

في القرآن أن عيسى يحيي الموتى، يقول الله تعالى: ﴿وإنا نخلق من الصّيب كهيفة الصّيب بلإنا نفيتنفخ فيها فتكون كحائرا بلإنا، وتبرى الإكمه والأبرر بلإنا، وإنا نخرج الموتى بلإنا﴾⁵⁴⁰.

وقوله تعالى على لسان عيسى: ﴿ورسولا إلى بني إسرائيل أنّي قد جئتكم بآية من ربكم، إني أخلق لكم من الصّيب كهيفة الصّيب، فأنفخ فيه فيكون كحائرا بلإنا لله، وأبرى الإكمه والأبرر، وأحيي الموتى بلإنا لله﴾⁵⁴¹.

وفي إنجيل لوقا أنّ عيسى أحيا ابن امرأة أرملة، لقي الميّت محمولا وهو الإبن الوحيد لها فدنا عيسى من التّعش ولبسه فقال: (أيّها الشاب، أقول لك: قم،

⁵⁴⁰ - سورة المائدة الآية 112.

⁵⁴¹ - سورة آل عمران الآية 48.

فجلس الميت، وأخذ يتكلّم، فسلمّه إلى أمّه⁵⁴²، فالله عزّ وجل وهب هذه المعجزة لعيسى شفقة على هذه الأرملة التي ما أراد الله سبحانه وتعالى أن يفجعها في زوجها وولدها، ثم تعظيم دعوته أمام اليهود.

ثم إنهم ذكروا بأنّ عيسى أحيا عازر، وأنّه أقامه من قبره بعد مُضي ثلاثة أيام، وكذلك فعل بأخرين، وإذا نظرنا في الآية وجدنا قوله تعالى ﴿فخرج الموتى﴾ و﴿تغيير الموتى﴾، فأما الإخراج فيتّفق مع ما في القبر، مثلما فعل بعازر وسام بن نوح، وأمّا الإحياء فيتّفق مع ابن الأرملة وابن العجوز.

كل هذه البراهين قدّمها عيسى لليهود، منهم من آمن وعظّم، ومنهم من كفر وجحد، لكن الغالبية كانت مع الجحود والعناد، وبسبب خارقة إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص كاد اليهود لعيسى عليه السلام، فدبّروا قضية صلبه لأنّه كان يفعل ذلك يوم السبت، وهو مخالف للشريعة عندهم.⁵⁴³

⁵⁴² - إنجيل لوقا، 11/7، العهد الجديد ص 102.

⁵⁴³ - أنظر إنجيل يوحنا 15/5، الكتاب المقدّس ص 148.

فصل في الجثة بعد الانعقاد



1- الجثة بعد الموت

لا أعني هنا وضعية الجثة بعد الموت من حيث التحلل وعدمه، فهذا موضوع تكلمنا عليه في بعض الفقرات من هذا العمل، ولكن المقصود هنا هو مآل الجثة بعد موت صاحبها: هل تدفن أم تحرق أم تغرق، كيف يتصرف الإنسان مع الجثة من هذه الناحية.

أثرنا هذا الموضوع لأنه يعكس تصور الإنسان للموت، فتعامله مع الجثة يعكس نوع تعامله ووعيه بالموت، وهذا التعامل هو نتيجة تصور مُسبق يعيه الإنسان عن الموت، ولم لا فقد تكون وراءه الأديان، أو الفلسفات أو التقاليد والعادات التي توارثها الإنسان أبا عن جد، فمن الأمم من يدفن الموتى، ومنهم من يحرقها، ومنهم من يحنطها وتوضع في تابوت مغلق، ومنهم من يعلق الجثث في الكهوف والجبال والأشجار وفي كل مكان عال، ومنهم من يغرق الموتى في اليم، ومنهم من يقدمها طعاما للحيوانات المفترسة من الطيور وغيرها، ومنهم من يضعها في مقابر التبريد تبقى مجمدة، وكل تصرف من هذه التصرفات يعكس نوعا من الوعي بالموت، ومهما كانت الديانات والعادات والفلسفات هي الدافع لذلك فإن الموت هو نفسه الدافع لكل هذا، كل أمة أو نحلة تعتقد أنّ ما تفعله بموتها هو الصواب، وهو الحق، منهم من هو مدفوع بغريزة حبّ البقاء، ويطمح إلى الخلود كما يفعل الفراعنة في تحنيط موتاهم، الفراعنة لا يؤمنون بأن الموت مخلوق، وأن هناك بعثا وحسابا، بل يعتقدون في أنفسهم صفة الخلق والبقاء والخلود، ولذلك حين يموت الفرعون يحنط وحنط معه أشياءه الثمينة لاعتقادهم بأنه حين يستيقظ من رقدة الموت يجد حاجياته معه، ومنهم من يفعل ذلك تقربا إلى

القوة العظمى، القوة الخفية المستترة، القوة التي قهرتهم بالموت، ومن هؤلاء الذين يحرقون موتاهم، والذين يطعمونها للحيوانات البرية مثل البوذيين والهندوس وغيرهم، ومنهم من يفعل ذلك إيماناً واعتقاداً كما هو حال اليهود والنصارى والمسلمين.

2. الدفن في المقابر

تقدّم نصوص النقل قصة الدفن في المقبرة، وهي من القصص القرآني الذي حكاه الله تعالى لكل الناس، لما وقعت أول جريمة قتل في التاريخ البشري وقف قابيل القاتل بجانب جثة أخيه المقتول هابيل ينظر ماذا يصنع بها، واحترار في أمرها حتى أرسل الله إليه غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يوارى جثمان أخيه، فحفر قبر أخيه بيده ودفنه، فكان هو القاتل، وكان هو الذي تولى عملية الدفن.

القصة واضحة في سورة المائدة⁵⁴⁴ وغيرها، وهي أوضح بياناً من قصة التوراة في سفر التكوين⁵⁴⁵، لم تشر التوراة إلى قصة الغراب لكنها أشارت إلى الدفن في مواطن كثيرة من التوراة، فالدفن عندهم من وصايا الإله، جاء في سفر التكوين: (بعرق جبينك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض، فمنها أخذت لأنك تراب وإلى التراب تعود)⁵⁴⁶. لذلك كان الدفن واجباً، جاء في سفر تثنية الاشتراع: (وإذا كانت على إنسان خطيئة تستوجب الموت، فقتلته وعلّقه على شجرة، فلا تبت جثته على الشجرة، بل في ذلك اليوم تدفنه، لأنّ المعلق لعنة من الله...)،⁵⁴⁷ وفي سفر المزامير يناجي الحيّ ربّه مبيناً الفرق بينه وبين الموتى، العبادة في الحياة، والمناجاة فيها، أما الموتى فلا شيء يرجى منهم، لأنّ القبر طمرهم: (دع صلاتي تصل

⁵⁴⁴ - سورة المائدة، الآيات (29 - 33).

⁵⁴⁵ - سفر التكوين 4/ (8-26)، الكتاب المقدّس، العهد القديم، ص 6-7.

⁵⁴⁶ - سفر التكوين 3/19.

⁵⁴⁷ - سفر تثنية الاشتراع 21/22.

إليك "..."، نفسي شبعت من المصائب، وددت على عالم الأموات حياتي، حُسبت من المنحدرين في الجب، وصرت كرجل لا قوّة له، كرجل متروك بين الأموات، بين القتلى من المطروحين في القبور، "... اللأموات تصنع العجائب؟، أم يقوم الأشباح ليحمدوك؟ أفي القبر يحدث برحمتك؟ وفي أرض الهلاك بأمانتك؟ أفي الظلمة تُعرف عجائبك؟، وفي أرض النّسيان عدلك؟ بك يا رب استغيث ⁵⁴⁸، وجاء في سفر التكوين أنّ يعقوب طلب أن يدفن مع آبائه ⁵⁴⁹.

كذلك كان المسيحيون أصحاب العهد الجديد، يؤمنون بما يؤمن به اليهود، فيدفنون في القبور، ففي إنجيل متى أنّ عيسى لما صُلب دُفن ⁵⁵⁰، ولم تعط الأناجيل لعملية تشييع الجنازة قيمة كبيرة، وأظنهم اكتفوا بأحكام التّشريع اليهودي الموجودة في العهد القديم، لا يفرضون أن يكون الميّت في تابوت، كما لا يفرضون للقبر مواصفات معينة إيماناً منهم أنّ الميّت من تراب ويجب أن يرجع إلى التّراب بغض النّظر عن الكيفية التي يُدفن بها، لكن غسل جسد الميّت كاملاً ثم الصّلاة عليه والدّعاء له بالغفران على الطّريقة المسيحية أمر داخل في العادة لا في العبادة لأنّ الكتاب المقدّس لا يشترّع صلاة بعينها على الموتى.

للقبر صلة بنيوية مع أطروحة النّقل، تتماشى مع حقيقة الوجود بل تساهم في تطعيم قصة الوجود، فإذا عرفنا بأن القبر من الأرض والإنسان من الأرض، والقبر هو حفرة يؤخذ منها التّراب، وآدم أخذت طينته من التّراب، وأنه لما حصل الهبوط إنّما حصل على تراب هذه الأرض أدركنا سرّ علاقة الإنسان بالأرض، حين يموت يرجع إليها، ومنها يخرج مرة أخرى، وليس هذا فحسب بل ذكر القبر في القرآن أكثر من مرة، كما في سورة التكاثر قوله تعالى: ﴿الْهَآكِمِ التَّكَاثُرِ حَتَّى

⁵⁴⁸ - سفر المزامير 88/ (2-14)، صلاة رجل قريب من الموت، الكتاب المقدّس، العهد القديم ص 738.

⁵⁴⁹ - أنظر سفر التكوين 29/49، وسفر صموئيل الثاني 38/19.

⁵⁵⁰ - إنجيل متى، 57/82، (دفن يسوع)، الكتاب المقدّس، العهد الجديد ص 53-25.

زركم المقابر⁵⁵¹، وتحدثت النصوص النقلية عن انشقاق القبر، وعذابه، وأنه حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة، وسؤال الملكين فيه، للقبر إذن سرّ كبير يجب وضعه في إطاره، وهو ما أدركه العلماء فوضعوا فيه مصنفات، ومنهم أبو بكر بن أبي الدنيا⁵⁵²، وابن رجب الحنبلي المتوفّي سنة 795هـ⁵⁵³، ومثلما دخل موضوع المقابر إلى مجال الاعتقاد والدعوة فقد دخل إلى مجال الفقه الإسلامي، وكُتبت فيه مؤلفات، وأنجزت حوله دراسات وأبحاث⁵⁵⁴، هذا السر لا تجده في الوسائل الأخرى التي تتعاطاها بعض الأمم للتخلّص من جثث موتاهم.

القبر مدفن الإنسان، والجمع قبور، والمقبرة موضع القبور، وهي موضع دفن الموتى، والقابر هو الدافن، والمُقبر هو الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾⁵⁵⁵، أقبره: أي جعل له قبراً أو أمر بحفر قبرٍ له وإلا قال (فقبّره)، وكان القبر مما أكرم الله به بني آدم ولم يجعلهم يلقون جثثهم للسباع والطيور أو تبقى معرضة للفساد على وجه الأرض، ومن القبر اللحد، ويطلق على القبر لحد، واللحد الشقّ الذي يكون في جانب القبر موضع الميت لأنه قد أُميل عن وسطٍ إلى جانبه، الإلحاد هو الميل عن القصد، ولذلك يطلقون على كل من مال عن الدين والاعتقاد ملحد، لأنه "الحد" أي: مال عن الإيمان إلى الكفر، وعن التوحيد إلى الشرك، ويطلق عليه الضريح أيضاً⁵⁵⁶، والقبر واللحد والضريح كلها بمعنى واحد، وتعني مدفن الميت،

⁵⁵¹ - سورة التكاثر الآية 1-2.

⁵⁵² - أنظر كتاب القبور، محقق ومطبوع، تحقيق طارق محمد سكلوع العمود، الناشر مكتبة الغرباء الأثرية، الطبعة الأولى 2000م.

⁵⁵³ - أنظر كتاب "أحوال القبور وأحوال أهلها إلى النشور"، مطبوع، حققه محمد نظام لدين الفتيح، طبعة دارالزمان، الأولى 2021م.

⁵⁵⁴ - أنظر على سبيل المثال لا الحصر كتاب "أحكام المقابر في الشريعة الإسلامية"، لصاحبه عبد الله بن عمر السحبياني، صدر عن دار ابن الجوزي، عام 2005م.

⁵⁵⁵ - سورة عبس الآية 21.

⁵⁵⁶ - لسان العرب 12/246-247.

فإذا شقّوا له في الوسط فهو ضريح، وإذا شقّوا بجانب القبر فهو لحد، وقد تكون في الحفرة عدّة جثث يحفر لها في داخل الحفرة مائلة، وإذا اكتفي بواحد فهو قبر، فكان المشهور على أهل مكة أنّهم يقبرون، وأهل المدينة يلحدون.

إنّ الأصل هو الدفن في المقابر، وهو الذي يتفق مع البعث والحشر وانشقاق القبر وبعثته إلخ، إنّه يتفق مع الأطروحة العامة للموت في الإسلام.

3. تحنيط الموتى

عُرف عن المصريين القدامى تحنيط موتاهم، وعُرفت عنهم أشياء غريبة في ذلك، وقد اعتمدت هنا ما حكاها المؤرخ ديودور الصقلي الذي زار مصر ما بين سنة 60 و56 قبل الميلاد، فاطّلع على أحوال أهلها، وهو ينقل لنا ما رأى بعينه من عادات المصريين على عهد الفراعنة في ذلك الوقت، وكتابه موجود، نقله وهيب كامل من اليونانية إلى العربية، يقول ديودور الصقلي: (وإن من يطلّع على شعائر المصريين الجنائزية يعجب أشدّ العجب لغرابة عاداتهم فيها، فعندما يموت أحدهم يطلّخ جميع معارفه وأصدقائه رءوسهم بالطّين، ويطوفون بالمدينة ناديين إلى أن تُوارى رفاته في القبر، ويمتنعون من الاستحمام وتعاطي النّبذ أو أيّ غذاء لذيذ، ولا يلبسون أيّ رداء زاهي اللون)⁵⁵⁷ والّحنيط عندهم يتمّ باستعمال موادّ معيّنة يُطلى بها الجسم للمحافظة عليه من التّغير، لكنهم قبل ذلك كانوا يغطّون الجثّة بالرّمال الساخنة حتى تجفّ من السوائل، ثم تبدأ عملية التّحنيط بإزالة كل ما تحتوي عليه الجثّة من الأعضاء والسوائل المتبقية التي تساهم في تغييرها وتمكين الفساد فيها مثل كشط الدماغ عن طريق الأنف، واستخراج الأحشاء كلّها من الجسد ما عدا القلب، لأنهم يؤمنون بأنّ الرّوح متعلقة به، ويضعون الجسد وسط ملح النّطرون حتى تخرج منه كل المواد الرخوة والسوائل المتبقية فيه، ثم

⁵⁵⁷ - ديودور الصقلي في مصر، القرن الأوّل قبل الميلاد، نقله من اليونانية وهيب كامل، طبعة دار المعارف، ص 149-150، طبعة 2014م.

يحشون الجثة بالمواد الحافظة، ويطلون الجلد بتلك المواد، ويستعملون شمع العسل لغلق جميع ثقب الجسد بما فيها ثقب العينين والأذنين والضم الخ، ثم تلف المومياء بكتان رقيق لفاً كاملاً بمئات الأمتار، وهو كتان خاص بعملية التحنيط يُشبه الكفن عند المسلمين، غير أنه مدهون بمواد كيميائية حافظة، وقد يوضع بينها وبين الجلد شمع العسل كلاصق يثبت الكتان على الجلد حتى لا تزول وحتى لا تنفذ إليه الجراثيم والميكروبات، وقد تخصص في ذلك فنانون مهرة، يزاولون حرفة التحنيط بخبرة عالية، ورثوها عن أجدادهم صنعةً، ويتقاضون بشأنه أجوراً عالية، لقد بين ديودور الصقلي في وصفه عملية تحنيط المصريين لموتاهم أنهم كانوا يخيروا أهل الميت بين ثلاث خيارات للتحنيط: عالية ومتوسطة وضعيفة، وأعتقد بأن الفراعنة كانوا يهتمون به كعلم من العلوم الضرورية في حياتهم الخاصة، وتمر الجثة بين يدي ثلاثة من الخبراء: الأول هو الذي يطلق عليه "الكاتب"، وهو الذي يُعين مكان شق الجثة، وحين يعين مكان الشق ينصرف، ثم يأتي بعده "الجراح" فيشق الجثة وينصرف هاربا تحت طرده بالحجارة واللّعة من قبل أهل الميت في عادةٍ عندهم كأنهم يلصقون الجرم به، ثم يأتي "المحنطون"، وهؤلاء يحظون بالتقدير والاحترام، لأنهم يخالطون الكهنة، ويدخلون المعابد بصفتهم مطهرين، فمن خلال الشق يدخل أحدهم يده ويسحب الأمعاء والأحشاء مُبقيا على القلب والكليتين، ثم تغسل بالمستحضرات مدة تزيد على ثلاثين يوما، ثم تُضفى عليها النظارة وتسلم إلى أهلها، يقول ديودور الصقلي: (وعندما يتم تجهيز الجثة يسلمونها إلى أهل المتوفى وقد أبقوا على كل عضو من أعضاء الجسم حتى إنّ الأهداب والحواجب تظل كما كانت، ولا تتغير هيئة الجسم مطلقاً، بل يمكن التعرف على ملامح شكله؛ ولذلك يحتفظ كثير من المصريين بجثت أجدادهم في غرف فخمة فينظرون وجهها لوجه إلى أسلافهم الذين قضوا نحبتهم قبل أن يولدوا هم أنفسهم بأجيال عديدة، وهكذا عندما يرون جرم كل منهم وتفصيل جسمه وقسمات وجهه يستشعرون إحساساً غريباً كما لو كانوا

قد عاشوا مع الذين يتطلعون إليهم⁵⁵⁸ ، ولهم في الدفن طقوس صعبة جداً حكاها ديودور الصقلي لأنه رآها رأي العين يطول بي المقال في سردها، فدفن الموتى تتدخل فيه شهادة الناس حتى إن من عليه دَيْن لم يوقه يدفن في بيته، وهو من العار على أهل الميت حتى يؤدون دينه وينقل دفنه إلى المكان المسموح به في الدفن.

هذه الإجراءات في التعامل مع الجثة محرمة في دين الإسلام، فالإسلام كرم الإنسان أثناء خلقه، وكرمه بعد خلقه، وكرمه بعد موته، فحرم الاطلاع على عورته، وكسر عظمه، وحث على غسله وكفنه وتشيع جثمانه والصلاة عليه والدعاء له، أما المصريون القدماء فلم تكن لهم ديانة واضحة المعالم بل مجمل المعتقدات كانت لها صلة بالأفلاك والكواكب والنجوم، ومن خلال التحنيط يظهر بأن العملية لم تكن بوازع ديني بل بإيمان منهم بعودة الفرعون أو الشخص إلى الحياة مرة أخرى كما قدّمْتُ، لكن كهنة مصر القديمة كانوا يؤمنون بوجود الآلهة، وكانوا مثل الإغريق في الاعتقاد بالآلهة الطبيعية.

إن ما فعلوه بالجثث من جهة التحنيط يدل على أن الفراعنة كانوا يؤمنون بالخلود، وأن الفرعون هو مركز الوجود في كل شيء، وحتى الآلهة هو الذي يتحكم فيها لأنه هو صانعها وموجدتها، وقد أوجدها لتخدمه في وجوده وحكمه وفي حربه وانتصاراته، وفي توسع مملكته، ولذلك فكل تغيير في الآلهة إنما هو استثمار سياسي للفرعون على أرض الواقع، وكل الفضائل والرذائل يدعي الفرعون بأنها وحي إليه من الآلهة، فلا رادع ولا من يحاسب، وبما أن نهاية الحياة واردة، والإيمان بالموت موجود فلا بد من التفكير في حياة الخلود ووسيلتها عملية التحنيط التي تجعل الميت محفوظاً في مكان بصحبة الآلهة تحرسه حتى يقوم في وقت ما ليبدأ حياته من جديد، وضريحه يحتوي على بعض حاجياته، والأهرامات الشاهقة التي

⁵⁵⁸ - ديودور الصقلي في مصر، ص 150-151.

تبدو مخيفة تبرهن على قوة الفرعون وجبروته حتى بعد موته، فالفراعنة وحدهم يملكون سرّ الخلود، وهم يموتون كآلهة ترجع نفسها في دورة ما من دورات الزمن.

4- حرق الموتى

حرق الموتى عادة قديمة جدًا ترجع إلى حوالي عشرين ألف سنة، مارسه الإغريق والرومان القدامى، والهنود والصينيون وغيرهم، ومع الديانة الهندوسية الوثنية التي ظهرت في الهند في القرن الخامس عشر قبل الميلاد انتشرت عملية الحرق، وأصبحت جزءا من الاعتقاد الهندوسي، ثمّ جاء سادهار تاحوتاما الملقب بـ "بوذا" - التي تعني "المعلم" فأسس الديانة البوذية التي سارت على نهج الهندوس في حرق جثث الموتى، وأصبح للبوذية مذهبان: مذهب شمالي وهو الموجود في الصين واليابان ومملكة نيبال، والمذهب الجنوبي ويوجد في بورما وسيريلانكا والهند، وهي ديانة وُجدت في الهند، وفي تركبة كلمة " الهندوسية" ما يدلّ على ذلك، ويعتقد الهندوس بقدسية الهند، فهي المكان المقدّس على وجه الأرض، وبوذا عندهم هو ابن الله، وهو مخلص البشرية، ويؤمنون بتناسخ الأرواح.

تتمّ عملية الحرق وفق طقوس دينية، إما أن تُحرق كاملة أو يجمع رمادها في علبة تغلف بثوب أحمر يعتقدون ببقاء روح الميت داخلها، يكتب عليها اسم صاحبها وتسلم لأهله لتبقى جثته رمادا شاهدة على صاحبها في مخيطة أهله وذويه، أو قد يقومون بنثرها إما في البحر أو في أيّ مكان ارتضوه، ومنهم من يقوم بدفنها ويبنى عليها ضريحا، ومنهم من يضعها في مكان مخصّص للعب يشكّل مجمعا لمقبرة صغيرة، وهم حين يفعلون هذا لا يفعلونه عقابا له، أو رغبة في التخلص من جثته أو يجعلون الحرق بديلا عن الدفن وإنما تقريبا إلى النار المقدسة، وتتمّ عملية الحرق إما في مكان مخصّص لحرق الموتى أو في الهواء الطلق أمام مرأى المشيخين، والاعتقاد السائد أنّ الرّوح لا تصعد إلى السّماء إلاّ بالحرق، فالنار تعيد الرّوح إلى أصلها، وأنّ حرارة النّار في الجسد تطهّره من الآثام والخطايا،

وتسَمَّى في عقيدتهم بـ "عقيدة الفناء"، و"السوتي"، و"قربنة الذات"، والحرق هو آخر مرحلة للجنّازة، بحيث يبدأون بالطقوس التي تدوم 13 يوماً، وهي فرصة الرّوح لترقد بسلام، تُحمل الجثّة وتُغسل في المياه المقدّسة ثم تُحرق، والحرق هو الذي يرجعها إلى الجسد من جديد لتواصل بعد ذلك رحلتها الأبدية، يحضر المشيِّعون عملية الحرق، لا تظهر عليهم علامة الحزن والبكاء بل يتعاملون بطريقة عادية جدّاً، يتكلّمون ويضحكون ويلعبون، ولا يسمح للنساء بحضور الجنّازة مخافة البكاء، لأنّ البكاء يفسد عليهم الأجواء المفضّلة، فالموت ليس خسارة عندهم، لكنّه مُعدي، لذلك يحرمون لمس الجثّة إلا للطائفة التي تتولّى مهمّة التّجهيز، والميّت مثل الثّوب البالي يجب التخلّص منه ولا شيء أهمّ من الحرق، يقدمون الرّجلين باتجاه الجنوب حيث يوجد إله الموت، ورأسه باتجاه الشّمال حيث يوجد إله الثروة، ويسمح الهندوس بمشاهدة طقوس الحرق لكنّهم يمنعون التّصوير، ويُستثنى الأطفال ورجال الدّين من الحرق، فهؤلاء يُدفنون لأنّهم لا ذنب لهم.

ومن الغرائب أنّ بعض القبائل إذا مات الرجل قبل المرأة فإنّ المرأة تُحرق معه حيّة طوعاً أو كرهاً، وهو سلوك مستهجن جدّاً في التعامل مع المرأة وفي الاعتداء على أكبر حقّ لها في الوجود وهو حياتها، وتختلف الدّيانة الهندوسية مع البوذية في بعض الأمور الشّكلية في طقوس الحرق، فالتّايلاندي قامت بحرق جثّة ملكها بومبيون بعد عام من دفنه، وذلك في مشهد جنائزي مهيب، وقامت كامبوديا بحرق ملكها نورودوم سيهانوك عام 2013م بحضور جميع أفراد عائلته ووفد عالمي وازن.

ولم تعد عملية حرق الجثمان ديانة بل تولّدت كترغبة عند الناس، ولا سيما بعض الزّعماء والمشاهير من أمثال الرّئيس الكوبي السابق فيديل كاسترو الذي أوصى بحرق جثمانه بعد وفاته، ولم يكن على الدّيانة البوذية ولا على الهندوسية ولا على أيّ دين، بل المعروف أنّه كان ماركسيا لينينيا، وأنّه بهذا الطّلب خالف

رفاقه في المصير، أولئك الذين حُنْظت جثتهم بعد موتهم مثل فلاديمير إيليتش أوليانوف الملقب بـلينين.

حُرِق جثمان كاسترو، وجاب رماده البلاد مدّة أربعة أيام، وكذلك أوصى الدكتور إدوارد سعيد بأن يحرق جثمانه ويذرّ رماده في البحر مع العلم أنّ الرجل عربي على الديانة المسيحية، وهي أمور تثير تساؤلات عديدة!

5- الدفن السّماوي

ومعناه جعل المقبرة في السّماء لا في الأرض، فالزّوح يجب أن تحلّق في العلو لتكون قريبة من الرب، ولذلك ابتكر الزرادشتيون فكرة إطعام النّسور المفترسة بجثت موتاهم، فالنّسر يضع أطرافا من الجثة في بطنه ويحلق بها حاليا، وهذا هو النّسامي عند الزرادشتيين، وتنسب الزرادشتية إلى مؤسسها زرادشت الذي ظهر هو الآخر في الهند، وديانته ديانة فلسفية وثنية يهمنها منها جانب الموت والموتى.

يجمعون موتاهم في مكان يطلقون عليه (أبراج الصّمت)، وهو مكان دائري معزول، مكشوف للطّور، تجمع فيه الجثث، لأنّ الجثة حسب تصورهم نجسة، ويجب نبذها في هذا المكان إلى غاية التخلّص منها نهائيا، يتم إخراجها وتقطيع لحمها، وسلخ جلدها، وبتّر أعضائها، وشقّ البطن وإخراج أحشاء الميت في منظر بشع، ويسهر على هذه العملية كهنة المعبد الزرادشتي، وبموسيقى معروفة، تعرفها النّسور، ثم يُسمح بعد ذلك للنّسور المفترسة التي تُستقبل بأفواج مصطّقة، تأخذ دورها لالتهام لحوم الموتى، فما هي إلّا ساعات حتى تصبح عظاما، ثم يقوم الكهنة بجمع العظام ورميها في بئر، ومع مرور الزّمن غير الزرادشتيون طريقة التّعامل مع موتاهم بهذه الكيفية إلى اعتماد الحرق لكون النّسور التي كانت تتغذّى على الجثث اختفت من الهند، ولم تعد تقصد "أبراج الصمت" كعادتها، كما أنّ بعض المنتسبين لهذه الديانة بدأوا يغيّرون طريقة التّعامل مع الجثث بهذه الكيفية العفنة، فكانوا يوصون بالحرق إسوة بالهندوس والبوذيين.

6. الدفن في الأشجار وفي الصّخور

عملية الدفن في الأشجار أو في جوف الصّخور أو في الأماكن العالية مثل الجبال وغيرها قد لا تكون راجعة إلى تعاليم ديانة معينة بقدر ما تتحكّم فيها عادات وتقاليد توارثها الآباء عن الأجداد فورثها الأبناء عن الآباء، وأصبحت بعد استعمال طويل ملزمة وتحظى بالتّقدّيس والتّقدير، ولسنا في حاجة إلى توثيق ما نقول هنا من مصادر معينة ومراجع معينة لأنّ الحالة واقعية، وتوجد في بعض القرى من جهات من العالم، وقد تُنقل قصّتها في بعض البرامج الوثائقية بالصّوت والصّورة مصحوبة بالتعليق والتّوضيح.

في بعض القرى الجبلية من أندونيسيا يتّخذ السّكان من جذوع الأشجار الحيّة مقابر للموتى لصبيانهم وبخاصة الرّضع قبل أن تظهر أسنانهم، يلفّ الرّضيع بالقماش ثم يوضع داخل تجاويف الشّجرة، ثم يغلقون عليه بألياف شجر زيت النّخيل، والغرض أن تمتصه الطّبيعة.

كما اشتهر بهذه العادة سكان أستراليا الأصليين المعروفين بـ "الأبوريجين"، يعلّقون موتاهم على جذوع الأشجار إلى أن تتحلّل، فيأخذون العظام ويصبغونها ويزيّنون بها بيوتهم، ويتّخذون منها قلاند وحلقان، ومن طقوس بعض القرى في الفلبين، وتدعى "إيجوروت" أنهم يجعلون موتاهم في توابيت ويضعونها على قمم الجبال العالية، وهو أسلوب تكريم وتعظيم للموتى، فروح الميّت في هذه الحالة - حسب ظنهم- حرّة طليقة تذهب حيث شاءت، ويمكنها أن ترتقي إلى السّماء إن أرادت، والأغرب من هذا هو ما تفعله قبيلة "يانومامو"، وهي من قرى غابة الأمازون، وتوجد بين البرازيل وفنزويلا، يضعون الجثّة في الغابة بين أوراق الأشجار لمدة تفوق الأربعين يوماً، ثم يأخذون عظامها ويصنعون منه حساء بالموز، ويتناولونه بصورة جماعية ظنّاً منهم أنّه أسلوب يقود روح الميّت إلى الجنّة.

7. الدفن العمودي

يأخذ الدفن أنحاء أربعة، وهي أنحاء تكون أحيانا بحسب الديانات والمعتقدات، وأحيانا أخرى وفق اجتهادات تفرضها تحديات جغرافية واقتصادية وديمغرافية، من هذه الأنحاء "الدفن الأفقي"، وهذا يتم على مستوى المقابر، و"الدفن السماوي" وقد تكلمنا عليه وأوضحنا صورته، ثم هناك نوع آخر هو "الدفن العمودي"، وهو الدفن في العمارات وفي المدرجات المرتفعة عن الأرض، وهو الذي نخصّه بالكلام هنا.

الدفن في العمارات أو المدرجات الأرضية هو أسلوب فكّرت فيه بعض الدّول لتوفير المساحات الأرضية للسّكان، وهو أسلوب آخر من أساليب صراع الأحياء مع الأموات من أجل الأرض، ففي الوقت الذي كان فيه الموتى ينعمون بحفرة يدفنون فيها فكرياً أحياء في نقلهم إلى أماكن مرتفعة، طبقات أرضية هي أشبه ما تكون بالمدرجات، تحتوي على الأتربة الكافية لاحتضان الجناز، وهو الأسلوب الذي فكّرت فيه إسرائيل حالياً، فقد فكرت الحكومة في تهيئة مشروع 30 بناية بمقابر متعدّدة خارج تل أبيب، وهي خطوة ستتمّ تحت إشراف الحاخامات اليهود ووزارة الخدمات الدينية، ومادام سفر التكوين ينصّ على الدفن في التراب فالتراب موجود في المدرجات الأرضية، ومع كل هذا فالمشروع يحظى بمعارضة شديدة من قبل اليهود المتدينين.

وأنشأت البرازيل أعلى مقبرة في العالم، وهي عبارة عن عمارة تتكون من 32 طباقاً، تُدعى Mémorial Nécropole Ecuminica، وتوجد في مدينة سانتوس في البرازيل بارتفاع 108 متراً، وكل طابق يحتوي على 150 قبراً، وكل قبر يتسع ل 6 جثث، ومن خصائص هذه المقبرة أن الجثة تتحلّل في 3 سنوات، وتُعطى هذه الميزة لأهل الميت إخراج جثة قريبهم لرؤيتها وزيارتها وممارسة بعض الطّقوس العبادية عليها، كما تحتوي المقبرة "العمارة" على صالة اجتماع، وأمكنة للترفيه، وملاعب للأطفال، ومطعم على السطح.

كما تمتلك الهند مقبرة من هذا النوع، وهو بُرج يدعى Moshka، تمّ تقسيمه إلى أجزاء مختلفة بحسب عدد الديانات الكبرى التي توجد في الهند.

8- الدفن في الماء

لا نتكلم هنا عن الدفن في البحر حين يكون ضرورة كما أفتى بذلك علماء المالكية وغيرهم⁵⁵⁹، ولكن نتكلم عمّن جعل الدفن في البحر مذهباً ومعتقداً من القبائل والشعوب والملل والنحل الأخرى، الدفن في المستنقعات كان هو أسلوب الأوروبيين قديماً، لكن لما انتشرت الأمراض والأوبئة ومنها الطاعون عدلوا عن ذلك إلى أساليب أخرى مثل الدفن والحرق، ويعتبر البعض أنّ نثر رماد الميت بعد حرقه في البحار هو نوع من الدفن في الماء كما ذهبت إلى ذلك الحكومة الصينية التي شجعت نهج هذه الطريقة نظراً لكثرة السكّان، وطول الأعمار، وقلة الأراضي، وهذا يبين أنّ الميت حسب هذه الطقوس يحرق أولاً، والحرق نوع من أنواع الدفن، وينثر رماده في البحر وهو نوع ثانٍ من أنواع الدفن.

ومن الأفكار التي تمّ تقديمها في فلوريدا إقامة مقبرة تحت الماء لمن أحبّ الدفن في قاع البحر، وسعر القبر يزيد على ستّة آلاف دولار، وهو نوع من أنواع "تجارة الموت"، ولا يوجد وراء هذا العرض نوازع دينية أو اعتقادية بل الدافع تجاري من العارضين، والرغبة هي ممن يحبّون البحر ويعشقونه، ويفضلون أن تكون نهايتهم في قعر المحيط، إنّها أحلام البشر في التعامل مع الموت.

9- مقابر التجميد

ساعدت الكشوفات الطبّية في إقامة مقابر من التبريد تُجمّد فيها الجثث سنينا بل قروناً عديدة يتم فيها المحافظة على كل خلايا الجسم، وأعضاء الجسم،

⁵⁵⁹ - أنظر مختصر الشيخ خليل، فقد قال: (ورمي ميت البحر به مكفناً إن لم يُرَج البرُّ قبل تغيره). ص

ويتمّ تفريغهُ من الدّم كَلِيّةً وملاً الأوردة الدموية والعروق بسائل معقّم جامد، وأُسست لهذا الغرض مراكز طَبّيّة مَجَهّزة يشرف عليها أخصائيون في مقابل أن يوصي المريض أو الإنسان الحي في حياته بإجراء عملية التّجميد عليه بعد موته على أن يدفع ما قدره ثمانين ألف جنيه استرليني مقابل تكلفة العملية، وهياًوا له أرشيفا خاصا به لحفظ صورهِ ووثائقهِ وذكرياته التي يجب عليه أن ينتقي منها ما هو مهمّ، ويوصي بها أيضا لأنه حين سيعيا في الزّمن القادم سيجد مذكّراتهِ معه! .

توجد حتى الآن من هذا النوع من المقابر في أمريكا مقبرتان، ويمكن لعائلة الميّت أن تزور قبرهِ الآلي المَجْمَد في أية لحظة شاءت، ومن هذه المراكز المشهورة مركز ALCOOL، ويضمّ أعضاء أخصائيين.

يمرّ الإنسان لكي يكون في هذه المقابر من المراحل الآتية: الأولى هي فتح قلبهِ وإزالة الدّم الموجود فيه وملء الأوردة بسائل معقّم، والثانية وضعه في جهاز التّبريد التدريجي إلى أن يصل إلى 196 درجة تحت الصّفر، ثم توضع الجثّة في خزّانها الأخير مع ثلاث جثث أخرى، والذي يجزم به خبراء " علم تجميد الموتى " أنّ المحاولة مازالت في بدايتها، والعملية تسير ببطء شديد غير أنه في السّنوات المقبلة من الممكن أن تتطوّر أكثر ممّا يجعل فرصة إعطاء الحياة لهذه الجثث أمرا ممكنا حسب تصوّرهم، ويستخدم الأطباء كلهم طريقة تجميد جثث الموتى، وعملية التّجميد أصبحت من ضرورات العصر، فالتّناس يموتون في كلّ وقت، وفي كلّ المصححات والمستشفيات وفي البيوت، يموتون في البرّ والبحر والجو، وكثير من الجثث تلقى في مصحات التّشريح مما يضطرّ الأطباء إلى وضع الجثّة في أجهزة التّبريد إلى حين انتهاء المهمّة أو حين يطالب بها أصحابها، لكنّ هذه العملية لا يجب أن تُتخذ ذريعة لجعل الجثث في مقابر التّجميد بغية التّفكير في إحيائها من بعد، ووجه الغرابة تكمن في زعمهم أنّها تهب الحياة للجثّة من جديد، وهي مخالفة لطبيعة الخلق والوجود، فالإنسان خُلِق ضعيفا، وتركبة جسده لا تسمح له بالعيش على الدّوام، فخلاياه التي يتكوّن منها جسده معرضة للشّيخوخة وللموت،

لقد وُجد على هذه الأرض ليحيا فيها حياة مؤقتة ويغادر ليأتي خلفه، وليترك المكان لغيره، لا أحد يمكنه أن يعيش خالدا، حيّا أبدا، موت الجسد حقيقة، وسيرفع الطبّ يده عنه كيفما كان نوع الطب وكيفما كان نوع الجسد.

لقد وضعت عملية تجميد الموتى الثّقة المطلقة في الطب، فالطبّ - حسب زعمهم- يمكنه في المستقبل أن يعيد للخلايا الممزّقة والمنكسرة بفعل التّبريد حيويتهما، كما يمكن معالجة المرض الذي كان سببا في وفاة الميّت، والطبّ في المستقبل لا يبقى على نفس الكيفية التي هو عليها في الوقت الحاضر، فهو في تغيير مستمر، وما يضمنه الطبّ الحالي هو صيانة الجسد كما هو ليعود إلى حياته مرّة أخرى، وتعد هذه المحاولة في نظر بعض الخبراء ثورة مستقبلية لطبّ الأجزاء الميكروسكوبية، وعملية إحياء الجثث رهينة ببقائها على أصلها ثم معالجة كل الآفات والعوارض والأمراض التي تعطلّ عملية الحياة، إنهم يستخدمون تقنيات بالغة في الدّقة، ويقضون مع الجثّة أوقاتا كما لو أنّها لإنسان حيّ تجرى له عملية جراحية، ويخيل إليك كما لو أنّ الجثّة ليست ميّتة وإنما هي تحت وضعية تخدير مؤقت، وبعد الطبّ المعاصر أو قُلْ فرعا من فروع بوعده لا ندري ما مصداقيته أنّ الخلايا التي أصابها الضّرر يمكن أن تتعافى وتتشافى في المستقبل، وذلك بفعل آلات دقيقة، ويتوقع أن يبلغ طول هذه الآلات 250 نالوميتر، أي أصغر من عرض الشعرة البشرية بأربعمئة مرة، وهذا من شأنه أن يوفّر العلاج الكافي للجثّة المتضرّرة، ذلك ما تعد به التكنولوجيا الصّغيرة!

ما يضمنه طبّ تجميد الموتى لطبّ المستقبل هو المحافظة على الجسد كاملا، وهي مغامرة من نوع فريد، فإذا استطاع الطبّ في العصر الحديث المحافظة على الجثّة وإبقائها على حالتها الأصلية فهل يستطيع الطبّ في المستقبل إعادة الحياة إليهما؟

سؤال يجيب عليه الطبّ في المستقبل.

فصل في النقلانية ونقد التصورات المضادة



1. النقلانية السلبية

كثير من النقلانيين المؤمنين انزوا يطلبون الجنة في غياب تام عن الانخراط في الواقع، تركوا المجتمع وآلامه ومآسيه، وارتكنوا يحملون تساييحهم بين أناملهم وسجاداتهم فوق رؤوسهم يطوفون الجهات والأمكنة باحثين عن الجنة، وإذا نال بعضهم من الدنيا جرعة ماء وكسوة وغطاء، ومنزل ومركوب ومال يُصبّ بسخاء فعلى الدنيا العفاء، هؤلاء ينتظرون الموت، لأنهم يؤمنون بأن الجنة التي يسعون إليها هي بعد الموت، هؤلاء ماذا فعلوا؟ تركوا الواقع والمجتمع للعقلانيين، فنجح هؤلاء في السيطرة عليه، وكيفوه بالفكر والإنشاء، وبالشعارات التي جعلت من الإنسان متمردًا عن نفسه وإلهه ومجتمعه، وأنشأوا في المجتمع بشرا يملك العقل لكنّه فاقد للروح، لقد ترك النقلانيون الواقع متطلعين إلى الجنة في حين عانق العقلانيون الواقع وتركوا الجنة.

2. النقلانية ووهم البرهان

البرهان أو العقلان مصطلحان مترادفان، لا نروم هنا بحث الدلالات الاصطلاحية ولكننا نروم التسمية التي انتحلها البعض، فهو برهاني فيما يدعي، وعقلاني فيما يزعم، وهو ادعاء لا يُسلم لأنّ بين المصطلحين تباينًا كبيرًا، وقد أفرط البعض في انتعالهما وخلق عنصر التمايز بهما، اتضح بعد النظر أنّهما شَمَاعَات للتبّير.

غرضي هنا التوقف عند "البرهان" أو "العقلان"، يسود في الاعتقاد أنّهما يعنيان التّركيز على العقل، وعلى المعطيات العقلية في استبعاد تام للنقل، فيُقام

فرق تعسفي بين العقل النقلي والعقل العقلي، ويتميّز العقل العقلي عن النقلي بتحزره من النقل، وهو وهم، لا يوجد برهان أو عقلاّن متحرر من النقل والبيان على مدى الأزمان، ودليل ذلك ما يلي:

-إذا أخذنا موضوع "الموت" كمثال، المدّعون للعقلان والبرهان يناقشون قضاياها بكل تحرر، في حين أنّ النقلاني يناقشه بكل تقيّد، الأول لا يراعي الحدود في النقاش، ولا الأحكام في الموضوع، لا يقول "قال الله" ولا "قال الرسول"، في حين أنّ الثاني يراعي الامتثال، ومتقيّد بعدم تقديم أيّ شيء بين يدي الله والرسول.

-المدّعي للعقلان والبرهان ينطلق في المناقشة كالسهم، يُنتج ركاما من الكلام في الموضوع، بحرية وبطلاقة في حين أنّ الثاني يحقّق ويدقّق، ويراعي قواعد الكلام النقلي، فهو حرّ لكن حريته مقيدة بحدود لا يجب عليه أن يتجاوزها، فهو دائم الحرص على الكلام من حيث المشروعية، هل هو جائز أم غير جائز، ولذلك كان أهل النقل قليلي الكلام بل منهم من أعرّض عنه لا عجزا بل امتثالا، ثم إنّه غير داخل في صنعتهم، في حين أنّ المدّعي للعقلان والبرهان كثير السفسطة والمناقشة والجدل العقيم.

-انطلاقا من التجربة المتواضعة فإنّ الكلام بالتحرّر من النقل أسهل من الكلام بالتقيّد به، فالنقلانيون ليسوا سُدّجا يُردّدون ما قيل، وينقلون ما كُتب بل اكتسبوا كلّ ذلك عن طريق العلوم والفنون والقواعد، التقيّد بالنقل هو تقيّد علمي وواعي، النقلاني يعي جيدا مقاصد النقل، ومصادره وقواعده، يمتلك أجوبة واعية أين يكفّ عن الكلام وأين يجب أن يتكلّم؟ وماذا يجب عليه أن يقول إذا أراد الكلام؟ ويدرك جيّدا حدود الكلام وفلسفته، في حين أنّ الآخر لا يتقيّد بشيء، كلّ شيء هو قابل للنقاش والتقدّ والردّ حتى ولو كان خارج دائرة عالم الشهادة، فهو يناقش كلّ شيء بأيّ شيء وبلا شيء في بعض الأحيان، وإن موضوعا كموضوع الموت قضاياها "غيبية"، ومع ذلك تجد المدّعي للعقلانية يناقش قضايا الغيب بغير

معطيات الغيب، أي أنه يشارك النّقلاني في دائرة اهتمامه، لكن من دون التقيّد بقواعده وعلومه.

-حين يكون العقلاني متحرّراً فإنه يقول ماشاء، وكيف شاء، وهذه الحرية تمكّنه من الدخول إلى مختلف العقول الجاهلة بالنّقل وبقواعده، فيكتسب جمهوراً أكثر من جمهور النّقلاني لأن جمهور النّقلاني محدود جدّاً، فالعامّة تجهل معاني النّص، وعلوم ثبوت النّص، وعلوم فهم دلالات النّص، وأنواع النّصوص، والأحكام الشّرعية، وحكم الأحكام والمقاصد، العامّة لا تفهم هذه القواعد ولذلك فهي لا تتفاعل مع النّقلاني، في حين أنّ العقلاني والبرهاني يتفاهم مع الجمهور بمجرد النّفي والبحث عن النواقص وما استشكل فهمه، ويجد آذانا صاغية لكلامه، لماذا لا يتعامل العقلاني والبرهاني مع النقل بمقتضيات علومه؟

هو نفس السّؤال الذي يجب توجيهه للجمهور وللعامّة، الأسباب التي لا تجعل العامّة يتفاعلون مع النّقل وعلومه هي نفسها التي تجعل العرفاني والبرهاني لا يتفاعل مع النّقل وعلومه، السّبب بكل بساطة " الجهل بعلوم النّقل"، علوم النّقل ليست كلاماً بالعقل وحده بل هي حفظٌ وفهمٌ ومدارسةٌ، ويتعدّر على المدّعين للعقلان فعل ذلك لسببين: الأول لكبر أسنانهم، فقد كبروا ومردوا على التّفكير المجرد، وإن للعقل شهوة لا تختلف عن شهوتي البطن والفرج، في تحصيل علوم النّقل معاناة، لأنّ التّحصيل لا يتمّ إلا عبر الأيام والليالي، وقد وقفنا على طريقة تعامل المستشرقين مع النّص الحديثي، فقد ركّزوا على متن الحديث في إغفال تام لسنده، ووضعوا تصنيفاً أضفوا على أنفسهم عنصر الشّرعية العلمية به تماماً كما فعل المستشرق الأمريكي آرثر جيفري حين جعل المرّكزين على متن الحديث من أهل العقل وعلى المشتغلين بسنده من أهل النّقل، وهو تصنيف أقل ما يقال عنه أنّه ساذج جدّاً، الفن الذي تجهله لا تعيبه، ولا أدري هل يعلمون أولاً يعلمون بأنّ النّص النّقلي خُلصَ نصّاً بالسند.

- إذا كان كل ما تقدّم يتم على مستوى التّفكير والتّحليل والتّعبير فإن بين مُدعي العقلان والبرهان مباينةً أخرى، وهي أبلغ ضررا من الأولى، فمثلما أنّ العقلاني متحرّر في كلامه من أيّ نقل فهو متحرّر أيضا في فعله من أيّ حكم شرعي، لأنّ الحكم الشرعي يقيّد الفعل كما يقيّد الفكر، وهذا يحدّ من الحرّية، فهو يميل إلى الحرّية في الفعل والعمل مثلما هو حر في الفكر والثّقافة، بإمكانه أن يتحتّى أحسن خمر موجود، وأرقاه نكهة وجوده، وبإمكانه أن يضاجع أيّ امرأة عشقها وتمنّاها، وبإمكانه أن يحيي سهرات الأنس والطّرب بأية طريقة أرادها، وبإمكانه أن يجمع من المال ماشاء من دون مراعاة لمصدره، وبإمكانه أن يُسرف في إنفاقه في أيّ طريق أعجبه، وليس هذا فحسب بل بإمكانه أن يغش ويفسق ويعقّ ويقتل ويغدر ويخون، فمادامت الأحكام التّقليدية الرّادعة غير موجودة فبإمكانه أن يعبّ في الحياة عبّا ويوغل في اللذّة إيغالا، وإذا خاف من القانون فبإمكانه التّحايل عليه بأية طريقة رآها ناجحة، والغاية تبرر الوسيلة، لذلك فحين يخاطب العقلاني جمهوره يجد القبول، ويحظى بالتّصفيق، كثير من النّاس هم على هذا الحال، والطّيور لا تنزل سوى على أشباهها.

- يمكن أن أعطي مثلا بالمتوهّمين " للعقلانية"، أولئك الذين حشروا أنفسهم في دائرة العقل والبرهان للتكلّم في مصادر النّقل وبعض نصوصه، وتجد لهم أتباعا حين يغمزون أهل العلم من الصّحابة وغيرهم بخطاب غير متماسك، لا هم في النّقل بقواعده، ولا هم في العقل بضوابطه، هؤلاء " خرفان"، لأنهم ليسوا في المعرفة من تيار البرهان أو المحسوبين على العقلان، ينطحون النّصوص لأجل إلحاق الضرر بها، ولو تمكّنوا في التّشخيص لوضعوا طلاء أحمر بما يشبه الدم تمويهها لدمي النّصوص، مُفلسون وجهلة، هم أشبه بالعطار حين يحاكي صورة الطّبيب والصّيدي، لهم أتباع وأتباعهم على شاكلتهم وهم أصحاب السّطوح والقشور، وهؤلاء لا يمكنك أن تجارهم لأن الكلام في صحيح البخاري أو صحيح الحديث أو حتى الكلام عن أعلام الصّحابة يجب أن يكون "صناعيا"، وإذا

تعذّر عليهم التّواصل معك عن طريق صناعة العلم فكيف بالعامّة؟! لهذا السّبب يكثر جمهور "الخرفان" ويقلّ قراء النّقْلان.

- لا تغتر بمن يزعم بأنّه عقلاني في القول أو برهاني في الدّليل، لو أصغيت لمجمل ما كتب وقال لوجدته سُبِق إلى ذلك بمئات السّنين، والدّليل على ذلك شهادته التي تشهد عليه أنه درس علوم النّظر وتاريخ الفكر البشري واطّلع على التقلّيعات الفكرية والمناهج في العلوم الإنسانيّة من مختلف التوجّهات، كل هذا يمتح منه ويغرف، من جهة ثانية يقف المنقول خلف المعقول حين يقول: قال ديكارت وماركس واسبينوزا وهيكل، وقد يذهب إلى مرحلة ما قبل الميلاد حين يقول قال سقراط وأفلاطون وأرسطو إلى غير ذلك، تُرى!، ألا يتحكّم النّص الفلسفي أو الأدبي خلف الصياغة النّظرية، ألا تُعاد الأفكار بصورة أخرى منذ عهد اليونان مروراً بالرومان والفلسفة الأوروبيّة الحديثة؟.

الكلام عن الموت والحياة بطريقة العقلان أو البرهان قديمة مع فارق أنّ الإغريق وغيرهم تكلموا بتجريد، أي تكلموا عن الموت كموت لكن المعاصرين تكلموا فيها بربطها بالإسلام والتّبوة والوحي والقرآن، فأسقطوا ما قيل قديماً على أركان الإسلام ومعتقداته، وعلى القرآن وآياته، وعلى النّبي ودعوته، وهي أمور حين تفكّكها تعرف مصادرها، كما أنّ فلاسفة الإسلام ما تركوا شيئاً من الموضوع إلّا وتكلموا فيه مثل: الغزالي وابرشد وابن حزم وابن مسكويه والفارابي وابن سينا والكندي وغيرهم.

3. هي النّواقر والنّواقر المضادّه

نقرالعقلانيون على النّقْلانية والتّقْلانيين بخمسة أساليب تحدّدها كما هي

-أخفوا حقائقها الإيجابية بالطمس والتّعتيم والكتمان، واجتهدوا في إبراز

سلبيات مفتعلة،

-قلبوا الحقائق رأساً على عقب حتى صار الشيء نفسه يعني ضده ونقيضه.

-قالوا لا ندري في أمور مصيرية وحتمية ومعلومة بدعوى أنها غيبية ونقلية.

-رسّخوا المعاكس، واجتهدوا في تثبيت النقيض ليحلّ في المحل، وليكتسح

مساحات شاسعة من العقل.

-أنتجوا ترسانة من النعوت القدحية، والممصقات اللفظية تنعت بها

النقلانية من مثل: الظلامية والخرافية والرجعية والأصولية...ويمكنك أن تجمع

من هذا قاموساً، كما أنهم شققوا من ذلك أفكاراً وتصورات وشعارات ليس هذا

مجال سردها.

وترى النقلانية في نواقرها على العقلانيين أنّ المفاهيم التي يستند إليها

العقلانيون من مثل الخلود والإله والجنّة والنار والملائكة والشياطين إلخ كلها

مفاهيم مأخوذة من النصوص النقلية، مسيحية كانت أو إسلامية، يستعيرون

مفاهيم الدين من الدين لنقد الدين، يستعيرون من الدين مفاهيمه

ومصطلحاته ثم يصوغون كلاماً من مقتضى تلك المفاهيم والمصطلحات للادعاء

بأنه "كلام عقلائي"، وإذا سلّمنا بهذا الادعاء فهو من منظورنا "عقلانية

جاحدة". لا يستطيع الواحد منهم أن ينكر الموت، فالموت موجود، ودليل وجوده في

تجزئة المقابر.

4- الموت والمستقبل النقلاني

النظرة العقلانية للموت نظرة إيجابية مركبة لكنّها محتّطة بتصور سلبي.

التركيبية الأولى: لا شيء يبدو جميلاً في الموت إلا في مسألة واحدة وهي حين

يكون تضحية لأجل المستقبل، لكن أيّ مستقبل يتكلّم عليه العقلانيون؟ هل هو

"المستقبل الميّت" أم "المستقبل الحي"، المستقبل الميّت هو حين يموت من يموت

من أجل مستقبل لا حياة فيه.

الكلام العقلاني عن المستقبل لا يعني غير الكلام عن الخلود، الخلود بالمعنى العقلاني للكلمة، وهي كلمة غير محدّدة المفهوم، فالعقلاني يرى الخلود في الأرض لا في السّماء، والمجد الذي يبحث عنه "الأبطال الثّوريون" هو ضرب من التطلّع إلى العظمة الذّاتية، وهنا يتمّ السّقوط في فخ الفردية والذّاتية، ومن مجموع هؤلاء الذين "انتحروا" من أجل مستقبل مجهول وميّت تأسست كتلة معروفة في تاريخ الفكر، مجهولة في بنية المجتمع، وحتى على صعيد الفكر لم يتركوا سوى ركام من الإنتاج المعرفي أصبح فيما بعد أشبه ما يكون بمقبرة صامتة، والمذكورون منهم هم أشبه ما يكون بشيء ألقيته في ماء أحدث بفعل القوّة أثرا على سطحه ثمّ بدأ يتلاشى بالتدرّج حتى اختفى.

والتركيبة الثّانية: كلّ فرد عقلاني لا يرى في موته سوى بداية حياة جديدة، يعبر عنها جاك ديكور فيقول: (هل تعلمون بأنني كنت أتوقّع، منذ شهرين، ما يحصل لي هذا الصّباح، وكان لديّ الوقت الكافي لأن أستعد لذلك، ولكن وبما أن ليس لي دين فإنني لم أغرق في تأمل الموت، وأنا أعتبر نفسي، نوعا ما، كورقة تسقط من شجرة لتُسمد الأرض، ونوعية الأرض المسمّدة ستتعلق بنوعية الأوراق، إنّي أريد الكلام عن الشّباب الفرنسي الذي أضع فيه كلّ أملي).⁵⁶⁰

جواب هؤلاء كان جاهزا منذ لحظات التحوّل العميق، والتغيّر السري في الحياة، يقول تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ ليقولون: إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتنا الأُولى وما نضرُ بِمُنشَرِّهِ﴾⁵⁶¹

5- الموت وعقلانية الأشرار

من أكبر الأخطاء التي عانى منها الوجوديون هو اعتقادهم بأنّ الوجود أحادي الجانب، لا يقوم سوى على الحياة، فراحوا يتأمّلون الوجود وقضاياها من موقع الحياة الطّبيعية، وكلامهم عن الموت كلام باعث عن الحزن والأسى،

⁵⁶⁰ - ذكره ميشيل فيريه في كتابه (الماركسيون والدين) ص 130.

⁵⁶¹ - سورة الدخان الآية 33.

والتشاؤم والقلق، فالموت عندهم ضد الوجود، في حين أنّ الموت والحياة يشكّلان معا حقيقة الوجود، إنّهما يشكّلان جدلية الوجود الحقّة، إذ من الصّعب فصل الموت عن الحياة في تمثّل الوجود، إنّهما وجهان لقضية واحدة، هذه القضية هي التي نحن بصدها، تماما كالليل الدامس المظلم والنّهار المشرق الوضّاء، كلاهما يشكل " اليوم " بمعناه الزماني الكامل.

لماذا يفكر الإنسان في الحياة وحدها ولا يفكر في الموت، لماذا طوّر علوم الإنسان وعلوم الحياة والأرض نحو ما يخدم به حياته، ولم يطور شيئا من العلوم لخطاب الرّوح وما يخدم ذكر الموت؟ تفنّن الإنسان في علوم الماضي وعلوم الحاضر وعلوم المستقبل، وكان كلامهم في علوم الماضي أشبه ما يكون بغيبية مبرّرة، يتكلّمون عن الحضارة البابلية والآشورية والفينيقية، وعن حضارة اليونان وصراع الآلهة كما لو أنّهم كانوا ينظرون إلى الأحداث وهي تقع أمامهم، أما المستقبل فقد خطّطوا له وفكّروا فيما لم يقع بعد، وهو ضرب من الغيبية المبرّرة أيضا، وأتكلّم هنا عن أحلام المستقبل التي لا توجد سوى في عقول البعض، نعم لعلوم الماضي ونعم لعلوم المستقبل، لكن نعم لعلوم تخطّط للمصير القادم، ليستعدّ الإنسان للرّحيل المحتوم، هذا التّخطيط العلمي يجعل من الإنسان رقيق الطّبع، رهيف الحس، ولا يتحوّل إلى شيطان في صورة إنسان، أعتقد بأنّ الإنسان بفضل العلوم غير مؤهل لمغادرة الأرض حتى تزهر روحه ويده متشبّثة بحفنة من ترابها، أجيّبوا أيها الأشرار: لماذا أنتم هنا؟، إذا كنتم لا تؤمنون بالموت فلماذا تذكرونه؟ وإذا كنتم تجحدون الموت فلم تصنعونه؟، لم أسلحة الدّمار الشّامل؟ وتكديس الرؤوس التّووية؟ لماذا تلحق القنابل والصّواريخ التي صنعتها عقولكم الموت بالإنسان والحيوان والطّبيعة؟

أيها الزاهون بالحياة والمتمتّعون باللذّة لماذا تلحقون الموت بالأبرياء الرّاغبين في الحياة مثلكم؟، لماذا الحياة لكم والموت لهم؟، هل قدّر لكم الحياة لوحدكم وقدّر الموت لغيركم وحدهم؟، إذا كنتم لا تؤمنون سوى بالحياة فاحيوا على

الدوام وابتحوا في الطَّبِيعَة عن شيء دام خلوده، وإذا كنتم لا تؤمنون بالموت فلا تموتوا وابتحوا عن شيء في الطَّبِيعَة لا يجري عليه الفناء، لماذا قدر الله الموت بين العباد بالعدل وقسمتموه بين العباد بالقتل؟، الموت موجود ودليل ذلك هو أنكم حجزتم قبوركم قبل رحيلكم، إننا لانراكم سوى أحياء تتحركون على الأرض بأكفانكم، فعانقوا بعضكم بالعزاء .

6 - الحرص على الحياة

يحاول الطَّبِيعِيون أن يجعلوا من الحياة أتمن شيء في الوجود، فهي أهم ما يكسبه الإنسان ويملكه، وهذا أمر لا تنكره ثقافة الفطرة بل تثمنه، فأعزَّ شيء هي الحياة، لأنه من دونها لا يتحقَّق شيء، لا في العادات ولا في العبادات، ومادامت الحياة متبوعة بالموت دلَّ هذا على نقص فيها، وتعدُّ النَّقْلانية بحياة أخرى يحيها الإنسان بعد الموت، سيصير إليها، ويجب الاستعداد لها، وإن الانجراف مع هذه الحياة والسَّكون إليها قد يفوَّت تلك الحياة الموعودة، حياة ليست مجانية بل يجب العمل لها، ﴿ولتجدنهم أحرص الناس على حياة﴾، لم يُعرفها تنقيصاً منها، فهي " حياة "، ليست لها قيمة كبيرة إذا ما قورنت بالحياة الأخرى، ﴿ومن الكاين أشركوا يوماً أحدهم لو يعمر ألف سنة، وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر، والله بصير بما يعملون﴾⁵⁶²، قد يكون الحرص على الدنِّيا والخلود إليها حباً فيها وارتباطاً بها، فهي أعز ما يملك صاحبها، وقد يكون خوفاً من الدار الآخرة التي ليست بحياة في حقهم، ولا يُطلق عليها حياة، إنَّما هي جحيم مقيم وعذاب أليم، وقد يكون بالسببين معاً، وكاختبار حقيقي لصدق نوايا من قالوا بأنهم أبناء الله وأحبَّاءه، وأنَّ الجنَّة لهم لا لغيرهم، وأنَّه ليس لجرد الانتساب لدين معين أو نبي معين أو إظهار رهبانية معينة يشفع لهم في ادِّعائهم، لذلك دعوا إلى تمثي الموت كبرهان على صدق محبَّتهم للقاء الله تعالى كما يفعل أحبَّاء الله والراغبين في

⁵⁶² - سورة البقرة الآية 95.

ملاقاته، لكنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم: ﴿قل إن كانت لكم الآخرة
الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صالحين﴾.
وجزمت الآية ﴿ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم، والله عليم بالظالمين﴾⁵⁶³.

7- الروح الطبيعية

يدخل كلامنا عن الروح الطبيعية ضمن التقسيم الذي ميّزنا بمقتضاه بين
الفطرة والطبيعة في مباحث أنجزناها ودرّسناها للطلبة في مرحلة سابقة تعود إلى
أكثر من عشرين سنة⁵⁶⁴، لقد اجتهدنا في هذا التصنيف وحددنا خصائصه على
المستوى التاريخي للفكر، وعلى المستوى البنيوي لفحص النظريات، والكلام عن
الروح الطبيعية يدخل في هذا الإطار، إنها تأتي كتمييز بين "الموت الطبيعي" كما
هو عند الطبيعيين الدهريين، و"الموت الفطري" كما هو عند النقلانيين
الفطريين، ومن هنا فإنّ "الروح الطبيعية" تدخل - بحسب تصنيفنا - ضمن
مجال الموت الطبيعي، والروح الفطرية ضمن مجال الموت الفطري، وأرجو أن
يستحضر القارئ هذا التصنيف وهو يطالع فقرات هذا العمل.

الروح في الفكر الطبيعي لها صفتان: الأولى أنّها مركّبة، فالروح عند
الهندوس تتكوّن من الماء والهواء والتراب والنار والسّماء، وهي على نوعين: روح
الأطفال والكهنة، هؤلاء يدفنون لأنّهم لم يرتكبوا ذنبا، وأرواحهم تصعد إلى
السّماء من دون حاجة إلى النار، وروح النّاس الآخرين تُحرق لتطهر من الآثام
والخطايا والدّنوب.

⁵⁶³ - سورة البقرة الآية 94.

⁵⁶⁴ - يُنظر كتابنا (الفكر الإسلامي المعاصر دراسة في التّدافع الحضاري)، ص 137 وما بعدها، سلسلة
محاضرات جامعية رقم 1، طُبع سنة 1998م عن مطبعة الإيباج بالدار البيضاء، ولاستكمال الصورة
راجع كتابنا (خُاصة في نقد الفكر الطبيعي)، سلسلة محاضرات رقم 2، طُبع سنة 2002م عن
المطبعة الوطنية بمراكش، وأغلبها محاضرات للمواد العلمية الجامعية التي تمّت الإشارة إليها في
المقدمة.

الثانية أنّها تعني جوهر الشيء وحقيقته، ولا تعني الرّوح بالمعنى النّقلاني، لأنّ العقلانية الطّبيعية تخصم الغيب، والرّوح من الغيب، لذلك فكلّ تصور للرّوح بالمعنى الغيبي مطرود من التّصور الطّبيعي، الرّوح في منطق أيديولوجية الاشتراكية الشّيعية لا تعني الغيب، وليس لها أيّ مدلول غيبي، بل تعني جوهر الشيء، فمثلا العبارة الشّيعية الآتية: (تربية الشّباب بروح الأخلاق الشّيعية)⁵⁶⁵ تعني تربية الشّباب بجوهر تلك الأخلاق وعدم الخروج عليها، فروح المجتمع الاشتراكي هي استعداداته النّفسية والعقلية في القيام بواجبه داخل المجتمع، مثلما يقال بشكل عادي: الرّوح الرّياضية لفرد معين أو لجماعة معينة، المقصود بها المؤهلات والاستعداد والتّفاني في ممارسة الرياضة، وفي النّص الآتي توضيح لذلك: (لقد كسبنا ثروة روحية جبارة لا مثيل لها في التّاريخ، ونشأ في مجتمعنا نظام للمبادئ الأخلاقية والقيم الاجتماعية هو أكثر النظم إنسانية وتقدّما)⁵⁶⁶.

ذلك باختصار طرف من حقيقة الرّوح الطّبيعية، وفيما يأتي من فقرات زيادة بيان لذلك.

8- الحياة الطّبيعية

لا تعني ب "الحياة الطّبيعية" ممارسة الحياة بطريقة طبيعية وعادية كما يحيها الأحياء جميعا، "الحياة الطّبيعية" هي المحاولات التي يقوم بها الإنسان على مستوى الفكر والعلم والعمل ليرجع إلى حياته الطّبيعية بعد خروج الرّوح، يطمح في الرّجوع إلى الدّنيا بعد سنة أو قرن أو قرون لا يهم، المهم أن يعود إلى الحياة الطّبيعية ليحيها من جديد بعد موته كما كان يحيها قبل موته.

⁵⁶⁵ - برجنييف على النّهج اللّينيني ص 440، حُطِب ومقالات (1972-1976)، التّرجمة إلى اللغة العربية دار التّقدم، موسكو، طبعة 1977م، طبع في الاتحاد السوفياتي المنهار.

⁵⁶⁶ - برجنييف على النّهج اللّينيني ص 444.

تدخلت التكنولوجيا، وبدأ الإنسان يفكر في الحياة بعد الموت بطريقة تكنولوجية، وعول على العلم والتقنية في صراعه المير مع الموت بحثا عن الحياة بعد الموت بطريقة طبيعية، يحيا فيها كما كان قبل، ويرى الكثيرون أنّ هذه العملية هي رغبة لمصارعة الموت ولطموح الإنسان نحو الخلود، وأنّ الإنسان استخدم كل إمكانياته لمكافحة "الموت"، فكان "علم تجميد الموتى" من أهم اختراعاته، ويعتبر فرعا من الطب الحديث كما تقدّم بيانه.

لقد انتقل "علم تجميد الموتى" إلى التجميد مباشرة زاعما أنّ الحياة يمكن أن ترجع لصاحبها بهذه الكيفية من دون أن يقف على حقيقة الموت، ومن دون أن يكلف نفسه عناء البحث فيها، وأن يفك لغزها، وهو اللغز المحير الذي لم يتمكّن من الإجابة عن سؤاله حتى الآن، نعلم بأنّ القضية المعرفية لحقيقة الموت تتجاوزها، وأنّه ليس مهياً لذلك، ولا توجد عنده المؤهلات لفعل ذلك لسبب وحيد هو أنّها ليست من تخصّصه، هنا تنبري "المعرفة الأسمى" لتقدّم الأجوبة الحقيقية والمعقولة عن الموت لعلها تساهم في مكافحة الجهل الطافح، الجهل الذي يدفع بالإنسان إلى ارتكاب هذا النوع من الحماقات، تصرف الملايين من الدولارات على جثث أخذت حقاها من الحياة وراحت في حين يموت مئات الألوف من الناس بالجوع والأوبئة، هؤلاء يريدون أن يحيوا حياتهم المؤقتة من دون مشاكل صحّية أو اقتصادية، ما أروع ثقافة النّقل حين نقلت سنّة الصدقات الجارية، الصدقات التي تجعل الإنسان حيا بعد موته، "إذا مات ابن آدم انقطع عنه عمله من الدنيا إلا من ثلاث"، ما أروعها حين تصدّت لمن يريد أن يعيش ميتا، أو أن يعيش قاتلا.

هذا السلوك هو الذي نهجه الفراعنة بتحنيط الموتى ووضع أغلى ما يملك الفرعون من الذهب والأموال ومجمل الحاجيات معه، وتخزين ذلك في ضريح قد يكون في أبار داخل الأرض حتى لا يتصرّف فيها غيره، وهو بهذا يكون قد منع الأحياء من الاستفادة منها لكنّ التاريخ كذب هذا السلوك الشنيع حين هجم الأحياء على هذه المقابر الملكية ونهبوا ما فيها من خيرات، ورموا بعظام موتى

الفراعنة على الأرض، ما حرم منه الفرعون غيره في حياته هو ما أُخذ منه بعد مماته، وقد ينزع الذهب من جبينه ومن حزامه ومن وجهه من دون أن يحرك ساكنا، ألا يكون هذا درسا كافيا في فضح هذا السلوك الممقوت؟!.

فكرة تجميد الموتى وجعل البشر خالدين هي فكرة جميلة وطموحة لكنّها تتعارض مع قوانين الطبيعة، أو قل مع قانون الفيزياء نفسها، وكل الوعود التي يتحدّثون عنها لا يمكنها أن تحل المشاكل التي تزيد تراكما، ثم ما هي المشاكل التي ستنجم عن هذه العملية إذا أصبحت حقيقة، ثم هل من الحكمة أن أحيي إنسانا مات بقرون؟ ما الحاجة إليه؟ وأيّ بشر سيكون هؤلاء؟ وهل سيتكيّفون مع بشر تلك الآونة؟ كيف ستكون ثقافتهم وعاداتهم وتفكيرهم؟ كيف سيفكّر عقلم هل يعيدون التعلّم أم أن العقل سيحتفظ بما عقل في الماضي؟ كيف تبدو شخصيتهم، هل سيتزوّجون وهل سيتناسلون؟

إنّ هذا الإنسان المراد إحياءه سيفقد عنصر الإنسانية، وسيكون أشبه بـ "حيوان" في قفص، لأنّه سيعيش معزولا عن المجتمع، غريبا عن العادات والتقاليد والأعراف.

9. مشكّكون ومعتقدون

توجد علاقة قوية بين الأشباح والأرواح، فالأشباح هي شبه أجسام ترى بطريقة غير طبيعية، ولما كانت الرّوح أمرا موجودا فهذا يستلزم عند البعض أن تظهر تلك الأرواح في صورة أشباح، وجرى الخلاف حول هذا الموضوع منذ القدم بين مشكّكين ومعتقدين، واختلفت تفسيراتهم اختلافا كبيرا:

-صنف ينكر وجود الرّوح، ولا وجود عنده إلا للمادة، ولذلك فالشّبح الذي يتبع الرّوح أو يستلزم أن يكون في علاقة معها لا وجود له البتّة.

-وصنف ينكر وجود المادة ويثبت وجود الرّوح، بحيث لا وجود لما يستعَى ب " المادة" على وجه الأرض، فالمادّة عنده هي تجليات روحية ليس إلّا، فالرّوح تتحرّك في صورة المادة، والرّوح هي الحية والخالدة، فبعد الموت تبدّى في صورة أشباح، ثم إنها لاتفنى ولا تموت ولكنها تنتقل من جسد لآخر، وهؤلاء هم أصحاب نظرية " تناسخ الأرواح".

-وصنف يقرّ بوجود المادة لكنّه يعتقد في فناءها، أما الرّوح فهي المادة حين تكون حية، لكنها لا تفارقها إلّا بالموت، فإذا كان الموت يجري على مادة الجسد الحية فإنّه لا يجري على الرّوح، فلا أحد - حسب هذا التّصور- يقر بموت الرّوح، فالرّوح لا تموت، ولا يجري عليها الفناء.

وتذهب النّقلانية إلى الحدود التي رسمتها الشّريعة في الموضوع، فالإنسان كائن مخلوق بالمادّة والرّوح، المادّة من أشياء الأرض، والرّوح نفخ من روح الخالق، فهي كائن لطيف غير مجسّم، لأنّها لو تجسّمت لأصبحت مادة، وهو محال، الرّوح لا حدود لها ولا ماهية، وقد سأل السّائل عن ذلك لكنّه لم يظفر سوى بجواب: ﴿قل الرّوح من امر ربّي، وما أوّيتم من العلم إلّا قليلاً﴾⁵⁶⁷.

لا يتعب النّقلاني نفسه في البحث عنها وعن ماهيتها، فهي موجودة وكائنة وكفى، وهذه الرّوح تختفي حين يحلّ الموت في الجسد، لأنّ الموت في حقيقته هو مفارقة الرّوح للبدن، ومن هنا يكتب الفناء على الجسد، أما الرّوح فلا يجري عليها الفناء بفناء الجسد لكن يجري عليها الموت كما بيّناه، لا يجري عليها الفناء لأنّها سترجع إلى الجسد يوم البعث، وسيحصل التزاوج بين الجسد والرّوح كما حصل في أول لقاء بينهما، ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده﴾⁵⁶⁸.

⁵⁶⁷ - سورة الإسراء الآية 85، وانظر ما حرّراه في الفقرة 6 ضمن فصل " النّقلانية وموت الموت".

⁵⁶⁸ - سورة الأنبياء الآية 103.

فصل في الموت: نتائج وعوائد وأعراف وفنون



1- نتائج الموت بين السلب والإيجاب

أ- الموت: اليتيم والترميل

أمور تجتمع ولا تفترق، أحدهما سبب في وجود الآخر، الموت سبب رئيس في اليتيم والترميل، حين يهلك الهالك يترك طفلا وزوجة، يكون الطفل بسبب الموت يتيما، وتكون المرأة بسببه أرملة، نبدأ باليتيم.

اليتم إما مفرد أو مركب، فالمفرد من أخذ الموت أباه أو أمه، والمركب هو يتيم الأبوين، شاءت الأقدار أن يعيش صاحب هذه الورقات في حياته يتما مفردا، وأن يحس بمرارة الفقد، وألم الحرمان، وكان مدفوعا إلى التمييز بين الحياة والموت، كان يزور قبر والده بمعية والدته بين الحين والحين، فيتأمل القبر جيّدا، هو هذا الوالد الذي لم يعاشر ابنه سوى سبع سنين، كان يتخيل أنّ سماحة الوالد سيعود يوما ليعانق ولده ويداعبه تماما كما يفعل الآباء بأبنائهم، كان أولاد الحارة حين يرون آباءهم عائدين يهرعون إليهم فيعانقوهم، كان ذلك المشهد يتكرّر في الحياة، محزن بالنسبة للطفل يتجرّع مرارة الإحساس، ونظنّه نفس إحساس كل يتيم في هذا السن، ما أقبح الموت الذي بسببه توزّع النّعوت والأوصاف، ذاك فلان الميت، وهذا فلان اليتيم، وتلك جنازة، طوى الزمن دوائر الأيام فأصبح الطفل شابا، ثمّ رجلا مسؤولا له أطفال، لكتّه عاش يقدر اليتيم واليتيم، ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ، وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾⁵⁶⁹.

⁵⁶⁹ - سورة الضحى الآية 9-10.

أما المرأة إذا هلك عنها زوجها فهي أرملة، أي مُحتاجة إلى من يعولها ويقوم بها، وهذا يدل على أنّ الموت تُبنى عليه مآسي للأحياء، فالميت راح إلى حيث يروح الجميع لكنّ موته عكّر صفو الحياة على أحياء تركهم وراءه، فالزوجة تتضرّر من موت زوجها، والطفل يتضرّر من موت والده أو والدته، والرّعيم يترك فراغا في حكم الرّعية فتتأثر بفقدته، وكذلك موت الطّبيب والمهندس والعالم... لكنّها سنّة الحياة.

اليتيم والرّميل يُفهمان بالمعرفة لكنهما لا يُدركان إلّا بالإحساس.

ب- هل الموت نقمة أم نعمّة

ارتبط مفهوم الموت بالنّظرة السّلبية المأساوية عبر التّاريخ، جلّ المنظرين والفلاسفة والحكماء لا يعطون للموت مفهوما إيجابيا، فحصوله ألم، ووجوده إعدام، ولا يمكن أن نُضفي على الألم والإعدام طابعا إيجابيا، ولا أتكلّم عن الّذي لا يعترف بوجودهما أصلا.

إذا أردنا أن نتحرّر من هذه النّظريات المأساوية للموت وننظر إليه من زاوية نقلانية حيث يتجاوز الموضوعي في الموت مع السّليبي، والنّافع فيها مع الضّار أمكننا القول بنسبية النّظرة الشّخصية للموت، فالذي فقد عزيزا، والذي ترك مالا وارتبط برغد العيش في الدّنيا جاعلا منها جنّته الأبديّة، والذي يخاف من الموت بالأسباب التي حدّدناها في فقرتها، الموت عند هؤلاء جميعا "نقمة"، لكنّ الّذي يحبّ لقاء ربه، وقدّم بين يديه ما يجعله في حياة أحسن من هذه، والشّهيد في سبيل الله، والمتألّم من ألم الأمراض الفتّاكة التي كدّرت عليه صفو الحياة ويتمّى الخلاص قبل الوقت، هؤلاء تشكل لهم الموت "نعمّة".

تُغلب النّقلانية النّظرة الإيجابية للموت، فالموت نعمّة على البشرية لكونه كائنا مخلوقا، وهو أداة توازن حقيقي مع الحياة في الوجود، فلولا الموت لفسدت الحياة، فالخلود فساد، ولو لم يكن فسادا لما حرّم الله الكائنات منه، ولو قدّر

لكائن الخلود لتمنى الموت، فالإنسان يرى في الخلود في الدنيا نعمة، والدنيا بحد ذاتها ليست خالدة، ولا يمكن المطالبة بالخلود في كون محكوم عليه بالفناء في يوم ما، الموت نعمة يجب على المرء أن يحسبها كذلك.

ج- قلق الموت

هو موضوع لدراسة علمية تطبيقية قام بها الدكتور أحمد محمد عبد الخالق، الأستاذ المتخصص في علم النفس، وهي من الدراسات الطلائعية في موضوع الموت من منظور علم النفس، بلور فيها الباحث تجربته العلمية وأبحاثه الميدانية في موضوع دقيق أطلق عليه "قلق الموت"، أجرى دراسته على عينات مصرية، كما بنى الدراسة على أبحاث علمية غربية في الموضوع، وتعددت مصادره في الموضوع باللغة الإنجليزية، وقد فرّق بين القلق العام والقلق الخاص بالموت، كما استند في بعض الأحيان إلى بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الدالة على الموضوع، واعتمد على التاريخ والدراسات الحضارية، ومنها الحضارة الفرعونية القديمة واليونانية، وبنى على الدراسات الاجتماعية والأنثروبولوجية والفلسفية والدينية، فهو خليط متجانس من المعارف والأفكار صيغت بالتحليل النفسي وبتطبيق المقاسات والنماذج المطبقة في أحدث الدراسات العالمية في الموضوع، مُفرغة ومدروسة بإحصائياتها ونسبها وجداولها، وجمع كل ذلك في كتاب صدر بعنوان (قلق الموت)⁵⁷⁰، يقول: (إنّ مفهوم الموت مرتبط لدى كثيرين بانفعالات عنيفة، ومشاعر جياشة واتجاهات سلبية، تتجمّع معا مكوّنة ما ندعوه بإيجاز "قلق الموت" أو الخوف منه، وليس من اليسير أن نذكر دراسة الموت في مجال علم النفس دون أن نذكر محوره المركزي ألا وهو قلق الموت، وهو ما سنعرض لمختلف جوانبه في الفصول التالية)⁵⁷¹، وهذه الفصول ثمانية جامعة، الفصل الأول في

⁵⁷⁰ - صدر الكتاب بحجم 255 صفحة عن سلسلة عالم المعرفة، مارس 1987م، العدد 111، يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت .

⁵⁷¹ - قلق الموت ص 16.

الموت والقلق منه، والثاني في مدخل إلى دراسة القلق، والثالث في مفهوم قلق الموت، والرابع في قياس قلق الموت، والخامس في المتعلقات الديمغرافية والاجتماعية والحضارية، والسادس في المتعلقات المرتبطة بالشخصية والمرض، والسابع في قلق الموت لدى عيّنات عربية: مصرية وسعودية ولبنانية، وقد حُقّق للرجل أن يبسط هذه العيّنات ويتكلّم عنها في هذه الجهات لأنه كان مُدرّساً في جامعاتها ولم يكن سائحا، والفصل الثامن والأخير في الأسباب والعلاج.

ميزة هذا الكتاب أنه جعل الموضوع مادة للبحث النفسي، وفي بحثه لموضوع القلق أجرى دراسة على عيّنات مصرية قام فيها بتطبيق مقياس قلق الموت كما طبّقه تمبلر، وهو مقياس استخدم في المقارنات الحضارية بلغات متعدّدة، وله عدّة مزايا كما شهد بذلك المؤلف، وقد عمل به جيمس بشاي في دراسة عام 1978م وهو مصري بجنسية أمريكية، ومقياس الخوف من الموت كما عمل به "ليستر"، وكذلك قائمة "سبيلبيرجر" لحالة القلق وسمة القلق، ومقياس القلق الصّريح كما عمل به "تيلور"، وهذه المقاييس والقوائم بسطها في الكتاب لمن أراد الرجوع إليها ومتابعة عملية البحث من خلالها⁵⁷².

يقدم الكتاب مجموعة من التعاريف لقلق الموت، منها تعريف "تمبلر"، وهو من أكثر التعريفات المقتبسة لقلق الموت يصفه بأنّه (حالة انفعالية غير سارة يعجل بها تأمل الفرد في وفاته هو)⁵⁷³، ويعرفه "هولتر" بأنه (استجابة انفعالية تتضمن مشاعر ذاتية من عدم السرور والانشغال المعتمد على تأمل أو توقّع أي مظهر من المظاهر العديدة المرتبطة بالموت)⁵⁷⁴.

⁵⁷² - المرجع السابق ص 200 وما بعدها.

⁵⁷³ - المرجع السابق ص 40

⁵⁷⁴ - المرجع السابق ص 40-41.

لقد قاس الكاتب موضوع قلق الموت بعدة طرق من أهمها المقابلة الشخصية أو الاستبار مع المفحوص، والطرق الإسقاطية، وقوائم الاختبار، والوسائل الفيزيولوجية، وزمن الرجوع، والتّقديرات اللّغوية الفارقة، والاستخبارات، يوجد منها ما لا يقل عن خمسة وعشرين اختبارا للقياس، وهي من أكثر الطّرق استخداما، لكنّه في بحث موضوع " علاقة قلق الموت بالتدبّين " كشف عن خلاصة مهمّة وهي تضارب نتائج البحوث بخصوص هذه العلاقة، وقد حدّد أسباب هذا التّضارب في نقط مركزة عيّتها وفصل الكلام فيها⁵⁷⁵ مما يجعل عدم الاطمئنان لمثل هذه الدّراسات واردا.

د- الفرار من الموت

إذا تأملنا أسرار تحركات الإنسان على وجه المعمور سنجدها تعبيرا عن الفرار من الموت، أولئك الرّاكضون في الصّباح الباكر، والمتزاحمون على مصحّة الطّبيب وأمام الصيدليات، والهائمون وراء المال والأعمال في القطارات وعبر الطائرات، يفعلون ذلك فرارا من الموت، وحتىّ الذين يقضون أوقاتهم في تسويد الأوراق بأشياء يتركونها بعد موتهم، وأولئك الذين يقضون لياليهم في الرّقص والمجون وشرب الخمر ومعاشرة النّساء إنّما يفعلون ذلك فرارا من رعب الموت، إنّهم يسعون إلى التّغلب عليه مؤقتا لا مطلقا، يعتقدون بأنّهم صرفوه عن أنفسهم بعض الوقت أو لنقل بتعبير أوضح صرفوه عن عقولهم، وأبعدوه عن تفكيرهم لكنّه يطاردهم، فكم من واحد فاجأه الموت وهو على حال الصّلاح أو حال الفساد، لقد وجّه كونفوشيوس كلمة ناصعة لأولئك الذين يبحثون عن معنى الموت وهم لم يفهموا بعد معنى الحياة فقال: (إنّنا لا نعرف أيّ شيء عن الحياة فكيف نستطيع أن نعرف أيّ شيء عن الموت).⁵⁷⁶

⁵⁷⁵- المرجع السّابق ص 111-112.

⁵⁷⁶- المرجع السّابق ص 40.

2- الموت: أعراف وعوائد

أ- أربعينية الميت

"أربعينية الميت" هي مرور أربعين يوما على وفاته، على رأس الأربعين يتم الاحتفال بهذه الذكرى، وهي عادة موجودة في أغلب البلاد العربية، لا يوجد لها سند ديني في المسيحية باستثناء ما يقوم به المسيحيون الأقباط في إقامة قداس الأربعين في الصلاة على الميت بحسب معتقد عندهم، ويجيزه الشيعة "استحسانا" بناء على ما يتحقق في الأربعين من مواساة لأهل الميت، ورفع الوحشة وألم الفراق، والدعاء له، وقراءة القرآن إلى ما إلى ذلك من التبريرات المجوزة للاحتفال بالحدث، وهو التبرير الذي يتمسك به من يقيم هذا الاحتفال في المجتمعات السنية أيضا، فهي أشبه ما تكون بعادة تحكمت لكن العلماء والفقهاء والدعاة حكموا ببدعيته.

أصل "الأربعين" هو عادة مصرية فرعونية قديمة، منشؤها من أسطورة "أزوريس"، تبين الأسطورة أن أخاه "ست" حقد عليه وقتله وفرق جثته إلى أربعين جزءا، وطرح أشلاءها في أقاليم الوادي، وكان عددها في ذلك الوقت أربعين مقاطعة، وبعد أن أصبح "أزوريس" إلها للموتى خلدوه بأربعين قبرا، كل قبر على قطعة من جسده، وجعل الناس يحجون إليه طلبا في البركة منه، وهذه الأجزاء بقيت في التحنيط أربعين يوما، ومنذ ذلك الوقت بقي الفراعنة يحنطون موتاهم، وبقونها أربعين يوما بعد التحنيط ثم يقومون بدفنها بعد ذلك، وهو المشهور في مصر بسيدي الأربعين⁵⁷⁷.

ويرى وليم نظير أن أكثر العادات الجنائزية في مصر اليوم ترجع إلى جذور مصرية قديمة منذ عهد الفراعنة، فتلطخ الرؤوس والوجه بالوخل، ولطم الخدود، وندب الميت، والاهتمام بالقبو، وتوزيع القران في المقابر، ونحر الذبائح، والاحتفال بتشيع الجنازات وتقديم الباقات والأكاليل، وإطلاق شعر الرأس

⁵⁷⁷- المرجع السابق ص 160-161.

واللّحية علامة على الحداد، والطلّعة كلّها عادات أصلها مصري قديم، كما أنّ النّياحة والبكاء على رأس الميت إنّما هي عادات موروثّة من الإلهة " إيزيس " عندما بكت زوجها " أزوريس "، وتوجد مناظر جنازية في المتحف المصري بالقاهرة تدلّ على ذلك، منها وضع الزّهور على الجنازات والقبور، وقد تأثر المسيحيون بالفراعنة في وضع الموتى داخل التّابوت، فتابوت الموتى صنعة فرعونية⁵⁷⁸، وللإسلام موقف منها، ففي مختصر الشيخ خليل: (وسن التراب أولى من التّابوت)⁵⁷⁹.

وقد تعسّف البعض في التماس آيات من القرآن تدلّ على الأربعين عددا في محاولة لربطها بأربعينية الموت، كما التمسوا من التّوراة بعض الأمارات التي توحى بذلك، وكل هذا تأويل بعيد جدّا، والأحكام الشّرعية الواردة في الموضوع واضحة، والتّعامل مع الموت ومع الجنائز ليست قضية فكرية ومعرفية بل هي مما جرى به العمل منذ عهد النّبي صلّى الله عليه وسلّم إلى اليوم، وتبيّن الدّراسات النّفسيّة والاجتماعية أنّ الإسلام لم يستطع أن يقضي على هذه الممارسات قضاء كاملا على الرّغم من محاربه لها منذ قرون، والأخطر من هذا أنّها تتمّ عند البعض باسم الدّين.

ب- عيد الموتى

أو يوم الموتى، وهو يوم تحتفل به بعض الجهات من دول المعمور مرّة في العام، وغالبا ما يكون في شهر نونبر، سميّ ب " العيد " لأنه يعاد كل سنة بطقوس ومراسيم معيّنة، لكنّ البعض اختار الاحتفال به مرّة كل ثلاث سنوات كما تفعل بعض القرى الأندونيسية، وترجع جذوره إلى حضارات أمريكا الوسطى والجنوبية

⁵⁷⁸ - المرجع السّابق ص 160، وص 168، وانظر كتاب "العادات المصرية بين الأمس واليوم" لوليام نظير، دار الكتاب العربي للطباعة النّشر، القاهرة، طبعة 1967م. وكتاب "هبرودوت يتحدث عن مصر"، ترجمة مجد صقر خفاجة، تقديم وشرح الدكتور أحمد بدوي، طبعة دار القلم، القاهرة 1966م.

⁵⁷⁹ - مختصر الشيخ خليل ص 50.

وبخاصة حضارات الأزتيك والناهاوا والمايا وبيروبتشاس، كما انتقلت إلى آسيا وذلك قبل ثلاثة آلاف سنة، ومن طقوس الاحتفال ما يلي:

- من مظاهر الاستعداد لهذا اليوم جمع القرابين التي ستقدم إلى المهرجان، ويُذهب بها في يوم الاحتفال إلى المقابر، وهي عبارة عن أطعمة وأشربة مفضّلة عند الموتى، كلّ واحد يساهم فيها وفق إمكانياته، بعد الانتهاء يأكل المحتفلون تلك الأطعمة لاعتقادهم أنّ أرواح الموتى التهمت القيمة المعنوية للطعام، وما تبقى هو طعام فاقد للقيمة يتناوله الأحياء.

- يتمّ الاحتفال في جوّ من المرح والحبور، يقدمون القرابين بالغناء والأهازيج، وفي جوّ من الاسترخاء مصحوب بتقدير واحترام للموتى، وقد تكتب قصائد تُهدى للموتى، وتقوم الصّحف بنشر تلك القصائد والرّسوم الكاريكاتورية.

- تُنظّف القبور وتعطرّ بأنواع فاخرة من العطور، وتزيّن بمختلف أنواع الزينة لأنّها موطن التقاء الأحياء والزّائرين مع الأرواح التي تنزل في هذا اليوم.

- الجماجم هي شعار الاحتفال، يُعجن خبز محليّ على شكل جُمجمة الميت، تكتب عليه عبارات معيّنة، تُطلى بالسكر، ويؤكل في ذلك اليوم.

- يحتفل الصّينيون بعيد الأموات في شهر أبريل من كلّ سنة، وبالضبط في 4/4 من كل عام، لأنّ لفظ رقم 4 يشبه لفظ كلمة "موت" كما بيّناه في فقرة (الموت مخوّف)، ويسمّون هذا اليوم بـ "عيد الصّفاء والنّقاء"، والدولة الصّينية تعترف بهذا اليوم فتعطي ثلاثة أيام إجازة، ولهم عادات مختلفة ومتباينة في الاحتفال بهذا اليوم تتعدّد بحسب قوميات الصّين التي تصل إلى ستّ وخمسين

قومية، لكل قومية أعرافها وعاداتها، وقد فصلَ في هذا وبينه الكاتب العراقي عدنان جبار الربيعي في كتابه "رحلة الشتات والصين" ⁵⁸⁰.

-من عاداتهم أنّ الشّخص إذا مات توضع أطباق من الورد عند مدخل البيت لإشعار النَّاس بوجود العزاء، وتنزع ملابسه وتؤخذ مع فراشه خارج البيت وتُحرق.

-يوضع على سرير خشبي أو على كرسي ويلبس بذلة جديدة ويترك في الدّار لمدة ثلاثة أيام في الأيام الباردة، وليوم واحد في الصّيف ليلقي عليه النَّاس التّحية، ويضعون تحت قدميه الهدايا والفواكه، ويجلسون بجانبه في حزن عميق.

-ومن عاداتهم في الاحتفال حرق النّقود الحقيقية أو المزيفة ونثرها في الهواء حتى تُحمل إلى السّماء لتصل إلى الموتى ليستخدموها في حياتهم الثّانية، ويتبارون في شراء النّقود المزيفة بدلا من الحقيقة التي تخصّص لهذا الغرض.

-يقدمون هدايا للموتى مثل الهواتف الذّكية وغيرها مصنوعة من الورق ثم يحرقونها رغبة في أن تصل إلى موتاهم.

-يقوم الصّينيون في هذا اليوم بإشعال المفرقعات والألعاب النّارية رمزا للاحتفال.

-في هذا اليوم يقفون إلى جانب القبور، كلّ واحد يدخل في حوار مع قريبه، منهم من يسرد عليه حكاية ما مضى من أحداث العام، ومنهم من يضحك معه، ومنهم من يبكي، ولذلك تجد الواقفين بجانب القبور بعضهم يضحك وبعضهم يبكي وبعضهم يتكلّم بجديّة وصرامة، وهكذا.

⁵⁸⁰- لمن يرغب في التّفصيل ينظر كتاب "رحلة الشتات والصين" للكاتب العراقي عدنان جبار الربيعي، الذي زار الصّين وخالط أهلها ووقف على عاداتهم وتقاليدهم أمور في التعامل مع موتاهم، وما يقومون به من طقوس الموت والاحتفال وغير ذلك، صدر الكتاب عن مؤسسة الدوسري للثقافة والإبداع ضمن سلسلة معرفة الآخر، ويقع الكتاب في 244 صفحة من الحجم المتوسط.

وفي بعض القرى من أندونيسيا يقوم الأهالي بحفر قبور موتاهم كل ثلاث سنوات، ويغيرون ملابسهم، ويعطرونهم، ويطوفون بهم القرية في احتفال كبير يطلقون على هذا الطقس " معنّي"، وهو نوع من التّكريم والاحتراف والحبّ للموتى، فهم يعتقدون بأنّ الموتى راحوا بأجسادهم أمّا أرواحهم فهي معهم، ويستغلّونها مناسبة للالتقاء بالأهل والأحباب، ونفس الشّيء يفعلها شعب "المالاغاشي" في مدغشقر، يُخرجون جثث موتاهم، ويلقونها بثوب أبيض نظيف، ويطوفون بها ولو كانت عظاما بموسيقى صاخبة، ويسمّون هذه الطقوس ب"الفاماديهانا"، ثم يرجعونها إلى القبر مرّة ثانية.

أما في المكسيك فيبدأ الاحتفال بعيد الموتى من آخر شهر أكتوبر إلى الثاني من شهر نونبر من كلّ عام، ويحب المكسيكيون زيارة المقابر بخلاف الأمم الأخرى، في هذا اليوم تجذب أرواح الموتى كضيوف شرف حيث تهدي المأكولات والمشروبات فوق قبور أصحابها، ويحيط أهل الميت بقبره فيتذاكرون ويتسامرون فيما بينهم مدّعين أنّ روحه تشاركهم الحوار فتسعد كما يسعدون، وتمرح كما يمرحون، ومن المأكولات الخبز المخصّص لهذه المناسبة، ويطلقون عليه "خبز الموتى".

هذه كلّها مظاهر وثنية، يختلط فيها المعقول باللامعقول، والواقعي بالخيالي، وإذا كان المحتفلون ماديين وملاحدة فإنّهم بهذا يحيون حياة الاعتقاد، فالاعتقاد يرافق كل تلك المظاهر، يكفي أن يعتقد المحتفل بوجود الرّوح فهذا وحده مظهر من مظاهر الغيب، أمّا إذا استحضرننا فكرة "العالم الثّاني"، و"الحياة الأخرى"، وأنّ الموتى يسعدون ويفرحون بهذه المناسبة فلم يعد هناك مجال للشك في أنّ الإيمان بالغيب حاضر بقوة، لكنّه غيب ملطّخ بالوثنية، تخيلوه وتعايشوا معه.

3. الموت: جماليات وفنون

أ- رقصّة الموت

لا أعني ب " رقصّة الموت " اللوحة الفنّية التي رسمها ميكائيل فوغيمون عام 1493م، ولا القصيدة السمفونية التي ألّفت عام 1874م على يد الفرنسي كاميل سانت سين، أو العمل الرّوائي الذي كتبه دانز مكابري وأداه في باريس عام 1424م، أو غير ذلك، الذي أعنيه هو شيء آخر وجب تمييزه عمّا تقدّم ذكره.

كلّ ثقافة تغدّي قلقها عن الموت بطريقتها، ولربما تجعل من ذلك درسا أخلاقيا تعالج به فضاة الحروب والأوبئة والظلم والمجاعات، ف "رقصّة الموت" أصبحت ثقافة وسلوكا يقلّد في كلّ الجهات تقريبا، وفي جهتنا بالذات، وهو الموضوع الذي نريد التحدّث عنه.

الإنسان يفرح لعيد ميلاده، وطيلة حياته وهو يتسلّم شهادة الميلاد لينقل منها تاريخ الميلاد المحدّد باليوم والشهر والسنة، حُقّ له ذلك لأنّه يتسلّم شهادة الحياة والميلاد أما شهادة الوفاة فيتسلّمها ورثته ليقيموا عليها توزيع تركته، وطّي صفحته، لا عذر له في كونه لا يكون يومها حاضرا ليتسلّم شهادة وفاته لكون الدليل قائم على كونه تسلّم شهادة وفاة أبيه أو أمه، وكما فعل بمن رحل يُفعل به يوم رحيله، فهو على أتمّ الدراية بالوضعية، ومن حيدته ﴿لَا مَا كُنْتَ مِنْهُ قَبِيحًا﴾ لا يقيم حفلا لتاريخ وفاة من رحل، الذين يقيمون حفل الوفاة هم من الدّاكرين للموت حقيقة، قليل من يقيم ذكرى وفاة قريبه أو حبيبه على هذا النّوع من تذكّر الموت والترحم على الفقيد القريب، تُرى من الأهم بالنسبة للحي: هل شهادة الحياة والميلاد أم شهادة الوفاة؟

قارن بين الشّهادتين، واشهد على نفسك أيهما أجدى نفعا بالنسبة لك ككائن حي، اعلم جيدا أنّ الأولى للفرح والثانية للفرح، لا تحيد، الاحتفال بالميلاد صار عيدا لأنه يعود على المحتفل كل عام، يتكرّر عوده فسّي كذلك، أما الموت

فلا تتعدّد في الزّمن، فهي واحدة بالنّسبة لمن حلّت به، سواء أحتفلت ستين سنة أو سبعين سنة وقمت بالرقص على أنشودة الحياة، وتمتعت بالمشروبات والحلويات وهدايا الأصدقاء والأقرباء والأحباب فإنّ هذا لا يمنحك الاستمرار في هذه العادة الرّاتبة لسبب واحد هو أنّ هادم هذه اللّذة قادم ليقيم رقصته، وهو سيحلّ لا محالة في وقت محدّد، مؤقت هو الأخبار بالدقيقة واليوم والشهر والسنة، إنّها " رقصه الموت" التي تحتفل بك على طريقته وعلى الرغم منك ﴿فلإنما جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾⁵⁸¹.

حقيقة تؤكّد بأنك كلّما احتفلت بتلك السنّة من عيد ميلادك كلما نقصت سنة من تاريخ عمرك، وقديما قال الحسن البصري: (يا بن آدم، إنّما أنت أيام، فإذا ذهب يوم ذهب بعضك)⁵⁸².

ب- الاحتفال بتاريخ الوفاة

العمر زمنٌ تابعٌ لسيرورة الجسد، ولولاك لم يكن، يؤرّخ الإنسان اليوم لنفسه بتاريخ مولده، ويهتم بهذا التاريخ حتى صيّرته عيداً كما تقدّم، وهو تقليد مسيحي، أخذته المسيحيون من ميلاد عيسى الذي يتمّ الاحتفال به عند حلول كلّ سنة ميلادية جديدة، وقد اعتمدته البشرية في التأريخ اليوم، ونحن نقرنه بالتأريخ الهجري بصورة محتشمة، الأمم الغالبة هي التي تفرض تقويمها للزّمن على الأمم المغلوبة، لماذا الاحتفال بالميلاد من دون الاحتفال بالوفاة، ومادام هذا تقليدا مسيحيا لماذا لا يحتفل المسيحيون بوفاة عيسى حسب المعتقد الصّليبي وهم يقدسون الصّليب، ويعتبرون يوم الصّلب يوم الخلاص، ويُرفع الصّليب ابتهاجا وفرحا لا حزنا وبكاء؟ أليس الاحتفال بالوفاة يعكس نفس الأهمية العقديّة عند المسيحيين التي يعكسها مولد المسيح؟ ألم يقل المسيح لأتباعه وهو متوجّه

⁵⁸¹- سورة الأعراف الآية 32.

⁵⁸²- وفيات الأعيان 286/1.

لأورشليم للألم: (من أراد أن يتبعني فليترك نفسه ويحمل صليبه ويتبعني)⁵⁸³، ألم يقل لهم بعد قيامته من الصّلب: (نلت كلّ سلطان في السّماء والأرض، فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم، وعمّدوهم باسم الأب والإبن والرّوح القدس، وعلمّوهم أنّ يعملوا بكلّ ما أوصيتكم به، وها أنا معكم طوال الأيّام، إلى انقضاء الدّهر)⁵⁸⁴، ذلك قولهم بأفواههم، وما سطرته أيديهم، ونبراً إلى الله من هذا الكلام، لكنّه كلام يثير الانتباه إلى أنّ موت المسيح في المسيحية خير لهم من حياته، ألا يجدر بهم الاحتفال بيوم "الصّلب" إسوة بالمولد أو بدلا منه؟!

أظن بأن طغيان الحياة على الأحياء هي الدّافع لتسمية المولود ب " خالد"، وليس الخلود لأحد، وتسمية المولودة ب "حياة"، ولا حياة تدوم لأحد، وهي أسماء مشروعة في واقع الحال لأنّ ضدها مذموم ومنهني عنه.

إنه التشبث بالحياة لذلك، لذلك جاء الوصف في أهل الكتاب واضحا في قوله تعالى: ﴿ولتجدنهم أحرض الناس على حيلة﴾⁵⁸⁵، لا أحد يمكنه أن يحتفل بتاريخ وفاة الموتى لأنّهم - أولا- ماتوا، ولأنّهم -ثانيا- لا يرغبون في الموت، ولا تميل النّفوس إليه، هل يوجد إنسان أجرى الاحتفال بعيد مولده بعد وفاته؟ أعتقد جازما بأنّه إذا كان يحتفل بيوم وفاته في حياته فقد يستمر هذا التّقليد بعد موته، هل يمكنك في يوم ما أن تدعو النّاس إلى وليمة تجمع فيها عددا من المفكرين والعلماء والباحثين وحتّى الأشخاص العاديين من الأحيّة والجيران والنّاس أجمعين، ولا بأس من أن تكون الصّحافة إلى جانبك في قاعة كبيرة أو منزل فسيح لتعلن أمامهم بأنك ستحتفل بيوم وفاتك المرتقب، لا أحد يكذبك، لأنّ ذلك اليوم قادم، سيحلّ في المستقبل القريب أو البعيد، قد يحسبه البعض حُمقا ويظنّه

⁵⁸³ - إنجيل متى 24/16، الكتاب المقدّس، العهد الجديد ص 30.

⁵⁸⁴ - إنجيل متى 18/28، الكتاب المقدّس، العهد الجديد ص 35.

⁵⁸⁵ - سورة البقرة الآية 96.

آخرون بدعة منكرة لكن جدول الحفل يجيب هؤلاء جميعا إذا كان حافلا ببرنامج التذكير بالموت.

الموت واحد، وهو هو عبر التاريخ، لكنّ العوائد والأعراف والعادات وأشكال التّريغيب والتّرهيب واستخدام الوسائل الحديثة والمعاصرة في التّأثير في الأحياء وقُساة القلوب هي التي تضيف على الحفل طابع المشروعية، إنّه ينبع من الإيمان الحقيقي الصّادر عن ضعف الذات، وفناء الجسد، وخشوع القلب، وانكسار العقل.

كيفما كان الحال فإنّ الإنسان لا يسعد ولا يغني ولا يفرح ولا يصيبه الحبور إذا كان جائعا أو خائفا فكيف يفعل ذلك إذا كان مريضا أو في مرض الموت؟!

ج- الموت والحب

يعتقد البعض أنّ الحبّ منحة للحياة والأحياء فقط، وهو معتقد غير صائب، قد نحبّ الميّت، ولمّ لا، فقد نحبّ الموت نفسه، وحبنا للموت لا يعني تمنّيه، ولكنه يعني عدم الخوف منه، وعدم كرهه، نكره تمّني الموت ولكننا لا نكره الموت.

أعتقد أنّ المحبوبين من الأموات يفرضون وجودهم علينا أكثر من الأحياء، إنني أحبّ أناسا ماتوا، مازال حبهم في قلبي لم يتغيّر، أي: لم يتغير بموتهم، وهنا نجزم فنقول إنّ الموت لا يقطع الحبّ تجاه الأموات كما أنّه في المقابل لا يقطع كرههم، من كنت تحبّه وهو حي ستحبّه وهو ميّت، ومن كنت تكرهه وهو حي ستكرهه وهو ميّت، يمكنك أن تُفاضل بين حُبّ ميّت وحُبّ حي، كما يمكنك أن توازن بين كرهه ميّت وكرهه حي.

د- شواهد القبور

المقصود بشواهد القبور هنا ما يكتب على الشّاهد من معلومات وآيات وأشعار وغير ذلك لا الشّاهد الذي هو حجرة مسطحة توضع عند رأسه لحدّ القبر وتعليمه، في ثقافة النّقل لا توجد شواهد على القبور، ولم يرد ما يدلّ على ذلك، ويمكن للمرء أن يزور البقيع، وهي مقبرة الأموات على عهد النّبي صلّى الله عليه وسلم والصّحابة ومن تبعهم ليقف على صنيعهم في ذلك، لكنّ النّاس استحسنوا ذلك وساروا عليه.

عُرف هذا عند اليونان، وكان ثقافة سائدة يمثّلها الشّعر الإليجي، وهي عبارة عن وزن من أوزان شعر المراثي والأحزان والحداد، تمثّلت في كتابات كريتياس وأوفيديوس وغيرهما⁵⁸⁶، والإليجي من Elegeion، وكان من ضمن أغراض هذا الشّعر ما أطلقوا عليه "شواهد القبور" حيث (استخدم الوزن الإليجي لتخليد الموتى بنقوش توضع على القبور، وتحدّث بضمير المتكلّم، أو تذكر ببساطة اسم ومسقط ورأس الميت، وأصبح ذلك شائعا إبّان القرن السادس ولا سيما في أتيكا، والجدير بالذّكر أنّ بعض هذه الشّواهد - وكذا قصائد الإهداء - لا تحمل اسم ناظمها الذي قد يكون شاعرا مشهورا وقديرا مثل سيمونيديس)⁵⁸⁷، وقد تطوّر ذلك إلى إقامة تماثيل على القبور محاولة في تخليد الرّعاء والأبطال الموتى كما فعل أبناء المسرحي التراجيدي سوفوكليس حين أقاموا تمثالا على قبر والدهم⁵⁸⁸.

⁵⁸⁶ - أنظر الشّعر الإغريقي تراثا إنسانيا وعالميا ص 105، وص 372.

⁵⁸⁷ - المرجع السّابق ص 107.

⁵⁸⁸ - المرجع السّابق ص 252.

فصل في أطاريح وفاسفات حول الموت تحت المجهر



1- أطاريح حول الموت

أ- الأطاريح

تتقاسم موضوع الموت ثلاث أطروحات: الأولى أطروحة فلسفية مادّية طبيعية دهرية، وهي التي نطلق عليها الأطروحة العقلانية.

الثانية أطروحة دينية مسيحية ويهودية وأديان أخرى وثنية لها تصورها الخاص للموت.

الثالثة هي الأطروحة النّقلانية المستوحاة من الإسلام وتعاليمه وثوابته، وهي أطروحة تتعالى عن الأطروحتين السابقتين، تؤسس للصّحيح، وتتصدّى للتّصحیح، لذلك فمعابناتنا للتّصورات والفلسفات والآراء التي جاءت في الأطروحتين إنّما هي من موقع الأطروحة الثالثة.

وقد تولّد عن هذه الأطاريح الثلاثة أربع تيارات تجاه قضية الموت:

-تيار يرى في الموت بداية لحياة أخرى، مفعمة بالحوية والنّشاط، وأنّها ليست كالحياة الأولى، ويدخل في هذا التيار المؤمنون بعالم الغيب على اختلاف دياتهم: اليهود والنصارى والمسلمون.

-تيار يؤمن بالموت، يرى بأنّها نهاية لكلّ شيء، ويضع لها آلهة طبيعية يتوجه إليها، مذهب يردي بصاحبه إلى العدم، وغالبية أصحاب هذا التيار من الطّبيعيين الدّهريين الذين يرون بأنّ الموجود هو الفناء ولا وجود لحياة بعد الموت.

-تبار ينكر الموت بمرة، فهي لا تشكل له أيّ خوف أو تخوّف، فهو يحيا الحياة لأنّها هي الموجودة، وهؤلاء صنف من الفلاسفة الطّبعيين من أمثال أبيقور وسينيكا وأخرون ورواد الفكر المادي الماركسي وغير ذلك.

-تبار لا يؤمن بالحياة على وجودها، فيما أنّها متبوعة بالموت فلا قيمة لها في الوجود، فالحياة عند هؤلاء وُجدت للموت، وغالبية هؤلاء من الرّوحانيين الغلاة الذين أثروا الانطواء والانزواء.

ب- مُت فارغا

عنوان لكتاب صنّفه هنري تود، أثار ضجّة واسعة ولقي اهتماما متزايدا، وحظي بتعليقات عديدة، وصلّتي تعليقات على مقاله فدوّنتها واستخلصت منها بعض الفوائد والأفكار ووضعتها مع المواد العلمية التي كنت أجمعها عن موضوع الموت منذ مدّة، وقد حان الوقت لتصفّح المقال والرجوع إلى الكتاب وصاحبه، لقد شدّني الكتاب لسببين: الأول موضوعه اللطيف، الذي يقرع الأذان حول موضوع حيوي ومصيري، يتعلّق بالحياة والموت معا، ويقدم درسا للأحياء كيف يجب أن يستثمروا حياتهم، وما يجب عليهم فعله قبل الرّحيل، والثاني هذه الضجّة الواسعة والاهتمام الكبير بفكرة قالها كاتب، في حين أنّ الفكرة نفسها بل وما هو أبلغ منها قيلت بعدّة صبغ قبله بقرون، بها جاء الأنبياء والرّسل، لم يكثر بها أحد حتى قالها هنري تود، وهذه مأساة الفكر والثّقافة، ما جاء به المنقول لا يُلتفت إليه وإن كان صحيحا، وما جاء به هنري وجاك وميشال يشدّ الانتباه ويثير الاهتمام، وبعد سنوات يموت هؤلاء وتصبح أفكارهم منقولات، ونصوص، فيجري عليهم ما يجري على النّقل، إنّها قضية معرفية تستوقف.

لا أريد أن أناقش الموضوع من هذه الوجهة فما أثبتناه في هذا الكتاب كفيل بيان ذلك، لكن نبقى مع هنري تود وكتابه " مت فارغا"، فالمعلومات التي يتضمّنها تدقّ على قلوب النّقلانيين، وتقرع عقول العقلايين.

ولد هنري تود في موسكو سنة 1911 م، وكان اسمه الحقيقي ليف تاراسوف، وخرج منها هاربا إلى فرنسا خوفا من اضطرابات الثورة البلشفية، حيث درس القانون وحصل على الجنسية الفرنسية، وكان عضوا في الأكاديمية الفرنسية، وحقّق للرجل أن يقدم هذه المعلومات لأنّ الله مدّ له في العمر، فقد مات على سنّ الخامسة والتسعين، عاش حياة زاخرة بالإنتاج الأدبي، يحكي هنري تود أنّه التقط فكرة كتابه من كلمة سمعها من مدير شركة أمريكي سأل زملاءه في اجتماع عمل قائلا: (ما هي أئمن أرض في العالم؟)، وهو سؤال وجيه لأنّ أصحاب المال والأعمال أول ما يسألون عنه هو الأرض من جهة الموقع والجودة والثمن، بدأ المدير يتلقّى أجوبة الحاضرين، منهم من يقول بأنّها أرض الخليج الغنية بالنفط، ومنهم من يقول إنّها أراضي الماس في إفريقيا، فقاطعهم المدير بقوله: (إجاباتكم خاطئة...إنّها المقبرة)، واستفاض في شرح الفكرة موضحا أنّ الملايين من الناس ماتوا وقد ماتت معهم أفكار ثمينة البشرية في أمسّ الحاجة إليهما، لقد التقط هنري تود هذه الفكرة ووضع عليها كتابه DIE EMTY، ومعناه "مت فارغا، أطلق العنان لأفضل أعمالك كل يوم"، ويبدو أنّ الرجل هو مؤجّه ومُرشد في الإبداعات العرضية، صدر الكتاب عام 2013م في الولايات المتّحدة الأمريكية، وتولّت نشره Penguin Groupe، يتكوّن الكتاب من أحد عشر مبحثا أو مبادئ، وهي: 1- مت فارغا، 2- مساهمتك، 3- أغنية صفارة الإنذار...، 4- حدّد معارفك، 5- كن فضوليا بشدّة، 6- اخرج من منطقة الراحة الخاصّة، 7- أعرف نفسك، 8- كن متكيّفا بثقة، 9- ابحث عن صوتك، 10- ابق على اتصال، 11- تفرغ الحياة، 12- إلى الأمام، وترجمتي لمباحثه تقريبية وليست تحقيقية، فلا مؤاخذه.

ما أحسن التوجيه إذا كان مُسدّدا، وما أجود الإرشاد إذا كان خالصا، ولا يوجد شيء أفضل من الوعظ إذا كان فيه الصّدق، كلمة قصيرة أطلقها مدير شركة، التقطها رجل واحد وضع عليها كتابا ضمّن فيه أفكارا نيّرة وتصورات عملية تعين الإنسان على إخراج ما في مكانه من خير ليعمل بها العشرات من

النَّاس، ولمَ لا فقد نكون نحن أو من يقرأ ما كتبناه لينطلق بها في واقع الحياة، أليست هذه هي العبقرية الحقيقية، وقبل العبقرية أليست هي العبادة الحقيقية إن سلمت النية وتحصّل الامتثال، أو ليس هذا هو الصدقة الجارية التي ينتفع بها الإنسان في هذه الحياة وفي تلك الحياة، أليس خير النَّاس من يقدّم الخير للنَّاس، ألا يكون فاعل الخير في النَّاس مشكوراً هنا ومأجوراً هناك ؟ هذا ما فات هنري تود أن يثبته، وهذا ما خفّف عنيّ بعض الآلام التي سببها سلوكات وتصرفات بعض الأنام، ذاك ما تسعى التقلاية لتأكيد.

من أروع الفقرات التي سطرّها أنامل هنري تود ما يلي:

- (لا تذهب إلى قبرك وأنت تحمل في داخلك أفضل ما لديك، اختر دائماً أن تموت فارغاً).

- (مت فارغاً من كلّ الخير الذي في داخلك.. سلّمه قبل أن ترحل..

إذا كنت تملك:

فكرة.. نفّذها

علماً.. بلّغه

هدفاً.. حقّقه

حباً.. انشره ووزّعه

لا تكتّم الخير داخلك فتموت ممتلئاً متخوماً وتكون لقمة سائغةً لذيدة لدود الأرض!).

- (أيامك معدودة، محدودة، ذات يوم ستنفد).

- (لديك مساهمة فريدة تقدّمها للعالم).

- (لا يمكن لأي شخص آخر تقديم مساهمتك بدلا عنك).

- (مبدأ التّوسط لا يحدث فجأة بل يتحصّل بمرور الوقت).

ما قاله هنري تود صحيح، فليمت الإنسان "فارغا"، لكنّه إذا أبى أو تعذّر عليه ذلك فلا يمت "مدمّرا".

ج- لا تمت مدمّرا

وضعتُ هذه الفقرة في مقابل عنوان كتاب هنري تود "مت فارغا"، وهو يحقّز الإنسان ليكون معطاءً في حياته، كل التجارب والخبرات التي اكتسبها في الحياة يساهم بها في الحياة يُعطي كل ما عنده لغيره قبل موته، ما معنى الحياة إذا كان الإنسان يجتهد فيها ليل نهار ليكون مجتهدا مبدعا مخترعا نافعا في جانب من جوانب الحياة وفي النهاية يموت وتموت معه تلك المنافع، أوليس هذا هو البُخل بعينه.

لو رجعنا إلى الفكرة التي كانت بمثابة الشرارة التي أوقدت تصنيف الكتاب سنجد بأنّ مدير الشركة تكلم عن نوعية معيّنة من الأموات وهم بالملايين ونسي عينه أخرى من الأموات وهم بالملايين أيضا، أولئك الذين ماتوا مُدمرين للبشرية، فالأموات من هذه الزاوية على ثلاثة أصناف:

- صنف مات ممتلئا، وبخل على النَّاس بعلومه ومعارفه ومنافعه، هؤلاء الذين قصدهم هنري تود.

- وصنف مات وليس عنده ما يعطي، وهذا الصّنف على ثلاثة أنواع: المستفيدون، وغير المستفيدين، والمناهضون المعادون، ونُعطي مثلا على ذلك بدعوة الأنبياء والرّسل، يوجد من استفاد منها، ويوجد من لم يستفد منها، ويوجد نوع ثالث قام بمعاداتها واجتهد في محاربتها.

- صنف مات فارغا فعلا، أولئك الذين خدموا البشرية عبر الرّمن، وبقيت خدماتهم شاهدةً عليهم أبد الدهر، وهؤلاء على نوعين: نوع استهدى بالتعاليم

الربانية، والتّوجّهات الإلهية، مات فارغا مدفوعا من منطلق الصّدقات الجارية، والإحسان للنّاس، والعمل لوجه الله إلخ، وصنف مات فارغا من دون احتساب، خدم البشرية، وقدّم لها منافع كبيرة لكن من دون دين ولا إله.

- وصنف من المدّمّرين، أولئك الموصوفين بـ " المفسدين في الأرض"، يفسدون فيها ولا يصلحون.

الغرض من تسطير هذه الفقرة هو توجيه النّقلاية الخطاب إلى الصنف الرابع، إذا تعذر عليهم أن يكونوا من صنف الفارغين فلا يكونوا من صنف المدّمّرين.

د- عند موتك لا تقلق

عنوان لمقال اطلعتُ عليه أكثر من مرّة، قصير جدًا لكنه معبر جدًا، وقد كتبه الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله، طرافة المقال في واقعيته، يصف الموت بعبارات واضحة، سهلة وميسرة، يفهمها العامي والمتخصّص، والسبب أنّ ما جاء به المقال يتعرّض إليه كل واحد ولا يُستثنى من ذلك أحد، وصاحب المقال يُطمئن الأحياء بأنّ المسلمين سيتولون أمور جنازتهم، فيبدأ من غسل الجنازة وكفنها وحملها إلى مقرّها الأخير وهو القبر، وأنّ النّاس سيشيّعون الجنازة، وكل الأغراض الشّخصية سيتمّ التخلّص منها وستصبح في ملك الغير، ومما جاء في المقال ما يلي:

(تأكّد بأنّ الدنيا لن تحزن عليك!! ولا العالم.

والاقتصاد سيستمر!

ووظيفتك سيأتي غيرك ليقوم بها...

وأموالك ستذهب حلالاً للورثة!!

بينما أنت الذي ستحاسب عن النّقيير والقطمير!!!

الحزن عليك سيكون ثلاثة أنواع:

- 1- النَّاسُ الَّذِينَ يَعْرِفُونَكَ سَطْحِيًّا سَيَقُولُونَ مَسْكِينٌ !!!
2- أَصْدِقَاؤُكَ سَيَحْزَنُونَ سَاعَاتٍ أَوْ أَيَّاماً ثُمَّ يَعُودُونَ إِلَى سَوَالِفِهِمْ
وَضَحِكِهِمْ!!
3- الْحُزْنُ الْعَمِيقُ فِي الْبَيْتِ!! أَهْلَكَ أَسْبُوعَ أَسْبُوعَيْنِ شَهْرَ شَهْرَيْنِ أَوْ حَتَّى
سَنَةً....؟؟

ومن ثم سيضعونك في أرشيف الذكريات !!
وهكذا " انتهت قصّتك بين النَّاسِ "
وبدأت قصّتك مع الحقيقة وهي الآخرة !!

لقد زال عنك المجد والمال والصّحة والولد لقد فارقت الدّور والقصور
والزّوجة؟؟
وبدأت الحياة الحقيقية.....

هذا الكلام وغيره هو معرفة أكثر من كونه إنشاء مكتوباً، فما فيه من تفكير
وتأثير هو نتيجة معرفة مشتركة بين جميع الناس، المؤمنون بها يفهمونها جيّداً،
لذلك كان عنوان كلامه " لا تقلق عند موتك"، فالمقبل على الموت يعرف جيّداً
مسطرة الموت، يعرف المسار الذي يسلكه هنا وهناك، إنّها "المعرفة الأسمى" التي
تزيل التوتّر والقلق والخوف، ثم إنّها المعرفة التي تُوحّد الاعتقاد والنظرة والسلوك
والمصير، وهي على خلاف "الفلسفة اللاأدرية" التي طفحت بها ثقافة الرّمان كما
نقرأ في قصيدة "الطلّاسم" للشاعر إيليا أبو ماضي الذي يتكلّم عن الموت فيقول:

ولقد قلت لنفسي، وأنا بين المقابر
هل رأيت الأمن من والراحة في الحفائر؟
فأشارت: فإن للدّود عيث في الحناجر
ثم قالت: أيها السائل، إني
لست أدري !

انظري كيف تساوى الكل في هذا المكان
وتلاشى في بقايا العبد رب الصّولجان
والتقى العاشق والقالي فما يفترقان
...أفيذا منتهى العدل؟ فقالت:

لست ادري !

إن يكن الموت قصاصا، أي ذنب للطهاره
وإذا كان ثوابا، أي فضل للدّعاره
وإذا كان يوما وما فيه جزاء أو جساره
.. فلم الأسماء إثم أو صلاح؟

لست ادري !

أيها القبر تكلم، واخبرني يا رمام
هل طوى أحلامك الموت وهل مات الغرام
من هو المائت من عام ومن مليون عام
..أبصير الوقت في الأرماس محوا؟

لست ادري !

إن يك الموت رقادا بعد صحو طويل
فلماذا ليس يبقى صحونا هذا الجميل؟
ولماذا المرء لا يدري متى وقت الرّحيل؟
..ومتى ينكشف السر فيدري؟

لست أدري !

إن يك الموت هجوعا يملأ التّفنّس سلاما
وانعتاقا لا اعتقالا وابتداء لا ختما
فلماذا أعشق التّوم ولا أهوى الحماما
..ولماذا تجزع الأرواح منه؟

لست أدري !
أوراء القبر بعد الموت بعث ونشور
فحياة فخلود أم فناء ودثور
أكلام النَّاس صدق أم كلام النَّاس زور
..أصحيح أن بعض الناس يدري ؟
لست أدري !
إن أكن أبعث بعد الموت جثماننا وعقلا
أترى أبعث بعضا أم ترى أبعث كلاً
أترى أبعث طفلاً أم ترى أبعث كهلاً
..ثم هل أعرف بعد الموت ذاتي ؟
لست أدري !

هي مقاطع من قصيدة إليا أبوماضي، بسط فيها رؤيته للموت والروح والجسد والقبر والنشور كل ذلك برؤيته المشهورة بالفلسفة اللاادرية، والتي صاغها شعراً كما بسطنا، وقد انبرى من ردّ على هذه القصيدة شعراً ونثراً، كما انبرى عبد الله بن عباس للردّ على من قال لجنائزة محمولة: لا أدري إلى ما يصير إليه هذا الرجل؟!، وقد أثبتنا ردّه في موضعه.

2 - نظريات فلسفية تحت مجهر النقد النقلي

أ- محور النظريات: ألم الموت وإثباته

ليس المقصود بالألم هنا الفراغ الذي يحدثه الموت حين يأخذ عزيزاً وقربياً، ذلك ألمٌ غير مقصود في هذه الفقرة، الألم المقصود هو الألم الذي يحدثه الموت حين يحلّ بالجسد، وسنحدّد الكلام عنه من ثلاث وجوه:

الأول: تألم الجسد، وعلامة ألمه تغييره، التفاف الساق بالساق، تشخّص العينين، فتح الفاه، استرخاء العضلات، تأوهات، زفير، شهيق، بعض الالتفافات

يمينا وشمالا، تلك هي غشاوة الموت المعبر عنها في قوله تعالى: ﴿رَأَيْتَ الْكَايِنَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُنْزَخُونَ إِلَيْهِ نُحْرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾⁵⁸⁹، تلك هي مظاهر حلول الموت في الجسد، أما الألم فيتلاشى بخروج الرّوح.

الثاني: ما أخبر به الوحي، والوحي غيب، من أنّ للموت سكرات، وقد تقدّم الكلام على ذلك.

الثالث: مقدّمات الموت الحقيقية، مثل النّوم والغيوبية وآلام الأمراض التي تصيب الإنسان، لكنّ ألم المرض شيء وألم الموت شيء آخر.

الألم الحقيقي لا يكون إلاّ في النّزع، والنّزع لا يعني غير نزع الرّوح من البدن، وكلمة النّزع تشير إلى الشدّة ﴿وَنَزَعْنَا مَا لِقُوبِهِمْ مِنْ عَجَلٍ﴾⁵⁹⁰، كأنّك تجذب إليك شيئا لتخلصه من شيء هو متمسكّ به، لأنّ القلوب في الدّنيا أُشربت الغلّ، كذلك، فالرّوح تنزع من الجسد لأنّ الرّوح أُشربت الجسد، لذلك يحصل النّزع، والمتمسك هو الجسد، فهو لا يريد مفارقة الرّوح، لقد ألفت الرّوح هذا الجسد، وكذلك الجسد، وتعايشا زمتا، فالرّوح بلا جسد لا تعطي الحياة، والجسد من دونها لا معنى له، خشبة جامدة، فهل يبقى الإنسان هو الإنسان حين تخرج روحه، من يقربه ومن يصحبه؟ وكيف هو وجوده بعد ذلك، إنّها لحظة الافتراق والفرق، نحسّ بالألم حين نفارق عزيزا، لكنّنا نحس بحقيقة الألم حين تفارقنا أرواحنا، عملية النّزع صعبة التمثّل، فراق الرّوح للجسد هو أعظم تفريق يمكن للإنسان أن يتخيّله، فهو مصيبة لا يوجد ما هو أعظم منها، يقول الإمام الغزالي: (فلا تسل عن بدن يجذب منه كلّ عرق من عروقه، ولو كان المجذوب عرقا واحدا لكان ألمه عظيما فكيف والمجذوب نفس الرّوح المتألم؟ لا من عرق واحد بل من جميع العروق، ثم يموت كلّ عضو من أعضائه تدريجيا فتبرد أولا قدماه،

⁵⁸⁹ - سورة محمد الآية 21.

⁵⁹⁰ - سورة الحجر الآية 47.

ثم ساقاه، ثم فخذاه، ولكلّ عضو سكرة بعد سكرة، وكربة بعد كربة حتى يبلغ بها إلى الحلقوم فعند ذلك ينقطع نظره عن الدّنيا وأهلها).⁵⁹¹

ب- في الرد على ابن حزم وابن مسكويه

رجلان تعاصرا، ونهلا من معين الفلسفة اليونانية والمنطق الأرسطي، أحدهما سُنيّ عاش في المغرب وهو ابن حزم، وكانت وفاته سنة 456هـ، والثاني شيعي رازي، عاش بالمشرق هو ابن مسكويه، وكانت وفاته 421هـ، فإذا كان التّشابه بينهما واردا في هذه الخصوصيات فقد تشابها أيضا في نكران ألم الموت بعد الموت، والسبب في ذلك هو أنّهما نهلا من فكرة واحدة، وهي فكرة يونانية، ولم يستحضرا ثقافتها الخصوصية المتمثلة في ثقافة النّقل، وهما معدودان من عقول النّقل في الثّقافة الإسلامية، نناقش ابن حزم أولا ثم نُثنيّ بابن مسكويه.

أولا - الرد على ابن حزم

كتب ابن حزم الظّاهري في الموضوع رسالة بعنوان (رسالة في ألم الموت وإبطاله)⁵⁹²، لا تتجاوز صفتين، اختصر الكلام في الموضوع اختصارا، وقد بدأه بكلام الطّبيعيين في الموضوع، وهم على صنفين: صنف يقول بأنّ للموت ألما وصنف ينفيه، ومال ابن حزم إلى رأي النّفاة، حاول أن يتأوّل فيه الحديث المرفوع المتقدّم الذّكر: (إنّ للموت لسكرات)⁵⁹³، وما يريد ابن حزم هو أنّ الرّوح إذا فارقت الجسد انتفى الألم، لأنّ الإحساس يموت، فالإنسان يحسّ بالحواس وهو حي، وما قاله من وجه حق من النّاحية الطّبيعية وما جرى مجرى العادة وهو ما سماه بـ " البرهان الضروري"، لكنّه لا يستقيم في مخالفة الوحي، لأنّ قائل الحديث نبي، وقد قاله من موقع الوحي

⁵⁹¹ - إحياء علوم الدين 4/545.

⁵⁹² - الرّسالة موجودة ضمن رسائل ابن حزم الأندلسي التي حققها الدكتور إحسان عباس، أنظر 4/359.

⁵⁹³ - أخرجه البخاري في جامعه الصّحيح، كتاب المغازي، باب مرض النّبي صلّى الله عليه وسلم ووفاته.

أنظر الفتح 144/8 رقم الحديث 4449.

أولا ثم من موقع الإحساس ثانيا، وقد تقدّم معنا أنّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال هذا الكلام وهو يعاني في الزّرع، لكن ورد في حديث صحيح تقول فيه فاطمة رضي الله تعالى عنها للنبي ﷺ (واكرب أباه!)، فيجيبها صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (ليس على أبيك كرب بعد اليوم)⁵⁹⁴، أي لا كرب بعد الموت، وجواب ابن حزم غير موفّق من وجهين: من الوجه الذي ذكرته أنفا، ومن وجه أنّ الوحي يُخبر بأنّ الميّت حتى بعد الموت يسمع نعال المشييعين، وهو ما دلّ عليه قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في خطابه لأهل القلب من كفار بدر، فإذا كان الميّت يسمع فهو يحس، ولذلك لم يجز الشّرع كسر عظمه، فكسر عظم الميّت هو ككسر عظمه حيا، ومن وجه ثالث أنّ الموت يحدث الألم في الجسم حال حلوله فيه، وقد يكون ذلك في دقيقة أو ساعة أو يومين أو حتى أكثر، كم من شخص يحلّ فيه الموت ولا تخرج روحه إلّا في أيّام، والألم هنا ليس لذاته بل هو كفارة لصاحبه، وأرى أنّ ابن حزم تأثر بنظرية الفيلسوف اليوناني ابيقور في نفي ألم الموت، فالذي غرس الإلحاد في نفوس اليونان هو ابيقور EPICURE، هذا الرجل الذي استغلّ معضلة الموت فبشّر بالإلحاد والوثنية، لقد كان الموت مشكلة عند اليونان، وكان الموت هو الدافع إلى الاعتقاد في آلهة منحوتة من الأشياء المادية، مجسّمة كإله الشمس وإله القمر وإله البحر وإله المطر وإله الرعد وإله الخير وإله الجمال... مع معي ابيقور الذي بنى تصوره الفلسفي على المادّية الديمقريطسية عرف الاعتقاد تحولا جذريا عند أغلب المعتنقين، فقد شنّ حملة على الموت باعتباره لا يعني الإنسان في شيء، ولا ينبغي أن يكلفهم هم التفكير ليلا ونهارا، ولا وجود له كحقيقة حسّية، يقول في رسالته إلى مينوسيوس: (ألا فلتعد الاعتقاد بأنّ الموت لا يعني شيئا بالنسبة لنا، فالخير كلّه والشرّ جميعه يكمنان في الحس، لكن الموت حرمان من الحس، ومن هنا فإنّ الفهم الصّحيح هو أنّ الموت لا يعني شيئا بالنسبة لنا، وذلك يجعل فناء الحياة أمرا يمكن الاستمتاع به لا لأنه يضيف إليه مدى لا نهائيا

⁵⁹⁴ - أخرجه البخاري في جامعه الصّحيح، كتاب المغازي، باب مرض النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ووفاته.

أنظر الفتح 149/8 رقم الحديث 4462.

من الزّمن وإنّما لأنّه يستبعد شوق الإنسان للخلود، فليس هناك ما هو مرعب في الموت، من هنا فإنّه في تكاسل يتحدّى ذاك الذي يقول بأنّه يخشى الموت لا لأنّه سيكون مؤلماً حينما يحل وإنّما لأنّ توقّعه أمر مؤلم، فإذا لم يكن يؤلم عند حدوثه فلا يثير توقّعه إلا خوفاً أجوفاً، وهكذا فإنّ الموت - وهو أعظم الشرور - لا يعني شيئاً بالنّسبة لنا حيث إنّّه طالما كنّا موجودين فإنه غير موجود، ولكنّه حينما يحل فإنّنا لا نكون موجودين، وهكذا لا يثير القلق في الأحياء ولا الموتى، فهو بالنّسبة للأوائل ليس موجوداً، أما الأخيرون فإنّه لا يصبح لهم وجود حينما يحل⁵⁹⁵.

هكذا واصل أبيقور طرد الخوف من الموت حتى تمكّن من إزالته من كبار الفلاسفة يومئذ كأخرون ACHERON⁵⁹⁶، وامتدّ تأثير نظريته إلى فلاسفة آخرين من أمثال سينيوزا وجورج سيمون وشوبنهاور وكانط وآخرين، لكنّ ابن حزم استفاد منه فقدان الإحساس بالألم لكون الموت تقضي على الإحساس، والوضع الحقيقي للنّقلانية التي تتماشى مع حالة الفطرة تخالف جذرياً الوضع الحقيقي للعقلانية التي تتماشى مع الحالة الطّبيعية، وهي الأمور التي فصلّنا الكلام فيها في عمل علمي سابق.

ثانياً - في الردّ على ابن مسكويه

ابن مسكويه، هو أبو علي أحمد بن محمد مسكويه الرّازي، نسبة إلى الري - وهي بلدة محدّثنا أبي حاتم الرّازي محمد بن إدريس بن المنذر - في كتابه تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، كتب فصلاً مهمّاً بعنوان (علاج الخوف من الموت)⁵⁹⁷، تكلم فيه عن الأسباب التي تدفع للخوف من الموت، وهي ستّة أسباب أتينا على ذكرها في فقرة "أسباب الخوف من الموت".

⁵⁹⁵ - الموت في الفكر الغربي لجاك شورون، عالم المعرفة ص 66-67، وانظر Essai sur la signification

43de la mort , Jules Vuillemin p

⁵⁹⁶ - المصدر السّابق ص 65.

⁵⁹⁷ - تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق لابن مسكويه (ت 421هـ) ص 217 وما بعدها.

في معالجة السبب الثالث يقول كلاما يستوقف: (وأما من ظنَّ بأنَّ للموت أما عظيما غير ألم الأمراض التي ربّما اتفق أن تتقدّم الموت وتؤدي إليه فعلاجه أن يُبين له إنَّ هذا ظن كاذب، لأنَّ الألم إنَّما يكون للحَي، والحَي هو القابل أثر النَّفس، وأما الجسم الذي ليس فيه أثر النَّفس فإنَّه لا يألم، ولا يحس، فإذا الموت الذي هو مفارقة النَّفس للبدن لا ألم له، لأنَّ البدن إنَّما كان يألم ويحسُّ بأثر النَّفس فيه، فإذا صار جسما لا أثر فيه للنَّفس فلا حسَّ له ولا ألم، فقد تبين أنَّ الموت حال للبدن غير محسوس عنده ولا مؤلم، لأنَّه فراق ما به كان يحسُّ ويتألم⁵⁹⁸ .

ما يقوله ابن مسكويه هو ظنُّ ينبغي على أوهام، لا أدري هل يقيم مقارنة بين جسد ميّت وجسد حي، فالجواب عنه ببساطة أنَّ الميت لا إحساس له، وأنَّ الحَي هو الذي يحس، فهذه من معقولات العقل البديهية، أم إنَّه يخاطب المعتقدين لما سيحلّ بهم من ألم العذاب بعد الموت، ومن خلال الفصل الذي عالج فيه الخوف من الموت يتضح أنَّ ابن مسكويه يخاطب الخائفين من العذاب بعد الموت وليس قبلها، وهو ما ذهب إليه ابن حزم في الفقرة السابقة، وأتضح أنَّ ابن مسكويه تأثر هو الآخر بنظرية أبيقور EPICURE، لا نرى مانعا من الاستفادة من هذه النظرية إذا تمَّ تهذيبها بما يتوافق مع النَّقل تماما كما فعل الموقِّعون، أما أن تُبتلع، وتلقى بهذه الكيفية في موضوع ذي جلال فالنقلانية التَّقيدية ترفضه، ثم من باب الإنصاف يجب ربط المقال بوضعه، أبيقور لما وجَّه الخطاب وجَّهه للفلاسفة الطَّبَّعيين، لكن خطاب ابن مسكويه هو للمؤمنين، لقد حضرت الأطروحة العقلانية وغابت الأطروحة النقلانية، والسؤال المطروح: أين ثقافة النَّقل في الموضوع، لماذا نعالج الموضوع برؤية واحدة وليس برؤيتين إذا تعدَّر الكلام أو كان المقام لا يسمح بالرؤية النقلانية وحدها؟ وإذا كان العذر منتف على ابن حزم بحكم نقلانية سُنَّيته، فإن العذر منتف بالنسبة لابن مسكويه، فعلى الرِّغم من عقيدته الشَّيعية التي تستبعد النقلانية السُّنية فإنَّ آيات القرآن الكريم تبقى حاكمة في

⁵⁹⁸ - تهذيب الأخلاق ص 221.

الموضوع، والعشرات منها تتكلم عن تحصيل الألم والعذاب بعد الموت، ومنها عذاب القبر الذي تكلمنا عليه في موضعه، كلاهما من عقول النقل، ونقلانيون على الرغم منهم، لكن في موضوع عقدي مصيري لا يستقيم منهجا ومعرفة تقديم ما هو عقلاي على ما هو نقلاني لقوله تعالى: ﴿يَلْأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقَدَّمُوا يَوْمَ يَدْعَىٰ اللَّهُ رُسُلَهُ﴾⁵⁹⁹، وهذا تقديم يبين، ومن خطورته المساس بعقيدة الوعيد.

د- الغزالي وابن رشد في ميزان النقد

كان النقل لعنة من اللعنات التي توبعت بها الثقافة الإسلامية منذ عهدا الباكر، كنا نظن بأنها قضية مصطنعة تلمى بها العلماء والحكماء فرد بعضهم على بعض، ونقد بعضهم بعضا في كبار الأمور وصغارها، ودخلت الفرق والمذاهب على الخط، وكثر الغمز واللمز، وتهاجى القوم وتدابروا وتحاربوا، ومنهم من كقر بعضهم بعضا، وقتل بعضهم بعضا كما فعلت المعتزلة في خلق القرآن بأهل السنة، وأصبح هذا الموضوع مثار دراسات وأبحاث، وقدمت حوله مشاريع فكرية وتصورات نظرية، وتدخلت فيها العلوم بما فيها الدراسات الاستشراقية والاتجاهات المادية والرؤى الجدلية إلخ، كنا نظن بأنه موضوع مفتعل لا جدوى من إشعال جذوته، مضى وانتهى، لكن لما فتحنا بابيه وجدناه مازال مفتوحا بل اتسعت دائرته حين دخلت تيارات جديدة تنتعل نفس الصفات وترمي إلى نفس التوجهات، ومنها ما هو أكثر شراسة وأبلغ في التنكيل والوقاحة، فالجرح مازال ينزف منذ ذلك الوقت، فقضية البعث بالأرواح والأجساد قضية استوقفتني بين الغزالي وابن رشد، ونحن نستحضر ما دار بين الرجلين من انتقادات جوهرية مدارها حول قطبي الدين والفلسفة، أو لنقل الشريعة والحكمة، أو لنخصص أكثر بين الفلسفة الطبيعية والعقل الطبيعي والفلسفة الإسلامية والعقل الفطري التي كانت الموضوعات العقديّة من بين أبرز القضايا التي تدفع للمناقشة والحوار، العقيدة ليست قضية كلامية أو فلسفية

⁵⁹⁹ - سورة الحجرات الآية 1.

مجردة تُبحث بالمنطق والفلسفة فحسب بل إن إثارة قضاياها يجر مباشرة إلى مرتكزات الثقافة الإسلامية وأصول معارفها التي هي يناهض الحكمة في الموضوع، وبين أيدينا اليوم موضوع من موضوعات العقيدة كان مثار جدل وحوار بين الغزالي وابن رشد، بسط الغزالي الكلام فيه في كتابه "إحياء علوم الدين"، وقعد قضايا الرد وحدد الموضوعات التي أخذ بها الفلاسفة في الموضوع في كتابه "تهافت الفلاسفة"، مضمون الموضوع هل البعث يكون بالأرواح والأجساد أم بالأرواح فقط، وهي من ضمن الموضوعات التي نقد الفلاسفة فيها، ثم تعقبه ابن رشد، فردّ عليه في القضايا التي أخذ الفلاسفة عليها ومنها قضية البعث والفاء في كتابه "تهافت التّهافت"، توقفت المشادة النقدية عند كتاب "تهافت التّهافت" بسبب تقدم وفاة الغزالي سنة 505هـ وتأخر وفاة ابن رشد إلى عام 595هـ، ولو اطّلع الغزالي على رد ابن رشد لصوّب مسائل عديدة، وقد اطّلع على ما كتبه في موضوع البعث والحشر فوجدت الغزالي اضطرب اضطراباً لا يليق بمقامه، وابن رشد قطع قطعاً لا يستقيم مع حاله، وسنكشف عن ذلك فيما يأتي من كلام، وعلى كلّ حال فالرجلان من عقول النقل الجبارة في الثقافة الإسلامية، ولهما أثر بالغ على المعرفة النقلانية السائدة.

في كتابه "تهافت الفلاسفة"⁶⁰⁰، وفي آخر فصل من الكتاب بسط مذاهب الفلاسفة المتكلمين في موضوع البعث ومواقفهم من بعث النّفس والبدن⁶⁰¹، فقام بحصرهم في ثلاثة أقسام:

القسم الأول يرى بأنّ الإنسان عبارة عن البدن والحياة التي هي عرض قائم به، والنّفس لا وجود لها على الحقيقة، والموت تعدم النّفس والبدن معاً، والبعث هو خلق جديد، يُخلق فيه الإنسان ابتداءً.

⁶⁰⁰- تهافت الفلاسفة للإمام أبي حامد الغزالي، ص 196 وما بعدها.

⁶⁰¹- يسّي الغزالي الرّوح بالنّفس، فإذا قال "النّفس" فهو يعني الرّوح، فلينتبه لذلك.

القسم الثاني يرى بأنّ النَّفس تبقى موجودة بعد الموت، وعند البعث يردّ البدن الأول لنفس الرّوح، أي: ترجع الرّوح لبدنها الأصلي.

القسم الثالث: تردّ النَّفس إلى البدن سواء أكان من تلك الأجزاء أو من غيرها، بحيث تكون العائدة هي النَّفس، أما المادّة فلا التفات إليها، لأنّ الإنسان هو إنسان بالنَّفس لا بالمادّة.

هذه الأقسام الثلاثة حكم الغزالي ببطلائها، وتابعها قسما بقسم، وقدّم على ذلك مبررات البطلان، لكن أين استقرّ الغزالي؟ وما هو رأيه؟ الأمر غير ظاهر، فالظاهر أنّه حصر الأقسام، ومن المفروض أن يكون مذهبه في واحد منها، والقسم المرجح الذي من المفروض أن يبرز مزاياه العقدية، ويدافع عنه هو القسم الثاني الذي يقرّ بأنّ البعث هو إرجاع الرّوح لبدنها الأصلي، وهو معتقد أهل السنّة وغيرهم، ومنهم الأشاعرة الذي هو على مذهبيهم، لكنّه يكرّ على هذا القسم بالبطلان بقوله: (وأما القسم الثّاني وهو تقدير بقاء النَّفس وردّه إلى ذلك البدن بعينه فهو لو تصور لكان مُعادا أي عودة إلى تدبير البدن بعد مفارقتها، ولكنّه محال إذ بدن الميّت ينحلّ ترابا أو تأكله الديدان والطّيور ويستحلّ دما وبخارا وهواء، ويمتزج بهواء العالم وبخاره ومائه امتزاجا يبعد انتزاعه واستخلاصه)⁶⁰²، ثمّ يستطرد في ذكر الأوجه التي تنحلّ ويتحلّل بها البدن مما يبعد كما قال "انتزاعه واستخلاصه" وكأنّ الغزالي يتكلّم هنا عن بشر سيستخلص أو سينزع، لقد جزأ الموضوع وشيأه طبيعاً وهو يعلم بأنّ الذي سيعيد هو الله تعالى، الخالق لكلّ شيء، والذي لا يستعصي عليه شيء، وهو من أغرب ما نجده عند الغزالي، وكأنّه في مجمل التفنيدات يعترض على قدرة الله في البعث وفي كيفية البعث، فهل يصعب على الله عز وجل أن يرجع الرّوح إلى بدنها وهو القائل في محكم التّنزيل جوابا على سؤال: ﴿أليسب الإنسان ألن نجمع عظامه؟ بلق قالمربز على أن نسور بنانه﴾⁶⁰³، لقد غلبت على الغزالي شهوة العقل في موضوع يحتاج إلى

⁶⁰² - تهافت الفلاسفة ص 202.

⁶⁰³ - سورة القيامة الآية 3-4.

النقل، وإذا التمسنا له العذر من جهة علمه بالحديث لكون بضاعته فيه مزجاة كما صرح بذلك في المنقذ من الضلال فإن آيات القرآن الكريم حاضرة وقاطعة، ثم إنّه خالف مذهب الأشاعرة في كون الرّوح ترجع إلى بدنهما في القبر، وفي يوم الحساب كما ذهب إلى ذلك الباقلاني في الإنصاف، والجويني في الإرشاد، والإسفراييني في التبصير في الدّين، والبيجوري في تحفة المريد، والنوّوي في شرح مسلم، وابن خمير السّبتي في مقدّمات المراشد، وابن فورك في مقالات أبي الحسن الأشعري وغير ذلك، لقد شدّد الإمام الغزالي عن خطأ الأشاعرة في هذا الموضوع، واستهواه العقل على النقل.

لكنّه في إحياء علوم الدين ظهر بوجه مخالف، فقد أشبع موضوع الموت بحثاً وجمعا للمعلومات واستفاضة في التّحليلات وإن كانت بعض الآثار فيه واهية، وخالف مخالفة تامّة ما ذكره في تهافت الفلاسفة في إبطال القسم الثّاني، يقول: (وكلّ ما هو وصف للرّوح بنفسها فيبقى معها بعد مفارقة الجسد، وما هو لها بواسطة الأعضاء فيتعطلّ بموت الجسد إلى أن تعاد الرّوح إلى الجسد، ولا يبعد أن تعاد الرّوح إلى الجسد في القبر، ولا يبعد أن تؤخر إلى يوم البعث، والله أعلم بما حكم به على كلّ عبد عباده)⁶⁰⁴، وهو نفس التردّد الذي أبداه هنا، يبدو الغزالي هنا محتاراً في رجوع الرّوح إلى الجسد، فيذهب إلى أنّ بعض الموتى ترجع أرواحهم إلى أجسادهم وآخرين لا ترجع أرواحهم إلّا في يوم البعث، بحسب ما قضاه الله على كل عبد من عباده، فانظر كيف نفى في تهافت الفلاسفة رجوع الرّوح إلى بدنهما الأصلي، وكيف أثبت الرجوع لبعض دون بعض، والأمور كلّها من ظهر الغيب، ولم يقدّم بين يديه دليلاً نقلياً صريحاً وصحيحاً في الموضوع، وأما قوله: (ثم عند الدفن قد تردّ روجه إلى الجسد لنوع آخر من العذاب وقد يعفى عنه)⁶⁰⁵، كلام لا يفيد التحقيق، لأن (قد) لا تفيد التحقيق إلّا في كلام الله، وأمور

⁶⁰⁴ - إحياء علوم الدّين 4/582.

⁶⁰⁵ - المصدر السابق ص 583.

العقيدة لا تقتضي التناقض ولا التضارب ولا الاضطراب لأن من مقتضياتها الحسم والقطع، وهو ما فعله ابن رشد لكتنه أدار وجهه عن النقل كلية.

في تهافت التّهافت⁶⁰⁶، وفي آخر فصل منه، وضمن جملة من الردود يؤيد ابن رشد الغزالي في هذه القضية، فيذهب مذهبه، يقول: (وما قاله هذا الرجل - يريد الغزالي- في معاندتهم - يعني الزنادقة والطّبيعيين- هو جيّد، ولا بدّ في معاندتهم أن توضع النّفس غير مائتة كما دلّت عليه الدلائل العقلية والشّرعية، وأن يوضع أن التي تعود هي أمثال هذه الأجسام التي كانت في هذه الدار، لا هي بعينها، لأنّ المعدوم لا يعود بالشّخص، وإنما يعود الموجود لمثل ما عدم لا لعين ما عدم كما بيّن أبو حامد.

ولذلك لا يصحّ القول بالإعادة على مذهب من اعتقد من المتكلمين أنّ النّفس عرض، وأنّ الأجسام التي تعاد هي التي لعدم، وذلك أنّ ما عدم ثم وجد فإنّه وُجد بالتّوابع لا واحد بالعدد بل اثنان بالعدد، وبخاصّة من يقول منهم: إنّ الأعراض لا تبقى زمانين)

607

أستغرب جدا من هذا الكلام، وأقف مندهشا أمام هذا الطّرح، لا لأنه قيل بهذه الكيفية ولكنّه صادر عن عقل من العقول الجبارة التي حافظت على "النقل" ودفعت به إلى ميادين الفكر والمعرفة والحكمة، وحافظت على العقل بأن قرّبت إليه الحكمة اليونانية وقد هدّتها وشدّتها من برائين الفكر الطّبيعي وتمثل ذلك في شرحه لأورغانون أرسطو.

ابن رشد هنا يناقش الموضوع بخلفية فلسفية منطقية، وهذه الخلفية لا مكان لها في موضوع غيبي، فمن أوحى لابن رشد بالقول بأنّ الجسد إذا عُدّم لا يعود بعينه بل بمثله، يعني أنّ الرّوح تعود لجسد غير جسدها الأصلي، وهذا مناف للعدالة الإلهية، وضرب لمصادقية الجزاء إذا كان الشّخص لا يعود بشخصه بل بمثله!، بل

⁶⁰⁶- تهافت التّهافت لأبي الوليد ابن رشد ص 390 وما بعدها.

⁶⁰⁷- المصدر السّابق ص 396.

يعاد الإنسان على صيغة اثنين بالعدد لا الشخص بالواحد، وأما القاعدة المنطقية التي رمى بها في الموضوع (الأعراض لا تبقى زمانين) فمجالها الطبيعيات لا الغيبيات، يجزم ابن رشد بأنّ البعث يكون بالأرواح فقط من دون الأجساد، وإذا كان بالأجساد فبأجساد أخرى غير أجساد أصحابها، وقد أعلن المخالفة في ذلك بما لا مزيد على بيانه، وما ذهب إليه لا دليل له من الغيب عليه.

ه- الروحية الحديثة

هو اسم لجمعية تأسست في لندن عام 1882م تدعى بأنها قادرة على استحضار أرواح الموتى والتعامل معها، نشطت هذه الجمعية نشاطا ملحوظا، وأصبحت ذات فروع في أمريكا وإنجلترا، ولكي تُضفي على عملها طابع المشروعات العلمية ضمت في عضويتها مجموعة من الأعلام والمتخصصين في الفلسفة والعلوم الطبيعية والإنسانية، ولا تقبل في عضويتها إلا من يشتغل بموضوع الأرواح تأييدا أو رفضا، وطبيعة توجهها هو الفكر والثقافة والتجريب والميل إلى الأعمال التطبيقية، ولذلك قامت بإصدار عدة بحوث ودراسات عن الروح وعالم الغيب، كما أقامت عدة مؤتمرات وندوات، لأجل ذلك أثارت انتباه الباحثين والمفكرين المسلمين فكتبوا عنها، وعرفوا بها ضمن المذاهب الفلسفية والتيارات الأدبية كما فعل محمديفريد وجدي في دائرة معارف القرن العشرين⁶⁰⁸، ومانع بن حماد الجبني في الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة⁶⁰⁹، ومنهم من أفردتها بالتصنيف مثل الدكتور محمد حسين في كتاب بعنوان (الروحانية الحديثة: دعوة هدامة، تحضير الأرواح وصلته بالصهيونية)⁶¹⁰، ومنهم من

⁶⁰⁸ - دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدي، 1/349

⁶⁰⁹ - الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة للدكتور مانع بن حماد الجبني المجلد الثاني 836.

⁶¹⁰ - الروحانية الحديثة: حقيقتها وأهدافها، الدكتور محمد محمد حسين، طبعة مؤسسة الرسالة.

تناولها ضمن دراسة كتاب محقق كما فعل الدكتور بسام علي سلامة في مقدمة تحقيقه لكتاب الروح لابن القيم⁶¹¹، ومن هذه المصادر استقيننا معلوماتنا عن هذه الجمعية.

يدعي هؤلاء التّواصل مع الموتى، ومبررهم في ذلك أنّ أجسادهم مركّبة من مادّة وروح، فبعد موتهم تبقى أرواحهم في الدّنيا، وهذا البقاء هو بحسب درجتهم الروحية، لذلك فالتّواصل مع الرّوح ممكن بعد خروجها من الجسد، ويقوم بهذا شخص يسمّونه "الوسيط"، ويتمّ ذلك في غرفة مظلمة فيها نور أحمر خافت لا يبيّن، يجلس في تلك الغرفة الراغبون في المشاهدة ويسمّونهم "شهود الجلسة"، ويقومون بطقوس معيّنة تجعل الحاضرين يشعرون بأنهم في تواصل مع روح الميت، وقد يُسمعونهم صوتا بصفة معيّنة على أنّه هو صوت الرّوح، وقد تتكلم الرّوح وتطلب الطعام والشّراب، ويدعون بأنهم يلتقطون صورا للأشباح بواسطة الأشعة تحت الحمراء، ومن ضلالاتهم ادعاؤهم استحضار روح المسلم والنّصراني واليهودي والبوذي ومن كلّ الأديان، ولا يملكون صحّة ما يذهبون إليه، وقد تحدّاهم الشيخ محمد عبده رحمه الله أن يحضروا روح المصطفى محمّد صلّى الله عليه وسلّم فعجزوا، وقالوا بأنّ هذه الرّوح عالية، وقد ترجّح بأنهم على حالتين: إما أنّهم يسمعون شيئا، فإن كانوا يسمعون صوتا معيّنا فهو صوت جيّ شيطان، ومعلوم أنّ الشيطان لا يتمثّل بالنبي صلّى الله عليه وسلّم كما هو ثابت في النّقل، والحالة الثّانية أنّهم لا يسمعون شيئا، وما يدعونه سماعا إنّما هو توهم أو كذب، وتشبه ضلالاتهم وادّعاءاتهم ضلالات وادعاءات مدّعي النّبوة في العصر الحديث من مثل ما جاء في البابية والبهائية والقاديانية .

لقد استغلّ هؤلاء الفراغ العاطفي الذي تركته الأديان في نفوس النّاس، مدفوعين بعوامل سياسية واقتصادية، وذهب البعض إلى أنّ "الروحية الحديثة"

⁶¹¹ - كتاب الرّوح لابن القيم، تحقيق الدكتور بسام علي سلامة، 163/1، منشورات دار ابن تيمية، الأولى 1986م.

دين جديد يحاول إلغاء الأديان حتى يعيش الناس على الأحلام والخرافات والأوهام، وقد أثار ذلك - للأسف - على بعض مفكري الإسلام.⁶¹²

حين نتأمل مثل هذه الجمعيات والمؤسسات التي تقدّم نفسها على أنّها متخصصة في الرّوح نقف وقفة إكبار وإجلال لعقول الثّقل الكبيرة التي تصدّت لمعالجة هذا الموضوع منذ وقت مبكر، وبفعل جهودهم المتواصلة في التّصنيف في الموضوع سدّوا ثغرة في ثقافة النّقل منذ عهد، لقد أحاطوا بموضوع الرّوح من كلّ جوانبها، وأثاروا كلّ القضايا التي تتعلّق بها فكرياً على مستوى العقائد والكلام والفلسفات وعملياً على مستوى المقابر والجنائز، ذخيرة من المؤلفات الرّوحية لا تزيدها الأيّام إلاّ قوّة ووجاهة، فقد أوجدوا مكتبة قائمة و متميّزة خاصة بالرّوح والنّفس وما يتعلّق بهما، نذكر من ذلك على سبيل التمثيل لا الحصر: كتاب القبور لابن أبي الدنيا، والنّفس والرّوح لابن منده، والنّفس والرّوح لابن القيم، وله كتاب آخر بعنوان هادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، وتنبية الغافلين للسّمقندي، والنّفس والرّوح وشرح قواهما لفخر الدّين الرّازي، وكتاب الرّوح لمحمد بن نصر المروزي، والرّوح لأبي سعيد الخزاز، والرّوح لأبي يعقوب النهرورجي، والرّوح للقاضي أبي يعلى، والتذكّرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة للإمام القرطبي، وما ذكره الإمام الغزالي في إحياء علوم الدين وغير ذلك، وجلّ هذه الكتب محقّقة ومطبوعة، وكم وددنا أن تكون مثل هذه المؤلفات مادّة تُدرّس في الجامعات، في تخصّص الزّهد والتّصوف، فهي مصادر "المعرفة الأسمى" التي لا يُقدّم عليها شيء، والحاجة إليها في هذا العصر ماسّة جدّاً، لا سيما وأنّ الأحوال تبدّلت، والظروف تغيّرت، وإنسان اليوم ليس هو إنسان الأمس، ولا بدّ من المواكبة، نسأل الله التّوفيق في العلم والعمل.

⁶¹² - أنظر دراسة الدكتور بسّام علي سلامة في تحقيقه لكتاب الرّوح لابن القيم 1/163.

فصل في المراثي والتعازي والأحزان



1- شعر الحزن

مجموعة من القصائد فاض بها الوجدان، وهي تعبير عن هموم وأحزان،
فخذوها بمعناها لا بمبناها.

أ- في رثاء الوالدة

نظّمت هذه القصيدة في رثاء الوالدة، وهي بعنوان " في رثائك والدتي "، قلتُ:

وتنأين عني بفرط نكس	أمّاه، أبعد التذلل تمشين
من لوعة فراق أحبة الأمس	أبكيك، وما تجدي الدموع
ونظرتك إلي بوحدة أنس	صوتك الرّخيم لي حنان
بين أحبتي وأبنائي يمسي	دويدتي، ذاك لقب خالد
في المحيط بجنّبات يُسف	أين الرقراق منك ينبع حبا
ضحجيج زواره سبق نفس	أين الدّوم منك حيّ تعالی
كلّ تفرّق في البلاد عكس	أين الزهراء، أولادها مجتمعة
زائرها يروح ويبيت ويمس	أين فاطنة في سلا بقريّة
في جمعٍ عند "دادا" بغلس	أين الأولاد والأحفاد والأجداد
يغيض العدا من حقد ودس	صبايا في كبر أراح الفؤاد
زمن ساد حياتي في نكس	مسيرة عمري نطوت بعد
ظلاما وسعادة لا يجليها فلس	أمسى الجو بعد رحيلك
ورع، وجهاد، وعزّة نفس	أيتها السماء في صبرها

طوت حياة جنّ وإنس
ولكنّه شوق الجذع للأس
في غربةٍ، تذكرني وتنس
تشبّت الأحلام بعد رس
دفن أموات الحيّ بحرص
فما أقرب اليوم من الأمس
إلى أن ألقى الرأس بالفأس
يانعة العطايا بالفوائد والدرس
هنّ عصّابات رمح قوسي
ويجدي من وحشة أنس

أيتها الحرة الأبيّة التي
أبكيك، وما يبكيني الفراق
تواردت عني خواطر الأيام
مولودة خير، ذاك اسم جامع
" روضة الصديق " ذاك لقب
جاءت زائرة تجاور أخاها
أبرك أمّاه مهما حييت
كذلك أولادي تعلّموها عبرة
يميني جنّة ويساري فردوس
دعاء منهما يعين ويشفي

ب- مولودة الزمان

إنها قصّة امرأة عاشت...
وُلدت هناك وعاشت هنا وراحت...
بين الولادة والرواح سبعون سنة
كانت عشق الجيران وأولادها
والأقارب وأحبائها
والأقران وأحفادها
أمّي ديدة...
عشقت الحياة..
وبحياتها حيينا الحياة
حين تنبث الزّهراء من قلب البذرة
وتشبّ الفطين من عمق الخضرة
وتصفو الشارذة من صحو الفجرة

ليكون الحمد للمحمود فخرة
دويدتي
كلمة في زمان الصِّبا قيلت
أترنم بها من وحش الأيام الخوالي
ومن هوس المقبل والحالي
اسمها غريب ياسادة
ولدت في يوم الولادة
إليك يا أعزّ روح
تعانقك روجي
بدمعة الفراق إلى يوم التلاق

ج- همسات قلب مهاجر

بسبب ألم البعد وصدمة الفراق، كتبتُ هذه الهمسات:

بُعِين دَمِعِ	نُعِيم تَبْكِي
بِرُؤْيَا سَمِعِ	مَنْ فَرَطِ حَبِ
مَنْ حَرَقِ لَسِعِ	أَنْفَرَطِ قَلْبِهَا
بَلِيلِ دَعْسِ	تَنْجِي رَهْبِهَا
بَصِدْقَةِ فَلَاسِ	تَطْلُبِ رَحْمَةِ
بَأْنَامِلِ نَهْسِ	أَكْلِهَا خَفِيفِ
بِتَلَاوَةِ عَبْسِ	لَسَانِهَا رَطْبِ
مَنْ شَرَفِ نَفْسِ	نَأَتْ بِنَفْسِهَا
بَلِيلِ غَبْسِ	تَطِيلِ الْإِنْتِظَارِ
بِمِثْيِ هَمْسِ	تَتَرَقَّبِ الْخُطَى
عَلَى وَغْدِ نَحْسِ	يَالَيْتِهَا صَبْرَتْ

د- لهضي على الأيام

حسرت نفسي على يوم
شغفت روعي على الذي أنا
وارتقبت عيش الذي عليّ
حتى أصير إلى لحد قبر
واشُقيا الدهر على حياة
أضحى بالأمس مفقودا
فيه، أعيش الحال مشهودا
غدا، من الأيام الموعودا
أحسب أيامي فيه ممدودا
عمر، مرت أوقاته محدودا

ه- انتظار بانكسار

كلما مضى بي يوم
أرقيب الدورياتي
في خرجتي وضحوتي
من الرائح والمغتدي
من العامل والتاجر
الكل رائح من هنا
ارحم اللهم من راح
أيقنت أنني هالك
كما أتى على الممالك
أو في ظلام حالك
ومن البائع والمالك
ومن العابد السالك
وهنا، والكل في ذلك
وخرّف الداء الشائك

و- لا تغتر

لا تغتر بقليل وقال
ولا بجواب أو سؤال
لا بمظهر أو مقال
ولا بسمت من خيال
إنما أنت أنت
وغيرك فيك محال

2. من توفى مع الوالدة من الأعيان

ليس من العادة ما سأفعله هنا، لكنني وجدت نفسي مدفوعا لسلوك هذا النهج بعوامل ثلاثة:الأول تجربة الموت حين يأخذ أحب إنسان لديك والدك والدتك، وأفراد العائلة من الأخوال والأعمام والأجداد والأصهار والأصدقاء والأحباب وغير ذلك، الثاني تقليد النقلانيين من المؤرخين الذين يذكرون لكل سنة من مات فيها من الأعيان من أهل العلم وغيرهم، الثالث والأخير صلته ما نقوم به بموضوع الموت، الموضوع الذي يهّم الذات والغير، لقد تتبعت مع من مات مع والدتي في سنة وفاتها فاندعشت من رحيل كبار الأعيان من مختلف الأقطار والأمصار، ومن مختلف التخصصات والتوجهات ممن عرفناهم عن قرب أو عن بعد، وكان موتهم فاجعة عظيمة كفاجعتي في والدتي، ومعلوم أنّ وفاة الوالدة السيدة الميلودية غفير كان في التاسع والعشرين من ربيع الثاني لعام 1437هـ الموافق ل للتاسع من شهر فبراير من عام 2016م، سُميت بمولودة لأنها ولدت في ذكرى مولد النبي ﷺ، وهذه عادة عند المغاربة، من فرط حُبهم للنبي صلى الله عليه وسلم إذا وُلد الذكر عند حلول شهر ربيع الأول يسمّونه "ميلود" أو "مولود"، وتسمى الأنثى "مولودة" أو "ميلودة".

لقد تتبعت من مات معها من الأعيان فكان ما سترون، أعني جيدا أنّ من مات قد مات، وكل من مات فات، لكنني أسوق كل هذا للتذكير وللعبرة:

في سنة 2016م، وفي التاسع عشر من يناير توفيت المصوّرة المغربية ليلى العلوي بيبوركينافاصو نتيجة هجوم إرهابي أودى بحياتها في فندق هناك، وفي الخامس من شهر فبراير توفى عميد المسرح المغربي طيّب الصّديقي، وفي السادس عشر من نفس الشهر توفى بطرس بطرس غالي الأمين العام للأمم المتحدة السابق، وفي السابع عشر من نفس الشهر توفى محمد حسنين هيكل المفكر والصحفي المصري البارز، وفي التاسع عشر من نفس الشهر توفى المايسترو المغربي الحاج موحاوالحسين أشيبان، وفي نفس الشهر توفى العلامة عبد الباري

الزّزمي، وكان رجلا مثيرا للجدل بسبب بعض فتاويه، ومناهضته للتيارات اليسارية وبعض الأحزاب الوطنية وبعض الحركات المذهبية الإسلامية، وفي العشر الوسطى من شهر رمضان من نفس السنة تُوّي المقرئ المتقن محمد الشّاعري، وكان خطيبا لمسجد الإسكندرية بالدّار البيضاء، وفي الثّالث من شهر مارس تُوّي الموسيقار المغربي الكبير سعيد الشّرايبي، وفي اليوم الموالي من نفس الشهر تُوّي الدّكتور طه جابر فياض العلواني، ولست في حاجة إلى تقديمه أو التّعريف به، لقد جمعني به صلوات علمية في داخل المغرب وفي خارجه، وقد تعرّفت عليه في الأردن قبل مجيئه إلى المغرب، وفي اليوم نفسه تُوّي الدكتور لحسن العبادي، أستاذ بكلية الشريعة ورئيس المجلس العلمي بأكادير، وهو من علماء المغرب البارزين، وفي الخامس من نفس الشّهر تُوّي الدّكتور حسن التّرابي رئيس الحزب المعارض في السّودان، وهو مفكر إسلامي بارز، وله اجتهادات مثيرة، وفي السّابع من نفس الشهر تُوّفت الإعلامية البارزة في القناة الثّانية مليكة ملاك، وفي الرّابع والعشرين من شهر مارس تُوّفت زهرة الفاسي زوجة الرّعيم الرّاحل علّال الفاسي، وفي الخامس من شهر أبريل تُوّفت القاصّة المغربية مليكة نجيب، وفي الثّالث عشر من نفس الشهر تُوّي الفنّان المصري الكوميدي سيّد زيان.

وممّن تُوّي مع الوالدة في هذه السّنة سنة 2016 والدة أختنا الدّكتور باسم برقايوي مدير قسم الجودة بجامعة محمد الخامس بأبوظبي، تُوّفت والدته قبل وفاة الوالدة بثلاثة أسابيع تقريبا، رجع هو من الأردن وذهبت في يوم غد لتشييع جثمان الوالدة عليها رحمة الله، وذلك في الخامس عشر من شهر أبريل من نفس السّنة، وفي نفس اليوم تُوّي المقاول المغربي الكبير المشهور ميلود الشّعبي، والسّيّد عبد الرحمن زهيد مؤسس منارة قابضة، وهي أكبر شركة بناء في مراكش، وفي السّادس عشر من نفس الشّهر توفي الدّكتور القرى محمد أيوب إمام الحرم النّبوي الشّريف، وفي الثّاني عشر من شهر ماي تُوّي عديلنا الأستاذ عبد اللّطيف موان، وفي الثّالث والعشرين تُوّفت السيدة الصّالحة المسندة بهية قطبي الفيلاي بمكناس،

تخرّجت من جامعة الزيتونة والحاصلة على شهادة العالمية بها عن عمر يناهز مائة وثمانين سنوات، وفي الثالث من شهر يونيو تُوّي الملاك المأسورة الأمريكي محمد علي كلاي بعد عمر حافل بالعطاء الرياضي والمساهمات الخيرية، وفي الخامس من نفس الشهر تُوّي الدّاعية المغربي الشيخ العربي غزال، وفي الحادي عشر من نفس الشهر تُوّي الدكتور المحدث يوسف الكتاني، وافقت وفاته السادس من رمضان، وفي التاسع عشر من يونيو تُوّي الفنّان المغربي أحمد الرّداني وهو من الوجوه المسرحية والسينمائية البارزة، عاصر عددا من الفنّانين من ستينيات القرن الماضي.

وفي فاتح يوليو من نفس السنة تُوّي الفنّان المغربي سعيد طنور، وفي منتصف الشهر وافت المنية الأديب الكتبي المكتبي الشاعر عبد الجليل بن عباد، صاحب مكتبة نجم مراكش، وكانت بيني وبينه صداقة وود، وكنت أتردد عليه في مكتبته بين الحين والحين، كما كنت أضع عنده بعض إصداراتي العلمية، وتُوّيت زميلة المهنة الأستاذة الدكتورة أنيق الفيلاي، أستاذة الأدب الإنجليزي بجامعة القاضي عياض، أعرّفها أكثر من اثنين وثلاثين سنة، كانت امرأة فاضلة، ذات أخلاق عالية، كانت وفاتها مفاجئة، التقيت بها بعد رجوعي من السّفر بثلاثة أيام قبل وفاتها، كانت وفاتها يوم الأحد السابع عشر من يوليو من نفس السنة، وفي نفس اليوم تُوّيت العدّاءة المغربية سهام العريشي في حادث أليم بعدما دهسها قطار في إيطاليا، ووري جثمانها في المغرب، وفي يوم السبت عشرين غشت تُوّي البروفسور الدكتور طارق فكري، مدير مستشفى ابن طفيل بمراكش، وكان طبيبا جراحا بقسم العظام، وفي الرابع والعشرين من نفس الشهر توفي الدكتور محمد الضّرعاوي، أستاذ الدراسات الإسلامية بكلية الآداب بمكناس، وهو من الفوج الأوّل لشعبة الدراسات الإسلامية بالرباط، وفي الخامس والعشرين من نفس الشهر توفي الدكتور العلامة محمد الحبيب التّجكاني، أستاذ الدراسات الإسلامية بتطوان، وفي نفس اليوم تُوّي الفنّان المغربي محمد الإدريسي بباريس، وفي السابع

والعشرين من نفس الشهر توفي الشيخ المحدث شعيب الأرنؤوط، المحقق والمدقق في مخطوطات الحديث النبوي الشريف، وقد تشرفت بزيارته أثناء تواجدي بالأردن في إحدى الرحلات العلمية، زرته بمركزه العلمي، واستضافنا في وجبة غداء حضرها نخبة من الباحثين والأساتذة أذكر منهم الأستاذ خالد الصمدي وأحمد السنوني وعبد السلام أبوسمحة وبعض وجوه العلم الأخرى، رحمة الله عليه رحمة واسعة.

وفي الثامن من شهر دجنبر توفي صهري الأستاذ أحمد بن جلون، ابن فقيه الجامعة اليوسفية العلامة الحاج أبو بكر بن جلون تغمده الله برحمته، وبه ختمت من توفي مع الوالدة في هذه السنة.

3- في تأبين مُحدث

حين وُجِّهت إليّ الدّعوة للمشاركة في تأبين الشيخ ابراهيم بن الصّديق رحمه الله⁶¹³ كتبت هذه الكلمة، وهي كلمة بقيت محفوظة عندي، وقد حان وقت إخراجها، نسأل الله تعالى أن ينفع بها كما نفع بغيرها.

جاء في الكلمة بعد تعديل وترميم ما يلي:

مُداخلي ليست من نوع المداخلات المتعلقة بالشّهادات، لأنّ الفقيد ليس من طبقتي ولا هو من أقراني، إنّه في عداد شيوخ أو شيوخ شيوخ، وقد تعرّفت على هذه العائلة يوم كنت طالبا في سلك التّكوين أيّام الدّراسات العليا مع الأستاذ محمد علي بن الصّديق أحد أفراد العائلة الصّديقية، قريبي ورفيقي في التّحصيل، كان يحدثني عن العائلة وشيوخها وعلمها، وكنا نتذاكر في علمها وذخيرتها، ولم

⁶¹³ - نُظِم الملتقى من قبل جمعية الدّراسات القرآنية بتنسيق مع المجلس العلمي المحلّي بطنجة ومؤسسة عبد الله كنون للثقافة والبحث العلمي، وذلك يوم السبت والأحد 31 ماي وفاتح يونيو من سنة 2003م، وكانت وفاة الشيخ ابراهيم بن الصّديق في العاشر من شهر أبريل من سنة 2003م، ودُفن بزواوية والده بالمدينة العتيقة بطنجة.

تمنع صروف الدهر من الاستماع إلى الشيخ إبراهيم بن الصديق وهو يُناقش الأطروحات ويلقي الدروس، لذلك فمداخلتي هي كلمة في حقّ الفقيه نابغة من إحساس علمي وانطباع ذاتي على عادة ما يقع حين يتذكّر الإنسان الموت، ولا سيما إذا كان الموت موت العلماء، ومقصودنا من هذا هو مواساة العائلة وتعزيتهم، والدعاء للشيخ بالرحمة والمغفرة، والتقرب إلى الله بذكر الموت والمنجاة فإننا صائرون إلى ما صار إليه.

أما البحث العلمي فتراث الشيخ لا بدّ من تخصيص وقت كاف له، فتقام ندوات ومؤتمرات وأيام دراسية وحلقات تكوينية، والمعنيون بالتنظيم هم طلبته وتلامذته وعائلته بالتعاون مع المؤسسات التعليمية والدينية التي ينتهي إليها، آنذاك ينضمّ تراث إلى تراث، تراث كتبه وتراث كُتب عنه.

واسمحوا لي أن أحدّد بعض سمات شخصية الفقيه فيما يلي:

أ- الرجل من علماء السنّة البارزين، وعلم من الأعلام المتخصّصين في الحديث النبوي الشريف، أعطى للعلم كلّ وقته وكلّ جهده فكان فيه مبرزاً.

-الرجل سليل أسرة عاملة، فهو ابن الشيخ محمد بن الصديق الغماري الإدريسي الحسني، الذي أنجب سبعة أبناء كلّهم من العلماء، الشيخ أحمد العالم المشهور، وعبد الله الحافظ، وعبد العزيز المحدث البارز، ومحمد الزمزمي الفقيه، والحسن الفقيه والأديب، وعبد الحي الأصولي المبرز، أما الشيخ إبراهيم فكان أصغر إخوته، مات أبوه وهو لا يتجاوز شهرين ونصف، فعاش يتيماً تحت كفالة أخيه الحافظ أحمد بن الصديق، تتلمذ على أيدي إخوته وتربّى بأدائهم، واشتهرت هذه الأسرة بإسم " الأسرة الصّديقية "، إذا ذكرت المغرب ذكرتهم، وإذا ذكرت علم الحديث ذكرتهم، وإذا كانت العوائل العاملة قليلة في الماضي فإنّها اليوم في طريق الانقراض أو انقرضت.

ج- للرجل أثر كبير في المعرفة الحديثة على صعيد العالم الإسلامي، وأحد شيوخ الحديث في المغرب، وكان مع إخوته حلقة وصل بين علم العدوتين: الأندلس والمغرب، ومع المشرق والمغرب.

د- الرجل من القلائل الذين نذروا أنفسهم لخدمة التراث الحديث المغربي، وقد خلف مع إخوته تصانيف وتلاميذ.

إننا نحسب أن التراث العلمي الذي خلفه الشيخ إبراهيم بن الصديق هو دئِن على الباحثين والمتخصّصين يلزمهم الاهتمام والاعتناء به، دئِن عليهم في وقت بدأت المضايقات على المعرفة الشرعية، ومنها المعرفة الحديثة التي تُعاني اليوم من هجمات متعدّدة، هو دئِن على الفئة القليلة أن تهتمّ به إسوة باهتمامها بعلوم السلف، والشيخ إبراهيم بن الصديق أصبح اليوم معدودا من السلف، ولذلك فالاهتمام به وبجهوده هو اهتمام بالسنة النبوية وبالحديث النبوي الشريف.

حياة هذا الرجل هي أنموذج لما يجب أن تكون عليه حياة كل فرد متخصص في الحديث النبوي الشريف، وسأحدّد سمات هذا الأنموذجية- إن سمحتم لي بذلك - فيما يلي:

-السمة الأولى: سمة أخلاق وآداب العالم المتواضع مع رفقائه وقرنائه وطلبته، فقد كان مع إخوته من المعدّلين الموثّقين بإجماع من يُعتدّ بتعديلهم وتزكيتهم من داخل المغرب ومن خارجه.

-السمة الثانية: رصانة المنهج وقوّته في البحث والمعالجة، فالرجل كان منهجيا في أبحاثه ودراساته، يقدّم دائما الجديد في مجال المعرفة الحديثة، وقد صنّف فيما يُطلب كتبها أذكر منها (الجرح والتّعديل في المدرسة المغربية للحديث المطبوع في جزأين، وكتابه " علم علل الحديث " المطبوع في جزأين كذلك، وكتب أخرى.

-السّمة الثّالثة: حافظته القوية، وصراحته العلمية، فكان محققا ومدققا ومشاركا في الملتقيات العلمية.

-السّمة الرابعة: مشاركاته في القضايا الهامة والمصيرية، فقد كان عضوا في اللّجنة الملكية لمراجعة مدونة الأسرة، وكان له حضور قوي وبارز مما جعله يحظى باحترام وتقدير أعضاء اللّجنة.

-السّمة الخامسة: كان يشجّع كل المبادرات التي تخدم السنّة النبوية بصفة خاصة والدّراسات الإسلامية بصفة عامة، كان يقدّم النّصائح والتّوجيهات للطلبة الباحثين، ويساهم في التّدريس والتّوجيه ومناقشة الرّسائل والأطروحات.

-السّمة السادسة: الهمة التي أخذ منها نصيبا وافرا كعادة علماء الحديث حين يجعلون الهمة عالية، وهي التي كان يحافظ عليها الإمام مالك بن أنس إمام المذهب، وقد تكلم عليها غير واحد من العلماء ومنهم الحافظ ابن الجوزي يقول: (كانت همم القدماء من العلماء عليّة، تدلّ عليها تصانيفهم التي هي زبدة أعمارهم)⁶¹⁴، وقد طالب ابن الجوزي بمطالعة كتب الأقدمين لأنّ المطالع يجد فيها من علوّ الهمم ما يشحذ الخاطر ويحرّك عزيمة الجد، وقال: (ونعوذ بالله من سير هؤلاء الذين نعاشرهم لا نرى فيهم ذا همة عالية فيقتدي بها المبتدي، ولا صاحب ورع فيستفيد منه الزّاهد).⁶¹⁵

-السّمة السّابعة: كان الرجل لبنة في جدار مدرسة الحديث في المغرب، فالمدرسة الحديثية المغربية يدخل فيها ما أنتجه الفكر المغربي في مجال الحديث سواء أكانت في جهود التّراث المغربي أو في جهود التّراث المشرقي، لأنّ الصّلة العلمية بين المشرق والمغرب لم تنقطع منذ القدم وإلى الآن، حلقات لم تنقطع منذ عهد الحافظ ابن عبد البر والقاضي عياض وابن وضاح وابن مخلد وابن حزم وغيرهم.

⁶¹⁴ - صيد الخاطر لابن الجوزي ص 333، فضل علماء السلف .

⁶¹⁵ - المصدر السابق .

أمها الحاضرون:

الموت لا يقطع وجود العلماء إلا إذا رضي العلماء بذلك، الشيخ ابراهيم بن الصديق مازال حيا بتركته العلمية، وصدقته في العلم والتربية والتوجيه هي من الصدقات الجارية،

إن لهذه الأمة على سائر الأمم ميزتين: الأولى أن الله عز وجل صان أصولها، وحفظ وحيها وأحكامها، وهي ميزة مُقدَّمة لأنها تضمن بقاء الإسلام، وخاتمية الدعوة، والثانية أن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها، قد يكون المجدد فردا وقد يكون جماعة، وقد يكون حاكما وقد يكون عالما، الميزة الأولى ثابتة لا تتغير لكونها نقطة الانطلاق، والميزة الثانية متغيرة ومتبدلة بحسب الظروف وأحوال سيادة العلم والاجتهاد، ولا ينبغي أن تتوقف لأن توقُّفها من أمارات الساعة، توقُّفها يعني رفع العلم وبثّ الجهل وإلقاء الشح وسيادة رؤوس الجهل يفتون بغير علم فيضِلُّون ويضِلُّون كما بيّنه الحديث الشريف، ومن المجتهدين العالمين العاملين السائرين على درب تجديد التدين في نفوس الناس وتنويرهم بفهوم المعارف الشرعية هذه الشخصية التي نجتمع اليوم على تأييدها، لن ندرك قيمة هذه الشخصية إلا في ضوء تحديات كثيرة: تحدي الجهل بعلوم السنة والحديث، وتحدي الوعي الناقص والمشوش بالنصوص، تحدي محاربة السنة وأعلامها والطعن في مصادرها وآثارها، ونار الجهل المشتعلة في العالم الإسلامي لا يطفئها إلا نور العلم، أما الفتن المحدقة بالأمة فقد تصدّى لها علماء الحديث من سالف الدهر، وبسطوا آثارها، وبيّنوا أحكامها وما يجب أن يتخذ حيالها، لقد مرّت على علماء الحديث أحداثا عصبية في التاريخ ما ثبت أنّهم أشعلوها أو مشوا فيها أو سعوا إليها، كانوا يصبرون مخافة الفتنة حتى ولو ظلّوا، ومقصدهم من ذلك هو نشر سنة النبي صلّى الله عليه وسلم إيماننا منهم أنّهم للناس جميعا، صالحهم وطالحهم، مؤمنهم وعاصيهم.

إنَّ حضور مثل هذه المجالس من سنّة أهل العلم، كانوا يتزاورون ويتذاكرون ويتحدّثون، فيعلّمون ويتعلّمون، كان الشّيخ إبراهيم بن الصديق في حياته رُحلة في العلم، يُدقّ بابه، ويُقتضى أثره، الذين حجّوا إليه وهو حي حجّوا إلى تأبينه اليوم، إنَّ الجلوس أمامهم وهم أحياء منقبة عالية، طلبا في الرؤية والسّماع، ورغبة في الإجازات والمناولات، وطلبا للعلوّ وتجديد السّماع، ومن أعظم ما تميّز به هذا العلم هو تعظيمهم وتوقيرهم وإنزالهم منزلتهم، أحياء وأمواتا، فإن كانوا أحياء فبالمجالسة والسّماع وأدب القول والتلطّف في السّؤال، وقد يتبع ذلك تقبيل الرأس واليدين والأكتاف بل ذهب بعضهم إلى تقبيل اللّسان، يقول أحمد بن محمد بن اللّيث القاضي: جاء سهل بن عبد الله التّستري إلى أبي داود السّجستاني فقيل له: يا أبا داود هذا سهل بن عبد الله التّستري جاءك زائرا، فرحّب به وأجلسه، فقال له سهل يا أبا داود، لي إليك حاجة، قال: وما هي؟ قال: حتى تقول: قد قضيتها مع الإمكان، قال: نعم، قال: أخرج إليّ لسانك الذي تُحدّث به أحاديث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حتى أقبله، فأخرج إليه لسانه فقبله.⁶¹⁶

الموت مصيبة، ودواؤها الصّبر والدّعاء والاحتساب لقوله تعالى: ﴿وبشر الصّابرين، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المفلحون﴾⁶¹⁷، وهي داء كبير لا دواء له إلا ما ذُكر، كانت أم سلمة رضي الله عنها تقول لما مات أبو سلمة: (اللّهم أجرني في مصيبي واخلف لي خيرا منها) فأخلف الله لها برسول الله ﷺ⁶¹⁸، والمصيبة قد يُرزى بها الفرد وقد تُرزى بها الجماعة، وهذه الرزية مركّبة من الإثنين، الفرد والجماعة، رزية الأسرة العالمة في فقيدتها، ورزية جماعة المسلمين وأهل الحديث في عالمهم

⁶¹⁶ - الخبر في وفيات الأعيان لابن خلكان 2/404-405، وسير أعلام النبلاء للدّهبي 13/213 ترجمة رقم

.117

⁶¹⁷ - سورة البقرة الآية (154-156).

⁶¹⁸ - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما يقال عند المصيبة، 2/631-632 رقم الحديث

.918

وشيخهم، موت العالم فضاة، وفي الحديث المرفوع: (موت العالم مصيبة لا تُجبر، وثلمة لا تُسد، ونجم طُمس، وموت قبيلة أيسر من موت عالم)⁶¹⁹، وفي الأثر الموقوف على عبد الله بن عباس أنّ إبليس يفرح بموت العالم ما لم يفرح بموت العابد، لأنّ العابد لا يعدو نفسه أما العالم فهو يُفسد عليه عالمًا كثيرًا.

اللهم اخلف لنا بخير، ونسأله تعالى الرحمة لشيخ طنجة، سيذكره التاريخ، وسيذكر هذه العائلة العاملة ما بقي الحديث والأثر، وما بقيت السنّة والخبر تعم أرجاء هذا البلد المحروس بعناية الله.

4- في تأبين أديب

مداخلي مركبة من كلمتين، اسمحوا لي أن أبدأ الأولى بشيء من " الوعظ الأكاديمي"، وذلك لطبيعة المناسبة، والمناسبة شرط كما يقول الفقهاء⁶²⁰، لقد تأثرت كثيرا بالشريط الذي عُرض علينا والذي يظهر فيه الدكتور الراحل محمد بنشريفية محاضرا ومشاركا، وعلمتُ بأنّه كان يعمل لهذه المرحلة، مرحلة ما بعد الموت، كان يؤسس لنفسه عمرا آخر يمتدّ في الزمان مثلما امتدّ عمر أسلافنا من العلماء السّابقين الذين ما زلنا نقتات من ذخائر علومهم، لقد دخل الدكتور محمد بنشريفية إلى هذا العالم، عالم "الأموات الأحياء"، أولئك الذين كانوا يعملون لمثل هذه المرحلة، لقد قلت في نفسي إنّنا صائرون إلى ما صار إليه في يوم من الأيام، وقد بدأت الأيام تتقارب لكن هل سيكون لنا نفس الصّيت والدّكر المحمود الذي له؟، سؤال يجب أن يطرحه كل واحد منّا على نفسه، لقد عاش أستاذا وباحثا فأصبح اليوم موضوع بحث، ولو لم يجد الباحثون ضالّتهم العلمية في جهوده ما اجتمعوا عليه في هذا اليوم، نعم اجتمعوا ربما للمرة الثّانية أو الثّالثة،

⁶¹⁹- حديث حسن، أخرجه البيهقي في شعب الإيمان 1/2 264 رقم الحديث 1699

⁶²⁰- كلمة تأبين في حقّ الراحل الدكتور محمد بنشريفية، تمّت المساهمة بها في اللقاء التأبيني التي نُظمت في كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة بعين الشق، بالدار البيضاء بتاريخ 27-28 نونبر 2019م.

وسيجتمعون في المستقبل، وستتوسّع دائرة البحث في شخصيته الثانية، شخصية ما بعد الموت.

لقد سمعتُ كلاماً عن "الأندلسيات"، وأنَّ الأستاذ الراحل كان متخصصاً في الأدب الأندلسي بصفة خاصة، وفي التراث الأندلسي بصفة عامة، والواقع أننا لم نعط لهذا التخصص بعده الحقيقي، المتخصصون في الأندلسيات هم مرابطون على الثغر، هؤلاء يربطون الأجيال بماضها لتبقى الأندلس حاضرة في الوجدان مثلما هي حاضرة في التاريخ، إذا ذهبت الأندلس جغرافياً فلا يجب أن تنسى وتزول من الذاكرة، وليس هذا فحسب فقد كانت له مشاركات علمية في الدراسات الإسلامية، فقد حاضر في موضوعاتها، وأشرف على رسائل الدكتوراه، وفحص وناقش عدّة رسائل تنتمي إلى الدراسات الإسلامية، وتعامل مع كتب النوازل الفقهية، أقول بأنَّ الدكتور محمد بنشريف لم يكن بعيداً عن البحث في الدراسات الإسلامية.

لم يرتق الدكتور بنشريف بالبحث وحده بل بالإخلاص في العمل، وسلامة النية فيه، مع التواضع والأخلاق العالية، هذا مع البشاشة والعفة وصون اللسان، وهذه الشهادات التي قيلت فيه كفيلاً ببيان منزلة الرجل وقيّمته، وحبّ الناس له، ﴿إِنَّ الْخَيْرَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وِجَاءً﴾⁶²¹.

أمّا الكلمة الثانية فهي باسم جمعية إحياء جامعة ابن يوسف في حقّ الفقيه، وبالنيابة عن أعضاء جمعية إحياء جامعة ابن يوسف، وقد حرّرتها لأسباب ثلاثة:

الأول: أنّ الدكتور محمد بنشريف عضو من أعضاء الجمعية، وله مساهمات ماديّة في دعم المجلّة كما تدلّ عليه لائحة داعمي الجمعية، وكان صديقاً عزيزاً لفضيلة الأستاذ إبراهيم الهلالي رئيس الجمعية، وكان بود الجمعية أن تقوم بتأيين

⁶²¹ - سورة مريم الآية 97.

خاص إما على شكل ملتقى علمي، أو على بياض مجلة إحياء الجامعة، لكن كل ذلك تعذر فعله بسبب وفاة الأستاذ إبراهيم الهلالي⁶²² وتوقف المجلة، وعدم تجديد مكتب الجمعية إلى حدود كتابة هذه السطور، ولو كان حيًا لأبنته لأنني أعلم مكانة الدكتور محمد بنشريفية عند الأستاذ الهلالي رحمهما الله تعالى كما سيأتي بيانه.

الثاني: أن للدكتور بنشريفية مساهمات علمية طيبة في أنشطة الجمعية، وهو الموضوع الذي سأرجع للكلام عليه في هذه الكلمة.

الثالث: معرفتي به يوم كنت طالبا في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط في سنوات الإجازة وسلك تكوين المكونين الممتد من سنة 1980م إلى سنة 1987م يوم كان أستاذا في شعبة اللغة العربية، وهو المعروف بالتخصص في الدراسات الأندلسية، ثم تعرفنا عليه من جهة حرمة أستاذتنا الدكتورة عصمت دندش التي قدّمت خدمات جليلة لشعبة الدراسات الإسلامية يومئذ، وكانت تدرس فيها مادة "تاريخ الإسلام"، وأقدم لها بهذا السبب خالص المواساة والتعازي سائلا الله تعالى أن يرحمه، ويتقبله في الصالحين.

شارك الأستاذ بنشريفية في الندوة العلمية الأولى التي نظمتها الجمعية تكريما لعلماء وطلبة جامعة ابن يوسف، وقد تعاونت في هذا التنظيم مع المندوبية السامية لقدماء المقاومين وجيش التحرير، وكانت في موضوع "الفكر الوطني والمقاومة بالمغرب عبر جامعة ابن يوسف انطلاقا من سنة 1937 إلى سنة 1955"، نُظمت بمؤسسة البشير للتعليم الخصوصي بتاريخ 27 شتنبر 2003م، كان موضوع مداخلته رحمه الله بعنوان "الفكر الوطني في مراكش وأسفي"، وبصفتي

⁶²² - كانت وفاة الأستاذ إبراهيم الهلالي في يوم الأربعاء 10 رجب 1439هـ الموافق ل 28 مارس من سنة

مقررًا للجلسة فقد قدمت للجنة المنظمة ملخصًا عن هذه المحاضرة أنقله هنا كما قدمته:

افتتح الدكتور محمد بنشريفة الجلسة الصِّباحية بعرض بعنوان: (الفكر الوطني في مراكش وأسفي) بدل العرض المعلن على عنوانه في برنامج الندوة وهو " تاريخ الحركة الوطنية من سنة 1930م إلى سنة 1956م"، وقد لبَّى الدعوة رغم مشاكله ومشاغله شادًا الرِّحلة إلى مدينة مراكش، مُحدِّدًا أسباب الاستجابة فيما يلي:

1. أهمية الموضوع

2. دُين جامعة ابن يوسف عليه كطالب درس فيها، مع معاشرة طويلة لعلمائها وطلبتها.

3- ما يكنّه من اعتزاز وحبّ وتقدير للأستاذ إبراهيم الهلالي، أنموذج المثالية والوطنية الحقّة، وأثنى على كلمته التي ألقاها في جلسة الافتتاح، وتحسّر على ما وقع لجامعة ابن يوسف من إهمال وتهميش.

أشار الأستاذ إلى عدة نقط في عرضه، نسوقها كما يلي:

1- تاريخ الحركة الوطنية كُتب فيه الكثير، كتب فيه الأستاذ علاّل الفاسي ومحمد بن الحسن الوزاني وأبو بكر القادري وعبد الكريم غلاب، تأليفات فيها جهد كبير وفي أجزاء.

2- نظّمت أكاديمية المملكة المغربية ندوة كبيرة عن ثورة الملك والشَّعب، شارك فيها عدد كبير من الباحثين المهتمين ومنهم الدكتور محمد بنشريفة.

3- تاريخ الحركة الوطنية لم يُكتب بشكل شامل وجامع، مازال شتاتًا وشذرات تؤخذ من هنا وهناك، لا بد من استحضار ما كتبه المقاومون من خارج

الوطن، ثم البحث عن المختفي أيضا عند جنود مجهولين، لا يجب أن ننسى قضايا وأحداث كثيرة غير مدونة، يطالب الأستاذ بتدوينها في مختلف مظاهرها.

4- يجب أن نخرج من الكتابة العاطفية إلى الكتابة التحليلية النقدية، وهذه النقطة المنهجية مهمة، ووصية للباحثين في تاريخ الحركة الوطنية.

5- وبحكم انتمائه إلى مدينة آسفي قدّم الأستاذ نظرة عن الحركة الوطنية في هذه المدينة، كيف يفسّر الدكتور بنشريفة أنّ والده أبي أن يدخله إلى المدرسة الفرنسية ووجهه إلى حفظ القرآن الكريم حتى حفظه، ثم وجهه إلى ابن يوسف، ليس لهذا إلا تفسير واحد هو الوعي الحقيقي بمقومات الهوية المغربية.

6- من مظاهر الهوية الوطنية التي تكلم عليها في إطار حديثه عن الحركة الوطنية في مدينة آسفي رجال أبلوا البلاء الحسن ضدّ الاستعمار، من هؤلاء الفقيه الكانوني، رجل عاش في آسفي، وعاش يتنقل من مدينة إلى أخرى، وطني ومجاهد، صامد، سُجن، ونُفي، وضاعت مكتبته، استقرّ به المقام أخيرا في البيضاء.

7- الحركة الوطنية نشأت من خلال تأسيس جمعيات صغيرة، منها جمعية كانت في فاس وأخرى في سلا والرباط، وكانت هناك جماعة في آسفي يطلق عليها جماعة آسفي، محرّكها هو السيد محمد الباعمراني، ولد سنة 1907م، وهذا الرجل هو أول من بثّ فكرة الحركة الوطنية في آسفي، ثم أزره أعلام آخرون من أمثال: الكانوني وغيره.

بدأت هذه الحركة نشاطها بالمدارس الحرّة، من ذلك المدرسة الحرّة التي كان يقوم عليها مولاي الحاج، ثمّ مدارس تطوّرت عن كتاتيب قرآنية مثل مدرسة الفقيه الهسكوري، هذه المدرسة التي عُرفت فيما بعد بمدرسة الهداية.

8- لم يخف الأستاذ بنشريفه تأثيره بوجوه مقاومة بارزة، من هذه الوجوه التي ذكرها الفقيه إدريس بناصر، والأستاذ مولاي الخضر، وهذا الأخير كان من الموقعين على عريضة الاستقلال، كان له عمل متكتم، يعمل في السر.

9- تقوّت حركة المقاومة في أسفي منذ سنة 1927 م، وتقوّت بعدها جامعة من أسفي قلعة للنضال المستمر والمتجدّد.

10- لم يخف الأستاذ مجالسته لأساتذة مقاومين أجلاء، دعا لهم جميعا بالرحمة، وفي طليعتهم شيخ الجماعة الفقيه بلحسن، مثال العلماء المجاهدين الورعين المتطوّعين، كان يتطوّع بالدروس من وقت صلاة الصّبح إلى صلاة العشاء، ومنهم الفقيه الرّحالي الفاروقي رمز شامخ، هذا الرّجل الذي رفع رأس جامعة ابن يوسف، وكذلك الفقيه الزّهراوي، هذان العلمان أظهرتا قيمة الجامعة اليوسفية.

11- وختم عرضه مبينًا أنّ لعلماء مراكش دينا عليه وعلى طبقتة، ودعا لهم بالرحمة والمغفرة.

خلاصة: إنّها ذكريات بئها الأستاذ محمد بنشريفه من مخزون الذاكرة، ذكريات موزّعة بين قلعتين مقاومتين: أسفي ومراكش، كلمة مرتجلة لكتّها دسمة، تحمل في طياتها معلومات تاريخية وتجربة ذاتية قيمة.

وبين يدينا في صدر افتتاحية العدد المزدوج 14-15 من سنة 2014 م مراسلة وجهها الدكتور محمد بنشريفه إلى الأستاذ الهلالي بصفته مدير التحرير، ولعلّها جواب على دعوة للمساهمة بمقال للنشر في هذا العدد الثّاني، كتب إليه يقول:

السّلام عليكم ورحمة الله،

إنّها الأخ العزيز، والصّديق الحبيب، الأستاذ الجليل سيدي ابراهيم الهلالي، عميد العلماء اليوسفيين، ومفخرة جيلنا، والبقية المباركة منه، والقُدوة الحسنة فيه، علما وعملا، وخالقا وفضلا، ووطنية وجهادا، وكتابة وشعرا، ومشاركة وحضورا..

متّعك الله وإيّاي بالصّحة والعافية، وبارك في أعمالك وجهودك، في نشاطك الجم، ودفاعك المثاب على جامعة ابن يوسف، وحميتك من أجل إحيائها وبقائها، وعملك على تخليد رموزها فبارك الله فيك، وهنيئاً لنا بأمثالك. وإيّي لعاجز عن شكرك، على جميع ما أهديت وأسديت،

وأرجو أن تتقبّل مّي الأشياء المتواضعة الموجّهة إليك، وفيها نص مداخلة علمية طلبت مّي بمناسبة معرض الكتاب العربي الأخير فلعلّها تصلح للنّشر في مجلة جامعة ابن يوسف.

والسلام عليكم ورحمة الله.

د. محمد بنشريفّة

وكتب في يوم الجمعة 29 يونيو 2012

لا أعلّق على الرّسالة، فمضمونها يفوح بطبيعة علاقة التّقدير والمودّة بين الرجلين، وبعد هذه المراسلة تصدّر مقال الدكتور بنشريفّة سلّم الأولوية في ترتيب المقالات، وكان بعنوان (التّمائل بين الأدب المغربي والأدب الأندلسي)، وهو مقال موثّق من مصادره ومراجعته، ويقع في 13 صفحة، ولن أطيل الكلام في تقديم المقال لكونه مطبوعاً ومنشوراً في مجلة جامعة ابن يوسف⁶²³.

وفي الختام، فهذه كلمة عن الأستاذ الرّاحل الدكتور محمد بنشريفّة، تتضمّن بعضاً من جهوده في جمعية إحياء جامعة ابن يوسف، نسأل الله تعالى أن يتقبّل منه صالح الأعمال، وعزّائنا مجدّداً لحرمة الدكتورّة عصمت دندش، ولكافة أفراد أسرته وذويه، ولطلبته ومحبيه، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون .

⁶²³ - يمتدّ من الصفحة 13 إلى الصفحة 25 من العدد المزدوج الخامس عشر والسادس عشر لسنة 2016 م .

الخاتمة

المحاولة التي قدمناها للقارئ المفضل لها سندان: سند واقعي، ينطلق من تجربتي في حياتي، التجربة التي يعيشها أيّ إنسان على وجه الأرض، وسند معرفي ينطلق من الثقافة، ثقافة النّقل والتي تشكّل سلطة معرفية عليّ كمؤلف وسلطة فهمية على القارئ، التجربة في السّند الواقعي تتمثّل في موضوع الموت الذي يشغل بال كلّ واحد، وتجربة السّند المعرفي التي تربط بيني وبين القارئ بسلطة الفهم التي تفرضها معرفة النّقل، سلطة ثقافة النّقل التي أطلقنا عليها "النّقلائية"، والعمل امتداد لموضوع "الطبيعة" و"الفطرة"، وهو موضوع فتحنا بابه في عمل سابق، وسنستكمله في أعمال مقبلة بحول الله.

كنّا في حاجة إلى رصد موضوع الموت ومعالجته علميا ومعرفيا، منطلقين من واقع ما يفعله الموت فينا، واضعين نصب أعيننا "المعرفة الأسمى" التي تُقدّمها النّقلائية في صيغتها المنهجية والمعرفية، تجربة لم يثبت حتّى الآن ما يكذبها أو ما يثبت شيئا هو بخلاف ما قدّمته من أجوبة على أسئلة الوجود المحيّرة.

حاولنا في الكتاب أن ننقل التّصورات عن الموت والحياة من التّصورات الفلسفية المجرّدة إلى الواقعية العملية، ومن تجارب السّحرة والمشعوذين إلى تجارب الباحثين والمفكرين، ومن التّصورات الخرافية والأسطورية إلى مجال الوعي الحقيقي والمعقول، ولا تعني هذه المحاولة استرجاع الحياة من الموت، أو إبعاد الموت عن الحياة ولكنّها تساعد على تحقيق ما يلي:

1- بتّ الوعي بالموت، فهو كائن مخلوق يمارس دوره في الوجود تماما كما تفعل الحياة.

2- إزالة التّصورات الاعتباطية عن الموت، وتحديد الأفكار الشائنة والخرافية عنه، وبثّ الوعي الحقيقي والتّصور السّليم في تجاوز تام بين العقل والنقل.

3- إيقاف زحف الفكر العدواني والمدمّر الذي يؤمن بالحياة وحدها فيقف عندها، ويدفع بالوعي الإنساني إلى مجاريها.

4- تغليب وجهات النّظر المعقولة الواردة في التّصورات والأفكار عن الموت من ميادين الفكر الإنساني والفكر الإسلامي ومن التّجارب العلمية الطّبيعية.

وفي الأخير، فإنّ السّبب الذي جذبك لقراءة هذا العمل والإقبال عليه كان أحد الأسباب التي دفعتني للتّفكير فيه والاشتغال به، هذا السّبب له جاذبية واحدة هي جاذبية الموت، أو لنقل رابطة الموت، ومادام كلّ حيّ معرضا للموت فيكفي أن يكون هذا رابطا أساسيا يجمعنا جميعا حول دائرته.

فتم على سرير موتك هادئا، وأسأل الله أن يرزقنا وإياك حُسن الخاتمة.

الفهارس الضرورية



- 1- فهرس للمصادر والمراجع
- 2- فهرس لمحتويات الكتاب



1- فهرس للمصادر والمراجع

- القرآن الكريم برواية ورش، وهو المصحف المحمّدي الشّريف، طبعته مؤسسة محمد السّادس لنشر المصحف الشّريف في طبعته الثّانية لعام 2011م، مطبعة فضالة بمدينة المحمّدية، المملكة المغربية.
- أرنولد توينبي وآخرون، الإنسان وهموم الموت، المركز القومي للترجمة، العدد 1659 ترجمة وتقديم عزت شعلان، إشراف جابر عصفور، الطبعة الأولى 2011م.
- الأبيشي، شهاب الدين، المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق الدكتور أنيس عبد الله الطباع، طباعة دار الأرقم.
- ابن أبي الدّنيا، عبد الله، أبو بكر الحافظ، رسائل ابن أبي الدّنيا في الزّهد والرقائق والورع، تحقيق أبي بكر بن عبد الله سعداوي، المنتدى الإسلامي للشارقة، المركز العربي للكتاب، الطبعة الأولى 2000م.
- ابن أبي الدّنيا، عبد الله، أبو بكر الحافظ، القبور، تحقيق طارق محمد سكلوع العمود، الناشر مكتبة الغرباء الأثرية، الطبعة الأولى 2000م.
- ابن أبي الدّنيا، عبد الله، أبو بكر الحافظ، من عاش بعد الموت، تحقيق محمد حسان بيضون، مؤسسة الكتب العلمية، بيروت، الأولى 1413هـ.
- ابن أبي الدّنيا، من عاش بعد الموت، تحقيق محمد حسان بيضون، مؤسسة الكتب العلمية، بيروت، الأولى 1413هـ.
- ابن تيمية، تقي الدّين أبي العباس أحمد، الثّبوات، طبعة دار الفكر، بدون تاريخ.
- ابن الجوزي، جمال الدّين أبي الفرج، الحافظ الإمام، الثّبوات عند الممات، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الأولى 1986م.
- ابن الجوزي، عبد الرّحمن أبو الفرج، الحافظ الإمام، صيد الخاطر، تحقيق د عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، طبعة 2001م.
- ابن الجوزي، عبد الرّحمن أبو الفرج، الحافظ الإمام، صفة الصّفوة، تحقيق محمود فاخوري ومحمد رواس قلعي، دار المعرفة للطباعة والنّشر والتّوزيع، سوريا 1970م.

- ابن حبان، أبوحاتم، الإمام الحافظ، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، مؤسسة الرسالة، بيروت، طبعة 1993م.
- ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني، الحافظ، الإصابة في تمييز الصحابة، دراسة وتحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، تقديم محمد عبد المنعم البري وعبد الفتاح أبوسنة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة 2005م.
- ابن حزم، الأندلسي، رسائل ابن حزم، تحقيق الدكتور إحسان عباس، طبعة المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الأولى 1983م.
- ابن حنبل، أحمد بن حنبل الإمام، المسند، تحقيق شعيب الأرنؤوط، عادل المرشد، جمال عبد اللطيف، سعيد اللحام، الجزء 36، مؤسسة الرسالة، الأولى 2001م. والمسند للإمام أحمد، المطبعة الميمنية.
- ابن خلّكان، أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق الدكتور يوسف علي طويل والدكتورة مريم قاسم طويل، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان.
- ابن رجب، زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن الحنبلي، أهوال القبور وأحوال أهلها إلى النشر، حققه محمد نظام الدين الفتيح، طبعة دار الزمان، الأولى 2021م.
- ابن رشد، أبو الوليد القاضي، تهافت التّهافت، قدّم له وعلّق عليه أحمد شمس الدين، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الثانية 2002م.
- ابن سعد، ابن منيع الهاشمي البصري، الطبقات الكبرى، الجزء الثامن في النساء، تحقيق محمد عبد القادر عطا، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية 1997م.
- ابن عبد البر، الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد الله النمري القرطبي، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، الجزء العشرون، تحقيق سعيد أحمد أعراب، طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب 1989م.
- ابن فارس، مقاييس اللغة، بعناية الدكتور محمد عوض مرعب، والأنسة فاطمة محمد أصلان، دار إحياء التراث العربي، لبنان، الأولى 2001م.

- ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق أحمد فخري الرفاعي وعصام فارس الحرساني، دار الجيل، لبنان.
- ابن قيم الجوزية، كتاب الرّوح، تحقيق الدكتور بسام علي سلامة، منشورات دار ابن تيمية، الأولى 1986م.
- ابن كثير، عماد الدّين أبو الفداء، إسماعيل القرشي الدّمشقي، تفسير القرآن العظيم، تقديم محمد عبد الرحمن المرعشلي، ورياض عبد الله عبد الهادي، إعداد مكتب تحقيق دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى 1997م.
- ابن كثير، عماد الدّين أبي الفداء، إسماعيل القرشي الدّمشقي، البداية والتهاية، الجزء السابع، الخلفاء الرّاشدون، تحقيق الدكتور رياض عبد الحميد مراد ومحمد حسان عبيد، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الثّانية 2010م.
- ابن منظور الإفريقي، لسان العرب، تحقيق أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصّادق العبيدي، دار إحياء التّراث العربي ومؤسسة التّاريخ العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة 1999م.
- ابن مسكويه، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، حققه ابن الخطيب، المطبعة المصرية، الأولى، مكتبة الثّقافة الدّينية.
- ابن هشام، محمّد بن عبد الملك، السّيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلي، منشورات تراث الإسلام، مجلدان، بدون تاريخ ولا مكان طبع.
- الأشعري، أبو الحسن علي بن إسماعيل الإمام، الإبانة عن أصول الدّيانة، طبعه المكتب الثّقافي السّعودي، 1419هـ.
- الأصفهاني، أحمد بن عبد الله، أبو نعيم، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، مكتبة الخانجي القاهرة، دار الفكر للطباعة والنّشر والتّوزيع، طبعة 1996م، بيروت لبنان.
- إنجيل يوحنا مضمن في الكتاب المقدّس (139-178)، إصدار دار الكتاب المقدّس في الشّرق الأوسط التابعة لجمعية الكتاب المقدّس بلبنان، العهد القديم الإصدار

- الثاني 1995 الطبعة الرابعة، والعهد الجديد، الإصدار الرابع 1993 الطبعة الثلاثون، ترجمه على العربية مجموعة من علماء اللاهوت من مختلف الكنائس المسيحية كاثوليكية وأورثدكسية وإنجيلية.
- إجيل متى مضمّن في الكتاب المقدّس (3-53)، إصدار دار الكتاب المقدّس في الشرق الأوسط التابعة لجمعية الكتاب المقدّس بلبنان، العهد القديم الإصدار الثاني 1995 الطبعة الرابعة، والعهد الجديد، الإصدار الرابع 1993 الطبعة الثلاثون، ترجمه إلى العربية مجموعة من علماء اللاهوت من مختلف الكنائس المسيحية كاثوليكية وأورثدكسية وإنجيلية.
- البخاري، محمّد بن إسماعيل الإمام الحافظ، الجامع الصّحيح بشرح الحافظ ابن حجر العسقلاني المسمى بفتح الباري، تحقيق محمّد فؤاد عبد الباقي، بإشراف وعناية عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، طبعة 1379 هـ.
- البستاني، بطرس، محيط المحيط، عناية محمّد عثمان، دار الكتب العلمية، لبنان، ومكتبة لبنان، طبعة 1987م.
- بوكاي، موريس، القرآن الكريم والتّوراة والإنجيل والعلم: دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، مكتبة مذبولي، القاهرة، الأولى 1996م،
- البهقي، أبوبكر أحمد بن الحسين، شعب الإيمان، تحقيق أبي هاجر محمّد السعيد بن بسيوني زغلول، منشورات محمّد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الأولى 2000م.
- التّرمذي، أبوعيسى محمّد بن عيسى بن سورة، الإمام الحافظ، السنن، تحقيق بشّار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، الأولى 1996م.
- التّرمذي، أبوعيسى محمّد بن عيسى بن سورة، الإمام الحافظ، الجامع الصّحيح وهو سنن التّرمذي، تحقيق إبراهيم عطوة عوض، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، الطبعة الأولى 1962م.

- التّهانوي، محمد علي، كشف اصطلاحات الفنون، إشراف ومراجعة د. رفيق العجم، تحقيق د. علي د علي حروج ترجمة النص عن الفارسية د. عبد الله الخالدي، الترجمة الأجنبية د. جورج زيتاني، مكتبة لبنان، الأولى 1996م.
- جولد سميت، دونالد، البحث عن حياة علي المرتضى، ترجمة إيهاب عبد الرحيم محمد، سلسلة عالم المعرفة، العدد 288، دجنبر 2002م، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت.
- الجهني، مانع بن حماد، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، المجلد الثاني، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة.
- الحاكم، أبو عبد الله، المستدرک على الصحیحین، دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، لبنان.
- حسين، محمد، الروحانية الحديثة: حقيقتها وأهدافها، طبعة مؤسسة الرسالة.
- خروببات، محمد، التنبؤ والمتنبئون في الإسلام، رسالة دبلوم الدراسات العليا قُدمت بالرباط سنة 1991م.
- خروببات، محمد، الفكر الإسلامي المعاصر: دراسة في التدافع الحضاري، الأولى 1998م، مطبعة الإيباج، الدار البيضاء.
- خروببات، محمد، الاستشراق والعلوم الإسلامية بين نقلانية التأصيل وعقلانية التأويل، الطبعة الأولى 2017م، المطبعة والوراقة الوطنية بمراكش، المغرب.
- خروببات، محمد، خلاصة في نقد الفكر الطبيعي، مقالات علمية رقم (2)، الأولى 2002م، المطبعة والوراقة الوطنية بمراكش.
- الخلوّتي، البروسوي، الحنفي ت 1127هـ، روح البيان في تفسير القرآن، تحقيق عبد اللطيف حسن عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- خليل بن إسحق المالكي، مختصر الشيخ خليل، تحقيق أحمد جاد، دار الحديث، القاهرة، طبعة 2005م.
- ديودور الصقلي في مصر القرن الأول قبل الميلاد، نقله من اليونانية وهيب كامل، طبعة دار المعارف، طبعة 2014م.

- الذّهبي، الحافظ أبو عبد الله محمّد بن أحمد شمس الدين الإمام، العلو للعلي الغفّار، تحقيق حسين بن علي السّقف، دار الإمام النووي، الطبعة الثانية 2003م.
- الذّهبي، الحافظ أبو عبد الله شمس الدّين الإمام، ميزان الاعتدال في نقد الرّجال، ويليّه ذيل ميزان الاعتدال للحافظ العراقي، دراسة وتحقيق شيخ علي محمّد معوض وشيخ عادل أحمد عبد الموجود، بمشاركة الدّكتور عبد الفتاح أبوسنة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الأولى 1995م.
- الذّهبي، الحافظ أبو عبد الله محمّد بن أحمد شمس الدين الإمام، سير أعلام النّبلاء، الجزء الثالث عشر، أشرف على تحقيقه شعيب الأرناؤوط وعلي أبو زيد، مؤسسة الرّسالة الأولى 1983م. والجزء الخامس بتحقيق شعيب الأرناؤوط، طبعة 1982م.
- الرّازي، عبد الرحمن بن أبي حاتم، الجرح والتعديل، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، وحيد رآباد بالهند، الأولى 1952م.
- الربيعي، أبو سليمان محمّد بن عبد الله بن أحمد بن زبر، الحافظ، وصايا العلماء عند حضور الموت، تحقيق صلاح محمّد الخيمي والشّيخ عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، الثّانية 1987م.
- الربيعي، عدنان جبار العراقي، رحلة الشّتات والصّين، مؤسسة الدوسري للثقافة والإبداع ضمن سلسلة معرفة الآخر.
- رزقي، محمّد، بحبر الرّوح، ديوان شعر، المطبعة والوراقة الوطنية بمراكش، المغرب، الطبعة الأولى 2005م.
- الزبيدي، محمّد مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق مصطفى حجازي، مطبعة حكومة الكويت، طبعة 1969م.
- زيمرمان مايكل، الفلسفة البيئية، ترجمة معين شفيق رومية، الجزء الثاني، عالم المعرفة، العدد 333، نوفمبر 2006م، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت.
- ساغان، كارل، الكون، ترجمة نافع أيوب لبس، مراجعة محمّد كامل عارف، سلسلة عالم المعرفة، العدد 178، السنة 1993م.

- ساغان، كارل، كوكب الأرض نقطة زرقاء باهتة، رؤية لمستقبل الإنسان في الفضاء، ترجمة شهرت العالم، مراجعة حسين بيومي، سلسلة عالم المعرفة العدد 254، فبراير 2000م، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت.
- السّجستاني، أبوداود، سليمان بن الأشعث، الإمام الحافظ، السنن، تحقيق محمد محيي الدّين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان،
- السحبياني، عبد الله بن عمر، أحكام المقابر في الشريعة الإسلامية، دار ابن الجوزي، طبعة 2005م.
- سفر التكوين، الكتاب المقدّس (1-66)، العهد القديم، إصدار دار الكتاب المقدّس في الشرق الأوسط التابعة لجمعية الكتاب المقدس بلبنان، العهد القديم الإصدار الثاني 1995 الطبعة الرابعة، ترجمه على العربية مجموعة من علماء اللاهوت من مختلف الكنائس المسيحية كاثوليكية وأورثدكسية وإنجيلية.
- سفر تثنية الاثتراع، الكتاب المقدّس (212-260)- العهد القديم، إصدار دار الكتاب المقدّس في الشرق الأوسط التابعة لجمعية الكتاب المقدّس بلبنان، العهد القديم الإصدار الثاني 1995 الطبعة الرابعة، ترجمه إلى العربية مجموعة من علماء اللاهوت من مختلف الكنائس المسيحية كاثوليكية وأورثدكسية وإنجيلية.
- سفر المزامير، الكتاب المقدّس (661-788)، العهد القديم، ، إصدار دار الكتاب المقدّس في الشرق الأوسط التابعة لجمعية الكتاب المقدّس بلبنان، العهد القديم الإصدار الثاني 1995 الطبعة الرابعة، ترجمه إلى العربية مجموعة من علماء اللاهوت من مختلف الكنائس المسيحية كاثوليكية وأورثدكسية وإنجيلية.
- سفر صموئيل الثّاني، الكتاب المقدّس (372-406)، العهد القديم، إصدار دار الكتاب المقدّس في الشرق الأوسط التابعة لجمعية الكتاب المقدّس بلبنان، العهد القديم الإصدار الثاني 1995 الطبعة الرابعة، ترجمه إلى العربية مجموعة من علماء اللاهوت من مختلف الكنائس المسيحية كاثوليكية وأورثدكسية وإنجيلية.

- شعبان، سعد المهندس، الطّريق إلى المَرِّخ، سلسلة عالم المعرفة، العدد 228، السّنة 1997م، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت.
- شورون، جاك، الموت في الفكر الغربي، ترجمة كامل يوسف حسين، مراجعة وتقديم إمام عبد الفتاح إمام، عالم المعرفة، العدد 76، أبريل 1984م، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت.
- صدقي، عبد الرحمن، الشاعر الرجيم بودلير، صدر عن دار المعرف بمصر في سلسلة إقرأ 7، الطبعة الثانية.
- الضّاحي، نوري عبد الله، كفى بالموت واعظا، دار ابن حزم، الأولى.
- الطّبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد، الحافظ، المعجم الأوسط، تحقيق طارق بن عوض الله بن محمد وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين للطباعة والنّشر والتوزيع، طبعة سنة 1995م.
- عالم الفكر، عدد خاص عن " الملاحم"، مجلّة وزارة الإعلام الكويتية، تصدر كل ثلاثة أشهر، المجلد السّادس عشر، العدد الأوّل 1985، أبريل، ماي، يونيو 1985م.
- عبد الخالق، أحمد محمّد، قلق الموت، سلسلة عالم المعرفة رقم 111، تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت مارس 1987م.
- عثمان، أحمد، الشّعْر الإغريقي تراثا إنسانيا وعالميا، سلسلة عالم المعرفة، العدد 77، مايو 1984م، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت.
- غريبين، جون، تاريخ العلم، سلسلة عالم المعرفة العدد 390، السنة 2012، ترجمة شوقي جلال. سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت.
- الغزالي، أبو حامد، تهافت الفلاسفة، قدّم له وضبط نصه أحمد شمس الدّين، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الثّانية 2002م.

- الغزالي، أبو حامد، إحياء علوم الدين، وبهامشه تخريج الحافظ العراقي المسمى المغني عن حمل الأسفار، مكتبة مصر، طبعة 1998م.
- غسان السيد، إشكالية الموت في أدب جورج سالم وغابرييل مارسيل وألبيرت كامو، دار معد للنشر والتوزيع، سورية، دمشق، الطبعة الأولى 1993م.
- فروم، إريك، الإنسان بين الجوهر والمظهر، ترجمة سعد زهران، سلسلة عالم المعرفة، العدد 140.
- فكري، عاصم، مقال بعنوان (علم الشيوخوخة)، منشور بمجلة عالم الفكر، مجلة دورية، تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الإعلام في الكويت.
- فيريه، ميشيل، الماركسيون والدين، ترجمة خضر خضر، دار الطليعة، الأولى.
- القرطبي، شمس الدين أبي عبد الله الأنصاري، التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، تحقيق خالد بن محمد بن عثمان، مكتبة الصفا، الأولى 2001م.
- القرطبي، شمس الدين أبي عبد الله الأنصاري، التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، تحقيق الدكتور أحمد حجازي السقا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، طبعة 1982م.
- القرطبي، محمّد بن أحمد الأنصاري، الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، تحقيق الدكتور محمد حسن جبل، وطارق أحمد محمد، دار الصحابة للتراث بطنطا بمصر، الطبعة الأولى 1995م.
- المبرّد، أبو العباس محمد بن يزيد، التعازي والمراثي، تحقيق خليل المنصور، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، الأولى 1996م.
- محمود، عبد الحلیم، بشر بن الحارث الحافي، طبعة دار المعارف.
- محمود المصري، أبوعمار، مواقف من حياة الأنبياء والصحابة والتابعين، دار التقوى للإنتاج والتوزيع، طبعة سنة 2000م.
- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، طبعة دار الفكر، الخامسة 1973م.

- مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، الإمام الحافظ، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة دار الحديث، ودار إحياء الكتب العربية، القاهرة، طبعة عام 1954م.
- مودي، ريموند، الحياة بعد الحياة، نشر الكتاب عام 1975م، ترجمه إلى العربية موريس جلال، عن مكتبة الفكر الجديد.
- ميتشو كاكو، رؤى مستقبلية، سلسلة عالم المعرفة، العدد 270، ترجمة سعد الدين خرفان، مراجعة محمد يونس، يونيو 2001م، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت.
- نظير، وليام، العادات المصرية بين الأمس واليوم، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، طبعة 1967م. وكتاب هيروودوت يتحدث عن مصر، ترجمة محمد صقر خفاجة، تقديم وشرح الدكتور أحمد بدوي، طبعة دار القلم، القاهرة 1966م.
- هوكنغ، ستيفن، الكون في قشرة جوز، ترجمه على العربية الدكتور مصطفى إبراهيم فهمي، سلسلة عالم المعرفة، العدد 291، مارس 2003م.
- وجدي، محمد فريد، دائرة معارف القرن العشرين، الطبعة الثالثة.

الكتب الأجنبية والمواقع الإلكترونية:

- العقول البشرية تبقى حية لساعات بعد الموت، عنوان لدراسة جديدة موجودة على الموقع:
- <https://www.outerplaces.com/science/item/19095-study-human-brains-alive-hours-after-death>
- Essai sur la signification de la mort , Jules Vuillemin' presse universitaires de France 'Paris ' Ed 1948.
- LA MORT DE LA MORT: comment la tèchnomèdc ine va boulder l'humanité) ، .ALEXDRE Laurent ED. JC .lattes ' voir
- <https://www.independentarabia.com/>
- حياة ستيفن بول جوبز يوجد على موقع: <https://ar.wikipedia.org/wiki>

2- فهرس المحتويات الكتاب

3	توجيه
4	الإهداء
5	مقدمة الطبعة الثانية
9	مقدمة الطبعة الأولى
17	فصل في النّقْلانية وأسس " المعرفة الأسمى "
17	1- النّقْلانية ومعرفة المعرفة:
20	2- الموت ومعرفة " المعرفة الأسمى "
24	3- الحواس بين التّفْعيل والتّعطيل
27	4- المعرفة الأسمى: الحقيقة والمزايا
35	5- الموت والسعادة:
37	فصل في حقيقة الموت: المحدّدات المفهومية والوجودية والأنواع والمراحل
37	أولاً: المحدّدات المفهومية للموت
37	1- مفهوم الموت
38	2- الموت ومصطلحات ذات الصلة
39	3- الموت والقتل والوفاة
43	4- حقيقة الموت والموت المتعدّد
45	ثانياً: المحدّدات الوجودية للموت
45	1- الموت والخلّق
46	2- الموت والخلود
52	3- سؤال الموت
54	4- الموت وتغيّر الجسد
56	5- لغة الموت
57	6- موت الحياة في الحياة
58	7- الموت ومفهوم الزّمن
62	8- الموت ومفهوم الأجل
65	ثالثاً: محدّدات تقريبية للموت
65	1- مَثَلُ الحياة:

- 66.....2- مَثَلُ الموت.....
- 68.....3- مفهوم الحياة والمستقبل.....
- 70.....4- الموت والحياة: أيهما أسبق.....
- 71.....رابعا: المحددات النوعية والمرحلية.....
- 71.....1- أنواع الموت.....
- 74.....2- الموت وأدوار شريط العمر.....
- 75.....3- الموت والمراحل العامة.....
- 77.....4- الموت وأوهام الشيخوخة.....
- 79..... **فصل في الموت تاريخ وتاريخ**.....
- 79.....1- الموت وآلهة الحضارات.....
- 80.....2- الإله الواحد: المحيي والمميت.....
- 82.....3- ملك الموت:.....
- 85.....4- إبليس وضياع الخلود الأبدى.....
- 87.....5- غريزة حبّ البقاء.....
- 89..... **فصل في قوة الموت وسلطته**.....
- 89.....1- سلطة الموت:.....
- 90.....2- الموت تقدير.....
- 91.....3- الموت مُخَوِّف.....
- 93.....4- أسباب الخوف من الموت.....
- 94.....5- الموت: ابتلاءً ودواءً.....
- 96.....6- الموت والتملك.....
- 97.....7- الموت: إصابة وإدراك ولقيا.....
- 98.....8- الهلاك بالموت.....
- 101.....9- شمولية الموت.....
- 102.....10- الموت الشخصي.....
- 103.....11- عدالة الموت.....
- 105.....12- علاقة الموت بالإنسان.....
- 106.....13- حتمية المرض والموت.....
- 107.....14- الموت الوشيك.....

109	فصل في الموت والإيمان
109	1- الموت: عطاء وجزاء
109	أ- الموت أساس الإيمان
109	ب- خروج الرّوح
110	ج- آخر كلمة
111	د- الجزاء بعد العمل والعطاء
112	2- الموت: المقبول والمردول
112	أ- تمّي الموت: أجائز هو أم مكروه
115	ب- الموت والتّوبة
116	ج- التّوبة بين الرّحيم والتّقيّم والرّجيم
119	د- الموت العرفاني
120	3- شهادة الموت
120	أ- الإسلام والموت
123	ب- إلى ربك الرّجعي:
125	ج- الموت على الفطرة
126	د- الموت والكتاب
131	هـ- الموت والتّواضع
135	فصل في الموت والعلوم
135	1- الموت والعلم
138	2- الموت والعلوم الحديثة
142	3- الموت بين عبثية العلم وطرق التّجريب
144	4- الماورائيات والتّجارب التّقنية
145	5- الأشباح والتّواصل التّقني
146	6- الموت والبيئة
148	7- الموت وعلم الكون
152	8- موت الكون
155	9- عفريت الموت
157	10- المحدّثون والموت

161	فصل في النقلانية وموت الموت
161	1- موت الموت
161	أ- عقلانية (موت الموت):
163	ب- نقلانية (موت الموت):
165	2- ثقافة الموت والبيان التقلاني
174	3- جدلية الموت والحياة
175	4- الموت ووسطية التفكير
176	5- مدارات السكون والحركة بين الموت والحياة
177	6- موت الروح
181	فصل في جدلية الروح والنفس والنفخ والجسد
181	1- ماهية الروح والنفخ
181	أ- نفخ الروح في الجسد
182	ب- حقيقة النفخ
183	2- الروح والجسد
183	أ- الروح والجسد: أيهما أسبق
185	ب- روح القرآن وروح الإنسان
186	ج- عيسى والروح
187	د- المسيح والولادة الثانية
189	3- أشباح وأرواح
189	أ- الأشباح والأرواح: تحديد وتقييد
190	ب- تحليل لغز الأشباح
191	ج- شبح الأشباح وروحانية الأرواح
193	4- الروح والنفس والجسد
193	أ- الروح والنفس
196	ب- الروح والساعة
197	ج- تسوية البنان
198	د- الماء أصل الحياة
200	هـ- ثلاثية التكوين

203	فصل في الموت وثقافة الاستعداد
203	1- الموت بين الأدبية واللاأدبية
204	2- الاستعداد للموت
207	3- الوصية بالموت
209	4- مذاكرة الموت
212	5- التدریب على الموت
214	6- زيارة المقابر
217	7- التَّعوذ من عذاب القبر
219	فصل في نقلانية تصور الحياة والموت
219	1- نقلانية الحياة
219	2- حياة الموت
220	3- النَّقلانية وعناصر الذَّات
221	4- حبِّ الحياة بين بين
223	5- المسيحية والحياة
223	6- حاضرة الموتى
225	7- عيسى والدَّهب
227	فصل في الموت وما بعد الموت
227	1- حلول الموت
227	أ- الموت والانتحار
228	ب- موت الفجأة
229	ج- سكرة الموت
230	د- الموت والاحتضار
232	2- ما بعد الموت
232	أ- هل الموتى يسمعون ويبصرون
234	ب- مآل الأرواح بعد الموت
235	ج- حياة البرزخ
236	د- نقد أوهام منكري عذاب القبر
241	هـ- الخروج من الأجداث
245	و- إحياء الموتى

247	فصل في الجثة بعد الانعتاق
247	1- الجثة بعد الموت
248	2- الدفن في المقابر
251	3- تحنيط الموتى
254	4- حرق الموتى
256	5- الدفن السماوي
257	6- الدفن في الأشجار وفي الصخور
258	7- الدفن العمودي
259	8- الدفن في الماء
259	9- مقابر التجميد
263	فصل في النقلانية ونقد التصورات المضادة
263	1- النقلانية السلبية
263	2- النقلانية ووهم البرهان
267	3- في التواقر والتواقر المضادة
268	4- الموت والمستقبل النقلاني
269	5- الموت وعقلانية الأشرار
271	6- الحرص على الحياة
272	7- الروح الطبيعية
273	8- الحياة الطبيعية
275	9- مشككون ومعتقدون
277	فصل في الموت: نتائج وعوائد وأعراف وفنون
277	1- نتائج الموت بين السلب والإيجاب
277	أ- الموت: اليتيم والترميل
278	ب- هل الموت نقمة أم نعمة
279	ج- قلق الموت
281	د- الفرار من الموت
282	2- الموت: أعراف وعوائد
282	أ- أربعينية الميت
283	ب- عيد الموتى

- 3- الموت: جماليات وفنون 287
- أ- رقصة الموت 287
- ب- الاحتفال بتاريخ الوفاة 288
- ج- الموت والحب 290
- د- شواهد القبور 291
- فصل في أطاريح وفلسفات حول الموت تحت المجهر 293**
- 1- أطاريح حول الموت 293
- أ- الأطاريح 293
- ب- مُت فارغا 294
- ج- لا تمت مدمراً 297
- د- عند موتك لا تقلق 298
- 2 - نظريات فلسفية تحت مجهر التّقد التّقلي 301
- أ- محور النظريات: ألم الموت وإثباته 301
- ب- في الرد على ابن حزم وابن مسكويه 303
- د- الغزالي وابن رشد في ميزان التّقد 307
- هـ- الرّوحية الحديثة 312
- فصل في المراثي والتّعازي والأحزان 315**
- 1- شعر الحزن 315
- أ- في رثاء الوالدة 315
- ب- مولودة الزمان 315
- ج- همسات قلب مهاجر 317
- د- لهفي على الأيام 317
- هـ- انتظار بانكسار 318
- و- لا تغتر 318
- 2- من توفّي مع الوالدة من الأعيان 318
- 3- في تأيين مُحدّث 322
- 4- في تأيين أديب 328
- الخاتمة 335**
- المهارس 337**

بين يدي الكتاب

يُثير الكتاب كلاماً مفتوحاً حول الموت بأسلوب هادئ، لا يُسيطر عليه الفزع من الموت ولا التشاؤم من الفناء، لا يدعو إلى الموت ولا يرغب فيه، ولكنه يدعو إلى تمثله واستحضاره، وإلى التكيف مع واقعه والأخذ بأسباب الحياة الحقيقية بعد تجرّع كأسه... والكلام فيه مقصود لأننا أمرنا بذكره (اذكروا هادم اللذات)، وذكّرنا له ليس بالتأمل الصامت والتفكير المستغرق... بل بالعلم المرتكز على النقل الثابت الموصل إلى التأمل والتحليل والمقارنة والاستنتاج والنقد والمراجعة...

كتابٌ يجلب السعادة، ويُخرج من الشقاء والتعاسة، ومن الحيرة والخوف والقلق إلى الاطمئنان والراحة النفسية، يجعلك تحاور باطنك بارتياح، وتدخل في حوار مع نفسك في هدوء وروية لتعرف من أنت أولاً، ثم لتعرف مآل روحك وجسدك بعد موتك ثانياً.

نعم، قد تُغني العصافير على جثمانك حين ترقد "بسلام"، سترتاح من حقد الحاقدين ومكر الماكرين، سينبث الزهر ويتفتح الورد على قبرك، وتتشأ الحياة وتدب تحتك وفوقك وعلى جنباتك وأنت غارق في دُسمة الموت.